سيمون دوبوفوار

المثقفون

رواية

نقلها الى العربية

جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

سيمون دوبوفوار

المثقفون

الجزء الاول

نقلها الى العربية

جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

الفصل الأول

١

ألقى هنري نظرة أخيرة إلى السماء : بلور أسود ، كانت ألف طائرة تغتصب هذا الصمت، وكان هذا صعباً على التصور ، ومع ذلك فقد كانت الكلمات تتصادم في رأسه في صخب ومرح : الهجوم أوقف ، الالمان اندحروا، سأستطيع الرحيل. وانعطف من زاوية الرصيف . ستعبق الشوارع برائحة زيت أشجار البرتقال وزهرها ، وسيثرثر الناس على السطوح المضاءة ، وسيشرب قهوة حقيقية على صوت القيثارات . كانت عيناه ، يداه ، وجلده جائعة : ما أطوله من صوم ! وصعد الدرج البارد ببطء .

ـ أخيراً !

وراحت بول تضمه وكأنها وجدته بعد مخاطر طويلة . ومن فوق كتفيها ، نظر إلى الصنوبرة الساطعة التي كانت تعكسها المرايا الكبيرة إلى ما لا نهاية . وكانت الطاولة مثقلة بالصحون ، والأقداح والقناني . وكانت كتل من العنم والآس منتثرة بلا نظام عند أسفل سلم . وتملص ورمى بمعطفه على الأريكة .

ـ هل سمعت الراديو ؟ هناك أنباء طيبة .

ـ آه ! اخبرني بسرعة .

لم تكن تستمع إلى الراديو مطلقاً ، ولا تريد ان تعرف الانباء إلا من فمه .

ـ ألم تلاحظي صحو السماء ؟ انهم يتحدثون عن ألف طائرة في اعقاب فون روند ستدت .

– يا إلهي ! إذن لن يعودوا .
– لم يكن هناك أبداً أي احتمال في ان يعودوا .
وتوخياً للصدق ، فقد خطرت الفكرة في راسه أيضاً .
وابتسمت بول بغموض : – لقد أخذت احتياطاتي .
– أية احتياطات ؟
– في أعماق القبو: يوجد مخبأ . وقد سألت البوابة ان تفرغه : كنت ستختبىء هناك .
– كان يجب ألا تتحدثي عن ذلك إلى البوابة : فهكذا يُخلق الرعب .
كانت تشد في يدها اليسرى على أطراف شالها ، وكان يبدو عليها انها تحمي قلبها . وقالت :
– كانوا سيعدمونك . انني ، كل الليالي ، أسمعهم يقرعون ، فأفتح ، وأراهم.
كان يبدو عليها حقاً ، وهي ساكنة ، أن عينيها نصف مغمضتين ، انها تسمع أصواتاً . وقال هنري في مرح :
– هذا لن يحدث .
وفتحت عينيها وتركت يديها تسقطان .
– هل انتهت الحرب حقاً ؟
– لن تدوم بعد الآن طويلاً .
ووضع هنري السلم تحت العارضة الضخمة التي تدعم السقف :
– هل تريدين ان اساعدك ؟
– سيأتي آل دوبروي لمساعدتي .
– لمَ ننتظرهم ؟
وتناول المطرقة ، ووضعت بول يدها على ذراعه :
– لن تشتغل ؟
– ليس هذا المساء .
– أنت تقول كل مساء . ها قد مضى أكثر من عام وأنت لم تكتب شيئاً .

– لا تقلقي : انني راغب في الكتابة .

– هذه الصحيفة تأخذ الكثير من وقتك . انظر في أية ساعة تعود . أنا واثقة انك لم تأكل شيئاً . ألست جائعاً ؟

– ليس في هذه اللحظة .

– ألست متعباً ؟

– كلا .

وتحت عينيها اللتين كانتا تلتهمانه بحنان ، كان يحس بنفسه كنزاً كبيراً هشاً وخطراً : وهذا بالضبط ما يتعبه . وصعد على السلم وأخذ يدق مسماراً بضربات صغيرة حذرة : فالمنزل لم يكن حديثاً .

– استطيع حتى ان أقول لك ماذا سأكتب : ستكون رواية مرحة .

فقالت بول بصوت قلق : ماذا تعني ؟

– بالضبط ما أقوله : بي رغبة في كتابة رواية مرحة .

وود لو يخترع هذه الرواية في لحظتها ، فالتفكير فيها بصوت عالٍ كان سيسليّه ، لكن بول كانت توجه إليه نظرة كثيفة جداً حتى انه قد سكت .

– ناوليني كتلة العنم الكبيرة .

وعلق بحذر الكرة الخضراء المثقوبة بعينين صغيرتين بيضاوين ، وناولته بول مسماراً آخر . نعم ، لقد انتهت الحرب : على الأقل بالنسبة له ، وهذا المساء عيد حقيقي . فالسلم بدأ ، وكل شيء بدأ من جديد : الحفلات ، أوقات الفراغ ، اللذة ، الرحلات ، وربما السعادة ، وبالتأكيد الحرية . وانتهى من تعليق العنم والآس وأكاليل شعر الملائكة على العارضة . وسأل وهو ينزل من على المنصب :

– لا بأس ؟

– رائع .

واقتربت من الصنوبرة ، واصلحت من وضع إحدى الشموع :

– إذا لم يعد هناك خطر ، فهل ستسافر إلى البرتغال ؟

– بالطبع .

– لن تشتغل أيضاً أثناء هذه الرحلة ؟
– لا أعتقد .

كانت تجس بتردد إحدى الكرات المذهبة التي كانت تتمايل على الغصون ، وقال الكلمات التي كانت تنتظرها :

– آسف لعدم اصطحابك .

– أعرف جيداً انها ليست غلطتك . لا تأسف : فرغبتي في رؤية العالم تتضاءل أكثر فأكثر ، ماذا يفيد هذا ؟

وابتسمت :

– سأنتظرك . الانتظار ، في حالة السلم ، ليس مملاً .

وتملكت هنري الرغبة في الضحك: ماذا يفيد هذا؟ يا للسؤال ! لشبونة. بورتو. سنترا . كويمبر. ما أجملها من أسماء ! بل لم يكن بحاجة إلى لفظها ليشعر بالفرح يقفز إلى حنجرته . كان يكفيه ان يقول : لن أكون بعد الآن هنا ، سأكون في مكان آخر . مكان آخر : انها كلمة أجمل أيضاً من أجمل الاسماء . وسأل :

– ألن تذهبي لتلبسي ؟
– اني ذاهبة .

وصعدت السلم الداخلي فاقترب من الطاولة . كان جائعاً لكنه ما إن يظهر شهية حتى يتأكل القلق ملامح بول . وبعد أن قر رأيه ، مدد قطعة من الكبد على شريحة خبز وعض عليها . وقال في نفسه في حزم : « عند عودتي من البرتغال ، سأذهب لأقيم في الفندق » . إنه لمن الممتع جداً أن تعود عند المساء إلى غرفة لا ينتظرك فيها أحد ! حتى عندما كان يحب بول ، كان يصر دوماً على أن تكون له جدرانه الاربعة. كل ما هنالك ، أنه بين ١٩٣٩ و ١٩٤٠ ، كانت بول تسقط كل ليلة ميتة على جثته المشوهة بفظاعة : فكيف كان سيجرؤ ، عندما أعيد إليها ، أن يرفض لها شيئاً؟ ثم إن اطفاء الانوار كان يجعل هذا الترتيب مناسباً. كانت تقول: « تستطيع دوماً أن تذهب » : إنه لم يستطع بعد. وأمسك بزجاجة ودفع البزال في الفلين المنقبض . ستعتاد بول خلال شهر على الاستغناء عنه : وإذا لم تتعود ،

فهذا شأنها . فبعد أن لم تعد فرنسا سجناً ، والحدود مغلقة ، فإن الحياة يجب ألا تكون بعد الآن سجناً . اربع سنين من التقشف ، اربع سنين من اللااهتمام إلا بالآخرين : هذا كثير ، هذا أكثر من اللازم ! لقد آن أن يهتم قليلاً بنفسه . ومن أجل هذا ، هو بحاجة لأن يكون وحيداً وحراً . ليس من السهل ان يعود المرء إلى نفسه بعد اربع سنين . وهناك كثير من الاشياء عليه أن يخرجها للنور . ما هي ؟ الواقع انه لا يعرفها بوضوح ، لكنه هناك ، أثناء تنزهه في الشوارع الصغيرة العبقة برائحة الزيت ، سيحاول أن يقوم بذلك . ومن جديد وثب قلبه : ستكون السماء زرقاء ، وسيتطاير غسيل على النوافذ . سيسير ، ويداه في جيبه ، كسائح ، وسط أناس لا يتحدثون بلغته ولا تهمه مشاغلهم . سيترك نفسه تعيش ، سيشعر بنفسه تعيش : لعل هذا سيكفي كي يتوضح كل شيء .

– ما ألطف هذا ! لقد فتحت جميع القناني !

كانت بول تهبط الدرج بخطى صغيرة حريرية . وقال مبتسماً :

– حقاً ، أنت نذرت نفسك للبنفسجي !

فقالت :

– لكنك تعبد البنفسجي !

إنه يعبد البنفسجي منذ عشر سنوات : عشر سنوات ، هذه مدة طويلة .

– ألا تحب هذا الثوب ؟ .

فقال بعجلة :

– اوه ! إنه جميل جداً . كنت أفكر فقط أن هناك ألواناً أخرى تلائمك : الأخضر مثلاً .

رمى ذلك على سبيل الصدفة .

– الاخضر ؟ أتتخيلني في الاخضر ؟

كانت قد وقفت أمام إحدى المرايا ، بادياً عليها اليأس . لا فائدة مطلقاً ! سواء في الاخضر أو في الاصفر ، فإنه لن يجدها أبداً ثانية كما كانت قبل عشر سنوات عندما اشتهاها حين مدت إليه في حركة متراخية قفازيها الطويلين

البنفسجيين . وابتسم لها : « تعالي نرقص » .
فقالت بصوت حار جداً حتى ان هنري جمد :
– نعم ، لنرقص .
لقد كانت حياتهما المشتركة قاتمة جداً خلال السنة الاخيرة حتى ان بول نفسها قد بدا عليها أنها ملتها . لكنها تبدلت فجأة منذ بداية أيلول . والآن ، في كل كلماتها ، وقبلاتها ، ونظراتها ، توجد رعدة ملتهبة . وعندما طوقها ، التصقت به ، وتمتمت :
– أتذكر ، المرة الأولى التي رقصنا فيها معاً ؟
– في « باغود »[1] ، نعم . وقلت لي انني أرقص سيئاً جداً .
– كان ذلك في اليوم الذي أريتك فيه متحف « غريفان » .
وقالت بصوت حنون :
– لم تكن تعرف متحف غريفان ، لم تكن تعرف شيئاً .
وأسندت جبينها إلى خد هنري : « انني أرانا ثانية » .
هو أيضاً ، كان يرى نفسه ثانية . كانا قد صعدا إلى منصة وسط قصر المرايا ، وفي كل مكان حولهما ، كان منظرهما يتضاعف إلى ما لا نهاية بين غابات من الاعمدة : « قل انني أجمل النساء – أنت أجمل النساء – وستكون أعظم رجال العالم مجداً » . وأدار عينيه نحو إحدى المرايا الكبيرة : كان تعانقهما يتكرر إلى ما لا نهاية على طول ممر من الصنوبر ، وكانت بول تبتسم له مندهشة . ألم تدرك انهما لم يعودا كما كانا ؟ وقال هنري :
– لقد قرع الباب .
وأسرع نحو الباب . انهم آل دوبروي مثقلين بالسلاسل والاكياس . كانت آن تضم بين ذراعيها باقة ورد ، ودوبروي قد ألقى على كتفه عناقيد ضخمة من الفليفلة ، ونادين تتبعهما ، متجهمة الوجه .
– ميلاد سعيد !

---

[1] ـ اي الهيكل الصيني او الهندي « المترجم » .

– ميلاد سعيد !

– أتعرفان النبأ ؟ لقد استطاع الطيران أخيراً ان يضرب .

– نعم ، ألف طائرة !

– لقد نظفوا .

– انها النهاية .

ووضع دوبروي على الأريكة حمل الثمار الحمراء :

– هذا لتزيين ماخوركما الصغير .

فقالت بول بلا حرارة : « شكراً » . انه ليغيظها ان يسمي دوبروي هـذا الاستديو ماخورها . وكان يقول : بسبب كل هذه المرايا وهـذه الفرش الحمر . واستعرض الغرفة : « يجب ان نعلقها في العارضة الوسطى . ستكون أجمل من هذا العنم » . فقالت بول بصوت حازم :

– اني أحب العنم .

– العنم حقير ، انه كروي ، انه تاريخي ، ثم انه طفيلي .

فاقترحت آن :

– علق الفليفلة في أعلى الدرج ، على طول الدرابزون .

فقال دوبروي :

– هنا سيكون أفضل بكثير .

فقالت بول :

– انني متمسكة بعنمي وآسي .

فقال دوبروي :

– طيب ، طيب (وأشار إلى نادين) تعالي ساعديني .

كانت آن تخرج لحم خنزير ، وزبدة ، وجبناً ، وكاتو . وقالت وهي تضع على الطاولة زجاجتي روم : « هذا للبانش » . ووضعت رزمة في يدي بول : « هاك ، هذه هديتك ، واليك أنت » ، قالت ذلك وهي تمد إلى هنري بغليون من الغضار، على شكل مخلب طير قابض على بيضة صغيرة . انه بالضبط الغليون الذي كان

لويس يدخنه قبل خمسة عشر عاماً .
– هذا رائع . منذ خمسة عشر عاماً وأنا أتمنى غليوناً مماثلاً . كيف حزرت ؟
– لأنك قلت لي !

وهتفت بول :
– كيلو شاي ! أنت تنقذين حياتي ، وما أطيب رائحته : شاي حقيقي !

وأخذ هنري يقطع خبزاً ، بينما راحت آن تدهنه بالزبدة وبول بلحم الخنزير وهي تراقب بقلق دوبروي الذي كان يدق المسامير بضربات قوية من المطرقة . وصاح ببول :

– أتعرفين ماذا ينقص هنا ؟ ثريا كبيرة من الكريستال. سأجد لك واحدة.
– لكني لا أريد !

وعلق دوبروي عناقيد الفليفلة ونزل الدرج ، وقال وهو يتفحص بعين ناقدة :
– ليس سيئاً !

واقترب من الطاولة وفتح كيس توابل صغيراً . منذ سنوات وهو يصنع في أبسط المناسبات هذا البانش الذي تعلم تركيبه في هايتي . وكانت نادين ، وهي مستندة إلى الدرابزون ، تمضغ فليفلة . كانت تبدو ، وهي في الثامنة عشرة ، وعلى الرغم من تسكعها في اسرة فرنسية واميركية ، في ذروة العمر الجاحد . وصاح بها دوبروي :

– لا تأكلي الديكور .

وأفرغ زجاجة روم في صحن السلطة والتفت نحو هنري :
– لقد التقيت بسامازيل أول أمس ، وأنا مسرور جداً إذ يبدو عليه انه على استعداد للسير معنا . أأنت حر غداً مساء ؟

فقال هنري :
– لا أستطيع ان أترك الجريدة قبل الحادية عشرة .

فقال دوبروي :
– مرّ في الحادية عشرة.سوف نناقش المسألة وأود كثيراً ان تكون حاضراً.

فابتسم هنري :

– لست أرى لماذا .

– لقد قلت له انك تعمل معي ، ولكن حضورك سيكون له وقع أكبر .

فقال هنري وهو يتابع الابتسام :

– لا أعتقد ان شخصاً كسامازيل يعلق على ذلك كبير أهمية . لا بد انه يعلم جيداً انني لست رجل سياسة .

فقال دوبروي :

– لكنه يفكر مثلي بأنه يجب الا تترك السياسة للسياسيين . تعال،ولو لزمن قصير . ان وراءه فئة مهمة ، سامازيل هذا ، أشخاصاً شباناً ، نحن بحاجة إليهم .

فقالت بول بصوت غاضب :

– اسمع ، لن تتحدث في السياسة ثانية ! انه لعين هذا المساء .

فقال دوبروي :

– وبعد ؟ أممنوع ، في أيام العيد ، الحديث عما هو مفيد ؟

فقالت بول :

– ولكن لمَ تصرّ على زج هنري في هذه القصة ! انه متعب بما فيه الكفاية ، وقد قال لك عشرين مرة ان السياسة تسئمه .

فقال دوبروي مبتسماً :

– اعلم، أنت تتصورينني شريراً يحاول ان يفسد رفاقه الصغار . لكن السياسة ليست رذيلة ، يا جميلتي ، ولا لعبة جماعية . إذا ما اندلعت حرب جديدة خلال ثلاث سنوات ، فستكونين أول من يشتكي .

فقالت بول :

– هذا شانتاج ! عندما سيفضي الأمر بهذه الحرب إلى الانتهاء ، فلن يرغب أي انسان في اشعال حرب أخرى .

فقال دوبروي :

– اتعتقدين ان لها أهمية ، رغبات الناس !

وهمت بول بالجواب ، لكن هنري قاطعها قائلاً : « حقاً ، دون نية سيئة ، ليس لدي وقت ! »

فقال دوبروي :

– الوقت لا ينقص أبداً .

فقال هنري ضاحكاً :

– بالنسبة لك ، كلا ، لكني أنا كائن عادي . لا أستطيع ان أشتغل عشرين ساعة على التوالي ولا ان أستغني عن النوم مدة شهر .

فقال دوبروي :

– لكن أنا أيضاً لا أستطيع ! انني لم أعدْ في العشرين . (وأضاف وهو يذوق المشروب بقلق) اننا لا نطلب كل هذا منك .

ونظر إليه هنري في مرح : سواء كان دوبروي في العشرين أو الثمانين ، فسوف يبدو عليه دوماً انه شاب بسبب عينيه الضخمتين الضاحكتين اللتين تلتهمان كل شيء . يا له من متعصب ! وبالمقارنة ، كان هنري يميل معه غالباً إلى ان يحكم على نفسه بأنه طائش ، كسول ، مائع . ولكن لا فائدة من غضب النفس . عندما كان في العشرين ، كان شديد الاعجاب بدوبروي إلى حد اعتقد معه انه مرغم على تقليده . وكانت النتيجة انه كان يشعر بالنعاس دوماً ، ويحشو نفسه بالمخدرات ، ويغوص في الحماقة . وكان لا بد ان يؤثر هذا عليه : فبعد ان حرم من أوقات الفراغ، فقد أحب الحياة وفي الوقت نفسه أحب الكتابة ، وتحول إلى آلة . خلال أربع سنين كان آلة ، وهو الآن يصر قبل كل شيء على ان يعود انساناً . وقال :

– انني أتساءل بمَ يمكن ان تفيدك غرارتي .

فقال دوبروي :

– ان لها نواحيها الطيبة ، الغرارة . (وابتسم ابتسامة صغيرة) ثم انك ، في الساعة الراهنة ، لك اسم يمثل الكثير ، لكثير من الناس . (وتعمقت ابتسامته) لقد عاش سامازيل قبل الحرب بين جميع الفئات وفئات الفئات ، ولكن ليس لهذا أريد الحصول عليه : بل لأنه بطل مقاومة ، واسمه له تأثيره .

واخذ هنري يضحك . فدوبروي لا يبدو له مطلقاً اكثر سذاجة إلا عندما يريد ان يكون ماجناً . ان بول محقة في اتهامه بالشانتاج : فلو آمن بقرب وقوع حرب ثالثة، لما كان في مثل هذا المزاج الحسن. والحقيقة هي انه يرى ان امكانيات العمل تنفتح له وانه يتلظى شوقاً إلى استغلالها . وكان هنري يشعر بنفسه أقل حماسة . فمن الواضح انه تبدل منذ ١٩٣٩. في الماضي كان يسارياً لأن البورجوازية كانت تثير اشمئزازه ، ولأن الظلم يسخطه ، ولأنه يعتبر جميع البشر اخوة له : وهذه هي عواطف طيبة لا تلزمه بشيء . وهو يعرف الآن انه إذا كان يريد حقاً ان ينفك عن طبقته ، فلا بد ان يدفع الثمن من حياته . لقد ترك مالوفيلاتر ، وبورغوان ، وبيكار وجثثهم عند تخم الغابة الصغيرة ، ولكنه سيفكر بهم دوماً وكأنهم أحياء . كان جالساً معهم على المائدة أمام لحم أرنب ، وكانوا يشربون نبيذاً أبيض ، ويتحدثون عن المستقبل ، دون ان يؤمنوا به كثيراً . أربعة جنود عاديين ولكن عندما تنتهي الحرب سيعودون من جديد بورجوازياً ، وفلاحاً ، وعاملي معادن . وقد فهم هنري في تلك اللحظة انه في نظر الثلاثة الآخرين وفي نظره ، سيبدو كصاحب امتياز ، قد يشعر بالخجل قليلاً أو كثيراً، لكنه راضٍ، ولن يكون مثلهم أبداً . فلكي يبقى رفيقهم ، لم تكن هناك إلا وسيلة واحدة : ان يستمر في العمل معهم. ولقد فهم بشكل أفضل أيضاً عندما عمل في ١٩٤١ مع مجموعة « بوا — كولمب » ولم يسر الأمر في البداية على ما يروم من نفسه . كان فلامان يغيظه وهو يردد في كل لحظة: « أتفهم ، انني عامل ، وأنا أفكر كعامل». ولكن بفضله لمس هنري باصبعه شيئاً ما كان يجهله سابقاً ، وسيشعر بعد الآن انه يهدده دوماً : الحقد . ولقد نزع منه سلاحه : ففي العمل المشترك ، اعترفوا به رفيقاً لهم ، ولكن إذا ما عاد ذات يوم بورجوازياً لا مبالياً ، فان الحقد سيولد ثانية وعن حق . فهو ، إذا لم يثبت العكس ، عدو لمئات الملايين من البشر ، عدو للانسانية . ولم يكن يريد هذا بأي ثمن : وسوف يثبت . والمصيبة هي ان العمل قد بدل وجهه. فالمقاومة كانت شيئاً، والسياسة شيئاً آخر . ان السياسة بعيدة عن ان تثير حماسة هنري . وهو يعلم ماذا تعني حركة كتلك التي يفكر بها دوبروي .

لجان ، ومحاضرات ، ومؤتمرات ، وخطابات ، وكلام وكلام . ولا بد إلى ما لا نهاية من المناورة، والتساهل، والقبول بالتسويات العرجاء. وقت ضائع،وتنازلات مسخطة ، وملل قاتم ؟ لا شيء مقرف كهذا . اما ادارة جريدة، فهذا عمل يحبه. ولكن من الواضح ان الواحد لا يمنع الآخر ، بل ان الاثنين متكاملان . ومن المستحيل ان يستخدم « الأمل » كدليل نفي . كلا ، لم يكن هنري يشعر بأن له الحق في الهرب ، وسوف يحاول فقط ان يقلل من التكاليف ، وقال :

ـ اسمي ، وبعض افعال حضور ، لا أستطيع ان أرفض لك هذا . لكن يجب ألا تسألني أكثر من ذلك بكثير .

فقال دوبروي :

ـ سأسألك بالتأكيد أكثر .

ـ على كل حال ، ليس الآن . فمن الآن حتى سفري ، لدي عمل فوق رأسي .

فثبّت دوبروي نظره في عيني هنري : « ألا يزال قائماً مشروع السفر ذاك؟» .

ـ أكثر من أي وقت مضى . بعد ثلاثة أسابيع على أقصى حد ، سأذهب .

فقال دوبروي بصوت غاضب : « هذا ليس جدياً ! » .

فقالت آن وهي تنظر إليه ساخرة :

ـ آه ! انني مطمئنة ! إذا كنت ترغب في الذهاب للنزهة ، فسوف تذهب وتشرح لنفسك بأن هذا هو الشيء الذكي الوحيد الذي يجب عمله .

فقال دوبروي :

ـ لكني لست أرغب في ذلك ، هذا هو تفوقي .

فقالت بول :

ـ يجب ان أقول ان الاسفار تبدو لي أسطورة . وابتسمت لآن :

« ان زهرة تأتيني بها تعطيني أكثر من حدائق الحمراء بعد خمس عشرة ساعة في القطار .

فقال دوبروي .

ـ اواه ! ان السفر قد يكون شيقاً ، ولكن في هذا الوقت ، البقاء هنـــا

اكثر تشويقاً .

فقال هنري :

– حسناً ! اما أنا ، فانني راغب جداً في ان أكون في مكان آخر إلى حد انني عند الحاجة سأسافر ، على الأقدام ، وحذائي ممتلىء بالحصى اليابس .

– و « الأمل » ، هل تتركها هكذا طوال شهر ؟

فقال هنري :

– سيتدبر لوك أمره جيداً بدوني .

ونظر إلى ثلاثتهم بدهشة . « انهم لا يدركون ! » . دوماً الرؤوس نفسها ، الديكور نفسه ، الأحاديث نفسها ، المشاكل نفسها ، وكلما تبدل الأمر ، ازداد تشابهاً : وعند النهاية ، يشعر المرء انه يموت وهو حي . الصداقة ، والانفعالات التاريخية الكبرى ، لقد قدر كل هذا على حسابه . ولكنه الآن بحاجة إلى شيء آخر : حاجة عنيفة جداً حتى انه من العبث ان يشرحها لنفسه .

– ميلاد سعيد !

وفُتح الباب : فانسان ، لامبير ، سينوزاك ، شانسيل ، جهاز الجريدة . كله . كانوا يحملون زجاجات واسطوانات ، وكانت خدودهم حمراء من البرد ، ينشدون بأعلى أصواتهم أغنية أيام آب :

لن نراهم بعـــد الآن
انتهى الأمر ، وخوزقوا

وابتسم لهم هنري في مرح . كان يشعر انه شاب مثلهم وفي الوقت نفسه كان يخيل إليه انه قد خلقهم جميعاً إلى حد ما . وأخذ يغني معهم . وفجـــأة انطفأت الكهرباء ، وراح البانش يلتهب ، وسنابل الميلاد تطقطق ، ولامبير وفانسان يرشان هنري بالشرر ، وبول تشعل الشموع الصيبانية على الصنوبرة .

– ميلاد سعيد !

– كانوا يأتون أزواجاً ، ومجموعات . وكانوا يستمعون إلى قيثارة جـــانغو رينهاردت ، ويرقصون ، ويشربون ، ويضحكون جميعاً .

وطوّق هنري آن، فقالت بصوت منفعل : « هذا بالضبط مثل عشية الانزال. المكان نفسه ، والناس أنفسهم ! » .
– نعم . والآن ، قد حدث الأمر .
فقالت :
– بالنسبة لنا ، قد حدث .
كان يعرف ما تفكر به : ففي هذه الدقيقة كانت قرى بلجيكية تحترق ، والبحر ينقضّ على الأرياف الهولاندية . ومع ذلك فقد كان المساء هنا مساء عيد : أول عيد ميلاد في السلم . لا بد ان يكون هناك عيد ، في بعض الأحيان ، وإلا فما فائدة الانتصارات ؟ ولقد كان هناك عيد وكان يتعرف رائحة الكحول ، والتبغ ، ومسحوق الأرز تلك ، رائحة الليالي الطويلة . كانت ألف نافورة ماء بلون قوس قزح ترقص في ذاكرته . ولقد عرف ، قبل الحرب ، الكثير من أمثال هذه الليلة : في مقاهي مونبارناس حيث كان يسكر من القهوة بالقشدة ومن الكلمات ، وفي المراسيم التي كانت تفوح منها رائحة الرسم الزيتي ، وفي المراقص الصغيرة حيث كان يضم بين ذراعيه أجمل النساء،بول. ودوماً عند الفجر، مع الضجة المعدنية ، كان صوت عذب الهذيان يتمتم في داخله بأن الكتاب الذي يكتبه سيكون جيداً وان لا شيء أهم من ذلك في العالم . وقال :
– أتعرفين ، لقد قررت ان أكتب رواية مرحة .
فنظرت إليه آن وقد بدا عليها الفضول :
– أنت ؟ متى ستبدأ ؟
– غداً .
نعم ، انه يستعجل فجأة ان يعود ما كانه ، ما أراد دوماً ان يكونه : كاتباً . وكان يتعرف أيضاً ثانية ذلك الفرح القلق : انني أبدأ كتاباً جديداً . وسوف يتحدث عن كل تلك الأشياء التي كانت تولد ثانية : الاشفاق ، والليالي الطويلة، والرحلات ، والفرح . وقالت آن :
– يبدو عليك انك حسن المزاج هذا المساء .

– انني لكذلك .. فأنا أشعر انني خارج من نفق طويل . وأنت ؟
وترددت :
– لست أدري . على كل حال لقد وجدت لحظات طيبة في هذا النفق .
– بالتأكيد .
وابتسم لآن . كانت جميلة ، هذا المساء ، وكان يجدها خيالية ، في ثوبها المتقشف . ولو لم تكن صديقة قديمة وزوجة دوبروي، لغازلها عن طواعية،ورقص معها عدة مرات على التوالي ، ثم دعا كلودي دي بلزونس التي جاءت ، في ثوب عاري الكتفين ، مثقلة بجواهر العائلة ، لتلهو مع النخبة المثقفة . ودعا جانيت كانج ، ولوسي لونوار . جميع هاته النساء ، كان يعرفهن أكثر من اللازم . لكن ستكون هناك أعياد أخرى ، وستكون هناك نساء أخريات . وابتسم هنري لبريستون الذي كان يتقدم عبر الاستوديو ، وهو يترنح قليلًا . انه أول صديق اميركي التقى به هنري في آب ، فوقعا في أذرع بعضهما البعض . وقال بريستون :
– لقد تشبثت بالمجيء للاحتفال معك !
فقال هنري :
– لنحتفل .
وشرب ، وأخذ بريستون يتحدث عاطفياً عن ليالي نيويورك . كان سكراناً قليلًا ، يستند إلى كتف هنري . وكان يردد بصوت آمر : « يجب ان تأتي إلى نيويورك . وأنا أضمن بأنك ستلقى نجاحاً كبيراً .. »
فقال هنري :
– بالتأكيد ، سأذهب إلى نيويورك .
فقال بريستون :
– عند وصولك ، استأجر طائرة صغيرة ، فهذه أفضل طريقة لرؤية البلاد .
– لا أعرف القيادة .
– اواه ! قيادة الطائرة أسهل من قيادة السيارة .
فقال هنري :

ـ سأتعلم الطيران .

نعم ، لم تكن البرتغال إلا بداية ، ثم تأتي اميركا ، والمكسيك ، والبرازيل ، وربما الاتحاد السوفياتي ، والصين : كل مكان . وسيسوق هنري من جديد السيارات ، ويحلق بالطائرات : كان الجو الرمادي الأزرق مليئاً بالوعود ، والمستقبل يتسع إلى ما لا نهاية .

وفجأة . ساد الصمت وتبين هنري في دهشة ان بول تجلس إلى البيانو . وأخذت تغني . منذ زمن بعيد لم يحدث لها هذا . وحاول هنري ان يصغي بأذن متجردة : انه لم يستطع ابداً ان يكون فكرة واضحة عن قيمة هذا الصوت . وبالتأكيد انه لم يكن صوتاً لامبالياً : فبين لحظة وأخرى يخيل إليه انه يسمع صدى جرس من البرونز ، مكسو بالمخمل . ومرة أخرى تساءل : « لماذا بالضبط أهملته ؟ » . لقد رأى في تضحيتها ، آنذاك ، دليلاً محرجاً على الحب . وفيما بعد دهش من ان بول تجنبت كل المناسبات التي تتيح لها ان تجرب حظها ، وتساءل عما إذا كانت قد اتخذت من حبهما ذريعة لتتملص من الامتحان .

ودوى التصفيق ، وصفق مع الآخرين وتمتمت آن : « صوتها لا يزال جميلاً . لو عادت للظهور أمام الجمهور ، فأنا واثقة انها ستنجح » .

فقال هنري :

ـ أتعتقدين ؟ لقد فات الأوان قليلاً ، أليس كذلك ؟

ـ ولماذا ؟ إذا تلقت بعض الدروس ... ونظرت آن إلى هنري بشيء من التردد : « يخيل إليّ ان هذا سيفيدها . يجب ان تشجعها » .

فقال :

ـ ربما . .

وتفرس في وجه بول التي كانت تستمع مبتسمة إلى المديح المتحمس من قبل كلودي دي بلزونس . من المؤكد ، ان ذلك سيبدل حياتها ، فالفراغ لا يفيدها مطلقاً . وقال في نفسه : « وأنا هذا سيبسط لي الأمور ! » . وبعد كل شيء لم لا ؟ إن كل شيء يبدو في هذا المساء ممكناً . ستصبح بول مشهورة ، وستتحمس

لمهنتها ، فيضحي حراً ، وسيتنزه في كل مكان ، وستكون له ، هنا وهناك ، غراميات مرحة وقصيرة . لم لا ؟ وابتسم واقترب من نادين التي كانت تمضغ العلكة بوجه متجهّم وهي واقفة قرب المدفأة :

– لماذا لا ترقصين ؟

فهزت كتفيها : – « مع من ؟ » .

– معي إذا شئت .

لم تكن جميلة ، فهي تشبه كثيراً والدها ، ومن المحرج ان يقوم هذا الوجه الشرس فوق جسد صبية . كانت العينان زرقاوين كعيني آن ، ولكن باردتين جداً إلى حد تبدوان معه مهترئتين وفتيتين في آن واحد . إلا ان القامة تحت الثوب الصوفي كانت لدنة ،والثديان أكثر متانة مما كان هنري يتصور. وقال :

– انها المرة الأولى التي نرقص فيها معاً .

– نعم . وأضافت : « أنت ترقص جيداً » .

– أهذا يدهشك ؟

– انني فاهمة . ما من أحد من هؤلاء الغِلاظ يعرف الرقص .

– لم تتح لهم الفرصة أبداً ليتعلموا .

فقالت :

– أعرف . لم تتح لنا الفرصة لأي شيء .

وابتسم لها . ان المرأة الشابة ، ولو كانت قبيحة ، تظل امرأة . انه يحب رائحتها المتقشفة من ماء الكولونيا والغسيل الجديد . كانت لا تحسن الرقص جيداً ، ولكن هذا لا أهمية له ، فهناك تلك الأصوات الشابة ، وتلك الضحكات ، وألحان البوق المتوافقة ، وطعم البانش، وفي أعماق المرايا تلك الصنوبرات المزهرة بالشرر ، ووراء الستائر سماء صافية سوداء . كان دوبري يقوم بنمرة شعوذة ، فكان يمزق جريدة قطعاً ثم يلصقها ثانية بحركة من يديه . وكان لامبير وفانسان يتبارزان بزجاجات فارغة ، وآن ولاشوم يغنيان اوبرا كبيرة ، وقطارات وطائرات ، ومراكب تدور حول الأرض ، ولم يكن الصعود إليها ممكناً. وقال

في تهذيب :

– أنت لا ترقصين سيئاً .

– انني أرقص كعجل ، لكني لا أبالي ، انني لا أحب الرقص .

وتفحصته في شك : – « المتطرفون الصغار » ، والجاز ، والكهوف المنتنة برائحة التبـغ والعرق ، أهذا يلهيك ، أنت ؟ » .

– من حين لآخر . وسأل : « ما الذي يلهيك ؟ » .

– لا شيء .

لقد أجابت بصوت شرس جداً إلى حد انه تفرس في وجهها بفضول . كان يتساءل ما إذا كانت الخيبة أو اللذة هي التي ألقتها في مثل ذلك العدد من الأذرع. لعل القلق يلين من تقاطيـع وجهها القاسية ؟ رأس دوبروي على وسادة ، ترى ماذا يشبه هذا ؟ وقالت في حقد :

– عندما أفكر بأنك ذاهب إلى البرتغال ، أرى انك محظوظ جداً .

فقال :

– عما قريب سيكون من السهل السفر .

– عما قريب ! تقصد خلال سنة ، خلال سنتين ! كيف تدبرت أمرك ؟

– انه مكتب الدعاية الفرنسية الذي طلب مني محاضرات .

فتمتمت :

– من البديهي ، ان أحـداً لن يطلب مني محاضرات ، أنا . هـــل ستلقي محاضرات كثيرة ؟

– خمساً أو ستاً .

– وستتجول خلال شهر !

فقال في مرح :

– لا بد ان يحصل المسنّون على بعض التعويضات .

فقالت نادين :

– وما التعويضات التي نحصل عليها عندما نكون شباناً ؟

وتنهدت بصوت عال :

« لو على الأقل حدثت أشياء » .

– أية أشياء ؟

– منذ الوقت الذي ادعينا اننا في ثورة ! لا شيء يتحرك ...

فقال هنري :

– ولكن الأمور قد تحركت قليلاً في آب على كل حال .

في آب كانوا يقولون ان كل شيء سيتغير ، ولكن الأمور ظلت كما كانت من قبل تماماً : ان الذين يشتغلون أكثر من غيرهم هم دوماً الذين ينالون الأمـــل ، والناس كلهم يرون هذا حسناً جداً .

فقال هنري :

– ما من أحد هنا يرى هذا حسناً .

فقالت نادين بصوت غاضب .

– ولكن جميع الناس يتدبرون أمرهم . لقد كان من المقرف بما فيه الكفاية ان يرغم الانسان على اضاعة وقته في العمل ، فإذا كان ذلك لا يكفي لآكل حتى الشبـع ، فاني أفضل ان أصبح من رجال العصابات .

فقال هنري :

– اني موافق تماماً ، اننا جميعاً منافقون . ولكن انتظري قليـــلاً ، أنت مستعجلة أكثر من اللازم .

فقاطعته نادين : « أنت تحدثني وكأنهم لم يشرحوا لي طويلاً في البيت انه يجب الانتظار . ولكن لا أثق بالشروح . وهزت كتفيها : « في الحقيقة ، لا أحــد يحاول شيئاً » .

فقال هنري مبتسماً :

– وأنت ؟ هل تحاولين شيئاً ما ؟

فقالت نادين :

– أنا ؟ ليس لي العمر اللازم . اني لا أساوي شيئاً .

فأخذ هنري يضحك بصراحة :

– لا تحزني . انه يأتي ، العمر . انه يأتي بسرعة !

فقالت نادين :

– بسرعة ! يلزم ثلاثمئة وخمسة وستون يوماً لتكتمل سنة ! وخفضت رأسها ومضغت في صمت للحظة . وفجأة رفعت عينها : « خذني » .

فقال هنري :

– إلى أين ؟

– إلى البرتغال .

فابتسم :

– هذا لا يبدو لي ممكناً جداً .

– يكفي ان يكون ممكناً قليلاً . » فلم يجب فسألت بصوت ملح :

– « لمَ هذا غير ممكن ؟ »

– أولاً انهم لن يعطوني اذنين بالسفر .

– دعك من هذا ! أنت تعرف جميع الناس . قل انني سكرتيرتك .

كان فم نادين يضحك لكن نظرتها كانت جدية متحمسة . فقال في جد :

– إذا كنت سآخذ أحداً ، فستكون بول .

– انها لا تحب الأسفار .

– لكنها ستسر برافقتي .

– منذ عشر سنين وهي تراك يومياً ، وهي لما تشبع بعد : فشهر يزيد أو شهر ينقص ، ماذا يمكن ان يؤثر عليها ؟

ومن جديد ابتسم هنري : « سآتيك ببرتقال » .

فتصلب وجه نادين ، ووجد هنري أمام عينيه قناع دوبروي المخيف : « انت تعلم انني لم أعد في الثامنة » .

– اعلم .

– كلا . بالنسبة لك سأظل دوماً الفتاة نفسها التي كانت ترفس المدفأة .

– مطلقاً . والدليل انني دعوتك للرقص .
– اواه ! انها سهرة عائلية . لكنك لن تدعوني للخروج معك .
وتفرس في وجهها في ود . ها هي واحدة على الأقل تتمنى ان تغيّر الهواء . انها تتمنى الكثير من الأشياء : أشياء أخرى . يا للفتاة المسكينة ! صحيح انه لم تتح لها الفرصة لشيء. ابل – دي– فرانس على الدراجة ، هذا كل ما فعلته تقريباً كرحلة . شباب متقشف ، ثم موت ذلك الغلام . كان يبدو عليها انها تعزت عنه بسرعة ، ولكنها لا بد ان تكون على كل حال ذكرى قذرة . وقال :
– حسناً ! أنت مخطئة . انني أدعوك .
– هذا صحيح ؟ » وكانت عينا نادين تلمعان . انها تصبح ألطف بكثير للنظر عندما ينتعش وجهها .
– مساء السبت لن أذهب إلى الجريدة : فلنلتق في الساعة الثامنة في « البار الأحمر » .
– وماذا سنفعل ؟
– ستقررين أنت .
– ليس عندي فكرة .
– من الآن حتى ذلك الحين ، ستكون عندي فكرة . تعالي نشرب كأساً .
– انني لا أشرب ، ولكن سآكل بسرور سندويشاً أخرى .
واقتربا من المائدة . كان لونوار وجوليان يتخاصمان : هذا شيء مزمن . كان كل منهما يتهم الآخر بأنه خان شبابه بالطريقة التي لم تكن طيبة . في الماضي ، عندما وجدا ان تطرف السريالية مدروس أكثر من اللازم ، أسّسا معاً الحركة « شبه الانسانية » . وأصبح لونوار استاذاً للسنسكريتية وأخذ يكتب أشعاراً غير مفهومة . وكان جوليان صاحب مكتبة ، وقد كف عن الكتابة ، ربما لأنه خشي ، بعد النجاح الذي حققه قبل الأوان ، ان يصبح كاتباً عادياً ناضجاً . وقال لونوار :
– ما رأيك في ذلك ؟ يجب ان تتخذ تدابير ضد الكتّاب المتعاونين ،

أليس كذلك ؟

فقال هنري في مرح :

- انني هذا المساء لا أفكر !

فقال جوليان :

- خطة سيئة لمنعهم من النشر . فبينما ستحرر في أسرع وقت مقالاتـــك ، سيأخذون هم وقتهم كله وسيكتبون كتبا جديدة .

وحطّت يد آمرة على كتف هنري : سكرياسين .

- انظر ما أتيت به : ويسكي اميركي . لقد استطعت ان أدبر منه زجاجتين. أول سهرة ميلاد باريسية : انها مناسبة طيبة لشربهما .

فقال هنري :

- عظيم !

وملأ كأساً من نبيذ البوربون ناولها لنادين ، فقالت هذه وكأنها أهينت:

- انني لا أشرب .

وأدارت عقبيها . ورفع هنري الكأس إلى فمه . لقد نسي تماماً هـذا الطعم . وفي الحقيقة ، كان يشرب سابقاً السكوتش ، ولكنه لما كان قد نسي أيضاً طعم السكوتش ، فانه لم يعد يجد أي فرق .

- من يريد جرعة ويسكي ؟

فاقترب لوك ، وهو يسحب قدميه الضخمتين المصابتين بداء المفاصل ، وتبعـه لامبير وفانسان . وملأوا كؤوسهم . وقال فانسان :

- انني أفضل كأس عرق .

فقال لامبير دون اقتناع :

- انه ليس رديئاً » . وسأل سكرياسين بنظرته : « اصحيح انهم يشربون منه اثنتي عشرة كأساً يومياً ، في أميركا ؟ »

فقال سكرياسين :

- هم ، من هؤلاء « هم » ؟ يوجد مئة وخمسون مليون اميركي وهم لا يشبهون

جميعاً ابطال همنغواي . » كان صوته مستاء ، ولم يكن في معظم الأحيان ودياً مع الأشخاص الأصغر منه سناً . واستدار في قصد نحو هنري .

– لقد تحدثت جدياً مع دوبروي . انني شديد القلق .

كان يبدو مهموما . انها هيئته المعتادة، وكأن كل ما يجري حيث هو موجود وحتى حيث هو غير موجود ، يمسه شخصيا . ولم يكن هنري راغباً في مقاسمته قلقه . فسأل بطرف شفتيه :

– لمَ إذن ؟

– تلك الحركة التي يعمل على تأسيسها ، كنت أعتقد ان هدفها الأساسي فصل البروليتاريا عن الحزب الشيوعي . » وأضاف سكرياسين بصوت قاتم :

« وهذا ليس مطلقاً ما يبدو ان دوبروي يفكر به » .

فقال هنري :

– كلا ، ليس هذا مطلقا .

وفكر في ارهاق : « هوذا نوع الأحاديث الذي سأتحمله طول الأيام ، عندما سأترك دوبروي يحضني وراءه » . ومن جـــديد شعر بأنه مغزو من رأسه إلى قدميه برغبة نهمة في ان يكون في مكان آخر .

ونظر سكرياسين إليه في عينيه : « أتمشي معه ? » .

فقال هنري :

– بخطا صغيرة جداً . ان السياسة ليست ميداني .

فقال سكرياسين :

– أنت بدون شك لم تفهم ما يطبخه دوبروي . » وحدج هنري بنظرة عتبى : « انه يجمع يساراً يزعم انه مستقل لكنه يقبل بوحدة العمل مع الشيوعيين » .

فقال هنري :

– نعم أعرف . وبعد ?

– حسنا ! انه يلعب لعبتهم . هناك كثير من الناس تخيفهم الشيوعيـــة وسيجعلهم يقتربون منها .

فقال هنري :

ـ لا تقل لي انك ضد وحدة العمل . سيكون شيئا جميلًا ان يؤاخذ اليسار بالانقسام على نفسه !

فقال سكرياسين :

ـ يسار خاضع للشيوعيين ! هذه خدعة . إذا كنتم عازمين على السير معهم ، فسجّلوا أنفسكم في الحزب الشيوعي ، فهذا أصرح .

فقال هنري :

ـ لا مجال للبحث في هذا . اننا غير متفقين على نقاط عديدة !

فهز سكرياسين كتفيه :

ـ إذن من الآن حتى ثلاثة أشهر سيفضحكم الستالينيون كاشتراكيين خونة .

فقال هنري :

ـ سنرى .

لم يكن يرغب مطلقاً في متابعة النقاش، لكن سكرياسين ثبّت نظره في نظره: « قيل لي ان « الأمل » لها قراء كثيرون بين الطبقة العاملة . أهذا صحيح ? » .

ـ صحيح .

ـ وهكذا : فبين يديك الجريدة الوحيدة غير الشيوعية التي تصل إلى البروليتاريا ! أتدرك مسؤولياتك ?

ـ انني مدرك .

ـ إذا وضعت «الأمل» في خدمة دوبروي، فأنت شريك في مناورة مقرفة. » وأضاف : « مهما كان دوبروي صديقك ، فلا بد من معارضته » .

فقال هنري :

ـ اسمع ، فيما يتعلق بالجريدة ، فهي لن تكون أبداً في خدمة أحد : لا دوبروي ولا أنت .

فقال سكرياسين :

ـ لا بد ذات يوم من ان تحدد « الأمل » برنامجها السياسي

فقال هنري :

– كلا . لن يكون لها برنامج قبلي مطلقاً . انني أتمسك بقول ما أعتقده ، كما أعتقده ، دون ان أتركهم يدخلونني في جماعة .

فقال سكرياسين :

– هذا لن تقوم له قائمة .

وارتفع صوت لوك الوديع فجأة : « اننا لا نريد برنامجاً سياسياً لأننا نريد ان ننقذ وحدة المقاومة » .

وصب هنري لنفسه كأسا من البوربون . ودمدم بين أسنانه : « كل هـذا مسخرة ! » . لم يكن للوك إلا هذه الكلمات في فمه : روح المقاومة ، ووحدة المقاومة. وكان سكرياسين يرى اللون أحمر ما إن يحدثه أحد عن الاتحاد السوفياتي. كان من الأفضل لو ذهب كل منهما يهذي في زاويته . وأفرغ هنري كأسه . انه ليس بحاجة لأن تقدّم له النصائح ، فله أفكاره الخاصة به عما يجب ان تكون عليه الجريدة . يقيناً ، ان « الأمل » ستضطر إلى اتخاذ موقف سياسي: ولكن بشكل مستقل تماماً . وإذا كان هنري قد احتفظ بالجريدة ، فليس لكي يجعل منها صحيفة شبيهة بصحف ما قبل الحرب . ففي ذلك العهد ، كانت الصحافة كلها تخدع الجمهور لحساب السلطة . ولقد ظهرت النتيجة : فالناس قد ضاعوا تماماً ، بعد ان فقدوا نبيهم اليومي . واليوم ، أصبح الجميع متفاهمين تقريباً على ما هو أساسي ، ولقد انتهت المجادلات والحملات المتحزبة ، ويجب الاستفادة من ذلك لتكوين القـراء بدلاً من حشو دماغهم . ليس بإملاء الآراء عليهم ، بل بتعليمهم الحكم بأنفسهم . وهذا ليس سهلاً ، فهم غالباً يتطلبون أجوبة . ويجب ألا يعطَوا شعوراً بالجهل والشك واللاانسجام . ولكن هنا بالذات موضع الرهان : استحقاق ثقتهم بدلاً من سرقتها منهم . والدليل على ان هذه الطريقة ناجعة ، هو ان « الأمل » تُباع في كل مكان قليلاً . وقال هنري في نفسه : « لمَ تحمل مشقة توبيخ الشيوعيين على عصبيتهم إذا كنا متصلبين مثلهم » . وقاطع سكرياسين :

– ألا تعتقد أن بإمكاننا ان نؤجل هذا النقاش إلى يوم آخر ؟

فقال سكرياسين :

ـ ليكن . لنتفق على موعد . » وأخرج دفتراً من جيبه . « أعتقد انه من العاجل ان نواجه افكارنا بعضها ببعض » .

فقال هنري :

ـ لننتظر حتى عودتي من السفر .

ـ أذاهب في رحلة ؟ رحلة استعلام ؟

ـ كلا ، سياحة .

ـ الآن ؟

فقال هنري :

ـ اي نعم !

فقال سكرياسين :

ـ أليس هذا هرباً ؟

فقال هنري في مرح :

ـ هرباً ؟ انني لست جندياً . » وأشار بذقنه إلى كلودي دي بلزونس : « يجب ان تراقص كلودي ، تلك السيدة العارية جداً التي ترتدي مجوهرات في كل مكان . انها امرأة دنيوية حقيقية وهي معجبة بك كثيراً » .

فقال سكرياسين بابتسامة صغيرة :

ـ النساء الدنيويات ، إحدى رذائلي . » وهز رأسه « أعترف بأنني لا أفهم ». وذهب ليدعو كلودي . كانت نادين ترقص مع لاشوم ، ودوبروي وبول يدوران حول شجرة الميلاد : لم تكن تحب دوبروي ، لكنه كان ينجح غالباً في إضحاكها .

وقال فانسان بمرح :

ـ لقد صدمتَ سكرياسين بشكل رائع !

فقال هنري :

ـ انهم يستنكرون جميعاً سفري . وأولهم دوبروي .

فقال لامبير :

— انهم فظيعون ! لقد فعلت أكثر منهم . أليس كذلك ؟ لك كل الحق في أخذ اجازة !

وقال هنري في نفسه : « حقاً ، إنما مع الشباب أتفاهم جيداً » . ان نادين تحسده وفانسان ولامبير يفهمانه : هما أيضاً ، ما إن استطاعا ، حتى أسرعا للذهاب لرؤية ما يجري في أمكنة أخرى ، وسجلا نفسيهما فوراً كمراسلين حربيين . وظل طويلاً معهما ورووا فيما بينهم للمرة المئة الأيام المشهورة التي احتلوا فيها مكاتب الجريدة ، حيث كانو يبيعون « الأمل » تحت بصر الالمان ، بينما هنري يكتب افتتاحيته مع مسدس في درجه . وفي هذا المساء ، كان يجد سحراً جديداً في هذه القصص القديمة ، لأنه كان يسمعها من مكان بعيد جداً : فقد كان مستلقيـــاً على رمل حار، والبحر أزرق ، وكان يفكر في تراخٍ بأزمان غابرة، بأصدقاء بعيدين ، وكان مسروراً من انه وحيد وحر . لقد كان سعيداً .

وفجأة وجد نفسه ثانية في الاستديو الأحمر ، في الساعة الرابعة صباحاً . كان كثيرون قد انصرفوا والجميع على وشك الانصراف ، وسوف يبقى مع بول . يجب ان يحدثها ، ان يداعبها .

وقالت كلودي وهي تقبل بول :

— يا ملفوفتي الصغيرة ، لقد كانت سهرتك رائعة . وإن لك صوتاً مدهشاً . إذا أردت ، فستكونين إحدى لبوات ما بعد الحرب .

فقالت بول بمرح :

— انني لا أطلب إلى هذا الحد .

كلا ، انها لا تطمح مثل هذا الطموح . فهو يعرف ما تتمنى : ان تجد نفسها ثانية أجمل امرأة بين ذراعي الرجل الأعظم مجداً في العالم . ولن يكون عملاً سهلاً . ان يجعلها تبدل حلمها . كان آخر المدعوين ينصرفون ، وفجأة أضحى الاستديو مقفراً . وحدثت ضجة على الدرج ، وحطمت خطى صمتَ الشارع ، وأخذت بول تجمع الكؤوس المنسية تحت المقاعد .

وقال هنري :

– ان كلودي على حق . فصوتك لا يزال جميلاً . ها قد مضى زمن طويل لم أسمعك فيه ! لماذا انقطعت عن الغناء ؟

وأضاء وجه بول : « أتحب صوتي ؟ أتريد ان أغني لك ، أحياناً ؟ » .

– بالتأكيد . وابتسم : « أنت لا تعرفين ماذا قالت لي آن : انه يجب ان تعاودي الغناء للجمهور » .

فنظرت إليه بول بوجه مستنكر : « آه ! لا تحدثني عن ذلك . انها قضية منتهية منذ زمن بعيد .

فقال هنري :

– ولماذا ؟ أرأيت كيف صفقوا ؟ لقد انفعلوا جميعهم . هناك كثير من الملاهي تفتح الآن ، والناس يرغبون في نجوم جديدة . . .

فقاطعته بول : « كلا ، أرجوك ، لا تلحّ . ان أعرض نفسي على الجمهور . هذا سيسبب لي الاشمئزاز . لا تلح » . كررت ذلك بصوت ضارع .

وتفرس في وجهها في حيرة ، وقال بلهجة مترددة :

– الاشمئزاز ؟ انني لا أفهم : هذا لم يكن يسبب لك الاشمئزاز سابقاً ، وأنت لم تهرمي ، أتعرفين ، بل لقد ازددت جمالاً » .

فقالت بول :

– انه عصر مضى من حياتي ، عصر دُفن إلى الأبد . سأغني لك ، لا لأي انسان آخر » . أضافت ذلك بحماسة شديدة حتى ان هنري سكت . ولكنه وعد نفسه بأن يعود إلى القضية . وساد صمت وقالت : « أنصعد ؟ » .

– لنصعد .

وجلست بول على السرير ، ونزعت قرطيها وخواتمها ، وقالت بصوت قد عاد الهدوء إليه : « أتعرف ، إذا كان يبدو عليّ انني أؤنبك على سفرك ، فإنني أعتذر » .

فقال هنري :

– يا لها من فكرة ! ان لك كل الحق بأن لا تحبي الأسفار ، وان تقولي ذلك .

انه منزعج من التفكير بأنها طوال السهرة كانت تغذي في نفسها هذا التأنيب.
وقالت :
— انني أفهم تماماً ان ترغب في الرحيل . بل انني افهم جيدا ان تريد الذهاب بدوني .
— ليس لانني أريد .
فقاطعته بحركة : « لا حاجة بك لأن تكون مهذباً » . ووضعت باطن يديها على ركبتيه . كانت تبدو ، بعينيها الثابتتين ، وصدرها المستقيم جداً ، أشبه بكاهنة معبد هادئة . « لم أفكر أبداً بأن أسجنك في حبنا . لن تكون نفسك إذا لم تتمن آفاقاً جديدة ، وأغذية جديدة ». ومالت إلى الأمام وحطت عليه نظراتها الشاخصة : « يكفيني ان أكون لك ضرورية » .
ولم يجب هنري . لم يكن يريد ان يؤنسها ولا يشجعها . كان يفكر : « ليتني كنت أستطيع فقط ان أغضب منها ! » . ولكن لا ، ليس هناك مأخذ واحد .
ونهضت بول وابتسمت . وعاد وجهها انسانياً . ووضعت يديها على كتفي هنري ، وخدها على خده : « أتستطيع ان تستغني عني ? » .
— تعلمين جيداً ان لا .
فقالت بمرح :
— نعم ، اعلم . ولو قلت لي العكس لما صدقتك .
وسارت نحو غرفة الحمام . كان من المستحيل ان يترك لها بين الحين والآخر قطعة من جملة ، ابتسامة . فقد كانت تعطّر ذخائره في قلبها وتغتصب منها معجزات عندما يتزعزع ايمانها صدقة . وقال في داخله ليطمئن نفسه : « لكن على الرغم من كل شيء ، وفي الصميم ، هي تعلم انني لم أعد أحبها » . وبدأ يخلع ثيابه وضم بيجامته . انها تعلم ، حسناً ، ولكن هذا لا يقدم المسألة ما دامت لا تقبل بذلك . وسمع حفيف حرير مدعوك ، ثم صوت ماء وكريستال : هذه الأصوات التي كانت تقطع أنفاسه ، سابقاً . وقال في نفسه باستياء : « كلا . ليس هذا المساء » . وظهرت بول عند فتحة الباب ، وشعرها متناثر على كتفيها ، وقوراً

وعارية . انها كاملة كما في الماضي تقريباً ، كل ما هنالك ان هذا الجمال لم يعد يعني شيئاً بالنسبة لهنري . وانسابت تحت الأغطية وشدت إليه نفسها دونما كلمة : انه لا يجد أية ذريعة لدفعها. وكانت قد أخذت تتنهد في نشوة وهي تزداد التصاقاً به. وأخذ يداعب الكتف ، والخاصرتين المألوفتين ، وأحس بأن دمه يدفق بهدوء في عضوه : هـــذا أفضل . فبول لم تكن على استعداد لتكتفي بقبلة على الصدغ وارضاؤها يتطلب وقتاً أقل من الشرح لها . وقبّل الفم الملتهب الذي انفتح تحت فمه حسب الروتين المعتاد . ولكن بعد لحظة ، تركت بول شفتيه ، وسمعها محرجاً تتمتم كلمات قديمة لم تعد تعني شيئاً : « ألا أزال دوماً عنقود حلوتك الجميل ؟ » .

– دوماً .

فقالت وهي تضع يدها على عضوه المنتفخ :

– وتحبني ؟ أصحيح أنك لا تزال تحبني ؟

لم يكن يشعر في نفسه الشجاعة على اثارة مأساة. كان مستعداً لكل الاعترافات وكانت تعرف ذلك : « هذا صحيح » .

– أنت لي ؟

– أنا لك .

– قل لي انك تحبني ، قلها .

– أحبك .

وصدرت عنهـــا حشرجة طويلة مصدقة ، وطوقها بعنف ، وخنق فمه تحت شفتيها . وبدون انتظار دخل فيها : كي ينتهي بسرعة أكبر . وكان بداخلهـــا ينتشر لون أحمر كما في الاستديو الشديد الحمرة . وأخذت تئن وتصرخ بكلمات ، كما في الماضي . ولكن في الماضي كان حب هنري يحميها . كانت صرخاتها ، وأنينها، وضحكاتها ، وعضّاتها ، أضاحي مقدسة . اما اليوم فهو مستلق على امرأة ضائعة تقول كلمات بذيئة وأظافرها تؤلم . انه مشمئز منها ومنه . كانت ، برأسهـــا المقلوب ، وعينيها المطبقتين ، وأسنانها العارية، قد أعطت نفسها كل العطاء،وتاهت إلى حد مريع بحيث انه ودّ لو يصفعها ليعيدها إلى الأرض ، لو يقول لها : هـذه

أنت ، وهذا أنا ونحن نفعل الحب ، هذا كل شيء . كان يخيل إليه انه يغتصب ميتة أو مجنونة ولم يكن يستطيع ان يتخلص من لذته . وعندما ترك نفسه أخيراً يسقط على بول ، سمع أنيناً منتصراً . وتمتمت :

– أأنت سعيد ؟

– بالتأكيد .

فقالت :

– انني سعيدة للغاية !

كانت تنظر إليه بعينين مضيئتين تلمع فيهما دموع . وأخفى على كتفه هذا الوجه ذا البريق الذي لا يحتمل ، وقال في نفسه وهو يطبق عينيه : « ستكون أشجار اللوز مزهرة .. وستكون على أشجار البرتقال برتقالات » .

– ٢ –

كلا ، لن أعرف اليوم موتي. لا اليوم ولا في أي يوم . سأكون ميتة في نظر الآخرين ، دون ان أرى نفسي أموت .

لقد اعدت إطباق عينيّ ، ولكن دون ان أستطيع معاودة النوم . لماذا عبر الموت من جديد أحلامي ؟ انه يتسكع ، انني أشعر به يتسكع . لماذا ؟

لم أعرف دوماً انني سأموت . عندما كنت طفلة ، آمنت بالله . كان ثوب أبيض وجناحان بهيان تنتظرني في غرفة ملابس السماء : كنت أتمنى ان أنقب الغيوم . كنت أتمدد على الحافي ، ويداي مضمومتان ، وأستسلم للذائذ العالم الآخر . وأحياناً في نومي كنت أقول في نفسي : « انني ميتة » وكان صوتي القوي يضمن لي الأبدية . ولقد اكتشفت ، باشمئزاز ، صمت الموت . كانت جنية تحتضر على شاطىء البحر . فمن أجل حب فتى تخلت عن روحها الخالدة ولم يبق منها إلا بعض زبد أبيض بلا ذكرى ، بلا صوت . وكنت أقول في داخلي لأطمئن نفسي : « انها حكاية » .

لم تكن حكاية . انني أنا الجنية. لقد أصبح الله فكرة مجردة في أعماق السماء. وذات مساء محوتها . انني لم أندم مطلقاً على الله : كان يسرق مني الأرض . ولكن ذات يوم ، فهمت انني بالتخلي عنه قد حكمت على نفسي بالموت . كنت في الخامسة عشرة ، وفي الشقة المقفرة ، صرخت . وعندما استعدت حواسي ، تساءلت : « كيف يفعل الناس ؟ كيف سأفعل؟ هل سأعيش مع هذا الخوف؟» .

منذ اللحظة التي أحببت فيها روبير ، لم أعد أشعر بأي خوف ، من أي شيء. لم يكن علي إلا ان ألفظ اسمه فأشعر بالطمأنينة . انه يعمل في الغرفة المجاورة : أستطيع ان أنهض وأفتح الباب ... لكني أظل مستلقية : فأنا لست متأكدة من انه لا يسمع هو أيضاً . وفوق رؤوسنا ، توجد هوة ، وأنا لم أعد أعرف من نحن ، ولا ما ينتظرنا .

لقد انتصبتُ منتفضة ، وفتحت عيني : كيف أقبل ان يكون روبير في خطر ؟ كيف أسمح بذلك ؟ انه لم يقل لي ما يقلق حقاً ، لم يقل شيئاً جديداً. انني متعبة ، لقد شربت كثيراً ، وهذا هذيان صغير في الساعة الرابعة صباحاً . ولكن من يستطيع ان يقرر في أية ساعة نرى بوضوح ؟ ألم أكن أهذي عندما كنت أظن انني في أمان ؟ وهل كنت أظن ذلك حقاً ؟

لا أستطيع ان أتذكر ، فلم نكن ننتبه كثيراً إلى حياتنا الخاصة . كانت الأحداث فحسب لها حسابها : الهجرة ، والعودة ، والصفارات ، والقنابل ، والصفوف الطويلة ، واجتماعاتنا ، والاعداد الأولى من « الأمل » . وفي استديو بول كان شمعدان أسمر يبصق حمماً ، وبعلبتين من علب المحفوظات صنعنا موقداً كنا نحرق فيه الورق ، فيلسع الدخان عيوننا . وفي الخارج كانت هناك بقع دم ، وأزيز رصاص ، ودوي مدافع ودبابات . وفي داخلنا جميعاً كان الصمت نفسه ، الجوع نفسه ، الأمل نفسه . في كل صباح كان يوقظنا السؤال نفسه : الا يزال الصليب المعقوف يرفرف على مجلس النواب ؟ وكان العيد نفسه في قلوبنا عندما كنا نرقص في ساحة مونبارناس حول نار الفرح . ثم انقضى الخريف ، ومنذ لحظات ، بينما كنا على أضواء شجرة الميلاد ننسى أمواتنا نهائياً ، تبينت اننا

نعاود الحياة ، كلٌ لذاته . كانت بول تسأل : « أتعتقدين ان الماضي يمكن ان يبعث ؟ » ، وقال هنري لي : « أريد ان أكتب رواية مرحة ». انهم يستطيعون من جديد ان يتكلموا بصوت عالٍ ، وينشروا كتبهم ، انهم يتناقشون ، وينظمون أنفسهم ، ويُعدّون مشاريع ، ولهذا فهم جميعاً سعداء : أخيراً، تقريباً جميعهم . وليس هذا هو الوقت الذي يجب ان أختاره لأعذب نفسي . انه لعيد هذه الليلة : أول ميلاد في السلم ، آخر ميلاد في « بوشنووله[1] » ، آخر ميلاد على الأرض ، أول ميلاد لم يعشه دييغو . كنا نرقص ، ونتعانق حول الشجرة البارقة بالوعود ، وكانوا عديدين آه ! عديدين جداً من لم يكونوا هناك ، ما من أحد استمع إلى كلماتهم الأخيرة ، ولم يكونوا مدفونين في أي مكان : لقد ابتلعهم الفراغ . بعد يومين من التحرير لمست جانفييف تابوتاً : هل كان الصالح ؟ ولم يجد أحد جسد جاك . وثمة رفيق يزعم انه دفن دفاتر تحت شجرة : أية دفاتر ؟ أية شجرة ؟ ولقد طلبت سونيا كنزة وجوارب حريرية ، ثم لم تطلب شيئاً أبداً . أين هي عظام راشيل وعظام روزا الجميلة جداً ؟ كان لامبير ، في ذراعيه اللتين ضمتا الكثير من المرات جسد روزا اللدن ، يعانق نادين ، وكانت نادين تضحك كما كانت تفعل حين كان دييغو يعانقها بين ذراعيه . كنت أنظر إلى درب الصنوبر في أعماق المرايا الكبيرة ، وأفكر : هي ذي الشموع ، والآس ، والعنم التي لا يرونها . ان كل ما أعطيته ، أسرقه منهم . « لقد قتلا » . من الأول ؟ هو أم والده ؟ لم يكن الموت يدخل في خططه : هل عرف انه سيموت ؟ هل تمرد ، هل استسلم ؟ كيف أعرف ؟ والآن بعد ان مات ، ما أهمية ذلك ؟

لا عيد ميلاد ، لا قبر : لهذا لا أزال أبحث عنه تلمساً عبر هذه الحياة التي كان يحبها في صخب . انني أمد يدي نحو الزجاجة الكهربائية ، ثم اتركها تسقط : في درجي توجد صورة لدييغو ، ولكن مهما أطلت النظر إليها ساعات ، فلن أجد أبداً ثانية تحت كتلة الشعر وجهه الذي هو من لحم ، ذلك الوجه الذي كان كل شيء فيه كبيراً : العينان ، الانف ، الاذنان ، الفم . كان جالساً في المكتب

---

[1] ـ مدينة المانية كانت معسكراً كبيراً للاعتقال بين ١٩٣٧ و ١٩٤٥. « المترجم ».

وروبير يسأله : « في حالة انتصار النازية ، ماذا ستفعل ? » . فأجاب : « انتصار النازية لا يدخل في خططي » . كانت خططه ان يتزوج نادين ويصبح شاعراً كبيراً . ولعله كان سينجح : ففي السادسة عشرة ، كان يعرف كيف يحول الكلمات إلى جمر ، ولعله لم يكن بحاجة إلا لأقل الوقت : خمسة أعوام ، أربعة أعوام . كان يعيش بسرعة كبيرة . وكنا نتجمع حول المدفأة الكهربائية ، وأتلهى بالنظر إليه يلتهم هيغل أو كانت : كان يقلب الصفحات بسرعة وكأنه يتصفح رواية بوليسية . والحقيقة انه كان يفهم . أحلامه فقط كانت بطيئة .

كان يقضي عندنا كل وقته تقريباً . كان ابوه يهودياً اسبانياً يعاند في كسب المال في الأعمال . وكان يعتبر نفسه محمياً من قبل قنصل اسبانيا . وكان ديبغو يأخذ عليه ترفه وعشيقة شقراء بدينة . وكان تقشفنا يعجبه . ثم كان في العمر الذي يعجب فيه المرء بالآخرين ، وكان معجباً بروبير . لقد جاء ذات يوم يحمل إليه أشعاره وهكذا عرفناه . ومنذ اللحظة التي التقى فيها بنادين ، أعطاها حبه بقوة : حبه الأول والوحيد . ولقد أزعجها ان تشعر بنفسها ، ضرورية أخيراً. وجعلت ديبغو يقيم في البيت . وكان يميل إلي ، على الرغم من انه كان يجدني منطقية أكثر من اللازم . وعند المساء ، كانت نادين تطلب ان أذهب لأغطيها ، كما في الماضي ، فكان يسألني وهو راقد قربها : « وأنا ? ألا تقبلينني ? » . وكنت أقبله . في تلك السنة ، كنا صديقتين ، أنا وابنتي . كنت شاكرة لها ان تكون قادرة على حب مخلص . وكانت تعترف لي بالجميل على انني لم أقاوم قلبها . ولمَ أفعل ذلك ? لم تكن إلا في السابعة عشرة : لكننا كنا نعتقد أنا وروبير انه ليس من السابق للأوان أبداً ان يحصل المرء على السعادة .

كانا يعرفان كيف يكونان سعيدين بحماسة شديدة ! وكنت أجد، قربهما ، شبابي ثانية . كانا يقولان وكل منهما يشدني من إحدى ذراعي : « تعالي تناولي طعام العشاء معنا ، تعالي ، هذا المساء عيد » . وفي ذلك اليوم كان ديبغو قد سرق من والده قطعة ذهب : كان يفضل الأخذ على التلقي ، وكان هذا من طبيعة سنه . وكان قد استبدل كنزه بدون صعوبة أوراقاً مالية وأمضى بعد الظهر مع

نادين على جبال لونابارك الروسية . وعندما التقيت بهما مساء في الشارع ، كانا يلتهمان قرصاً ضخماً من المعجنات اشترياه من مؤخرة دكان خباز : كانت تلك هي طريقتهما في فتح شهيتهما . ورفض روبير ، الذي دعي بالتلفون ، ان يترك عمله . ورافقتهما أنا . كان وجهاهما ملطخين بالمعقود ، وأيديهما سوداء بكل غبار المعارض ، وفي عيونهما كبرياء المجرمين السعداء : لا شك في ان صاحب الفندق قد ظن انهما جاءا ينفقان بسرعة مالاً حصلا عليه بطريقة غير شرعية . وأشار لنا إلى طاولة في المؤخرة وسأل في أدب جليدي : « السيد لا يرتدي سترة ؟ » . وألقت نادين ، على كنزة دييغو العتيقة المثقوبة ، سترتها الخاصة ، كاشفة عن قميص مدعوك ومتّسخ : إلا انهم خدمونا . وطلبا أولاً بوظة ، وسردينا ، ثم بفتيكاً ، وبطاطا مقلية ، ومحاراً ، ثم بوظة ايضاً ، وشرحا لي وهما يغرفان بملء فمهما من الزيت والقشدة : « على كل حال ، انها تختلط في المعدة » . كانا فرحين جداً بالأكل حتى الامتلاء ! ومهما فعلت فنحن دوماً أكثر او أقل جوعاً . كانا يقولان لي بلهجة آمرة : « كلي ، كلي » . ووضعا في جيوبهما قطعاً من الفطائر لروبير .

بعد فترة من ذلك الحين قرع الالمان ذات صباح منزل السيد « سيرا » : فقد بدل قنصل اسبانيا دون ان يعلم ، وكان دييغو قد نام في بيت والده ، تلك الليلة . ولم تقلق الشقراء . وقال دييغو : « قولي لنادين ألا تخاف عليّ . سأعود لأنني أريد ان أعود » . وكانت هذه آخر كلمات تلقيناها منه . والكلمات الأخرى كلها قد ابتلعت إلى الأبد ، هو الذي كان يحب الكلام كثيراً .

كان ذلك في الربيع . والسماء شديدة الزرقة ، وأشجار الخوخ لا تزال وردية . وعندما كنا ندور على الدراجة ، أنا ونادين ، في الحدائق المزينة ، كانت في رئاتنا غبطة نهايات الأسبوع في أيام السلم . وكانت ناطحات سحاب درانسي تبقر بوحشية هذه الأكاذيب . وكانت الشقراء قد دفعت ثلاثة ملايين لألماني يدعى فيلكس كان ينقل رسائل من المسجونين ، وقد وعد بأن يساعدهما على الهرب . واستطعنا مرتين بواسطة منظار ان نشاهد دييغو من نافذة بعيدة . كانوا قد حلقوا خصائله الصوفية ولم يكن هو تماماً الذي يبتسم لنا : كانت صورته المشوهة تطوف

خارج العالم .

وبعد ظهر أحد أيام أيار وجدنا الثكنات الكبيرة فارغة . وكان بعض المجاذيب يتنشقون الهواء على حافة النوافذ المفتوحة على غرف فارغة . وقيل لنا في المقهى الذي كنا نضع فيه دراجتينا ان ثلاثة قطارات قد غادرت المحطة في الليل . ووقفنا أمام جدار الأسلاك الشائكة ، وراقبنا طويلاً ، وفجأة لمحنا من بعيد جداً ، ومن علو شاهق ، وجهين منفردين يميلان نحونا . وحرك الأصغر منهما سناً قبعته بحركة عريضة منتصرة : فليكس لم يكذب ، فدييغو لم ينقل . وكان الفرح يخنقنا ونحن نجري نحو باريس .

وقالت لنا الشقراء : « انهما في معسكر للأسرى الأميركان . انهما على ما يرام ، ويأخذان حمامات شمس » . لكنها لم تكن قد رأتهما . وأرسلنا لهما كنزات ، وشوكولا . وكانا يشكراننا بفم فليكس . ولكن لم تعد تصلنا منهما أية رسالة مكتوبة . وطلبت نادين علامة : خاتم دييغو ، خصلة شعر . ولكنهم في ذلك الحين بالذات نقلوهما إلى معسكر آخر ، ووضعوهما في مكان ما ، بعيداً عن باريس . وشيئاً فشيئاً كف غيابهما عن ان يكون موجوداً في أي مكان : كانا غائبين ، لا أكثر . الا تكون في أي مكان ، الا تكون مطلقاً ، ليس في ذلك كبير فرق . ولم يتبدل شيء عندما قال أخيراً فليكس في مزاج سيء : « لقد قتلا منذ زمن طويل » .

وعوت نادين طوال ليالٍ . من المساء إلى الصباح ، كنت أبقيها بين ذراعي . ثم وجدت النوم ثانية . وكان دييغو يأتي في أحلامها في البداية وكانت هيئته خبيثة . وبعد قليل ، تبخر حتى شبحه . انها على حق ، وليس صحيحاً انني ألومها . ما العمل بجثة ؟ انني أعرف : انهم يُستخدمون لصنع أعلام ، وتروس ، وبنادق ، وأوسمة ، وأبواق وكذلك تحف للمنازل : كلا من الأفضل ان يترك رمادهم في سلام . وسواء تحولوا إلى آثار تذكارية أم إلى غبار : فقد كانوا اخوتنا . ولكن لا اختيار لنا : لماذا غادرونا ؟ ليتركونا في سلام هم ايضاً . لننسهم . لنبقَ فيما بيننا . يكفينا ما علينا عمله تجاه حيواتنا . الأموات أموات . بالنسبة لهم ، لا توجد

مشاكل . ولكن نحن الأحياء ، بعد ليلة العيد هذه ، سوف نستيقظ . وآنذاك كيف سنعيش ؟

كانت نادين تضحك مع لامبير : واسطوانة تدور ، وأرض الغرفة ترتعد تحت أقدامنا ، واللهب الأزرق يرتجف . كنت أنظر إلى سيزوناك الذي كان راقداً بكل طوله على سجادة : كان يحلم بلا شك بالأيام المجيدة التي كان يتنزه فيها في باريس متقلداً بندقيته . كنت أنظر إلى شانسل الذي حكم عليه الالمان بالموت ثم بودل في اللحظة الأخيرة مقابل أحد أسراهم.وإلى لامبير الذي وشى أبوه بالخطيبة، وفانسان الذي قضى بيده على اثني عشر مليشياً . ماذا سيفعلون بهذا الماضي الثقيل جداً ، القصير جداً ، وبمستقبلهم المشوه ؟ هل سأعرف كيف أساعدهم ؟ المساعدة مهنتي : أستطيع ان أمددهم على أريكة وأجعلهم يروون أحلامهم . لكني لن أبعث روزا ، ولا الاثني عشر مليشياً الذين قضى عليهم فانسان بيده . وحتى لو تمكنت من جعل ماضيهم حيادياً ، فأي مستقبل لدي أقدمه لهم ؟ انني أبرر المخاوف ، وأشحذ الأحلام ، واقرض الرغبات ، واوفق ، واوفق ، ولكن بمَ اوفقهم ؟ انني لا أرى أي شيء حولي يقف على قدميه .

حقاً ، لقد شربت كثيراً . لست أنا التي خلقت السماء والأرض ، وما من أحد يسألني حساباً : فلمَ اهتم طوال الوقت بالآخرين ؟ انني أفعل حسناً ايضاً إذا اهتممت قليلاً بنفسي . انني أسند خدي إلى الوسادة . انني هنا ، أنا : السأم ، هو انني لا أجد في نفسي ما أفكر به . اواه ! لو سئلت من أنا ، لاستطعت ان أظهر سجلي . كي أصبح محللة ، اضطررت إلى تحليل نفسي . ووجدوا فيَّ عقدة اوديب راسخة جداً تفسر زواجي من رجل اكبر مني بعشرين عاماً ، وعدوانية واضحة تجاه أمي ، وبعض الميول اللوطية التي تصفّت بشكل مناسب . وانني مدينة لتربيتي الكاثوليكية بـ «أنا» عليا شديدة التطور : وهذا هو سبب طهرانيتي ونقص نرجسيتي . وتناقض العواطف التي أحملها لابنتي يعود إلى عداوتي تجاه أمي، ولامبالاتي تجاه نفسي . ان قصتي من أكثر القصص كلاسيكية ، ولقد انطوت بوداعة كبيرة تحت أطر . متوقعة . وحالتي في نظر الكاثوليك ، عادية جداً : لقد

كففت عن الايمان بالله عندما اكتشفت تجارب الشهوانية . وقد انتهى بي زواجي من ملحد إلى الضياع التام . واجتماعياً ، انني وروبير من مثقفي اليسار . لا شيء من هذا كله غير صحيح تماماً . فها انا إذن مصنفة بشكل واضح وراضية بأن أكون كذلك ، متفقة مع زوجي ، مع مهنتي ، مع الحياة ، مع الموت ، مع العالم ، مع فظائعه . انني انا ، انا تماماً ، اي لا احد .

ان لا أكون لا احد ، فهذا باختصار امتياز . كنت أنظر إليهم يذهبون ويأتون عبر الاستديو ، اولئك جميعاً الذين لهم أسماء ، ولم أكن أحسدهم . حسناً، ان روبير مختار مسبقاً . لكن الآخرين ، كيف يجرؤون ؟ كيف يمكنهم ان يكونوا بمثل هذا الصلف أو بمثل هذا الطيش ليلقوا بأنفسهم مرعى لشرذمة من المجهولين ؟ ان اسماءهم تتسخ في آلاف الأفواه . والفضوليون ينهشون فكرهم ، وقلبهم ، وحياتهم : لو كنت معرّضة ايضاً لبخل جامعي الحرق هؤلاء ، لانتهى بي الأمر إلى اعتبار نفسي كومة من القاذورات . انني أهنىء نفسي على انني لست احداً .

لقد اقتربت من بول. ان الحرب لم تقض على اناقتها العدوانية. كانت ترتدي تنورة طويلة من الحرير ذات انعكاسات بنفسجية ، وفي اذنيها عناقيد من الجمشت. وقلت :

ـ انت جميلة جداً هذا المساء .

فألقت نظرة إلى إحدى المرايا الكبيرة ، وقالت في حزن :

ـ نعم ، انني جميلة .

كانت جميلة ، ولكن تحت عينيها ، كانت هناك دوائر منسجمة مع لون ثيابها . في اعماقها ، كانت تعرف جيداً ان هنري يستطيع ان يصطحبها إلى البرتغال ، كانت تعلم أكثر مما تدعي .

ـ يجب ان تكوني مسرورة : لقد أنجحتِ سهرتك .

فقالت بول :

ـ هنري يحب الحفلات كثيراً .

كانت يداها المثقلتان بالخواتم الكبيرة تصقلان آلياً حرير ثوبها المتبدل الألوان.
- ألن تغني لنا شيئاً ما ؟ انني أسر بسماعك .
فقالت مبغوتة :
- أغني ؟
فقلت ضاحكة :
- نعم ، تغنين . أنسيت انك كنت تغنين في الماضي ؟
فقالت :
- في الماضي ، هذا بعيد .
- ليس الآن . الآن هو من جديد كالماضي .
- أتعتقدين ؟ » وغاصت نظرتها في أعماق عيني ، وكأنها تسأل من خلف وجهي كرة من زجاج : « أتعتقدين ان الماضي يمكن ان يبعث ؟ » .
كنت اعلم اي جواب تنتظر مني ، فضحكت بشيء من الحرج : انني لست عارفة بالغيب » .
فقالت بلهجة متألمة :
- يجب ان يشرح لي روبير ما هو الزمن ؟
كانت على استعداد بأن تنفي المكان والزمان قبل ان تقبل بأن الحب يمكن ان يكون غير أبدي . كنت خائفة عليها . لقد فهمت خلال هذه السنوات الأربع ان هنري لا يمنحها إلا عاطفة سئمة . ولكن منذ التحرير ، لا أدري أي أمل مجنون استيقظ في قلبها .
- أتذكرين أغنية « الزنجي الرومي » التي كنت أحبها كثيراً ؟ ألا تريدين ان تغنيها لنا ؟
وسارت نحو البيانو ، فرفعت الغطاء . كان صوتها أصم قليلاً ، لكنه لا يزال مثيراً للانفعال . وقلت لهنري : « يجب ان تمثل من جديد أمام الجمهور ». وبدت عليه الدهشة . وعندما انطفأ التصفيق ، اقترب من نادين وأخذا يرقصان : انني لا أحب الطريقة التي كانت تنظر بها إليه . هي ايضاً ، لم أكن أملك أية وسيلة

لمساعدتها . كنت قد اعطيتها ثوبي الوحيد اللائق واعرتها اجمل عقد عندي : كان هذا كل ما أستطيع فعله . لا فائدة من استكشاف احلامها : انني اعرف . ان ما تحتاجه هو الحب الذي كان لامبير على أتم استعداد لمنحها إياه . ولكن ما السبيل إلى منعها من هدمه ؟ ومع ذلك ، عندما دخل لامبير إلى الاستديو ، كانت قد صعدت أربعاً أربعاً الدرج الصغير الذي راحت تراقبنا من أعلاه بوجه مؤنب . وجمدت عند الدرجة الأخيرة ، وقد ضايقها انطلاقها . وتقدم نحوها ، وابتسمت له برصانة :

– انني سعيد بمجيئك .

فقالت بلهجة قاسية :

– لقد جئت لأراك .

كان حقاً جميلاً جداً هذا المساء في طقمه الأنيق القاتم . انه يلبس ثيابه في تقشف ابن الأربعين . وله حركات احتفالية ، وصوت رصين ، وهو يراقب ابتساماته ، لكن اضطراب نظرته ، وعذوبة فمه يبينان عن شبابه . ان نادين مزهوة بحديثه ، ومطمئنة لضعفه . وكانت تتفرس وجهه في إعجاب أبله قليلاً :

– هل لهوتَ جيداً ؟ يبدو ان الالزاس جميلة !

– أتعرفين ، عندما يمتلىء احد المشاهد بالسلاح ، يصبح كئيباً .

وجلسا على احدى درجات السلم ، وتحدثا ، ورقصا وضحكا مدة طويلة . ثم كان لا بد ان يتخاصما رغبة في التغيير : ان الأمور تنتهي دوماً مع نادين على هذا النحو . ان لامبير جالس الآن إلى جانب المدفأة ، بادياً عليه الغضب : ولم يكن هناك مجال للاتيان بها من طرفي الاستديو وضم أيديها .

وسرت نحو المائدة وشربت كأساً من العرق . وانسابت نظرتي على طول تنورتي السوداء وتوقفت عند ساقي : كان غريباً ان أفكر بأن لي ساقاً ، ولم يكن أي شخص يشك في ذلك ، حتى ولا أنا . كانت نحيفة وصلبة تحت ثوبها الحريري الذي هو بلون الخبز المحترق ، وكانت تساوي بسهولة ساقاً أخرى . وذات يوم سوف تدفن دون ان تكون قد وجدت ابداً : كان هذا يبدو غير عادل . كنت

غارقة في تأملها عندما جاء سكرياسين نحوي :

– لا يبدو عليك انك تلهين كثيراً ؟

– انني افعل ما استطيع .

– يوجد كثير من الشبان ، والشبان ليسوا أبداً مرحين . وكثيراً جداً من الكتّاب . وبحركة من ذقنه ، أشار إلى لونوار ، وبيلوتيه ، وكانج : « انهم يكتبون كلهم ، أليس كذلك ؟ » .

– كلهم .

– وأنت ، ألا تكتبين ؟

فقالت ضاحكة : – « يا إلهي كلا ! » .

كانت حركاته الجلفة تعجبني . كنت قد قرأت سابقاً كسائر الناس كتابه المشهور « الفردوس الأحمر » ، ولكني انفعلت على الاخص بمؤلفه عن النمسا النازية : كان افضل من ريبورتاج ، كان شهادة متحمسة . لقد هرب من النمسا بعد روسيا وتجنس بالجنسية الفرنسية . لكنه أمضى هذه السنوات الأربع في اميركا والتقينا به لأول مرة هذا الخريف . وسرعان ما خاطب دوبروي وهنري بضمير المفرد ، لكن لم يبد عليه انه لاحظ وجودي . واشاحت نظرته عني : « انني أتساءل ماذا سيصبحون ؟ » .

– من ؟

– الفرنسيون عامة وهؤلاء خاصة .

وبدوري تفحصته . هذا الوجه المثلث ، ذو الغمازتين الناتئتين ، والعينين الحادتين القاسيتين ، والفم النحيف الأنثوي تقريباً ، لم يكن وجهاً فرنسياً . لقد كان الاتحاد السوفياتي بالنسبة له بلداً عدواً ولم يكن يحب اميركا : ليس ثمة مكان على الأرض يشعر فيه بأنه في بيته . وقال مبتسماً ابتسامة صغيرة :

– لقد عدت من نيويورك على مركب انكليزي . ولقد قال لي النادل ذات يوم : « يا للفرنسيين المساكين انهم لا يعلمون ما إذا كانوا قد ربحوا الحرب او خسروها » . هذا يبدو لي انه يلخص الموقف جيداً .

كان في صوته مجـاملة تغضبني وقلت : « ان الاسماء التي تعطى للاحـــداث الماضية ، لا أهمية لها . ان ما هو مطروح على بساط البحث إنما هو المستقبل » .
فقال بحماسة :
ـ بالضبط . لإنجاح المستقبل ، يجب النظر إلى الحاضر وجهـاً لوجه . وأنا أشعر ان الناس لا يدركون هـذا مطلقاً . ان دوبروي يحدثني عن مجلة أدبيـة ، وبيرون عن رحلة سياحية : يبدو عليهم انهم يتخيلون انهم يستطيعون العيش كما في ما قبل الحرب .
ـ ولقد أرسلتك السماء لتفتح أعينهم ؟
كان صوتي جافاً وابتسم سكرياسين :
ـ أتعرفين لعبة الشطرنج ؟
ـ معرفة سيئة للغاية .
كان يتابع ابتسامته ، وقـد امحى كل ادعاء من وجهه : لقد كنا دومـاً صديقين حميمين ، شريكين . وفكرت : ها هو يواجهني بالسحر السلافي . ولكن السحر كان يؤثر ، فابتسمت أنا ايضاً .
ـ في الشطرنج ، عندما أشاهد اللعب من الخارج ، أرى الضربات بأوضح مما يراها اللاعبون ، حتى ولو لم أكن في براعتهم . حسناً ! هنا الحال مشابهة جداً : انني قادم من الخارج ، إذن فأنا أرى .
ـ ماذا ؟
ـ المأزق .
ـ أي مأزق ؟
على حين فجأة وجدت نفسي أسأله في قلق . لقد عشنا فترة طويلة فيما بيننـا ، جنباً إلى جنب بدون شاهد : هذه النظرة القادمة من مكان آخر كانت تقلقني .
وأضاف بنوع من الرضى :
ـ ان المثقفين الفرنسيين في مأزق . انه دورهم . ان فنهم ، وفكرهم لـن يحتفظا بمعنى إلا إذا نجحت حضارة معينة في البقاء . وإذا أرادوا إنقاذها ، فلـن

يبقى لهم شيء يقدمونه لا للفن ولا للفكر .

فقلت :

– انها ليست المرة الأولى التي يمارس فيها روبير السياسة فعلياً . فهذا لم يمنعه أبداً من الكتابة .

فقال سكرياسين بصوت أنيس :

نعم ، في ١٩٣٤ ضحى دوبروي بالكثير من وقته للنضال ضد الفاشيـــة ، ولكنه كان يبدو له متفقاً اخلاقيـاً مع المشاغل الأدبية . » وأضاف بنوع مـن الغضب : « في فرنسا ، لم تشعروا ابداً بوطأة التاريخ بكل عجلته . في الاتحـاد السوفياتي، والنمسا، والمانيا، كان من المستحيل تجنبه. ولهذا لم أكتب أنا مثلاً».

– لقد كتبت .

– أتظنين انني لم أكن أحلم ايضاً بكتب أخرى ؟ ولكن لم يكن هناك مجال لها . » وهز كتفيه : « لا بد ان يكون وراء المرء تقاليد مقدسة في المـــذهب الانساني حتى يهتم بمشاكل الثقافة تجاه ستالين وهتلر » . وتابع : « من البديهي ، انكم ، في بلاد ديدورو ، وفيكتور هوغو ، وجوريس ، تتصورون ان الثقافـة والسياسة تسيران يداً في يد . لقد اخذت باريس مدة طويلة بأثينا ، ولكن أثينا لم تعد موجودة ، لقد انتهت » .

فقلت .

– فيما يتعلق بالاحساس بوطأة التاريخ ، اعتقد ان روبير يستطيع ان يسجل عليك نقطاً .

فقال سكرياسين بابتسامة صغيرة ترفض أي مدى لكلماتي التي كان يحيلها إلى مجرد انفجار للوفاء الزوجي :

– انني لا أهاجم زوجك . » وأضاف : « انني أعتبر ان أكبر عقلين في هذا العصر هما روبير دوبروي وتوماس مان . ولكن بالضبط : إذ كنت أتنبأ بأنـه سيهجر الأدب ، فلأنني أؤمن بذكائه » .

وهززت كتفي . إذا كان يريد ان يجتذبني بالمجاملة ، فهو يخطىء الطريق: انني

أكره توماس مان . وقلت :

– لن يهجر روبير الكتابة أبداً .

فقال سكرياسين :

– ان ما هو يمتاز في أعمال دوبروي هو انه عرف كيف يوفق بين المتطلبات الجماعية الرفيعة وبين الالهام الثوري . ولقد حقق في حياته توازناً مماثلاً : فقد كان ينظم لجان « الطواريء » ويكتب روايات . ولكن ، بالضبط ، هذا التوازن الجميل هو الذي أصبح مستحيلاً .

فقلت :

– سيخترع روبير توازناً آخر . إعتمد عليه .

فقال سكرياسين :

– سوف يضحي بتطلباته الجمالية . » وأضاء وجهه وسأل بلهجة منتصرة: « هل درست ما قبل التاريخ ؟ »

– ليس أكثر من الشطرنج .

– ولكن لعلك تعلمين انه خلال فترة طويلة تكون الرسوم الحائطية والأشياء التي وجدت في التنقيبات شاهدة على تقدم فني مستمر . وفجـأة تختفي الرسوم والتماثيل ، ويلاحظ خسوف لمدة قرون يرافقه انطلاق تكنيكات جديدة. حسناً ! اننا نقترب من عصر ستكون فيه الانسانية لأسباب عدة فريسة لمشاكل لن تترك لها ترف التعبير عن نفسها .

فقلت :

– ان المحاكمات العقلية عن طريق التشابه لا تثبت شيئاً كبيراً .

فقال سكرياسين بصوت صابر :

– دعينا من هذه المقارنة . افترض انك عشت هذه الحرب عن قرب قريب جداً كي تفهميها جيداً . انها شيء آخر غير الحرب : تصفية مجتمع بل وحتى عالم . بداية التصفية . ان تقدم العلم والتكنيك ، والتبديـلات الاقتصادية سوف تقلب الأرض بشدة إلى حد ان طرقنا في التفكير والاحساس سوف تتغير : سوف نلقى

المشقة في تذكر ما كنّاه . ان الفن والأدب ، وغيرهما لن تبدو لنا إلا تسلية بالية .

وهززت رأسي وتابع سكرياسين في حرارة :

ـ لترَ ، اية أهمية ستظل لرسالة الكتاب الفرنسيين عندما تعود الهيمنة على العالم إلى الاتحاد السوفياتي أو الولايات المتحدة الأميركية ؟ لن يفهمهم اي انسان ، بل ولن يتحدث أحد بلغتهم .

فقلت :

ـ كأني بهذه النهاية تسرّك .

فهز كتفيه : « هوذا تفكير انثوي . انهن عاجزات عن البقاء فوق أرض موضوعية » .

فقلت :

ـ لنبق عليها . موضوعياً ، لم يثبت ان العالم يجب ان يصبح اميركياً أو روسياً .

ـ آجلاً أو عاجلاً ، ولكن هذا محتم . » وأوقفني بحركة وابتسم لي ابتسامة سلافية جميلة : « انني أفهمك . ان التحرير لا يزال في أوله . أنتم تسبحون جميعاً في شعور من الهناء . خلال أربعة أعوام تألمتم كثيراً . أنتم تعتقدون انكم دفعتم بما فيه الكفاية : ان المرء لا يدفع بما فيه الكفاية ابداً » . قال ذلك في حدة مفاجئة . ونظر في عيني : « هل تعلمين ان في واشنطن فئة قوية جداً تريد ان تمتد حملة المانيا حتى موسكو ؟ من وجهة نظرهم ، معهم حق . فالامبريالية الأميركية كالدكتاتورية الروسية تتطلب توسعاً لا حدود له : لا بد ان تنتصر احداهما » . وغضب صوته : « أنتم تعتقدون انكم تحتفلون بالهزيمة الالمانية : ولكنها الحرب العالمية الثالثة التي تبدأ » .

فقلت :

ـ انها تحليلاتك الشخصية .

فقال سكرياسين :

– أعرف ان دوبروي يؤمن بالسلم وبحظ اوروبا . وابتسم في تسامح : « لقد يحدث حتى للعقول الكبيرة ان تخطىء. سوف يمحونا ستالين أو تستعمرنا اميركا. .

فقلت في مرح :

– إذن ليس هناك مأزق . فلا فائدة من الغضب : من تلهيهم الكتابة ليس عليهم إلا ان يتابعوا .

– الكتابة عندما لا يكون هناك من يقرأ . يا لها من لعبة بلهاء !

– عندما يكون كل شيء مقضياً عليه ، لا يبقى إلا اللعب بألعاب بلهاء !

وسكت سكرياسين، ثم مرت ابتسامة محتالة على وجه ، وقال بلهجة اعتراف : « بعض الظروف ستكون على كل حال أقل سوءاً من غيرها . وفي حالة انتصار الاتحاد السوفياتي ، ليست هناك مشكلة : انها نهاية الحضارة ونهايتنا جميعاً . وفي حال انتصار اميركا . فستكون الكارثة أقل جذرية . وإذا نجحنا في ان نفرض عليها بعض القيم ، ونحتفظ ببعض أفكارنا ، يمكننا ان نأمل بأن الأجيال القادمة ستعقد الصلة ذات يوم من جديد مع ثقافتنا وتقاليدنا : ولكن يجب ان نفكر بالتعبئة الكاملة لكل امكانياتنا » .

فقلت :

– لا تقل لي انك في حالة نشوب حرب تتمنى انتصار اميركا !

فقال سكرياسين :

– على كل حال ، لا بد للتاريخ ان ينتهي إلى قيام مجتمع بلا طبقات : انها مسألة قرنين أو ثلاثة . ولسعادة البشر الذين سيعيشون أثناء هذه الفترة ، أتمنى بحرارة ان تتم الثورة في عالم تسيطر عليه اميركا لا الاتحاد السوفياتي .

فقلت :

– في عالم تسيطر عليه اميركا ، أشعر بأن الثورة سوف تنتظر نفسها بشكل مضحك .

– وتتصورين انها ستكون ثورة يقوم بها الستالينيون ؟ الثورة : لقد كانت جميلة حقاً في فرنسا ، حوالي ١٩٣٠ . اما في الاتحاد السوفياتي فإنني أجيبك انها

كانت أقل جمالاً » . وهز كتفيه : « أنتم تهيئون لأنفسكم مفاجآت غريبة ! في اليوم الذي سيحتل فيه الروس فرنسا ستبدأون وعي ذلك. ومع الأسف سيكون قد فات الأوان ! » .

فقلت :

– احتلال روسي : أنت نفسك لا تؤمن به .

فقال سكرياسين :

– وا أسفاه ! » وتنهد : اخيراً ، ليكن . لنكن متفائلين . لنقبل بأن لأوروبا فرصاً . ولكن لن يمكن انقاذها إلا بالنضال كل لحظة . لا مجال للعمل من أجل الذات » .

وبدوري ، سكت . كل ما كان سكرياسين يتمناه هو ان يضطر الكتاب الفرنسيون إلى الصمت ، وكنت أفهم جيداً لماذا . ولم يكن في تنبؤاته ما يقنع . ومع ذلك فقد كان صوته المأساوي يوقظ فيّ صدى : « كيف سنعيش ؟ » . كان السؤال ينخزني منذ بداية السهرة . منذ كم من أيام وأسابيع ؟

وهددني سكرياسين بنظرته : « واحد من أمرين : اما ان ينظر رجال كدوبروي وبيرون إلى الموقف وجهاً لوجه ، ويلتزموا في عمل يستهلكهم كلياً ، واما ان يغشوا ، ويصروا على الكتابة ، فتكون أعمالهم مفصولة عن الواقع ومحرومة من كل مستقبل . انها ستكون أعمال عميان ، مثيرة للأعصاب كشعر الاسكندريين » .

من الصعب التناقش مع مخاطب عندما يتحدث عن العالم وعن الآخرين ، يتحدث بلا انقطاع عن نفسه . لم أكن أستطيع ان اطمئن نفسي دون ان أجرحه . ومع ذلك قلت :

– من العبث سجن الناس في اختيار ذي حدين . فالحياة تنسفه دوماً .

– ليس في مثل هذه الحالة . الاسكندرية أو اسبارطة ، ليس هناك اختيار آخر . » وأضاف بنوع من العذوبة : « من الأفضل ان نصارح أنفسنا بهذه الأشياء اليوم : فالتضحيات تكف عن ان تكون مؤلمة عندما تصبح خلف المرء » .

– أنا واثقة ان روبير لن يضحي بشيء .
فقال سكرياسين :
– سنعاود الحديث عن هذا بعد سنة . فبعد سنة ، اما ان يكون قد هرب أو كف عن الكتابة . ولا أعتقد انه سيهرب .
– لن يكف عن الكتابة .
فتألق وجه سكرياسين : « علامَ نراهن ؟ على زجاجة شمبانيا ؟ » .
– لا أراهن على شيء مطلقاً .
وابتسم : « أنت كجميع النساء . فأنت بحاجة إلى نجوم ثابتة في السماء وإلى انصاب كيلومترية على الطرق .
وقلت وانا أهز كتفي :
– أتعرف ، لقد رقصتْ بشكل غريب خلال هذه السنوات الأربع ، تلك النجوم الثابتة .
– نعم ، ولكنك ما زلت مقتنعة بأن فرنسا ستكون دوماً فرنسا ، وروبير دوبروي ، روبير دوبروي . وإلا لاعتقدت نفسك هالكة .
فقلت في مرح :
– قل إذن ، ان موضوعيتك تبدو لي مشكوكاً فيها جداً .
فقال سكرياسين :
– انني مضطر إلى متابعتك على ارضك: فأنت لا تعارضينني إلا بقناعات ذاتية.
وبعثت ابتسامة الحرارة في عينيه المستجوبتين :
– أنت تنظرين إلى الأمور بجدية كبيرة ، أليس كذلك ؟
– هذا يتوقف .
فقال :
– لقد حُذّرت ، لكني أحب النساء الجديات .
– من حذرك ؟
وبحركة مبهمة أشار إلى جميع الناس وإلى أحد : « الناس » .

– ماذا قالوا لك ؟

– انك متحفظة ومتقشفة ، لكني لا أجدك كذلك .

وشددت على شفتي كيلا أطرح سؤالاً آخر. لقد عرفت كيف أحبط ألاعيب فخ المرايا . ولكن النظرات ، من يستطيع ان يقاوم هذه الهاوية المدوخة ؟ انني ارتدي ثياباً سوداء ، واتكلم قليلاً ، ولا أكتب وكل هذا يشكل لي وجهاً والآخرون يرونه : انني لست احداً ، هذا سهل القول ، انني انا . من انا ؟ اين ألتقي بنفسي ؟ لا بد لذلك من ان أكون في الجانب الآخر لجميع الأبواب ، ولكن إذا كنت انا التي تقرع ، فسوف يخرسون . وأحسست فجأة بوجهي يحرقني ، وودت لو أسلخه . وقال سكرياسين :

– لمَ لا تكتبين ؟

– هناك ما فيه الكفاية من الكتب .

– انه ليس السبب الوحيد » . كان يحدق بي بعينيه الصغيرتين المنقبتين : « الحقيقة انك لا تريدين ان تعرّضي نفسك » .

– أعرّض نفسي لأي شيء ؟

– يبدو عليك انك واثقة جداً من نفسك ، ولكنك في الحقيقة خجولة للغاية. انت من اولئك الناس الذين يضعون كبرياءهم في ما لا يفعلونه .

فقاطعته :

– لا تحاول ان تحلل لي نفسيتي ، فأنا اعرفها جيداً : انني طبيبة نفسية .

– اعرف . » وابتسم لي : « ألا نستطيع ان نتناول طعام العشاء معاً ذات مساء ؟ ان المرء يشعر بضياع عظيم في باريس هذه الشديدة السواد ، ولا يعود يعرف انساناً » .

وفكرت فجأة : « هوذا رجل ، لي ساقان بالنسبة له » . وأخرجت دفتري الصغير . لم يكن عندي أي سبب للرفض . وقلت :

– لنتعش معاً . هل تريد في ٣ كانون الثاني ؟

– اتفقنا . في الساعة الثامنة ، في بار ريتز . أهذا مناسب ؟

– مناسب .

كنت أشعر بانزعاج . اواه ! لم أكن أبالي بما يعتقده عني بعـــد كل شيء . فعندما أتبين في صميم وعي غريب صورتي الخاصة ، أشعر دومـــاً برعب للحظة ، لكنها لا تدوم ، وأتخطاها . ولكن ما كان يربكني ، هو ان أرى روبير مـن خلال عينين ليستا عيني . هل هو في مأزق حقاً ؟ كان قد أمسك بول من خصرها وأخذ يديرها وبيده الأخرى كان يرسم لا أدري اي شيء في الهواء . لعله كان يشرح لها مضي الزمن ، وعلى كل حال كانت تضحك ، ويضحك ، ولم يكن يبدو عليه انه في خطر. لو كان في خطر ، نعرف ذلك: انه لا يخطىء غالباً ولا يكذب على نفسه ابداً . وذهبت لأختبىء في فرجة إحدى النوافذ ، وراء ستارة حمراء . لقد قال سكرياسين الكثير من الحماقات ، لكنه طرح بعض الأسئلة التي لم أستطع الخلاص منها بسهولة . طوال هذه الأسابيع ، كنت أهرب من الأسئلة . لقد انتظرنا كثيراً هذه اللحظة : التحرير ، النصر ، وكنت أريد ان استفيد منهـا . وسيكون ابداً أمامي وقت غداً لأفكر باليوم التالي . حسناً ! ها انا أفكر فيه وأتساءل عما يفكر به روبير . لم تكن شكوكه لتعبر عن نفسها ابداً بالخمود ، بل بفرط النشاط : تُرى ، ألا تخفي تلك المحادثات ، وتلك الرســـائل ، وتلك الاتصالات الهاتفية، ومشاريع العمل الليلي تلك، قلقاً ما ؟ انه لا يخفي علي شيئاً، ولكن يحدث له أحياناً ان يحتفظ لنفسه مؤقتاً ببعض الهموم. وفكرت في تأنيب ضمير : « على كل ، لقد قال لبول في هذه الليلة ايضاً : اننا في مفترق الطرق » . كان يقول ذلك غالباً ، وإنما عن جبن كنت أتحاشى ان أعطي هذه الكلمات وزنها الحقيقي : « مفترق الطرق » . إذن فالعالم ، في نظر روبير ، في خطر . والعالم ، بالنسبة لي ، هو : انــه في خطر ! عندما كنا نعود وأذرعنا متشابكة على طـول الأرصفة عبر الظلمات المألوفة ، كان صوته السريع لا يكفي لإعـــادة الطمأنينة إلي . لقد رأى كثيراً وكان مرحاً جداً ، وعندما ظل محبوساً طوال أيام وليالٍ كان أقلّ خروج يصبح ملحمة. ولقد أخذتْ هذه الليلة في فمه كثيراً من الرونق إلى حد خيل إلي معه انه قد اجتازها مغلق العينين . لقد كانت له عيون حول

رأسه كله ، واثنا عشر زوجاً من الآذان ، كنت اصغي اليه ولكن خلسة واتابع التساؤل . تلك المذكرات التي كتبها بحماسة طوال الحرب ، لم ينهها ، لماذا ؟ هل هذا عرَض ؟ ولأي شيء ؟

كان روبير يقول :

ـ يا لبول التعيسة ! انها كارثة بالنسبة لامرأة ان تكون محبوبة من قبل أديب . لقد صدقت كل ما كان بيرون يرويه عنها .

وحاولت ان أركز اهتمامي على بول ، وقلت :

ـ أخشى ان يكون التحرير قد لعب برأسها . في العام الماضي كانت قد كفّت عن التوهم . وها هي الآن تعود إلى لعب دور العاشقة المجنونة . لكنها تلعب بمفردها .

فقال روبير :

ـ كانت تريد بإصرار ان تجعلني أقول ان الزمن غير موجود .

وأضاف : « أفضل ما في حياتها هو وراءها . والآن وقد انتهت الحرب، فهي تأمل ان تجد الماضي ثانية » .

فسألت :

ـ لقد أملنا جميعاً ، أليس كذلك ؟

وخيّل إلي ان صوتي كان ضاحكاً لكن روبير شد على ذراعي :

ـ ما الذي لا يسير ؟

ـ فقلت بلهجة طليقة :

ـ لا شيء ، كل شيء يسير على ما يرام .

فقال روبير :

ـ هيا ! هيا ! انني أعرف ما يعني ان تأخذي صوت سيدة دنيوية . انني واثق ان الأشياء تدور بثقل الآن في هذا الرأس . كم كأساً تناولت من البانش ؟

ـ يقيناً أقل منك . ثم ان البانش لا دخل له .

فقال روبير بلهجة منتصرة :

ـ آه ! انت تعرفين ! هناك شيء ما والبانش لا دخل له فيه : ماذا إذن ؟
فقلت ضاحكة :
ـ انه سكرياسين . لقد شرح لي ان المثقفين الفرنسيين مقضي عليهم .
ـ انه يود ذلك جداً !
ـ اعرف . ولكنه أخافني على كل حال .
ـ فتاة كبيرة في مثل سنك تترك نفسها تتأثر بأول نبي قادم ! انني أحب سكرياسين جداً ، فهو يضطرب ، ويهذي ، ويثور ، والعين تتحرك حوله. ولكن يجب ألا يؤخذ على مأخذ الجد .
ـ انه يقول ان السياسة ستأكلكم ، وانكم لن تكتبوا بعد الآن !
فقال روبير في مرح :
ـ وصدقته ؟
فقلت :
ـ ولكن من الصحيح ايضاً انك لا تنهي مذكراتك .
وتردد روبير لحظة ، وقال :
ـ انها حالة خاصة .
ـ لماذا إذن ؟
ـ انني أعطي كثيراً من الأسلحة ضدي في هذه المذكرات !
فقلت في حدة :
ـ إنما لهذا يساوي الكتاب ما يساويه . انسان يجرؤ على كشف نفسه : هذا نادر جداً ! وعندما يجرؤ نهائياً ، يربح اللعبة .
فقال روبير :
ـ نعم، بعد ان يموت» . وهز كتفيه : « ها انا قد دخلت في الحياة السياسية، وعندي مجموعة من الأعداء : أتدركين فرصتهم عندما ستظهر هذه المذكرات؟ » .
فقلت :
ـ ان أعداءك سيجدون دوماً أسلحة ضدك ، هذه الأسلحة أو غيرها .

فقال روبير :

– تصوري هذه المذكرات في يد لافوري ، أو لاشوم ، أو الصغير لامبير . أو في يد صحفي .

لقد وجد روبير ثانية وهو يكتب هذا الكتاب، مقطوعاً عن كل حياة سياسية، عن كل مستقبل ، عن كل جمهور ، جاهلاً حتى ما إذا كان سينشر الوحدةَ الغفل للمبتدىء الذي يجازف بنفسه دون نقاط ارتكاز ، دون حواجز ، في المغامرة . وهو برأيي لم يكتب ابداً أفضل منه . وقلت في نفاد صبر :

– إذن عندما يمارس الانسان السياسة ، ألا يعود يحق له ان يكتب كتباً صادقة ؟

فقال روبير :

– بلى . ولكن ليس كتباً فاضحة . وانت تعرفين جيداً ان هناك ألف شيء اليوم لا يستطيع الانسان ان يتحدث عنها دون فضيحة » . وابتسم : « في الحقيقة ، ان كل ما هو فردي يؤدي إلى الفضيحة » .

وسرنا بضع خطوات في صمت : « لقد أمضيتَ ثلاث سنوات في كتابة هذه الذكريات ، ألا تبالي بإلقائها في أعماق درجي ؟ » .

– انني لم أعد أفكر فيها . انني أفكر بكتاب آخر .

– ماذا إذن ؟

– سأحدثك عنه خلال بضعة ايام .

وتفرست في وجه روبير في شك: « وهل تعتقد انك ستجد الوقت لكتابته؟» .

– بالتأكيد .

– اواه ! هذا لا يبدو لي أكيداً جداً : ليس عندك دقيقة لك .

– في السياسة ، البداية هي الصعبة : ثم يتراكم الوقت .

وبدا لي صوته مفرط الصدق . وألحت : « وإذا لم يتراكم ؟ هل ستتخلى عن حركتك أم ستكف عن الكتابة ؟ » .

فقال روبير مبتسماً :

– تعرفين ، لن تكون هناك مأساة إذا توقفت قليلاً . كم سودت من ورق في حياتك !

وانقبض قلبي : « كنت تقول قبل ايام ان عملك امامك ...

– ما زلت أعتقد ذلك . لكنه يستطيع أن ينتظر .

فسألت :

– ان ينتظر : شهراً ؟ سنة ؟ عشر سنين ؟

فقال روبير بصوت مصالح :

– اسمعي ، كتب أكثر أو أقل على الأرض ، فهذا ليس مهماً للغاية . والموقف مثير للحماسة . ادركي ذلك : انها المرة الأولى التي يمسك فيها اليسار بمصيره بين يديه ، انها المرة الأولى التي نستطيع ان نحول فيها تجمعاً مستقلاً عن الشيوعيين دون ان نغامر بخدمة اليمين : لن نترك هذه الفرصة تفلت ! لقد انتظرتها طوال حياتي .

فقلت :

– انا اجد كتبك مهمة جداً . ان ما تحمله للناس ، شيء فريد من نوعه . في حين ان العمل السياسي ، لست انت الوحيد الذي يستطيع ان يتولاه .

فقال روبير في مرح :

– انني الوحيد الذي يستطيع ان يؤديه حسب فكرتي . عليك ان تفهميني : لجان الطوارىء ، والمقاومة ، كانت مفيدة جداً . ولكنها تظل سلبية . واليوم ، البناء هو الهدف : وهذا مهم بطريقة أخرى .

– انني أفهم كل الفهم . ولكن عملك يهمني ايضاً اكثر .

فقال روبير :

– لقد آمنا دائماً بأننا لا نكتب للكتابة . في بعض الأحيان ، تكون أشكال العمل الأخرى مستعجلة أكثر .

فقلت :

– ليس بالنسبة لك . انت قبل كل شيء كاتب .

فقال روبير مؤنباً :

ـ تعلمين جيداً أن لا . ان ما يهمني قبل كل شيء هو الثورة .

فقلت :

ـ نعم . ولكن أفضل طريقة تملكها لخدمة الثورة هي أن تكتب كتبك .

فهز روبير رأسه : ـ هذا يتعلق بالظروف . اننا في لحظة حرجة : يجب أولاً ان نربح اللعبة في الميدان السياسي .

فقلت :

ـ وماذا يحدث إذا لم نربحها ؟ انت لا تؤمن حقاً بأننا نغامر بحرب جديدة ؟

فقال روبير :

ـ لا اعتقد ان حرباً جديدة ستنفجر غداً . ولكن ما يجب ان نتحاشاه هو ان يُخلق في العالم وضع حرب : ففي مثل هذه الحالة سنعاود القتال آجلاً أم عاجلاً. يجب ان نتحاشى ايضاً ان يُستغل هذا النصر من قبل الرأسمالية . وهز كتفيه : « هناك كمية من الأشياء يجب منعها ، قبل التلهي بكتابة كتب قد لا يقرأهـا انسان ابدا » .

ووقفت مصدومة وسط الطريق الصاعد : « ماذا ؟ أتعتقد أنت ايضاً ان الناس لن يبالوا بعد الآن بالأدب ! » .

فقال روبير :

ـ أعتقد أن ستكون لديهم قضايا أخرى كثيرة يصرفون نحوها انتباههم !

كأن صوته عن حق مفرط الصدق . فقلت في سخط : « لا يبدو ان هـذا يثيرك . ولكن سيكون كئيباً إلى حد فظيع عالم بدون أدب ولا فن » .

فقال روبير :

ـ على كل حال ، في الساعة الراهنة يوجد ملايين من البشر ، الأدب بالنسبة لهم صفر !

ـ نعم ، لكنك كنت تحسب حسابك بأن هذا سيتبدل .

فقال روبير :

ـ ما زلت أحسب ذلك ، ماذا تظنين ؟ ولكن بالضبط ، إذا قرر العالم ان يتبدل ، فسنجتاز دون شك مرحلة لن يكون فيها مجال للأدب .

ودخلنا إلى المكتب ، وجلست على ذراع المقعد الجلدي . نعم ، لقد شربت من البانش أكثر من اللازم ، فقد كانت الجدران تدور حوالي . ونظرت إلى الطاولة التي كان روبير يكتب عليها ليل نهار منذ عشرين سنة . لقد بلغ الآن الستين ، وإذا دامت هذه المرحلة طويلاً ، فهو مهدد بألا يرى نهايتها ابداً : هذا لا يمكن ان يكون بالنسبة له سواء إلى هذا الحد .

ـ حسناً ، انت تعتقد ان عملك ما يزال امامك . كنت تقول منذ خمس دقائق انك ستبدأ بكتاب جديد : هذا يفترض ان هناك أناساً سيقرأونك ...

فقال روبير :

ـ اواه ! هذا هو الأكثر احتمالاً . ولكن أخيراً هناك مجال ايضاً للنظر في الفرض الثاني . » وجلس على المقعد ، قربي ، وأضاف في مرح : « انه ليس رهيباً إلى الحد الذي تقولين ، ان الأدب مصنوع للبشر ، لا البشر للأدب » .

فقلت :

ـ بالنسبة لك ، سيكون هذا محزناً جداً . فأنت إذا انقطعت عن الكتابة ، لن تعود سعيداً مطلقاً .

فقال روبير :

ـ لست أدري . » وابتسم : « ليس عندي خيال » .

كلا ، بل عنده . وانني لأذكر كم كان قلقاً مساء اليوم الذي قال لي فيه : « عملي لا يزال امامي ! » . وهو يتمسك بأن يكون لهذا العمل وزنه ، بأن يبقى . ومهما احتج ، فهو قبل كل شيء كاتب . لعله في البداية لم يكن يفكر إلا بخدمة الثورة ، والأدب لم يكن إلا وسيلة . لكنه اصبح غاية ، وهو يحبه لذاته ، وكتبه كلها تثبت ذلك . وعلى الأخص تلك المذكرات التي لا يريد ان ينشرها : لقد كتبها للذة الكتابة . كلا ، الحقيقة انه يمل من الكلام عن نفسه ، ولم يكن هذا النفور بطابع حسن . وقلت :

ـ اما أنا ، فعندي خيال .

كانت الجدران تدور ، لكني كنت أشعر بنفسي يقظة جداً ، أكثر بكثير مما أكون يقظة قبل الافطار . عندما أكون صائمة أشعر في نفسي بقدرة كبيرة على الدفاع ، وأتدبر أمري حتى لا أعرف ما أعرفه . وعلى حين غرة كنت أرى بوضوح . كانت الحرب تنتهي : ثمة تاريخ جديد يبدأ ليس فيه شيء مضمون . لم يكن مستقبل روبير مضموناً : فمن الممكن ان يكف عن الكتابة ، بل من الممكن ان يبلع الفراغ عمله الماضي كله . وسألت :

ـ ماذا تعتقد حقاً ؟ هل ستسير الأمور على ما يرام أم لا ؟

وأخذ روبير يضحك : « آه ! لست نبياً ! » وأضاف : « على كل ، بين أيدينا كثير من الأوراق الرابحة » .

ـ ولكن كم من فرص في الربح ؟

ـ أتريدين ان ألعب لك اللعبة الكبرى ؟ أم تفضلين طحل القهوة ؟

فقلت :

ـ لا داعي لتحمل مشقة السخرية بي . يحق لي ان أطرح على نفسي الأسئلة ، بين الحين والحين .

فقال روبير :

ـ وأنا أطرحها على نفسي ، انت تعرفين .

كان يطرحها على نفسه ، وبأكثر جدية مني . فأنا لم أكن أؤثر عملياً ، ولهذا أصبح بسهولة حزينة . وكنت أتبين اني اخطأت ، ولكن مع روبير لم يكن يكلفني كثيراً ان أخطىء ! وقلت :

ـ أنت لا تطرح الأسئلة التي يمكنك ان تجيب عليها .

فضحك من جديد : « بالتفضيل نعم . اما الأسئلة الأخرى فليس وراءها كبير فائدة » .

فقلت :

ـ ليس هذا سبباً لعدم طرحها ، كان صوتي يصبح عدوانياً ، ولكني لم أكن

غاضبة من روبير ، بل من نفسي بالأحرى ، من عماي في هذه الأسابيع الأخيرة.
وقلت : « أود على كل حال لو أكوّن فكرة عما يمكن ان يحدث لنا » .
فقال روبير :
ـ ألا تعتقدين ان الوقت قد تأخر كثيراً ، واننا شربنا كثيراً من البانش ، وان أفكارنا ستكون أوضح غداً صباحاً ؟

غداً صباحاً ستكف الجدران عن الاهتزاز ، وستعود قطع الأثاث والتحف إلى سابق نظامها ، النظام نفسه دوماً ، وكذلك أفكاري ، وسأعاود الحياة يوماً بيوم ، دون ان أدير راسي إلى الخلف ، بالنظر امامي من مسافة محترمة ، ولن اهتم لتلك الأصوات الصغيرة التي في قلبي . انني متعبة من هذا النظام الصحي . ونظرت إلى الوسادة التي كان دييغو يجلس عليها أمام المدفأة . كان يقول : « الانتصار النازي لا وجود له في خططي » . ثم قتلوه . فقلت :
ـ ان الأفكار واضحة دوماً ! لقد ربحنا الحرب ، هي ذي فكرة واضحة . حسناً ! لقد وجدت انا انها حفلة غريبة ، هذا المساء ، مع كل اولئك الأموات الذين لم يكونوا هناك !

فقال روبير :
ـ ولكن هناك فرقاً على كل حال بين ان يقول الانسان في نفسه ان موتهم قد أفاد شيئاً ما أو لم يفد .

فقلت :
ـ ان موت دييغو لم يفد شيئاً . وحتى لو أفاد ؟ انني أقول في غضب : « انه يطمئن جيداً الأحياء ، ذلك النظام الذي يتجاوز فيه كل شي آخر . لكن الأموات يظلون أمواتاً . اننا نخونهم : ولا نتجاوزهم .

فقال روبير :
ـ اننا لا نخونهم بالضرورة .

فقلت :
ـ بل نخونهم عندما ننساهم وعندما نستخدمهم ايضاً . ان الأسف ، يجب ان

يكون لامجدياً ، والا ما عاد أسفاً حقيقياً .

فتردد روبير ، وقال وقد بدت عليه الحيرة : « أعتقد انني لست مخلوقاً للأسف . ان الأسئلة التي لا أستطيع الاجابة عليها ، والأحداث التي لا أستطيع ان أبدل فيها شيئاً ، لا أهتم بها كثيراً . وأضاف : « انا لا أقول انني على حق ». فقلت :

– اواه ! وانا لا أقول انك على خطأ. على كل الأحوال، فالأموات اموات، ونحن نعيش : ان التأسفات لن تبدل من الأمر شيئاً .

ووضع روبير يده على يدي : « لا تخترعي لنفسك إذن توبيخ ضمير . سنموت ايضاً كما تعرفين . وهذا يقربنا حقاً منهم » .

وسحبت يدي . كانت كل صداقة ، في تلك اللحظة ، عدوة لي . لم أكن اريد ان أتعزى ، ليس بعد . وقلت :

– آه ! صحيح ان بانشك الرديء قد أوقع الاضطراب في قلبي . سأذهب لأنام .

فقال روبير :

– اذهبي للنوم . وغداً سنطرح على أنفسنا كل الأسئلة التي تريدين ، حتى تلك التي لا تفيد شيئاً .

– وأنت ? ألن تذهب للنوم ?

– أعتقد انني سآخذ دوشاً وأشتغل .

وقلت في نفسي وانا أرقد : « من الواضح ان روبير أفضل تسلحاً مني ضد التأسفات . انه يعمل ، ويؤثر ، إذن فالمستقبل موجود بالنسبة له اكثر من الماضي . وهو يكتب : كل ما يقع خارج عمله ، كالشقاء ، والفشل ، والموت ، يوفيه حقه في كتبه ، ويشعر بنفسه قد أدى واجبه . وانا ليس لي اي ملجأ . ان ما أفقده ، لا أسترده في اي مكان وما من شيء يكفر عن خياناتي » . وفجأة أخذت أبكي . وفكرت : « انهما عيناي انا اللتان تبكيان . انه يرى كل شيء ، ولكن ليس بعيني » . كنت أبكي ، ولأول مرة منذ عشرين سنة كنت وحيدة:

مع تأنيبات ضميري ، مع خوفي . وغت وحلمت انـــني قد مت" . واستيقظت منتفضة والخوف لم يبارحني . انني أصارعه ، منذ ساعة . انه لا يزال هنا، والموت يتابع تجواله . وأشعلت ، وأطفأت . إذا رأى روبير نوراً من تحت بابي، فسوف يقلق . لا فائدة . انه لا يستطيـع مساعدتي هذه الليلة . عندما اردت ان أحدثه عن نفسه ، تحاشى أسئلتي : هو يعرف انه في خطر . إنما انا خائفة عليه حتى الآن، لقد وثقت دوماً بصيره . ابداً لن أحاول ان آخذ قياسه ؛ فقد كان هو قياس كل شيء . لقد عشت معه كما أعيش في داخلي ، دون مسافة . ولكن فجأة ، لم تعد لي ثقة ، بأي شيء . لا بنجم ثابت ، ولا بنصب كيلومتري، فروبير رجل، رجل في الستين معرض للخطأ وقابل للأذى ، رجل لم يعد الماضي يحميه ، والمستقبـــل يهدده . وأسندت ظهري إلى الوسادة ، مفتوحة العينين . يجب انـ أتدبر امري لأتراجع إلى الوراء ، لأراه ، وكأنني لم أحبه طوال عشرين عاماً دون ان أتردد ابداً .

هذا صعب . لقد كان هناك زمن كنت أراه فيه عن مسافة ، لكني كنت صغيرة جداً ، وأنظر اليه من بُعد عظيم . لقد دلني عليه بالأصابع بعض الرفاق في السوربون ، وكانوا يتحدثون كثيراً عنه في مزيج من الاعجاب والفضيحة . كانوا يهمسون بأنه يشرب وبأنه يواظب على المواخير . ولقد جذبني هذا بالأحرى اليه . فلم أكن قد شفيت بعد نهائياً من طفولتي التقية . ولقد كانت الخطيئة تُظهر في نظري بطريقة مؤثرة غياب الله ، ولو قيل لي ان دوبروي كان يغتصب الفتيـات الصغيرات لرأيت فيه نوعاً من القديس . ولكن رذائله كانت تظل قاصرة وأمجاده المستقرة اكثر من اللازم كانت تغيظني . وعندما بدأت أتبـع دروسه ، كنت قد عزمت على اعتباره رجلاً عظيماً مزيفاً . من البديهي انه كان مختلفاً عن جميع الأساتذة الآخرين . كان يأتي في عجلة مذهلة ، لأنه كان متأخراً دوماً اربـع او خمس دقائق . وكان يتحرانا لمدة لحظة بعينيه الضخمتين الخبيثتين ثم يأخـــذ في الكلام ، بلهجة اما ودية للغاية أو عدوانية للغاية . كان ثمة شيء يثير التحدي في وجهه الشرس ، في صوته العنيف ، في قهقهاته التي كانت تبدو لنا مجنونة قليـلاً .

وكان يرتدي قميصاً شديد البياض ، ويداه معتنى بهما للغاية ، وكان حليق الذقن بشكل متقن تماماً ، إلى حد ان ستراته ، وصداريه ، وجواربه الضخمة ، لم تكن تستطيع ان تعتذر بالإهمال . كان يفضل الراحة على الاناقة بطلاقة كنت أراها مصطنعة . ولقد قرأت رواياته ولم أحبها مطلقاً . كنت انتظر ان تسلمني رسالة مثيرة ، فوجدتها تحدثني عن أناس عاديين ، وعن عواطف سريعة ، وعن مجموعة من الأشياء لم تكن تبدو لي أساسية . اما دروسه ، فكانت شيقة بالتأكيد ، ولكنه لم يكن يقول شيئاً عبقرياً . وكان واثقاً جداً بأنه على حق إلى حد ان رغبة لا تقاوم كانت تدفعني إلى معارضة كلامه . اواه ! لقد كنت مقتنعة انا ايضاً بأن الحقيقة في اليسار . ومنذ حداثتي كنت أجد ان للفكر البورجوازي رائحة حماقة وكذب ، رائحة كريهة جداً . ثم تعلمت في الانجيل ان البشر جميعاً متساوون ، جميعاً اخوة ، وهذا لا أزال أؤمن به بقوة شديدة كالحديد . كل ما هنالك ، وبالنسبة لروحي التي حُشيت طويلاً بالمطلق ، كان فراغ السماء يفقد كل اخلاق معناها ، وكان دوبروي يتصور انه يمكن ان يوجد سلام على الأرض. وقد شرحت هذا في انشائي الفلسفي الأول . وقلت : « الثورة ، حسناً ، ثم ماذا ؟ » وعندما أعاد لي ورقتي بعد ثمانية ايام عند الخروج من الدرس ، ضحك بجدة مني : كان مطلقي ، برأيه ، حلماً مجرداً لبورجوازية صغيرة عاجزة عن مواجهة الواقع . لم أكن أملك الوسائل اللازمة للرد عليه ، كان يربح كل الضربات ، بالإكراه ، ولكن لم يكن هذا يثبت شيئاً وقلت ذلك له . وعدنا إلى المناقشة في الأسبوع التالي ، وفي تلك المرة حاول ان يقنعني بدل ان يرهقني . وقد اضطررت إلى الاعتراف بأنه لم يبد عليه اثناء خلوتي معه انه يعتبر نفسه رجلاً عظيماً . وأخذ يكلمني غالباً بعد الدروس ، وأحياناً كان يرافقني حتى بابي ، مطيلاً الطريق ، ثم خرجنا معاً بعد الظهر ، وعند المساء : لم نعد نتحدث لا عن الاخلاق ، ولا عن السياسة ، ولا عن أي موضوع رفيع : كان يروي لي قصصاً ، وعلى الاخص كان يأخذني للنزهة . كان يريني حارات ، وشوارع ، وأرصفة ، وقنوات ، ومقابر ، ومناطق ، ومخازن ، وأراضي بوراً ، وحانات ، ومجموعة من زوايا باريس لم اكن

أعرفها. وكان كل شيء يأخذ الف معنى معه : الوجوه، والاصوات، وملابس الناس، وشجرة، واعلان، ولافتة نيون، أي شيء. وعلى اثر ذلك، اعدت قراءة رواياته. وفهمت انني لم افهم منها شيئاً : كان دوبروي يوحي بأنه يكتب للنزوة، للذته الخاصة، اشياء مجانيــة تماماً. ومع ذلك، عندما اغلقت الكتاب، وجدت نفسي يهصرني الغضب، والاشمئزاز، والتمرد، وأريد للأشياء ان تتغير. عنـــد قراءة بعض المقاطع من عمله، يخيل للمرء انه اسلوبي محض : فهو يتذوق الكلمات. ويهتم دون فكرة سابقــة بالمطر والطقس الجميل، وبألعاب الحب والصدقة، بكل شيء. ولكنه لا يتوقف هنــا : ففجأة تجد نفسك ملقىً في جمهرة البشر وتمسك عِشا كلهم كلها. لهذا أصرّ كثيراً على ان يتابع الكتابة. انني اعلم من نفسي ما يحمله لقرائه. فبين فكره السياسي وانفعالاته الشعرية، لا توجد مسافة. وانمـا لأنه يحب الحياة كثيراً يريد ان يكون لجميع البشر حصتهم الوفيرة منها. وانمـا لأنه يحب البشر، فإن كل ما يخص حياتهم يستهويه.

كنت أعيد قراءة كتبه، وأستمع اليه، واسأله، وكنت مشغولة جداً الى حد لم أكن افكر معه بالتساؤل لمَ بالضبط يجد السرور معي : بل لقـد كانـ الوقت ينقضي لحل ألغاز ما كان يجري في قلبي. وعندما اخذني بين ذراعيه، ذات ليلة، وسط حدائق كاراوسيل، قلت في استنكار : « لن أقبل إلا رجلاً احبه ». فأجابني بهدوء : « لكنك تحبينني ! » وسرعان ما عرفت ان هـذا صحيح. واذا كنت لم اتبين ذلك فلأنه حدث بسرعة كبيرة : كان كل شيء معه يسير بسرعة كبيرة ! بل هـذا بالضبط ما دوخني في البداية. فالناس الآخرون كانوا بطيئين للغاية، والحياة بطيئة للغاية. اما هو فكان يحرق الوقت ويقلب كل شيء. ومن اللحظة التي عرفت فيها انني احبه، تبعته بحماسة من مفاجأة الى مفاجأة. واخذت اتعلم ان الانسان يستطيـع ان يعيش بلا اثاث وبلا مواعيد، وانـ يستغني عن الغذاء، وألا ينام في الليـل، وان يرقد بعد الظهر، وان يفعل الحب في غابة كما يفعله في سرير. ولقد بدا لي بسيطاً وفرحاً ان اصبح امرأة بين ذراعيه. وعندما كانت اللذة تخيفني، كانت ابتسامته تعيـــد اليّ الاطمئنان ولم يكن يثقل على

قلبي إلا ظل واحـــد : كانت العطلة تقترب وكانت فكرة الفراق ترهبني . ومن البديهي ان روبير ادرك ذلك : ترى ألهـذا عرض عليّ الزواج ؟ في حين ان تلك الفكرة لم تكن قد خطرت لي مطلقاً: ففي التاسعة عشرة ، يبدو من الطبيعي ان تكون الفتـــاة محبوبة من الرجل الذي تحبه او من الوالدين المحترمين او من الله الفائق القوة .

« لكني كنت احبك ! » ، اجابني روبير ، بعد فترة طويلة . ماذا تعني ، في فمه ، هذه الكلمات تماماً ؟ هـل كان سيحبني قبل سنة ، عندما كان غارقاً جسداً وروحاً في النزاع السياسي ؟ وفي تلك السنة ، ألم يكن يستطيـع ، كي يتعزى عن عدم عمله ، ان يختار امرأة اخرى؟ هوذا نوع من الاسئلة لا يفيد شيئاً ، فلنمض. إن ما هو مؤكد هو انه اراد سعادتي بحماسة ولم يخطىء ضربته . حتى ذلك الحين لم اكن تعيسة ، كلا ، ولكني لم اكن سعيدة ايضاً . كانت صحتي جيـــدة ، وكنت أشعر بلحظـــات فرح : ولكني كنت امضي اصفى وقتي في الكتابة . الحماقـة ، والكذب ، والظلم ، والالم : كانت حولي سدياً شديد السواد . وأي عبث كانت تلك الايام التي تتكرر من اسبوع الى اسبوع ، ومن قرن الى قرن ، دون الذهاب الى أي مكان ! الحياة ، كانت ان انتظر الموت خلال اربعين او ستين سنة وانا ادوس في العدم . وهـــذا ما كان يجعلني ادوس باخلاص كبير : لم تكن هناك إلا الكتب والافكار يمكنها ان تقاوم ، وكانت وحدها التي تبدو لي حقيقية.

بفضل روبير، نزلت الافكارالى الارضواصبحت الارض منسجمة ككتاب، كتاب يبدأ سيئاً لكنه ينتهي حسناً . فقـــد كانت الانسانية تسير الى جهة ما ، وكان للتاريخ معنى ، وكذلك وجودي الخاص . وكان الاضطهاد والبؤس يحتويان على وعد زوالهما . وكان الشر قـد قهر ، والفضيحة قد كنست . وانطبقت السماء ثانية على رأسي وغادرتني المخاوف القديمة. ولم يخلصني روبير من هذا كله بالنظريات، بل لقد اظهر لي ان الحياة تكفي ذاتها بمجرد العيش . اما الموت ، فكان لا يـبالي به مطلقاً ، ولم يكن نشاطه تسليـــة : كان يحب ما يحب ، ويريد ما يريد ، ولم

يكن يهرب من شيء . وبجمل القول ، لم اكن اطلب إلا ان أشبهه . واذا كنت قد وضعت الحياة موضع اتهام ، فلأنني على الاخص كنت أملّ في البيت : والآن لم اعد امل ابداً . لقد استخلص روبير من السديم عالماً مليئاً ، منظماً ، مطهراً بذلك المستقبل الذي يحدثه : كان هذا العالم عالمي . وكانت المسألة الوحيدة ان اصنع مكاني الخاص بي . لم يكن يكفيني ان اصبح امرأة روبير . فأنا قبل ان اتزوجه لم افكر ابداً باختيار مهنة الزوجة . ومن جهة اخرى ، لم اكن افكر ولا دقيقة بالاهتمام فعلياً بالسياسة. ففي هذا الميدان، يمكن للنظريات ان تستهويني، وعندي بعض عواطف قوية ، لكن الممارسة تنفرني . يجب ان اعترف بأنني افتقر الى الصبر : ان الثورة تسير ، لكنها تسير ببطء شديد ، بخطا صغيرة مترددة جداً ! اما بالنسبة لروبير فهو يعتبر ان حلاً ما صالح اذا كان افضل من غيره ، كما يعتبر ان الاقل شراً خير . انه على حق ، بالتأكيد ، ولكني بلا شك لما صفّ تماماً احلامي القديمة من المطلق : اذ لم يكن هذا يرضيني . ثم ان المستقبل يبدو لي بعيداً جداً ، واني لأرغب بالاحرى في مساعدة من يعيشون في هذه اللحظة بالضبط . لهذا السبب كانت هذه المهنة تغريني . اواه ! انني لم اؤمن ابداً بأنه يمكن ان يؤتى لانسان ما من الخارج بسلام مصنوع مسبقاً ، ولكنها غالباً سخافات تلك التي تفصل الناس عن سعادتهم ، وكنت أريد ان اخلصهم منها . وشجعني روبير ، فهو من هذه النقطة يفترق عن الشيوعيين المتمسكين بعقيدتهم الاصلية : انه يؤمن بأنه يمكن ان يوجد علاج ناجع من التحليل النفسي في المجتمع البورجوازي وانه يمكن ايضاً ان يلعب دوراً في مجتمع بلا طبقات . بل لقد كان يبدو له عملاً مثيراً للحماسة ان يعاد التفكير في التحليل النفسي الكلاسيكي على ضوء الماركسية . والحقيقة ان هذا استهواني . وكانت ايامي مليئة كالارض التي حولي . في كل صباح كان يستيقظ فرح الصباح السابق وفي المساء اجد نفسي قد اغتنيت بألف شيء جديد . انه لحظ كبير في العشرين ان يتلقى الانسان العالم من يد الذي يحبه ! وانه لحظ كبير ان يشغل فيه مكانه بالضبط ! ولقد نجح روبير ايضاً في هذا العمل البطولي : فقد حماني من الانعزال دون ان يحرمني من العزلة . كان

كل شيء بيننا مشتركاً : ومع ذلك فقد كانت لي صداقاتي ، ومسراتي ، وعملي ، وهمومي الخاصة بي . كنت استطيع حسب رغبتي ان امضي الليل في حنان كتف ، او كاليوم وحيدة في الغرفة ، كفتاة . انني انظر الى هذه الجدران ، الى اشعة النور تحت الباب : كم مرة عرفت هذه العذوبة : ان انام ، بينما هو يشتغل على بعد ، يستطيع صوتي ان يصل اليه ؟ لقد مضت سنوات منذ ان خمدت اللذة بيننا ، لكننا كنا متحدين بقوة شديدة حتى ليكون لاتحاد جسدينا اهمية كبيرة. وهكذا استطيع ان اقول اننا لم نفقد شيئاً ، بتخلينا عن هذا الاتحاد. انني استطيع ان اؤمن بأنها ليلة من ليالي ما قبل الحرب . وهذا القلق بالذات ، الذي يبقيني مستيقظة ليس بالجديد . في اغلب الاحيان كان مستقبل العالم اسود جداً . فما الذي تبدل اذن ؟ لماذا عاد الموت يتجول ؟ انه يتابع تجواله : لماذا ؟

يا للعناد المجنون ! انني اشعر بالخجل . خلال هذه السنوات الاربع ، على الرغم من كل شيء ، اقنعت نفسي بأننا بعد الحرب سنجد ثانية ما قبل الحرب . منذ لحظات ايضاً كنت اقول لبول : « الآن » هو من جديد كالماضي » . وها انا احاول ان اقول في نفسي : الماضي ، كان بالضبط كالآن . ولكن لا ، انني اكذب : إنه ليس ولن يكون ابداً كالماضي . في الماضي ، كنت واثقة ان اكثر الازمات قلقاً ، سنستطيع الخروج منها . فقد كان على روبير ان يخرج منها غصباً ، وكان مصيره يضمن لي مصير العالم ، وبالعكس . ولكن ما هذا الماضي الذي وراءنا ، كيف نثق ايضا بالمستقبل ؟ لقد مات دييغو ، ومات كثيرون ، وعادت الفضيحة الى الارض ، ولم يعد لكلمة السعادة معنى : انه السديم حولي من جديد . لعل العالم سيخرج منه . لكن متى ؟ انه لزمن طويل ، قرنان او ثلاثة ، وأيامنا نحن معدودة : اذا ما انتهت حياة روبير في الفشل ، في الشك او اليأس ، فلا شيء سيعوض عن هذا ابداً .

ثمة حركة هادئة في مكتبه. انه يقرأ ، ويفكر ، ويضع خططاً . هل سينجح؟ ام ماذا ؟ لا حاجة الى التفكير بأسوأ الاحتمالات ، فما من احد قد افترسنا . كل ما هنالك اننا نعيش احداث تاريخ لم يعد تاريخنا ، ولم يعد لروبير من دور إلا دور

شاهد سلبي : ماذا سيفعل بجلده ؟ انني اعرف الى أي حد يتمسك بالثورة : انها مطلقه الخاص به . ولقد دمغه شبابه الى الابد . وطوال تلك السنوات التي ترعرع فيها بين منازل وحيوات بلون سواد الدخان ، كانت الاشتراكية أمله الوحيد . انه لم يؤمن بها عن كرم ، او منطق ، بل عن حاجة : ان يصبح رجلًا ، كان هذا يعني بالنسبة له كوالده مناضلًا . وقد اقتضاه ابعاده عن السياسة مشقة كبيرة : فشل ١٩١٤ الخانق ، وقطيعته مع « كاشان » بعد سنتين من « تور » ، وعجزه عن بعث الشعلة الثورية القديمة في الحزب الاشتراكي . وعند السانحة الاولى ألقى بنفسه من جديد في العمل . وهو الآن متحمس اكثر من أي وقت مضى . انني اقول في داخلي لأطمئن نفسي ان لديه طاقات كثيرة . لقد كتب كثيراً بعد زواجنا ، طوال تلك السنوات التي لم يناضل فيها ، ولقد كان سعيداً . ولكن في البداية ، هل كان كذلك ؟ ان الايمان بذلك يرتب اموري . وحتى هذه الليلة لم اجرؤ ابداً على مراقبة ما يقول لنفسه عندما يكون بمفرده : انني لم اعد واثقة جداً بماضينا . اذا كان قد اراد بسرعة كبيرة طفلًا ، فهذا بلا شك لأنني لم اكن أكفي لتبرير وجوده . ولعله كان ايضاً يبحث عن ثأر ضد هذا المستقبل الذي لم تعد له عليه سيطرة . نعم ، ان هذه الرغبة في الأبوة تبدو لي كبيرة الدلالة . وذات دلالة ايضاً كانت كآبة حجنا الى « بروي » . كنا نتنزه في شوارع طفولته، وكان يريني المدرسة التي كان ابوه يعلم فيها ، والبناء القاتم الذي سمع فيه جوريس وهو في التاسعة. وكان يروي لي لقاءاته الاولى مع الشقاء اليومي ، مع العمل بدون امل . وكان يتكلم بسرعة ، بلهجة طليقة جداً . وفجأة قال بصوت مضطرب : « لا شيء تبدل . ولكني انا اكتب روايات» . واردت ان اعتقد بانفعال هروبي ، فقد كان روبير امرح من ان افترض له تأسفات جدية . ولكن ، بعد مؤتمر أمستردام، طوال الوقت الذي نظم فيه لجان الطوارىء ، رأيت ان بامكانه ان يكون امرح بكثير واضطررت الى الاعتراف في نفسي بالحقيقة : في الماضي كان يكظم غيظه . واذا ما وجد نفسه محكوماً عليه ثانية بالعجز ، وبالعزلة ، فكل شيء سيبدو له باطلًا ، حتى الكتابة . بين ١٩٢٥ و ١٩٣٢ ، كان يكتب ،

نعم وهو يكظم غيظــه . ولكن الامر كان مختلفاً جداً . فقد ظل مرتبطاً مع الشيوعيين وبعض الاشتراكيين . وكان يحتفظ بأمل الوحدة العمالية وبنصر نهائي. انني اعرف عن ظهر قلب كلمة جوريس تلك التي كان يرددها في كل مناسبـة : « انسان الغد سيكون اعقد وأغنى حياة مما عرفه التاريخ اطلاقاً » . لقد كان مقتنعاً بأن كتبه تساعد على بناء المستقبل وان انسان الغد سيقرأها : لذلك كان من البديهي ان يكتب . اما امام مستقبل مسدود ، فهذا لن يبقى له أي معنى . اذا كان معاصروه لم يعودوا يصغون اليه ، واذا كانت الاجيال القادمة لن تفهمه ، فليس عليه إلا ان يصمت .

وعندئذ ؟ ماذا سيصبح ؟ مخلوق حي يتحول الى زبد ، هذا فظيع ، ولكن هناك مصيراً أسوأ : مصير مشلول معقود اللسان . ان الموت افضل . هل سيصل بي الامر الى حد تمني موت روبير ذات يوم ؟ كلا . هذا لا يمكن تصوره . لقد سبق واصابته ضربات قاسية ، لكنه خرج منها دوماً ، وسوف يخرج منها ايضاً . لست ادري كيف ، لكنه سيخترع شيئاً ما . فليس من المستحيل ، مثلاً ، ان ينضم ذات يوم الى الحزب الشيوعي . يقيناً له انه في هذه اللحظة لا يفكر بذلك ، فهو ينتقد بعنف شديد سياستهم : لكن لنفرض ان خططهم تغير . لنفرض انـه لا يوجد خارج الشيوعيين أي يسار منظم : انني لأتساءل ما اذا كان روبير سينضم اليهم بدل ان يظل بلا عمل : انني لا احب هذه الفكرة . سيكون من الصعب عليه جداً اكثر من أي شخص آخر ان يخضع لشعارات لا ينسجم معها . ولقـد كانت له دوماً ، بخصوص التكتيك الواجب اتباعه ، افكار خاصة به . ثم انــه مهما حاول ان يجرب المجون ، فأنا اعرف جيداً انه سيظل مخلصاً لأخلاقه القديمة : ان مثالية الآخرين تجعله يتسم : وهو ايضاً له مثاليته. وثمة طرق شيوعية لا يمكنه مطلقاً ان يرضى عنها. كلا ان هذا الحل ليس حلاً. كثير من الأشياء تفصله عنهم. وانسانيته ليست انسانيتهم نفسها . وليست المشكلة انه لن يستطيع ان يكتب بعد ذلك أشياء صادقة فحسب ، بل سيضطر أيضاً إلى إنكار ماضيه كله .

سيقول لي : « ليكن ! » . ومنذ لحظات كان يقول لي : « كتاب أكثر أو

أقل ، هذا ليس كبير الأهمية » . ولكن هل يعتقد ذلك حقاً ؟ انني أعلق قيمة كبيرة على الكتب ، ولعلي أعلق عليها أهمية أكبر من اللازم . في أيام ما قبل تاريخي ، كنت أفضلها على العالم الحقيقي : ولقد بقي في شيء من هذا . فقد احتفظت بالنسبة لي بطعم صغير من الأبدية . نعم ، انه أحد الأسباب التي تجعلني أتعلق كثيراً بعمل روبير : إذا ما فني ، فسنصبح كلانا فانيين . ولن يعود المستقبل إلا قبراً . ان روبير لا يرى الأشياء على هذا النحو . ولكنه لم يعد أيضاً مناضلاً مثالياً لكي يقر النسيان لنفسه . فهو يأمل كثيراً ان يترك وراءه اسماً ، اسماً يعني كثيراً ، لكثيرين من الناس . ثم الكتابة هي أكثر ما يحبه في العالم ، انها فرحه ، انها حاجته ، انها ذاته . وتخليه عنها سيكون انتحاراً .

حسناً ! ليس عليه إلا ان يستسلم للكتابة حسب الطلب ، فغيره يفعل ذلك : غيره ، ولكن ليس روبير . وعند اللزوم ، سأتخيله مناضلاً بالرغم منه : لكن الكتابة شيء آخر . إذا لم يعد يستطيع ان يعبر عن نفسه كما يشاء ، فسوف تسقط الريشة من يديه .

آه ! انني أراه ، المأزق . ان روبير متمسك تمسكاً شديداً ببعض الأفكار ، ولقد كنا واثقين قبل الحرب انها ستتجسد ذات يوم في الواقع . لقد جند نفسه طوال حياته لإغنائها ولتهيئة تجسدها في آن واحد : ولكن لنفرض ان هذا التجسد لن يحدث أبداً ؟ لنفرض ان الثورة ستتم ضد المذهب الانساني الذي دافع عنه روبير دوماً ؟ ما الذي يستطيع روبير فعله ؟ إذا ساعد على بناء مستقبل معادٍ لكل القيم التي يؤمن بها ، فان عمله عبث . ولكنه إذا أصرّ على التمسك بقيم لن تهبط أبداً إلى الأرض ، فسيصبح واحداً من أولئك الحالمين الشيوخ الذين يحرص على ألا يشبههم . كلا ، ما من اختيار ممكن في هذا الخيار ذي الحدين : انه على كل حال الفشل ، والعجز : وبالنسبة لروبير ، الموت حياً . هذا هو السبب الذي يدفعه إلى القاء نفسه بهذه الحماسة كلها في المعركة : انه يقول لي ان الموقف يقدم له فرصة انتظرها طوال حياته ، ليكن . لكنها تشتمل أيضاً على خطر أخطر من كل المخاطر التي عرفها ، وهو يعرف ذلك . نعم ، انني متأكدة ان كل ما قلته ، يقوله

في نفسه أيضاً . هو يقول في نفسه ان المستقبل قد يكون بالنسبة له قبراً ، وانه سيدفن فيه ، دون ان يترك أي أثر شأن روزا وديغو . بل ان هذا أسوأ . لعل بشر الغد سينظرون إليه كمتخلف ، كمخدوع ، كمزيف : فهو نفاية سواء أكان لاجدياً أم مذنباً . ومن الممكن ان يغرى ذات يوم بالنظر إلى نفسه بأعينهم القاسية : وعندها سينهي حياته في اليأس . بوبير يائساً : انها فضيحة لا تحتمل أكثر من الموت نفسه . انني أريد كل الإرادة ان أقبل بموتي ، موتي أنا : وليس بيأسه . كلا . لن أحتمل ان أستيقظ غداً ، وفي الأيام التالية ، مع ذلك التهديد الكبير في الأفق . كلا . ولكني أستطيع ان أردد مئة مرة : كلا ، كلا ، كلا ، ولن أبدل من الأمر شيئاً . سأستيقظ أمام هذا التهديد غداً وفي الأيام التالية . ثمة يقين واحد ، هو اننا نستطيع على الأقل ان نموت . لكن هذا الخوف الذي لا أساس له ، سيتوجب علينا ان نعيشه .

الفصل الثاني

١

في صباح اليوم التالي أكد الراديو الانحدار الالماني. فردد هنري في نفسه وهو يجلس الى طاولته : «انه حقاً السلم الذي يبدأ. ها انني اخيراً استطيع الكتابة !». وقرر : « سأرتب اموري بحيث اكتب يومياً » . ماذا بالضبط ؟ لم يكن يعرف. وكان يهنىء نفسه على انه لا يعرف . ففي المرات السابقة كان يعرف اكثر مما ينبغي . سوف يحاول هذه المرة ان يتوجه الى القارىء دون تصميم مسبق، وكأنه يكتب الى صديق . ولعله سينجح في ان يقول له كل تلك الاشياء التي لم تجد ابداً مكاناً في كتبه المبنية بتصميم قوي . كم من الاشياء يريد ان يحتفظ بها في كلمات وهي تضيع ! ورفع رأسه ونظر من خلال النافذة الى السماء الباردة. من المؤسف التفكير بأن هذا الصباح كان سيضيع . كل شيء يبدو ثميناً للغاية ، هذا الصباح : الورق الابيض ، ورائحة الكحول والتبغ الذي برد ثانية ، والموسيقى العربية التي تتصاعد من المقهى المجاور . كانت كنيسة نوتردام باردة كالسماء ، وكان ثمة متشرد يرقص وسط الزقاق ، وكان يرتدي طوقاً ضخماً من ريش ديك ازرق ، وفتاتان في ثياب الاحد تنظران اليه ضاحكتين. انه الميلاد ، وانه الانحدار الالماني وشيء يبدأ من جديد . نعم ، كل تلك الصباحات ، كل تلك الاماسي التي تركها تفلت من بين اصابعه طوال تلك السنوات الاربع ، سيحاول هنري طوال ثلاثين سنة ان يستعيدها . انه لا يستطيع ان يقول كل شيء ، بالطبع ، ولكنه يستطيع على كل حال ان يحاول التعبير عن مذاق حياته الحقيقي: لكل حياة مذاق ، ليس

لغيرها ، ويجب التعبير عنه ، وإلا فلا داعي لتحمل مشقة الكتابة : « يجب ان أتكلم عما أحببت ، عما أحبه ، عما انا عليه » . ورسم باقة . من هو ؟ ماذا يجد بعد هـــذا الغياب الطويل ؟ ان من الصعب ، من الداخل ، ان يعرف نفسه ويحددها. انه لم يكن مهووسا بالسياسة ولا متعصباً للكتابة، ولا متحمساً عظيماً. كان يشعر بالاحرى انـه شخص ما ، ولكن هذا على كل حال لم يكن ليزعجه . انسان كسائر الناس ، عندما سيتحدث بصدق عن نفسه ، سيتحدث باسم جميع الناس ، من اجل جميع الناس . الصدق : انه الاصالة الوحيدة التي عليه ان يتطلع اليها ، الشعار الوحيد الذي عليه ان يفرضه على نفسه . واضاف زهرة الى باقته . ليس من السهل جداً ان يكون صادقاً . لم يكن يفكر بأن يعترف . ومن يقل رواية يقل كذباً . آه ! سيرى هـذا فيما بعد . اما الآن ، فعليه خاصة الا يحرج نفسه بالمشاكل . عليه ان يرحل بـــلا هدف ، ان يبدأ كيفما اتفق : من حدائق « الأود » تحت القمر . لقد كان الورق عارياً ، وعليه ان يستفيد منه .

سألت بول :

– أبدأت روايتك المرحة ؟

– لست ادري .

– كيف لست تدري ؟ ألا تدري ماذا تكتب ؟

فقال ضاحكاً :

– انني أعدّ لنفسي مفاجأة .

فهزت بول كتفيها . ولكن هذا كان صحيحاً : فهو لم يكن يريد ان يعرف . كان يثبت بلا نظام على الورق مجموعة من لحظات حياته ، وكان هذا يلهيه كثيراً، ولم يكن يطلب أكثر من ذلـك . ومساء اليوم الذي ذهب فيه للقاء نادين ، ترك عمله آسفاً. لقد قال لبول انه سيخرج مع سكرياسين: فقد تعلم خلال السنة الاخيرة ان يقتصد في صراحته . ان مجرد هـــذه الكلمات : « سأخرج مع نادين » كانت ستثير الكثير من الاسئلة والكثير من التفسيرات بحيث انه فضّل ان يقول غيرها. ولكن من العبث حقاً ان يتخفى ليخرج مع فتاة جاحدة ، يعتبرها أشبه بابنة اخ .

ولقد كان من العبث على الاخص ان يعطيها هذا الموعد . ودفع باب « البـــار الاحمر » . واقترب من الطاولة التي كانت جالسة اليها بين لاشوم وفانسان .

ـ لا خصام اليوم ؟

فقال فانسان في غضب :

ـ صفر .

كان الشبان يتجمعون في هذه الصالة الحمراء ليواجهوا خصومهم اكثر ممـــا يجتمعون ليلتقوا برفاقهم : فقد كانت كل الاحزاب السياسية ممثلة فيها . وكان هنري يأتي اليها غالباً ليمضي بعض الوقت . ولقد كان يود لو انـه جلس وتحدث حديثاً متقطعاً مع لاشوم وفانسان وهو ينظر الى الناس، لكن نادين نهضت فوراً :

ـ أتأخذني للعشاء ؟

ـ لقد جئت لهذا .

في الخارج كان الجو مظلماً ، والرصيف مغطى بوحل متجمد : ماذا سيستطيع ان يفعل بنادين ؟ وسأل : « أين تريدين الذهاب ؟ عند الايطالي ؟ » .

ـ عند الايطالي .

لم تكن مشاكسة . فتركته يختـــار طاولتهما ، وطلبت مثله « بوبوروني » و « اوسوبيكو » . وكانت توافق على كل ما يقوله في سيماء من متعة سرعان مـا بدت لهنري مشبوهة : في الحقيقة ، لم تكن تصغي اليه ، بل كانت تأكل في عجلة هادئة وهي تبتسم لصحنها . وكف عن الحديث دون ان يبدو عليها انهـا انتبهت لذلك . وبعد ان ابتلعت اللقمة الاخيرة ، مسحت فمها بحركة عريضة .

ـ والآن أين تأخذني ؟

ـ انت لا تحبين لا الجاز ، ولا الرقص ؟

ـ كلا .

ـ يمكننا ان نجرب « مدار السرطان » .

ـ أهو ممل ؟

ـ هل تعرفين ، انت ، كباريهات مملة ؟ إن في « المدار » مجالاً للكلام .

فهزت كتفيها : « الكلام ، مقاعـــد المترو ملائمة جداً » . وأضاء وجهها : « هناك كباريهات احبها كثيراً : هي التي نرى فيها سيدات عاريات » .

– غير ممكن ؟ أهذا يسليك ؟

– اواه ! نعم . صحيح ان الحمامات التركية أظرف ، ولكن الكباريهات ليست سيئة .

فقال هنري ضاحكاً :

– ألست ماجنة بعض الشيء ؟

فقالت في جفاء :

– هذا ممكن . ماذا تقترح افضل من ذلك ؟

النظر الى نساء عاريات برفقة هـــذه الفتاة الكبيرة التي ليست لا بالعذراء ولا بالمرأة ، ليس بالإمكان تصور شيء غير لائق كهذا . لكن هنري كان قد أخذ على عاتقه ان يسليها ، وكان يفتقر إلى الالهام . وجلسا « عند عشتار » أمام دلو شمبانيا . وكانت الصالة لا تزال فارغة . وحول البار كانت المدربات يثرثرن . وتفحصتهن نادين ملياً .

– لو كنت رجلًا ، لأتيت كل مساء بامرأة مختلفة .

– كل مساء امرأة مختلفة : سينتهي الأمر إلى ان تكون المرأة نفسها .

– يقيناً لا . السمراء نفسها ، والحمراء التي لها ثديان جميلان مزيفان ، ليستا متشابهتين تماماً ، تحت ثيابها . » وأسندت ذقنها إلى راحة يدها وتفرست في وجه هنري : « ألا تلهيك النساء ؟ » .

– ليس هكذا .

– مثل ماذا ؟

– أحب كثيراً ان أنظر إليهن عندما يكنّ جميلات ، وان أرقص معهن ، أو أتحدث .

فقالت نادين :

– للحديث ، أفضل الرجال . » وأضحت نظرتها متشككة : « باختصار ،

لمَ دعوتني ؟ انني لست جميلة ، ولا أحسن الرقص ، ولا الحديث » .

فابتسم : « ألا تذكرين ؟ لقد وبّختني على انني لم أدعك أبداً ».

– في كل مرة توبّخ على انك لم تفعل شيئاً معيناً ، تفعله ؟

فقال هنري :

– ولمَ قبلت دعوتي ؟

فرمته بنظرة مثيرة بشكل ساذج جداً إلى حد انه أحرج . هل صحيح ، كما تزعم بول ، انها لا تستطيع ان ترى رجلاً دون ان تعرض نفسها عليه ؟

وقالت بلهجة متكلفة :

– يجب ألا نرفض شيئاً أبداً .

وحركت كأسها لمدة لحظة في صمت . واستؤنف الحديث من جديد ، لكن نادين كانت تصمت بين الحين والآخر في إلحاح وتنظر بثبات إلى هنري ، وكانت على وجهها سيماء تأنيب مندهش وكان يقول في نفسه : « لكنني لا أستطيع على كل حال ان آخذها » . لم تكن تعجبه إلا نصف إعجاب ، فهو يعرفها أكثر مما ينبغي، وكان هذا سهلاً جداً ، ثم انه سيحرج بسبب دوبروي . وكان يحاول ان يملأ فترات الصمت ، ولكنها تثاءبت مرتين عن قصد . كان ، هو ايضاً ، يجد الوقت طويلاً . وكان بعض الازواج يرقصون : وعلى الاخص اميركيون وفتيات ، ثم زوج او زوجان ريفيان مقلدان. وقرر ان ينصرف ما إن تؤدي الفتيات نمرتهن ، واطمأن عندما رآهن يأتين . كنّ ستاً في مشدات للصدور وسليبات عليها نثار ذهبي ، وهن مرتديات قبعات عالية بألوان فرنسية واميركية . وما كن يرقصن حسناً او سيئاً ، وكن قبيحات دون مبالغة ، وكان مشهداً لا يثير الاهتمام ولا يبعث على الضحك. فلمَ كانت نادين تبدو مغتبطة الى هذا الحد؟وعندما نزعت الفتيات مشدات صدورهن ليكشفن عن اثدائهن المدهونة بالبارافين ، القت الى هنري بنظرة غامضة : « أيهن تعجبك أكثر من غيرها ؟ » .

– انهن متساويات القيمة .

– الشقراء التي الى اليسار ، ألا تجد لها صرة صغيرة رائعة ؟

– لكن مع وجه حزين جداً .

وسكتت نادين . كانت تتفرس في النساء بنظرة خبيرة ومشمئزة قليـــلاً . وعندما خرجن ، متراجعـات ، وهن يحركن بيدٍ سليباتهن ، ويلصقن بالاخرى قبعاتهن المثلثة الالوان بفروجهن ، سألت نادين :

– هل من الاهم ان يكون للفتاة وجه جميل ، ام ان تكون حسنة التكوين ؟

– هذا يتوقف .

– على ماذا ؟

– على المجموع ، وعلى الاذواق ايضاً .

– أية نقطة استحق في المجموع وحسب ذوقك ؟

فحدجها : – سأقول لك هذا بعد ثلاث او أربع سنين : فأنت لم تنتهي من التكوّن » .

فقالت بصوت غاضب :

– اننا لا ننتهي ابداً قبل ان نموت » . كانت نظرتها تجول حولها في الصالة ، وحطّت على الراقصة ذات الوجه الحزين التي جاءت لتجلس الى البار ، وقـــد ارتدت ثوباً قصيراً اسود : « صحيح انها حزينة الوجه . كان عليك ان تدعوها للرقص » .

– ليس هذا بالذي سيسرها كثيراً .

فقالت في حدة مفاجئة :

– ان لزميلاتها رفاقاً . يبدو عليها أنها متروكة على الحساب . أُدعها اذن ، ماذا يكلفك هذا ؟ » ولان صوتها واضحى متضرعاً : « مرة واحدة فقط ! » .

فقال هنري :

– اذا كنت تصرّين على ذلك الى هذا الحد ...

وتبعته الشقراء الى ساحة الرقص دون حماسة . كانت ساذجة الى حد مبتذل ، وما كان ليفهم لماذا تهتم نادين بها . وفي الحقيقة ، لقد اخذت نزوات نادين تسئمه . وعندما عاد ليجلس قربها ، كانت قد ملأت الكأسين بالشمبانيا وراحت تتأمــل

فيها ساهمة . وقالت وهي تذبل له عينيها :

– انت لطيف جداً . » وابتسمت فجأة: « هل تصبح ظريفاً عندما تسكر؟».

– عندما أسكر اجد نفسي ظريفاً جداً .

– والآخرون ، ماذا يفكرون ؟

– عندما أسكر لا أبالي بما يفكرون .

فأشارت الى الزجاجة :

– اسكر ؟

– بالشمبانيا لن أسكر .

– كم كأساً تستطيع ان تشرب دون ان تسكر ؟

– كميات .

– أكثر من ثلاث ؟

– بالتأكيد .

فنظرت اليه غير مصدقة : « اودّ كثيراً ان أرى ذلك » .

– اذا شربت هاتين الكأسين دفعة واحدة ، ألن تؤثرا عليك ؟

– مطلقاً .

– هيا اذن .

– ولمَ ؟

– ان الناس يتباهون دوماً : يجب ان نقطع عليهم كل طريق .

فقال هنري :

– وبعد ذلك ستسأليني ان أمشي على رأسي ؟

– بعد ذلك ، تستطيع ان تذهب لتنام .. اشرب بلا توقف .

فجرع احدى الكأسين وأحس بصدمة في جوف معدته . ووضعت الكأس الثانية في يده :

– قلنا بلا توقف .

وجرع الكأس الثانية .

واستيقظ راقداً في سرير ، عارياً ، الى جانب امرأة عارية أمسكته من شعره وراحت تهز رأسه . وتمتم : « مَن هنا ؟ » .

– أنا نادين . استيقظ ، لقد تأخر الوقت .

وفتح عينيه . كانت الكهرباء مضاءة ، في غرفة مجهولة ، غرفة فندق . نعم ، انه يتذكر المكتب ، والدرج . وقبل ذلك كان قد شرب شمبانيا ، وكان رأسه يؤلمه .

– ماذا حدث ؟ انني لا أفهم .

فقالت نادين مقهقهة :

– شمبانيتك ، كانت مخلوطة بالعرق ، بنسبة سبعين بالمئة .

– أوضعت عرقاً في الشمبانيا ؟

– قليلًا ! انها حيلة استخدمها غالباً مع الامير كان عندما أكون بحاجة الى ان يكونوا سكارى . » وابتسمت : « كانت هي الوسيلة الوحيدة للحصول عليك »

– وحصلت عليّ ؟

– اذا كنا نستطيع ان نقول ذلك .

ولمس رأسه : « انني لا اذكر شيئاً » .

– أواه ! ليس ثمة ما يدعو الى ذلك .

وقفزت خارج السرير ، وأخرجت مشطاً من حقيبتها وأخذت تمشط شعرها وهي عارية امام مرآة الخزانة . كم كان جسدها فتياً ! هل ضم بين ذراعيه حقاً هذا الصدر النحيف ذا الكتفين المستديرتين ، والثديين الخفيفين ؟ وفاجأت نظرته : « لا تنظر اليّ هكذا ! » . وأمسكت قميصها الداخلي وضمته بسرعة .

– انت جميلة جداً !

فقالت بصوت متكبر :

– لا تقل حماقات !

– لماذا ترتدين ثيابك : تعالي .

فهزت رأسها وقال في شيء من القلق:

ـ هل ثمة ما توبخينني عليه ؟ لقد كنت سكراناً كما تعلمين .

وعادت الى السرير فقبلت هنري على خده : « لقد كنت لطيفاً جداً » .
واضافت ، وهي تبتعد : « لكني لا احب ان اعاود . ليس في اليوم نفسه » .

من المؤسف حقاً ألا يتذكر شيئاً . كانت تضم جوربيها ، وكان يشعر بعدم الارتياح ، وهو راقد عارياً تحت هذه الاغطية : « سأنهض : استديري » .

ـ أتريد ان استدير ؟

ـ اذا شئت .

ووقفت في زاوية ، وأنفها الى الحائط ، ويداها خلف ظهرها كتلميذة معاقبة.
وسرعان ما سألت بصوت ساخر : « أهذا لا يكفي ؟ » .

وتفحصته منتقدة : « ما اعقدك ! » .

ـ أنا ؟

ـ انك تحدث قصصاً لترقد في السرير ولتخرج منه .

فقال هنري :

ـ أي صداع سببته لي !

كان آسفاً على انها لم تشأ المعاودة . لقد كان لها جسد جميل وكانت فتاة ظريفة.
وعندما جلسا أمام فنجانين من قهوة مقلدة ، في شارع « بيار » الصغير الذي كان يستيقظ إلى جانب محطة مونبارناس ، سأل في مرح :

ـ باختصار لمَ كنتِ تصرّين على ان تنامي معي ؟

ـ لأتعرف إليك .

ـ أبهذه الطريقة تتعرفين إلى الناس دوماً ؟

ـ عندما ننام مع احد ، يتحطم البرود . اننا أفضل الآن معاً من السابق ، أليس كذلك ؟

فقال هنري ضاحكاً :

ـ لقد تحطم البرود . ولكن لمَ كنت ترغبين إلى هذا الحد في التعرف إليّ ؟

ـ كنت أريد ان تجدني لطيفة .

– انني اجدك لطيفة جدا .

فنظرت إليه بوجه خبيث ومحرج في آن واحد : « أريد ان تجدني لطيفة بما فيه الكفاية لتأخذني إلى البرتغال » .

– آه ! هذا هو الأمر إذن ! « ووضع يده على ذراع نادين : « لقد قلت لك ان هذا مستحيل » .

– بسبب بول ? لكنها ما دامت لن تأتي معك ، فأستطيع أنا ان آتي .

– كلا ، لا تستطيعين ، سيسبب لها هذا شقاء عظيماً .

– لا تقل لها .

– ستكون كذبة ضخمة جداً . » وابتسم : « بحيث انها ستعرفها » .

– إذن ، كي تجنبها ألماً ، أتحرمني من شيء أرغب فيه للغاية ?

– أترغبين فيه للغاية ?

– بلاد فيها شمس وشيء يؤكل : انني سأبيع روحي للذهاب إليها .

– لقد جعت طوال الحرب ?

– وكيف ! لاحظ ان ماما كانت رائعة بخصوص ذلك . كانت تسير ثمانين كيلومتراً على الدراجة لتأتينا بكيلو من الفطر أو بقطعة لحم. ولكن هذا لا يمنع. أول اميركي وضع بين ذراعي كيس مؤونته ، كنت مجنونة .

– ألهذا تحبين الأميركان كثيراً ?

– نعم . ثم ان هذا في البداية كان يسليني . » وهزت كتفيها : « اما الآن ، فهم منظمون أكثر مما ينبغي ، ولم يعودوا طرفاء . وباريس من جديد كئيبة » . ونظرت إلى هنري بوجه ضارع « خذني » .

انه يود حقاً لو يحقق لها هذه المسرّة . فمنحُ انسان سعـــادة حقيقية ، شيء مريح جداً ! لكن كيف العمل ليجعل بول تبتلع هذا ?

وقالت نادين :

– لقد حدث وحصلت لها قصص ، لكن بول عرفت كيف تدبر أمرها .

– من قال لك هذا ?

فضحكت نادين بطريقة غامضة : « ان امرأة تحدث امرأة أخرى عن غرامياتها ، هذا يطلق اللسان » .

نعم ، كان هنري قد اعترف لبول ببعض خياناته التي سامحتها بكبرياء . والصعوبة اليوم هي انه إذا حاول ان يقدم تفسيراً فسوف يقوده هذا حتماً اما إلى ان يقيد نفسه بكذبة لا يريدها ، أو ان يطالب بحريته في قسوة ، والشجاعة تنقصه لعمل كهذا . وتمتم :

– سفر شهر ، هذه قضية أخرى .

– لكن سنهجر بعضنا عند العودة ، فأنا لا أريد ان آخذك من بول !

وضحكت نادين بوقاحة : « أريد ان أتنزه ، هذا كل شيء » .

وتردد هنري ان يتنزه في الشوارع المجهولة ، ويجلس على أرصفة المقاهي ، مع امرأة تضحك منه في وجهه ، ثم ان يجد عند المساء جسدها الشاب الدافىء ، نعم، هذا مغر . وما دام عازماً على قطع علاقته ببول، فما الذي يستفيده من الانتظار؟ ان الزمن لا يسوى شيئاً ، بل على العكس . وقال :

– اسمعي ، لا أستطيع ان أعدك بشيء . قولي لنفسك انه ليس وعداً : لكني سأحاول ان أتحدث مع بول ، وإذا بدا لي ان من الممكن أخذك ، فسوف أفعل .

– ٢ –

نظرتُ في خيبة أمل إلى اللوحة الصغيرة . قبل شهرين قلت للطفل : « ارسم بيتاً » ، فرسم فيلا مع أسطحتها ، ومدفأتها ، ودخانها . ولكن بدون نافذة واحدة ، ولا باب واحد ، وحولها كلها سياج أسود عالٍ ذو قضبان مدببة . « والآن ، ارسم عائلة » ، فرسم رجلاً يعطي يده لصبي صغير . وها هو اليوم قد رسم أيضاً منزلاً بلا باب ، محاطاً بقضبان سود مدببة : اننا لا نتقدم . هل هي حالة صعبة بشكل خاص ، أم أنا التي لا تعرف كيف تعالجه ? ووضعت الرسم في

مصنف . ألم أكن أعرف ، أم لم أكن أريد ؟ لعل مقاومة الطفل كانت تعبر عن المقاومة التي أحس بها في نفسي : ذلك المجهول الذي مات قبل سنتين في «داشو» ، كنت أفزع من طرده من قلب ابنه . وقلت في نفسي : « إذن يجب ان أترك هذا العلاج » . ولبثت واقفة بجانب طاولة عملي . كان أمامي ساعتان ، وكنت أستطيع ان أصنف مذكراتي ، لكني لم أزمع . يقيناً ، لقد طرحت على نفسي دوماً كمية من الأسئلة . فالشفاء يعني غالباً القهر . ففي مجتمع ظالم ، ما قيمة التوازن الفردي ؟ ولكن كان يستهويني ان اخترع في كل حالة جواباً . لم يكن هدفي ان أحصل لمرضاي على راحة داخلية كاذبة . وإذا كنت أحاول ان اخلصهم من خيالاتهم الذاتية ، فهذا كي أجعلهم قادرين على مواجهة المشاكل الحقيقية التي تطرح نفسها في العالم . وفي كل مرة كنت أنجح فيها ، كنت أقدر انني قد قمت بعمل نافع . والمهمة واسعة جداً ، وتتطلب تعاون الجميع : هذا ما كنت أعتقده بالأمس . ولكن هذا يفترض ان لكل انسان عاقل دورا يلعبه في تاريخ يقود الانسانية إلى السعادة . انني لم أعد أؤمن بهذا الانسجام الجميل . ان المستقبل يفلت مني وسيتم بدوننا . إذن ما دمنا لا نأبه إلا للحاضر ، فما الفائدة من ان يصبح فردينان الصغير ضاحكاً وطائشاً كسائر الأطفال ؟ وقلت في نفسي : « ان حالي تزداد سوءاً . إذا ما استمر الأمر هكذا ، فلن يبقى أمامي إلا ان أغلق مكتبي » . وسرت نحو غرفة الحمام ، وعدت منها بطست وبحفنة من صحف قديمة ، وركعت أمام المدفأة حيث كانت تشتعل في خمول كرات من الورق . وبللت الأوراق المطبوعة وأخذت أعجنها . ان اشمئزازي من هذا العمل أقل مما كان عليه في الماضي . فقد كنت بمساعدة نادين وأحياناً بمعونة من البوابة أقوم بشؤون البيت على الوجه المستطاع . وكنت واثقة ، على الأقل ، عندما كنت أهرس هذه الصحف القديمة ، انني أفعل شيئاً ما مفيداً . والمزعج ان هذا لم يكن يتطلب العمل إلا من يدي . ولقد نجحت في ان أكف عن التفكير بالصغير فردينان ، وبمهمتي ، ولكني لم أربح من ذلك شيئاً كبيراً . فالاسطوانة قد عادت تدور في رأسي : « في ستافيلو ، لم يعد هناك ما يكفي من التوابيت

لدفن جميع الأطفال الذين يغتالهم رجال المخابرات » . ونحن ، قد هربنا . ولكن هذا حصل في أمكنة أخرى . لقد أخفينا بسرعة الأعلام ، وأغرقنا الأسلحة ، وهرب الرجال إلى الحقول ، وفي الشوارع المتروكة للمطر سمعنا أصواتهم المبحوحة. انهم لم يأتوا هذه المرة كغزاة شهام ، بل عادوا والحقد والموت في قلوبهم . ثم رحلوا ثانية . ولكن من القرية المحتفلة ، لم تبقَ إلا أرض محروقة وكوم من جثث صغيرة .

وارتجفت لنفحة برد دخلت : كانت نادين قد فتحت الباب فجأة :

– لماذا لم تسأليني ان أساعدك ؟

– كنت أعتقد انك تلبسين .

– لقد انتهيت منذ مدة طويلة . » وركعت إلى جانبي وأمسكت بصحيفة . « أتخافين ألا اعرف ؟ هذا على كل حال بإمكاني » .

والحقيقة هي انها لم تكن تحسن العمل : فقد كانت تبلل الورق أكثر مما ينبغي ، ولا تعجنه بما فيه الكفاية . ورغم كل شيء كان عليّ ان أدعوها . وتفحصتها . وقالت :

– دعني أصلح هيئتك قليلاً .

– لمن هذا ؟ للامير ؟

وذهبت لآتي من خزانتي بمنديل وبمشبك قديم وناولتها نعلين لهما سيور جلدية كانت زبونة تعتقد نفسها قد شفيت ، أهدتني إياهما . وترددت :

– ولكنك تخرجين هذا المساء : ماذا ستضعين ؟

فقلت ضاحكة :

– لن ينظر أحد إلى قدمي .

فأخذت الحذائين ودمدمت : « شكراً ! » .

ووددت لو أجيب : « لا داعي لذلك ! » . لقد كان اهتمامي وسخائي يحرجانها لأنها لم تكن معترفة بجميلي حقاً ، كما انها كانت تلوم نفسها على ذلك. كنت أشعر بها تتردد بين عرفان الجميل والشك ، بينما كانت تعجن الكرات بشكل أخرق .

وكانت على حق في إرتيابها . فقد كان اخلاصي وكرمي اظلم حيلي : فقد كنت ألقي التبعة عليها في حين انني لم أكن أسعى إلا إلى تخليصها من تأنيب ضميرها . تأنيب ضمير لأن ديبغو قد مات ، لأن نادين لا تملك ثوب حفلة ، لأنها تضحك بشكل سيء ، ولأن الشراسة تجعلها قبيحة . تأنيب ضمير لأنني لا أعرف كيف أجعلها تطيعني ، ولأنني لا أحبها بما فيه الكفاية . لعلي كنت أهدئها لو أخذتها بين ذراعي وأنا أقول لها : « يا ابنتي الصغيرة المسكينة ، سامحيني على انني لا أحبك أكثر من ذلك » . لعلي لو أخذتها بين ذراعي ، لحميت نفسي من تلك الجثث الصغيرة التي لم نكن نملك وسيلة لدفنها .

ورفعت رأسها : « هل حدّثت أبي ثانية عن تلك السكرتارية ؟ » .

– ليس منذ أول أمس ، كلا . » وأضفت بسرعة : « المجلة لن تصدر إلا في نيسان ، فأمامنا وقت كاف » .

فقالت نادين :

– لكني بحاجة إلى ان أعرف موضع قدمي . » ورمت بكرة في النار : « انني لا أفهم حقاً لماذا هو ضد ذلك » .

– لقد قال لك السبب : انه يرى انك ستضيعين وقتك .

مهنة ، ومسؤوليات شخص كبير : أعتقد أنا ان هذا سيفيد نادين . ولكن روبير كان أكثر طموحاً . وقالت وهي تهز كتفيها :

– والكيمياء ، أليست مضيعة للوقت ؟

– ما من أحد يرغمك على دراسة الكيمياء .

انما لإهانتنا اختارت نادين الكيمياء ، ولم تكن نتيجة ذلك إلا ان عوقبت هي نفسها أكثر مما ينبغي . وقالت :

– ليست الكيمياء هي التي تسئمني ، بل ان أكون طالبة . بابا لا يدرك هذا: انني أكبر سناً منك عندما كنت في عمري . انني أريد ان أفعل شيئاً ما حقيقياً .

فقلت :

– تعلمين جيداً انني موافقة . وكوني مطمئنة ، إذا رأى والدك أنك لـــن

تغيري رأيك ، فسوف يقول نعم في النهاية .

فقالت نادين حردة .

ـ سيقول نعم : لكني أعلم بأية لهجة !

فقلت :

ـ سنقنعه . أتعرفين ما كنت سأفعله لو كنت مكانك : سأتعلم فورا الضرب على الآلة الكاتبة .

فقالت :

ـ فوراً ، لا أستطيع . » وترددت ثم نظرت إلي بشيء من التحدي: « هنري سيأخذني معه إلى البرتغال » .

فأخذتُ على حين غرة ، وسألت بصوت لا يخفي استيائي :

ـ أقرّرتما هذا امس ؟

فقالت نادين :

ـ منذ زمن طويل قررته . » وأضافت بلهجــة عدائية : « بالطبع أنت تلومينني ؟ تلومينني بسبب بول ؟ » .

وكورت كرة رطبة بين راحتيّ : « أعتقد انك ستجلبين التعاسة لنفسك » .

ـ هذا يخصني .

ـ بالفعل .

ولم أضف شيئاً . كنت أعلم ان صمتي يغضبها لكنها كانت تغيظني عندمـــا ترفض بلهجة قاطعة التفسيرات التي تتمناها. انها تريد ان أغضبها غضباً وأنا أنفر من الدخول في لعبتها . وبذلت على كل حال جهداً وقلت : « هنري لا يحبك . انه ليس على استعداد للحب ... » .

فقالت في كراهية :

ـ في حين ان لامبير حمار بما فيه الكفاية ليتزوجني ؟

فقلت :

ـ أنا لم أدفعك أبداً إلى الزواج . والحقيقة ان لامبير يحبك .

فقاطعتني : « أولاً ، انه لا يحبني . بل انه لم يسألني أبداً ان أنام معه ، حتى في الليلة السابقة ، في السهرة ، مهّدت له فلم يأبه لي » .

– هذا لأنه ينتظر شيئاً آخر منك .

– إذا كنت لا أعجبه ، فهذه قضية تخصه . على كل حال ، انني أفهم ان يكون صعباً بعد ان كانت له فتاة مثل روزا . وأرجوك ان تصدقي انني أعوض عن ذلك . ولكن لا تأتي لتقولي لي انه ملتاع علي » .

كان صوت نادين يعلو . وهززت كتفي ، وقلت :

– افعلي ما شئت . انني أتركك حرة . ماذا تطلبين أكثر من ذلك ؟

فكحت قليلاً ، كما تفعل دوماً عندما تفزع : « بيني وبين هنري ليس الأمر إلا مغامرة . عند العودة ، سنترك بعضنا » .

– بصراحة ، نادين ، هل تؤمنين بهذا ؟

فقالت بقناعة أكثر مما ينبغي :

– نعم ، انني اؤمن .

– بعد ان تقضي شهراً مع هنري ، ستتعلقين به .

– مطلقاً . » ومن جديد اشتعل التحدي في عينيها : « إذا أردت ان تعلمي ، فقد نمت معه البارحة ، وهذا لم يؤثر علي مطلقاً » .

وأشحت بناظري: لم أكن حريصة على العلم. وقلت دون ان أعترف بحرجي: « هذه ليست حجة . أنا واثقة انك ، عند العودة ، ستريدين الاحتفاظ به : ولن يريد » .

فقالت :

– هذا ما سنراه .

– آه ! أنت توافقين : انك تأملين في الاحتفاظ به . أنت مخطئة : كل ما يتمناه في الوقت الحاضر ، حريته .

– هناك جولة للعب : هذا يسليني .

– الحساب، والمناورة، والترصد، والانتظار، هذا يسليك! ثم انك لا تحبينه !

فقالت :
– قد لا أحبه ، لكني أريده .
وألقت في المدفأة بقبضة من الكرات :
– معه ، سأعيش ، أتفهمين ؟
فقلت في نزق :
– ليس الانسان بحاجة الى أحد ليعيش .

ونظرت حولها : « أتسمين هذه حياة ! بصراحة ، يا ماما المسكينة ، اتعتقدين انك عشت ؟ ان تتحدثي مع بابا نصف اليوم وتداوي المجانين النصف الآخر ، ثم تتحدثين عن حيـــاة ! » . ونهضت ثانية وضربت ركبتيها . كان صوتها مغيظاً : « يحدث لي ان أرتكب حماقات ، لا اقول لا . ولكني أفضل ان أنتهي في ماخور على ان اتنزه في الحياة بقفـازات من جلد جدي عادم الحرارة : ابداً لن ترفعيها ، قفازاتك . انت تمضين وقتك في إعطاء نصائح . وماذا تعرفين عن الرجال ؟ وأنا واثقة انك ابداً لا تنظرين الى المرآة وانك أبدا لا تشاهدين كوابيس » .

كانت خطتها ان تهاجمني في كل مرة تكون فيها مخطئة او تشك في نفسها مجرد شك . ولم اجب بشيء . وسارت نحو الباب ، وعند العتبة توقفت وسألت بصوت اهدأ :
– أتأتين لتناول فنجان شاي معنا ؟...
– ليس عليك إلا ان تدعوني .

ونهضت وأشعلت سيجارة. ماذا أستطيـع ان أفعل ؟ لم اعد اجرؤ على فعل أي شيء . عندما بدأت نادين تسعى الى دييغو وتهرب منـــه من سرير الى سرير ، حاولت ان اتدخل : لكنها كانت قد اكتشفت التعاسة بفظاعة شديدة ، وظلت ضائعة جداً من التمرد واليأس حتى تمكنت من السيطرة عليها . وما إن حاولت ان اكلمها ، حتى سدّت اذنيها ، وصاحت ، وهربت : ولم تعد الى البيت إلا عند الفجر . وعلى طلبي ، شرع روبير في تقويم صوابها . وفي ذلك المساء لم ترَ ضابطها الاميركي ، وظلت سجينة في غرفتها . ولكن في اليوم التالي اختفت تاركة كلمة :

« انني راحلة » . وطوال ليـلة ، وطوال نهار ، وطوال ليلة اخرى ، فتش روبير عنها . وكنت انا انتظر في البيت . يا له من انتظار فظيـع ! حوالي الساعة الرابعة صباحاً تلفن نـــدل من مونبارناس . ووُجدت نادين ممددة على خوان البار ، شبه ميتة من السكر ، وعينها منتفخة السواد . وقال لي روبير : « دعيها اذن حرة . يجب ان لا نغصبهـــا » . لم يكن لي خيار . لو تابعت النضال ، لأخذت نادين تكرهني ولتقصدت ازدرائي . لكنها تعلم أنني استسلمت بالرغم مني وانني الومها: وهي تأخذ علي ذلك . لعلها ليست مخطئة تماماً . لو كنت احببتها أكثر ، لكانت علاقاتنا مختلفة . لعلي كنت عرفت كيف أمنعها من ان تعيش حياة ألومها عليها . ولبثت طويلًا واقفة انظر الى ألسنة اللهيب وانا أردد في نفسي : « انني لا احبهـا بما فيه الكفاية » .

لم ارغب فيها . انه روبير الذي تمنى فوراً طفلًا وحقدت على نادين انها اقلقت خلوتنا : كنت احب روبير كثيراً ، ولم اكن أهتم بما فيـه الكفاية بنفسي كي يلين قلبي من رؤية ملامحه او ملامحي ثانية عند تلك الدخيلة الصغيرة . ولاحظت بلا عطف عينيها الزرقاوين ، وشعرها ، وأنفها . ووبختها اقل ما بإمكاني ، لكنها شعرت بتحفظي : لقد كنت دوماً مشبوهة عندها . ما من فتاة صغيرة مثلهـــا جاهدت في الانتصار على منافستها في قلب والدها . وابداً لن تستسلم لأن تكون من النوع نفسه الذي انا منه . وعندما شرحت لها انها عما قريب ستبلغ وماذا يعني هذا ، أصغت اليّ في انتباه شارد ، ثم حطمت على الارض اناءها المفضل . وبعد الطمث الاول، كان غضبها قوياً جداً الى حد انها ظلت ثمانية عشر شهراً لا تنزف . ثم خلق دييغو بيننا جواً جديداً : لقـــد امتلكت اخيراً كنزاً لا يخص غيرها ، وشعرت بنفسها مساوية لي وولدت صداقة بيننا. ولكن فيما بعد ، أصبح كل شيء أسوأ . والآن كل شيء أسوأ .

— ماما .

كانت نادين تدعوني وبينما انا أسير في الممشى، حسبت : اذا بقيت مدة طويلة جداً ، ستقول انني أستأثر بأصدقائهـــا . واذا انصرفت بسرعة ، ستفكر بأنني

احتقرها . ودفعت الباب . كان هناك لامبير ، وسيزوناك ، وفانسان ، ولاشوم، ولا امرأة ، فلم يكن لنـــادين صديقة . كانوا يحتسون النسكافة حول مدفأة كهربائية . وناولتني فنجاناً فيه ماء اسود حريف ، وقالت فجأة :

ـ شانسيل قد قتل .

لم أكن أعرف شانسيل كثيراً . ولكن قبل عشرة أيام ، رأيته يضحك مع الآخرين حول شجرة الميلاد . لعل روبير كان على حق : ليس هناك مسافة كبيرة بين الاحيـاء والأموات . ومع ذلك ، فقد كان هؤلاء الاموات المستقبلون الذين يشربون قهوتهم في صمت ، يبدو عليهم الخجل ، مثلي ، من انهم أحيـــاء جداً . وكانت عينا سيزوناك أكـــثر فراغاً من العادة ، وتشبهان عيني رامبو مخبول . وسألت :

ـ كيف حدث ذلك ؟

فقال سيزوناك :

ـ لا نعرف شيئاً . لقد تلقى اخوه كلمة تقول انه مات في ساحة الشرف

ـ ألم يفعل ذلك عمداً ؟

فهز سيزوناك كتفيه : « جائز » .

فقال فانسان :

ـ جائز ايضاً انهم لم يطلبوا رأيه . انهم لا يتباخلون بالمادة البشرية ، جنرالاتنا، انهم سادة كبار .

كانت عيناه المخنوقتان بالدم تبدوان ، وسط وجهه الشاحب ، كجرحين . وكان فمه يشبه ندباً . وما كان المرء ليتبين في البداية ان ملامحه منتظمة دقيقـة . وكان وجه لاشوم على العكس هادئاً ومحدشاً كصخرة . وقال :

ـ انها مسألة نفوذ ! اذا كنا لا نزال نريـــد ان نلعب دور الدولة القوية ، فيلزمنا عدد لا بأس به من الموتى .

فقال فانسان ، وقد فغر فاه في نوع من الابتسامة :

ـ ثم ، قل اذن ، ان نزع سلاح « قوات الداخـل الفرنسية » لم يكن سيئاً :

لكن لو أمكنت تصفيتهم بشكل هادىء ، للاءم هذا أكثر اولئك السادة .

فقال لامبير بصوت قاس وهو ينظر الى فانسان في عينيه :

– إلامَ تلمّح ؟ ديغول أصدر الأمر لدولاتر بالتخلص من جميع الشيوعيين ؟ اذا كان هذا ما تعنيه ، فقله : لتكن لك على الأقل هذه الشجاعة

فقال فانسان .

– لا حاجة للأمر . انهم يتفاهمون بأنصاف الكلمات .

فهز لامبير كتفيه : – « انت نفسك لا تؤمن بهذا » .

فقالت نادين بصوت عدائي : « قد يكون هذا صحيحاً .

– يقيناً انه غير صحيح .

فقالت :

– ما الذي يثبت ؟

فقال لامبير :

– آه ! لقد تعلمت التكنيك. انهم يخترعون حدثاً من كل مصدر، ثم يسألونك ان تثبت انه غير صحيح! من البديهي ، انني لا أستطيع ان اظهر لك ان شانسيل لم يقتل برصاصة في ظهره .

فابتسم لاشوم : « فانسان لم يقل هذا » .

كان الامر يجري هكذا دوماً . وكان سيزوناك يلزم الصمت . وفانسان ولامبير يتشاجران وفي اللحظة المناسبة يتدخل لاشوم . كان بشكل عام يأخذ على فانسان يساريته وعلى لامبير أحكامه البورجوازية الصغيرة المسبقة . وكانت نادين تقف مع هذا المعسكر او ذاك ، حسب مزاجها . وتجنبت الدخول في خصامهم . وكان أكثر حدة من العادة ، بلا شك لأن موت شانسيل قد أزعجهم جميعاً إن قليلاً وإن كثيراً . وعلى كل الأحوال ، لم يكن فانسان ولامبير مخلوقين ليتفاهما . كانت تفوح من لامبير رائحة ابن العائلة . وكان فانسان بسترته المبطنة بالفرو ووجهه الناعم الوسخ أشبه بصعلوك بالأحرى، وكان ثمةشيء لا يبعث على الاطمئنان كثيراً في عينيه ، ولكني لم أكن أستطيع على كل حال التصديق بأنه قد قتل

بشراً حقيقيين، بسدس حقيقي. في كل مرة كنت أراه فيها كنت أفكر بذلك، لكن دون ان أتمكن من التصديق . ولعل لاشوم قد قتل ايضاً ، على كل حال ، لكنه لم يتحدث عن ذلك الى أحد ولم يكن هذا يزعجه .

واستدار لامبير نحوي ، وقال : « حتى مع الرفاق ، لم يعد الحديث ممكناً آه ! إنها ليست ظريفة، باريس في هذا الوقت. انني أتساءل ما اذا لم يكن شانسيل على حق ، لا اقول ان يتركهم يقتلونه ، بل ان يذهب للقتال » .

ونظرت اليه نادين بوجه غاضب . وقالت : « انت لست في باريس ابداً ! »

– انني فيها بما فيه الكفاية لأجد أنها كئيبة . وعندما أتنزه في الجبهة لا أشعر بالفخر .

فقالت بصوت حاد :

– ولكنك فعلت كل ما ينبغي لتصبح مراسلاً حربياً !

– انني أفضل حتى هذا على ان أبقى هنا . ولكن هذا نصف تدبير .

فقالت نادين التي أستشاط وجهها غضباً بشكل صريح :

– اواه ! اذا كنت سئماً في باريس ، فما من احد يبقيك فيها . يبدو ان دولاتر يحب الغلمان الجميلين . اذهب إذن لتلعب دور البطل ، اذهب .

فدمدم لامبير وهو يحدجها بنظرة ثقيلة بالتعريضات :

– انها لعبة تساوي اللعب الأخرى .

فحدجته نادين لحظة : « لن تكون قبيحاً في إهاب جريح مخطر ، مع ضمادات في كل مكان » . وقهقهت : « لا تعتمد عليّ لأعودك في المستشفى . فبعد خمسة عشر يوماً سأكون في البرتغال » .

– في البرتغال ؟

فقال بلهجة غير آبهة :

– بيرون سيأخذني كسكرتيرة .

فقال لامبير :

– حسناً ! انه محظوظ . ستكونين له بمفرده، طوال شهر كامل ! فقالت نادين:

– ليس جميع الناس قرفين مثلك .

فقال لامبير من بين أسنانه :

– نعم ، ان الرجال في هذه الأيام سهلون ، سهلون كالنساء .

فقالت نادين :

– أنت غليظ !

كنت أتساءل في غيظ كيف يتركان نفسيهما يقعان في مناورتهما الخطرة ! ومع ذلك فقد كنت واثقة انهما كانا يستطيعان ان يتعاونا على الحياة ثانية . كانا يستطيعان معاً ان ينجحا في قهر تلك الذكريات التي توحد بينهما وتفصلهما . ولكن لعلهما بسبب هـذا بالضبط كانا ينهشان بعضهما البعض : فكل منهما كان يكره في الآخر خيانته الخاصة . على كل حال ، كان التدخل من أسوأ الخرق . وتركتهما يتشاجران وغادرت القاعة . وتبعني سيزوناك الى الغرفة الملاصقة .

– أأستطيع ان اقول لك كلمة ؟

– هيا .

فقال :

– انها خدمة ، خدمة أريد ان أسألك إياها .

كنت أتذكر كم كانت مشيته طليقـــة ، في ٢٥ آب ، بلحيته ، وبندقيته ، ومنديله الأحمر : جندي حقيقي من جنود ١٨٤٨ . اما الآن فقد كانت عينـــاه الزرقاوان ميتتين ، وفمه منتفخاً . وكنت قد لاحظت وانا أصافح يده ان راحتيه نديتان . وقال :

– انني انام سيئاً . وبي .. بي آلام . ذات مرة أعطاني صديق حقنة افيون ، وقد هدأني هذا كثيراً . كل ما هنالك ان الصيادلة يطلبون امراً من طبيب ...

كان ينظر الي بوجه ضارع .

– أي نوع من الآلام ؟

– اواه ! في كل مكان . في الرأس . وكوابيس على الأخص ..

وأصبح جبينه ندياً كيديه :

– سأقول لك كل شيء . لي صديقة . صديقة أحبها كثيراً ، وأريد ان اتزوجها . ولكني ... لكني لا أستطيع ان افعل شيئاً معها اذا لم آخذ افيوناً.
فقلت :
– الافيون مخدر خطر . هل تتناول منه غالباً ؟
وبدا عليه الذعر : « اواه ! كلا . مرة فقط من حين لحين ، عندما أمضي الليل مع لوسي » .
– ولو مرة واحدة . ان المرء يتسمم بسرعة هذه الأشياء .

كان ينظر إلي بوجه ضارع ، والعرق يتلألأ على جبينه . وقلت : « تعال اذن لرؤيتي غداً . سأرى اذا كنت أستطيع ان اعطيك هذا الأمر » .

وعدت الى غرفتي . يقيناً لقد كان متسمماً إن قليلاً وإن كثيراً . متى بدأ في تناول المخدرات؟ لماذا؟ وتنهدت . هوذا واحد آخر سأمدده على الأريكة واحاول افراغه . انهم يغيظونني ، احياناً ، هؤلاء الممددين . انهم ، في الخارج ، وهم وقوف على اقدامهم ، يلعبون دورهم كراشدين كيفما اتفق . وهنا يعودون من جديد رضّعاً ، مؤخراتهم كلها براز ، وعليّ ان اغسلهم من طفولتهم . ومع ذلك ، فقد كنت أتكلم بصوت لا شخصي هو صوت العقل ، صوت الصحة . ان حياتهم الحقيقية في مكان آخر : وكذلك حياتي . ولهذا لا عجب اذا كنت متعبة منهم ومن نفسي .

كنت متعبة . كانت نادين تقول « قفازات جدي بلا حرارة » . ولقد قال سكرياسين : «متحفظة ، مخيفة» . أهكذا ابدو لهم ؟ أهكذا انا ؟ انني اذكر غضبي في طفولتي ووجيب قلبي المرهق ، وحمّيات شهر آب ذاك . لكن كل هذا قد أصبح بعيداً . والحقيقة ان ما من شيء عاد يتحرك في داخلي. وأمررت مشطاً في شعري ، وأصلحت رتوش ماكياجي . ان الانسان لا يستطيع ان يثبت الى ما لا نهاية في الخوف ، انه يتعب . ثم ان روبير قد بدأ كتاباً ، ومزاجه الآن ممتاز . لم اعد استيقظ ليلاً وكلي عرق من القلق ، لكني بقيت متداعية . انني لا أرى أي داع لأن أكون حزينة ، كلا . كل ما هنالك ان عدم احساسي بأنني

سعيدة يجعل مني تعيسة ، ولقـــد دُلّلت بلا شك أكثر مما ينبغي . وتناولت حقيبتي ، وقفازي ، وقرعت باب غرفة روبير . لم تكن بي أي رغبة في الخروج .

– ألا تشعر ببرد شديد ؟ ألا تريد نار ورق ؟

وابعد مقعده ، وابتسم لي : « انني مرتاح جداً » .

يقيناً . ان روبير دوماً على ما يرام . لقـــد غذى نفسه في فرح طوال سنتين بـ الكرنب مع اللفت وبالسلجم . وما كان يشعر بالبرد ابـــداً : كأني به ينتج بنفسه حرارته على طريقة اليوغي . عندما سأعود حوالي الظهر ، سيكون لا يزال غارقاً في الكتابة ، ملتحفا بمعطفه الايكوسي ، وسوف يدهش : « ولكن كم الساعة اذن ؟ » . لم يكن قد حدثني إلا بشكل مبهم عن كتابه الجديـد ، لكني أشعر انه مسرور منه . وجلست . وقلت :

– لقد جاءت نادين تخبرني بفكرة غريبة : انها مرافقة هنري الى البرتغال .

فرفع عينيه في حدة نحوي : « أهذا يزعجك ؟ » .

– نعم . ان بيرون ليس من النوع الذي يلقط ثم يرمي : سوف تتعلق بـــه كثيراً .

فوضع روبير يـــده على يدي : « لا تلتاعي كثيراً على نادين . فأولاً سوف يدهشني ان تتعلق ببيرون . وعلى كل حال ، سوف تتعزى عنه بسرعة » .

فقلت :

– انها لن تقضي على كل حال حياتها في تعزية نفسها !

فأخذ روبير يضحك :

– لا يمكن عمل شيء ! سيصدمك دوماً ان تنام ابنتك مع كل رجل دون تمييز مثل صبي . كنت أفعل مثلها في عمرها .

ابداً لم يشأ روبير ان يعتـــبر ان نادين ليست صبياً . وقلت : « ليست الحالة متشابهة . نادين تتشبث برجل بعـد آخر لأنها عندما تكون وحيدة لا تشعر بأنها تعيش . هذا ما يقلقني » .

– اسمعي ، من المفهوم ان تخاف من الوحدة . فقصة ديغو لا تزال قريبـــة

العهد تماماً .

فهززت رأسي : « ليس فقط بسبب ديغو » .

فقال بلهجـــة متشككة : « انني أعرف ، انت تدعين انها غلطتنا ايضاً » .

وهزّ كتفيه : « انها ستتغير ، لديها الوقت كله لتتغير » .

– لنأمل ذلك . » ونظرت الى روبير في اصرار : « اتعرف ، سيكون هاماً جداً بالنسبة لها ان يكون لديها شاغل تهتم به حقاً . اعطها وظيفة السكرتيرة تلك. لقد جاءت تحدثني عنها مرة اخرى ، انها حريصة عليها جداً .

فقال روبير :

– لكنها وظيفة ليس فيها ما يثير . ان تدق المغلفات وتمسك السجلات طوال النهار : انها جريمة ، وهي ما هي عليه من ذكاء .

فقلت :

– ستشعر بنفسها انها مفيدة ، وهذا سيشجعها .

– انها تستطيع ان تفعل أفضل من ذلك بكثير ! لتتابع اذن دراستها .

– انها حالياً بحاجة الى ان تفعل شيئاً ما ، وسوف تكون سكرتيرة طيبة » .

وأضفت : « يجب ألا نطلب كثيراً من الناس » .

لقد كانت متطلبات روبير بالنسبة لي مقوية دوماً ، لكنهـا انتهت الى تثبيط همة نادين . لم يكن يصدر اليها أوامر : فقد كان يثق بها ، وينتظر ، وكانت تعتز بهذه اللعبة. كانت قد قرأت وهي لا تزال صغيرة جداً كتباً قاسية جداً ، وساهمت قبل الأوان بكثير في أحاديث الراشدين . ثم تعبت من هذا النظام ، وثارت أولاً على نفسها ، وهي تأخذ الآن نوعاً من الثأر باجتهادها في تخييب أمل روبير . ونظر الي في حيرة ، كما في كل مرة يستشعر في كلماتي تأنيباً ، وقال :

– اذا كنت تعتقدين حقاً ان هذا ما يناسبها .. فأنت تعلمين أفضل مني .

فقلت :

– أعتقد حقاً .

– اذن ، ليكن .

لقد استسلم بسهولة كبيرة : هذا يثبت ان نادين لم تنجح إلا أكثر مما ينبغي في تخييب أمله . كان روبير ، عندما لا يعود يستطيع ان يهب نفسه بلا تحفظ الى عاطفة ، او إلى مشروع ، يستعجل في التخلص من الأمر . وقلت : « من البديهي ان مهنة تجعلها مستقلة عنا أفضل لها أيضاً » .

فقال روبير في جفاء : « ولكن ليس هذا ما تريده : انها تريد ان تلعب لعبة الاستقلال » . انه لم يعد راغباً في الكلام عن نادين ولم أكن أستطيع ان أبث فيه الحماسة لمشروع لا يوافق عليه . واستنكفت عن الكلام في الموضوع . وقال روبير بلهجة متحمسة فجأة :

– انني لم أفهم حقاً لماذا يقوم بيرون بهذه الرحلة .

فقلت : « انه راغب في قضاء عطلة » . اني ، أنا ، افهم . وأضفت في حرارة: « أرى ان له الحق كله في ان يتمتع ببعض الوقت الطيب . فقد عمل بما فيه الكفاية ... » .

ففال روبير :

– لقد عمل أكثر مني ، ولكن ليست هذه هي المسألة . ونظر إلي نظرة آمرة . « كي ينطلق « الاشتراكي الثوري الحر » فلا بد لنا من صحيفة » .

فقلت :

– اعرف . » وأضفت في تردد : « انني أتساءل ... » .

– ماذا ؟

– ما اذا كان هنري سيتخلى لكم عن تلك الصحيفة : انه حريص عليها كثيراً .

فقال روبير :

– ليست المسألة ان يتخلى لنا عنها .

– بل المسألة ان يضع نفسه تحت أوامر « الاشتراكي الثوري الحر » .

– ولكنه عضو فيه . وسيكسب عظيم الفائدة من تبني برنامج سياسي : فصحيفة بلا برنامج سياسي ، لا تقف على قدميها .

– انها فكرتهم .

– أتسمين هـذه فكرة ! » وهز روبير كتفيه : « المحافظة على روح المقاومة فوق الأحزاب ! »: ان هذا النوع من السلطـة صالح لذلك المسكين لوك . روح المقاومة ، اليك ، انها تذكرني بروح لوكارنو . ان بيرون لا يستطيـع ان ينتج في الفوضى . انني مطمئن ، سينتهي به الأمر الى ان يسير . ولكننـــا ، بانتظار ذلك ، نضيـع الوقت » .

كنت خائفة من ان يكون روبير يعدّ لنفسه مفاجأة سيئة . فهو عندما يعاند في مشروع ، يرى في الناس مجرد أدوات . تلـك الجريدة ، لقد كان بيرون يهب نفسه لها روحاً وجسداً ، فقد كانت مغامرته الكبرى ، ولم يترككهم عن طواعيـه يملون عليه البرامج . وسألت :

– لماذا لم تحدثه عن الأمر مرة اخرى ?

– انه لا يفكر إلا بالذهاب للتنزه .

كان يبدو على روبير استياء كبير حتى انني اقترحت :

– حاول ان تقنعه بالبقاء .

لقد كان يناسبني من اجل نادين ان يستنكف هنري عن تلك الرحلة . لكنني سأسف على ذلك من أجله . فهو يرى فيها مصدر سعادة عظيمة . وقال روبير :

– أنت تعرفينه جيداً ! عندما يكون عنيداً ، فهو عنيد ! من الأفضل ان أنتظر عودته .» وشد الغطاء الى قدميه . وقال في مرح : « ليس هذا كي أطردك ! لكنك عادة تكرهين ان تتأخري ... » .

ونهضت : « أنت على حق! فيجب ان أذهب . اواثق انك لا تريد المجيء? » .

– اواه ! كلا ليست بي أي رغبة في الحديث عن السياسة مع سكرياسين . أما أنت ، فلعله سيوفرك » .

فقلت :

– لنتمنّ هذا .

في الفترات التي كان روبير يسجن فيهـا نفسه ، كان يحدث لي غالباً ان أخرج بدونه . ولكن في هذا المساء ، عندما انطلقت في البرد ، في الظلام ، كنت نادمة

على قبولي دعوة سكرياسين . اواه ! انني افهم نفسي : انني متعبة قليلاً من رؤية الرؤوس نفسها دوماً . انني أعرفهم أكثر مما ينبغي ، فطوال أربع سنوات عشنا جنباً الى جنب ، وكان هذا يبعث حولنا الدفء . اما الآن ، فان ألفتنا قد بردت من جديد ، وهي تفوح برائحة المكان المغلق، دون كسب . لقد استسلمت لأغراء الجدة . ولكن ما الذي سنجده لنقوله لبعضنا ؟ أنا أيضاً ، ليست بي أي رغبة في الحديث عن السياسة . وتوقفت في دهليز ريتز وفحصت نفسي في المرآة . كي أظل أنيقة رغم بطاقات النسيج فقد كان لا بد ان أفكر فيها دون انقطاع . لكنني فضلت ألا أهتم بشيء مطلقاً: وفي الحقيقة لم يكن مظهري حسناً ، بمعطفي الذاهب الرونق وحذائي ذي النعل الخشبي . كان أصدقائي يقبلونني كما أنا . لكن سكرياسين قادم من أميركا حيث تعتني النساء بأنفسهن كثيراً ، وسوف يلاحظ قبقابي . وفكرت : « كان يجب ألا أهمل نفسي الى هذا الحد » .

بالطبع، ان ابتسامة سكرياسين لم تخنه. وقد قبّل يدي ، وهذا ما أكرهه . ان اليد أكثر عرياً من الوجه، ويحرجني ان ينظر اليها عن قرب قريب . وسأل:

– ماذا تأخذين ؟ مارتيني ؟

– موافقة على المارتيني .

كان البار مليئاً بالضباط الاميركان والنساء اللابسات بعناية. وصعدت الحرارة ، ورائحة السجاير ، وطعم الجن الممزوج ، الى رأسي فوراً وشعرت انني مسرورة بوجودي هنا . لقد أمضى سكرياسين أربع سنوات في اميركا ، البلد الكبير المحرر، البلد الذي تبصق فيه الينابيع أمواجاً من عصير الفواكه والكريمة الجامدة: وسألته في شره . وكان يجيب بطيبة خاطر بينما كنت أشرب كأس مارتيني ثانية. وتناولنا العشاء في مطعم اكتظظت فيه دون حرج باللحم الأحمر والملفوف بالكريمة. وبدوره ، جعلني سكرياسين أتكلم: كان من الصعب ان أجيب على أسئلته الدقيقة جداً . كان اذا حاولت ان أتذكر طعم ايامي اليومي – رائحة حساء الملفوف في البيت المطوق بإطفاء الأنوار ، وذلك الصمت في قلبي عندما كان روبير يتأخر في العودة من اجتماع سري – يقاطعني بلهجة آمرة . كان يصغي إصغاء حسناً جداً .

فأشعر ان الكلمات تشق فيه درباً طويلاً : ولكن كان يجب ان أتحدث من أجله، لا من اجلي . كان يطلب معلومات عملية : كيف كنا نتدبر أمرنا لصنع اوراق مزورة ، لطبع « الأمل » ، لتوزيعها ؟ وكان يطلب ايضاً تفاصيل واسعة: في اي مناخ معنوي كنا نعيش ؟ واجتهدت في إرضائه ، لكني لم أنجح في ذلك كل النجاح : فكل شيء كان أسوأ او أكثر احتمالاً مما يتصور . ان المصائب الحقيقية لم تقع عليّ أنا ، ومع ذلك فقد سكنت حياتي : كيف أتكلم عن موت دييغو ؟ لقد كانت الكلمات حزينة أكثر مما ينبغي بالنسبة لفمي ، وجافة أكثر مما ينبغي بالنسبة لذاكرته . هذا الماضي ، ما كنت أريد بأي ثمن ان ابدأه ثانية . لكنه كان مع ذلك يتخذ عذوبة قاتمة عن بعد . انني أفهم ان يكون لامبير قد مل هذا السلم الذي أعادنا الى حياتنا دون ان يعيد لنا أسبابنا في الحياة . وعندما وجدت ثانية عند باب المطعم البرد ، والظلمة ، كنت أتذكر بأية كبرياء كنا نواجههما في الماضي . اما الآن ، فأنا راغبة في النور ، في الدفء : انا ايضاً أرغب في شيء ما آخر . وكان سكرياسين قد ألقى بنفسه دون دعوة في هذر طويل ، وكنت أتمنى ان يبدل الموضوع سريعاً . كان يأخذ حانقاً على ديغول سفره الى موسكو . وقال لي بصوت متهم :

– ان ما هو خطير ، هو ان البلاد كلها تبدو وكأنها توافقه . ان رؤية بيرون ودوبروي ، وأناس شرفاء يسيرون يداً بيد مع الشيوعيين ، لهي تمزق لا اسم له بالنسبة لانسان يعرف .

فقلت لأهدئه :

– ان روبير لا يسير مع الشيوعيين . انه يحاول ان يخلق حركة مستقلة .

فقال سكرياسين في إرهاق :

– لقد حدثني عنها . لكنه حدد جيداً بأنه لا ينوي العمل ضد الستالينيين الى جانبهم ، ليس ضدهم !

فقلت :

– انت لا تريد على كل حال ان ينتهج عداء الشيوعية في هذا الوقت !

فنظر الي سكرياسين في قسوة : « أقرأت كتابي « الفردوس الأحمر » ؟
– بالتأكيد .
– اذن عندك فكرة عما سيحدث لنا عندما نقدم اوروبا هدية لستالين .
فقلت :
– ليست المسألة على هذا النحو .
– بل انها لكذلك على الضبط .
– كلا! يجب ربح المعركة ضد الرجعية، واذا عاود اليسار الانقسام على نفسه ، فهو هالك .
فقال سكرياسين بصوت ساخر :
– اليسار! » وبدت منه حركة قاطعة: « آه ! دعينا من الحديث عن السياسة. انني أنفر من الحديث في السياسة مع النساء » .
فقلت :
– لست أنا التي بدأت .
فقال في وقار غير منتظر :
– هذا صحيح . انني أعتذر .
وعدنا للجلوس في بار ريتز وطلب سكرياسين قدحي وسكي . ان هـذا الطعم يعجبني لأنه طعم جديد . ولقد كانت هذه السهرة غير متوقعة ولهذا كانت تعبق بعطر شباب قديم : في الماضي كانت هناك سهرات تتشابه مع السهرات الأخرى . كنا نلتقي فيها بأناس مجهولين يقولون عبارات غير منتظرة. وأحياناً، كان يحدث شيء ما . لقد حدثت أشياء كثيرة منذ خمس سنوات : في العالم ، في فرنسا ، في باريس ، لآخرين . ليس لي . ترى ألن يحدث لي شيء أبداً ؟
وقلت :
– ظريف ان نكون هنا .
– لماذا : ظريف ؟
– الحرارة ، الوسكي ، هذه الضجة ، هذه البزات ...

ونظر سكرياسين حواليه : « انني لا أحب هـذا المكان . لقد حجزت لي غرفة لأنني مراسل مجلة فرنسا – اميركا » . وابتسم : « لحسن الحظ سوف تصبح غالية جداً عليّ ، وسوف أرغم على مغادرتها » .

– ألا تستطيع ان ترحل دون ان تكون مرغماً ؟

– كلا . لهذا أجد المال مفسداً للغاية . » وأعاد الشباب الى وجهه بريقاً من مرح : « ما إن أحصل على شيء منه ، حتى أتعجل في التخلص منه » .

– فيكتور سكرياسين ، أليس كذلك ؟ » كان شيخ قصير أصلع ، وديع العينين للغاية ، قد اقترب من طاولتنا .

– نعم. في عيني سكرياسين كنت أقرأ الريبة، ولكن ايضاً نوعاً من الأمل.

– ألا تتعرفني ؟ لقد شخت كثيراً منذ فيينا . مانيس غولدمان . لقد قطعت على نفسي عهداً بأن أقول لك عندما ألتقي بك شكراً : شكراً على كتابك .

فقال سكرياسين في حرارة :

– مانيس غولدمان ! بالتأكيد ! أتعيش في فرنسا ، الآن ؟

– منذ ١٩٣٥. لقد أمضيت سنة في معسكر (غورس) لكني ، خرجت منه في الوقت المناسب.. » كان يتحدث بصوت أكثر وداعة أيضاً من نظرته، بصوت وديع جداً حتى أنه ليبدو ميتاً . « لا أريد ان أزعجكما . إنني مسرور بمصافحة يد الرجل الذي كتب « فيينا السمراء » .

فقال سكرياسين :

– انني مسرور برؤيتك ثانية .

كان النمساوي القصير قد ابتعد في خطى مكتومة . واختفى من الباب الزجاجي ، وراء ضابط أميركي . وتبعه سكرياسين بعينيه . وقال فجأة :

– هزيمة اخرى ايضاً !

– هزيمة ؟

– كان يجب ان أجلسه ، وأكلمه : كان يريد شيئاً ما ، ولا أعرف عنوانه ، ولم أعطه عنواني .

كان صوت سكرياسين غاضباً .

– إذا اراد ان يجدك ثانية ، سيتوجه الى هنا .

– لن يجرؤ . كان عليّ أنا ان اباده ، ان أسأله . ولم يكن هذا صعباً ! سنة في غورس ، وأفترض انه اختبأ طوال أربع سنوات . انه في عمري ولكن كأنه هرم . يقيناً انه كان يأمل شيئاً ما . وتركته يمضي !

– لم تكن بادية عليه الحيبة . لعله كان يريد فقط ان يشكرك .

– هذه هي الحجة التي أعطاها لنفسه . » وأفرغ سكرياسين كأسه جرعة واحدة : « ولقد كان بسيطاً جداً ان أقول له اجلس . عندما أفكر بكل ما يمكنني فعله ولا افعله ! بكل الفرص التي أتركها تفلت ! اننا لا نملك الفكرة ، ولا الاندفاعة . وبدل ان نكون مفتوحين ، نحن مغلقون . هذه هي الخطيئة الكبرى : خطيئة الاهمال » . كان يتكلم دون ان يشركني في مونولوجه ، في حماسة من يؤنبه ضميره « اما أنا ، فقد كنت طوال هذه السنوات الأربع في اميركا ، في الدفء ، في الأمان ، وحيث الطعام الوفير » .

فقلت :

– لم يكن بإمكانك البقاء هنا .

– كنت أستطيع ان أختبىء أنا أيضاً .

– لست أرى ما الذي كان سيفيد هذا .

– عندما نُفي رفاقي إلى سيبيريا ، كنت في فيينا . وقد اغتيل غيرهم في فيينا من قبل القمصان السمر وكنت في باريس . وقد كنت في نيويورك أثناء احتلال باريس . المسألة هي معرفة ما اذا كان بقائي حياً يفيد شيئاً .

وأثرت بي لهجة سكرياسين . نحن أيضاً كنا نفكر بالمنفيين . كنا نخجل : لم نكن نوبخ أنفسنا على شيء . لكننا لم نتألم بما فيه الكفاية .

وقلت :

– المصائب التي لا نشارك فيها ، كأننا مذنبون فيها . » وأضفت : « كريه ان نشعر بأنفسنا أننا مذنبون » .

وفجأة ابتسم لي سكرياسين ابتسامة اشتراك سري في الذنب : « وهـــذا يتوقف » .

ولمدة لحظة تفحصت هذا الوجه الخاتل والمغموم : « تقصد ان هناك تأنيبات ضمير تحمينا ضد تأنيبات اخرى ؟ » .

فنظر إلي بدوره : « أنت لست حقاً حمقـــاء . بشكل عام لا أحب النساء الذكيات : ربما لأنهن لسن ذكيات بما فيه الكفاية . فهن يردن آنذاك ان يعطين أنفسهن أدلة ، ويتكلمن طوال الوقت ولا يفهمن شيئاً . إن ما أدهشني في المرة الأولى التي رأيتك فيها ، هي طريقتك في الصمت » .

فأخذت أضحك : « لم يكن لي خيار » .

– كنا نتحدث جميعاً كثيراً، دوبروي، بيرون ، انا نفسي . وكنت تستمعين بوجه هادىء ...

فقلت :

– أتعرف ، انها مهنتي آن استمع .

– نعم ، لكن هناك الطريقة » . وهز رأسه : « لا بد انك محللة نفسية قديرة جداً . لو كان عمري أقل من عشر سنوات ، لوضعت نفسي بين يديك . »

– أيغريك ان تحلل نفسك ؟

– الآن قـــد فات الوقت : رجل مكتمل: رجل استخدم خسائره ونقائصه ليبني نفسه . وقد يمكن هدمه ، وليس شفاؤه .

– هذا ما يتعلق بنوع المرض .

كان وجهه قـــد تجرد من قوته فجأة بصدق لا يحتمل تقريباً . ولمست كآبة صوته الواثقة قلبي : وقلت في اندفاع : « هناك من هم أشد مرضاً منك » .

– كيف ذلك ؟

– ثمة أناس يتساءل المرء عندما يراهم كيف يستطيعون تحمل أنفسهم . ويقول في نفسه : لا بد انهم يشمئزون من أنفسهم ، اللهم إلا اذا كانوا ضعاف العقول : وليس هذا هو التأثير الذي تحدثه أنت .

– كلا . وابتسمت : « ولكن علاقاتي مع نفسي نادرة جداً » .

فقال سكرياسين :

– لهذا أنت مريحة جداً . لقد وجدتك فوراً مريحة : كنت تبدين كفتاة رفيعة التهذيب تترك الأشخاص الكبار يتكلمون .

فقلت :

– لي ابنة في الثامنة عشرة .

– هذا لا يعني شيئاً . على كل حال ، انني لا أستطيع تحمل الفتيات ، ولكن امرأة تشبه فتاة : هذا ساحر .

وتفحصني في تدقيق :

– غريب في الوسط الذي تعيشين فيه ، جميع النساء متحررات جداً : وانت ، انني لأتساءل ما اذا كنت قد خدعت زوجك مرة .

– خدعت : يا لها من كلمة فظيعة ! نحن احرار ، انا وروبير ، ولا نخفي عن بعضنا البعض شيئاً .

– ولكنك لم تستعملي هذه الحرية أبداً ؟

فقلت في شيء من الحرج : « عند المناسبة » . وأفرغت كأس المارتيني لأغاسك . لم تكن هناك مناسبات كثيرة . ولقد كنت مختلفة جداً عن روبير حول هذه النقطة . فقد كان يبدو له طبيعياً ان يلتقط بغياً جميلة من احد البارات ويمضي ساعة معها . وانا ما كنت لأقبل ابداً كعشاق برجال لا أستطيع ان اجعل منهم أصدقاء . ولقد كانت صداقتي كثيرة المطالب . خلال هذه السنوات الخمس عشت طاهرة دون أسف ، وأعتقد انني سأبقى كذلك الى الأبد . لقد كان طبيعياً ان تنتهي حياتي الأنثوية : لقد كانت هناك أشياء أخرى كثيرة قد انتهت ، الى الأبد . . .

كان سكرياسين يتفرس في وجهي في صمت :

– على كل حال ، انني على استعداد للمراهنة بأنك لم تعرفي رجالاً كثيرين في حياتك .

فقلت :

– هذا صحيح .

– لماذا ؟

– لم يتوفر ذلك .

– إذا لم يتوفر ذلك ، فلأنك لم تبحثي أبداً .

– بالنسبة لجميع الناس ، أنا زوجة دوبروي او الدكتورة آن دوبروي : هذا لا يوحي إلا بالاحترام .

فضحك : « انني لا أميل كثيراً إلى احترامك » .

وساد صمت قصير وقلت : « لماذا يتوجب على امرأة متحررة ان تنام مع جميع الناس ؟ » .

ونظر إلي بقسوة : « إذا اقترح عليك رجل تشعرين نحوه ببعض الميل ان تمضي الليل معه ، فهل تفعلين ذلك ؟ » .

– هذا يتوقف .

– علامَ ؟

– عليه ، على الظروف .

– لنفترض انني أقترح عليك ذلك ، الآن .

– لست أدري .

كنت أراه يأتي منذ بعض الوقت ، ومع ذلك فقد أُخذت على حين غرة .

– انني أقترح ذلك عليك : أنعم أم لا ؟

فقلت :

– أنت تسير بسرعة كبيرة .

– انني أكره التصنع : ان مغازلة امرأة اذلال لها وللذات . لا اعتقد انك تحبين الملاطفات المتكلفة ...

– كلا . ولكني أحب ان أفكر قبل ان اتخذ قراراً .

– فكري .

وطلب قدحين آخرين من الوسكي . كلا . لم تكن بي رغبة في النوم معه ولا مع أي رجل آخر . ان جسدي مقيم منذ زمن بعيد جداً في خمود اناني : فبأي شبق كنت سأزعج راحتي ؟ على كل حال ، كان هذا يبدو مستحيلاً . لقد ذهلت غالباً من السهولة التي تمنح بها نادين نفسها لمجهولين . ولم يكن بين جسدي المنزوي والرجل الذي يشرب منزوياً إلى جانبي ، أية رابطة . ان أتصور نفسي عارية بين ذراعيه العاريتين ، كان هذا غير لائق كما لو انني أفترض أمي العجوز مكاني . وقلت :

– لننتظر كيف ستتحول هذه السهرة .

فقال :

– هذا عبث . كيف تريدين ان نتحدث في السياسة أو علم النفس مع ذلك السؤال الذي سيجول في رأسنا ؟ لا بد انك تعرفين ماذا ستقررين : قولي ذلك فوراً .

كان نفاد صبره يؤكد لي بعد كل شيء انني لست أمي العجوز . كان لا بد ان أعتقد ، ولو لساعة ، انني قابلة للاشتهاء ، ما دام يشتهيني . ان نادين تزعم انه لا فرق بين التمدد على سرير والجلوس إلى مائدة : لعلها على حق . انها تتهمني انني أتصدى للحياة بقفازات من جلد جدي بارد . هل هذا صحيح ؟ ماذا سيحدث إذا نزعت قفازي ؟ وإذا لم أخلعهما هذا المساء ، فهل سأنزعها بعد الآن ؟ كنت أقول في نفسي عقلياً : « لقد انتهت حياتي » . ولكن ضد أي عقل كان لا يزال أمامي الكثير من السنوات لأقتلها .

وقلت فجأة : « ليكن ، سيكون الجواب نعم » .

فقال بصوت مشجع أشبه بصوت طبيب أو معلم :

– آه ! هو ذا جواب طيّب .

وأراد ان يأخذ يدي لكني رفضت هذه المكافأة .

– أريد قهوة . أخشى ان أكون قد شربت أكثر مما ينبغي .

فابتسم وقال : « لو كنت اميركية لطلبت كأس وسكي أخرى . ولكنك

على حق : من الجبن ان يكون أحدنا غير محتفظ بكامل رأسه » .

وطلب فنجاني قهوة ، وساد صمت محرج . لقد قلت نعم مودة له إلى حد كبير . بسبب تلك الألفة المؤقتة التي عرف كيف يخلقها بيننا : والآن ان هذه الـ « نعم » تجمد مودتي . وما فرغ فنجانانا ، حتى قال :

– لنصعد إلى غرفتي .

– فوراً ؟

– لمَ لا ؟ ؟ أنت ترين جيداً اننا لم نعد نجد ما نقوله .

كنت أود ان يتاح لي الوقت لأعتاد على قراري ، وآمل ان يولد من حلفنا شيئاً فشيئاً تشارُك . ولكن الواقع انني لم أكن أجد ما أقوله .

– لنصعد .

كانت الغرفة مزحومة بالحقائب ، وفيها سريران نحاسيان ، احدهما مغطى بالثياب والأوراق . وعلى طاولة مستديرة ، زجاجات شمبانيا فارغة . وأخذني بين ذراعيه وأحسست على فمي بفم عنيف مرح . نعم ، كان ذلك ممكناً ، كان سهلاً وشيء ما يحدث لي : شيء آخر . وأغلقت عيني ، ودخلت في حلم له ثقل الواقع نفسه ، حلم سأستيقظ منه عند الفجر ، خفيفة القلب . وعندئذ سمعت صوته : « لكأن الفتاة خائفة . اننا لن نؤذي الفتاة . سوف نفتض بكارتها ، لكن دون أن نوجعها » . وأيقظتني بقسوة هذه الكلمات الموجهة إليّ . انني لم آت إلى هنا لأمثل دور العذراء المغتصبة ، ولا أي دور آخر . وانتزعت نفسي من عناقه .

– انتظر .

والتجأت إلى غرفة الحمام ، واجريت تواليتاً سريعاً وأنا أدفع كل الأفكار : لقد فات الأوان للتفكير . ولحقني إلى السرير قبل ان يتاح لأية فكرة ان تتملكني ، وتعلقت به : انه الآن أملي الوحيد . ونزعت يداه قميصي الداخلي ، وكانتا تداعبان بطني . واستسلمت لموجة الشهوة السوداء . كنت أُحمل ، وأهز ، وأغرق ، وأُرفع ، وأُرمى . وبين لحظة وأخرى كنت أهوي في الفراغ هوياً . كنت سأسقط في النسيان ، في الليل ، يا لها من رحلة ! وألقاني صوته على السرير

ثانية: «هل يجب ان أنتبه؟ ـ إذا كان هذا ممكناً . ـ ألا تضعين مانعاً للحمل؟».
كان السؤال فظاً جداً حتى انني أخذت بغثيان ، وقلت : « كلا . ـ آه لماذا ؟».
كان من الصعب ان أجيب بسرعة . ومن جديد انكفأت على نفسي تحت يديه ، وجمعت الصمت والتصقت بجلده والتهمت دفئه بكل مسامي . كانت عظامي ، وعضلاتي تذوب تحت هذه النار ، وكان الهدوء يلتف حولي في حلزونيات حريرية عندما قال آمراً : « إفتحي عينيك » .

ورفعت جفنيّ ، لكنهما كانا ثقيلين ، وسقطا تلقائياً على عيني اللتين كان الضوء يجرحهما . وكان يقول : « إفتحي عينيك . هذا أنا ، هذه انت » . وكان على حق ، وانا لا أريد ان أهرب منا . ولكن كان لا بد أولاً ان أعتاد على هذا الحضور غير الاعتيادي : جسدي . ان أنظر الى وجهه الغريب ، وان أضيع في داخلي تحت نظرته : هذا كثير في آن واحد معاً . إنني أنظر اليه ما دام يطلب ذلك : لقد توقفت في منتصف طريق الاضطراب في منطقة بلا نور ولا ليل ، لم أكن فيها لا جسداً ولا لحماً . ورمى الغطاء ، وفي اللحظة نفسها شعرت ان الغرفة ناقصة التدفئة وانه لم يعد لي بطن فتاة . وسلمت لفضوله جثة لا تشعر ببرد او حر . وداعب فمه ثديي ، وزحف على بطني ، وهبط نحو فرجي . وأغلقت عيني بسرعة ، والتجأت بكليتي إلى اللذة التي كان ينتزعها مني : لذة بعيدة ، منزوية كزهرة مقطوعة . وهناك ، كانت الزهرة الزابلة تعبق ، وتتورق ، وكان يتمتم لوحده بكلمات أحاول ألا أسمعها . ولكني كنت أشعر بالملل . وعاد نحوي ، وأنعشتني حرارته للحظة . ووضع عضوه في يدي في حزم . ولاطفته دون حماسة فقال سكرياسين مؤنباً :

ـ ليس عندك حب حقيقي لعضو الرجل .

لا بد أنه استاء مني حقاً هذه المرة . كنت أفكر : « كيف أحب هذه القطعة من اللحم اذا كنت لا أحب الرجل كله ؟ وبالنسبة لهذا الرجل من أين آتي بالحنان ؟ » . كانت كراهية عينيه تثبطني : لكني لم أكن مذنبة تجاهه ، حتى ولا إهمالاً .

لم أشعر بشيء كثير عندما دخل فيّ . وفوراً عاد يتفوه بكلمات . كان فمي مليئاً بالاسمنت ، وما كنت لأستطيع إخراج تنهدة من بين فكيّ . وسكت لحظة ثم قال : « إنظري » . وهززت رأسي في ضعف : كان ما يجري هناك لا يتعلق بي إلا قليلاً جداً بحيث انني لو نظرت لخيّل إليّ انني متفرجة . وقال : « أتشعرين بالخجل ! الفتاة خجلة ! » . وشغله هذا الانتظار لحظة ثم تكلم من جديد : « قولي لي ماذا تحسين ؟ قوليه لي » . ولزمت الصمت . كنت احزر حضوراً فيّ ، دون ان أشعر به حقاً ، كما يدهش المرء من فولاذ طبيب الأسنان في لثة مخدرة . « هل التذذت ؟ أريد ان تلتذّي » . كان صوته يغضب ، ويطلب حسابات : « لم تلتذي ؟ لا بأس : الليل طويل » . سيكون الليل قصيراً جداً ، ستكون الأبدية قصيرة جداً : لقد خسرت الجولة، انني اعلم ذلك . كنت أتساءل كيف سأنتهي : انني مجردة من كل سلاح عندما أجد نفسي ليلاً بمفردي، عارية بين ذراعين عدوّتين. ورحت أفك قبض اسناني ، وأنتزع من نفسي كلمات . « لا تهتم كثيراً بي . دعني ... » . فقال في غضب : « ألا إنك لست باردة . انت تقاومين بعقلك . لكني سأرغمك . . . » .

فقلت : « كلا . كلا ... » . كان من الصعب جداً ان أعبر عن نفسي . كان هناك حقد حقيقي في عينيه ، وخجلت من انني تركت نفسي تؤخذ بسراب عذب من المتعة الجسدية : ان الرجل ليس حماماً ، كنت أتبين ذلك .

كان يقول :

— آه ! أنت لا تريدين ! لا تريدين ! يارأس البغل !

ضربني بخفة على ذقني . كنت أكثر تعباً من ان أهرب في الغضب . وأخذت ارتعد : قبضة تهوي ، ألف قبضة... وفكرت : « العنف في كل مكان » . كنت أرتعد ، واخذت الدموع تنساب .

انه الآن يقبّل عيني ، ويتمتم : « انني أشرب دموعك » ، وكان على وجهه حنان غاز يعيده الى طفولته ، وأشفقت عليه بقدر ما كنت أشفق على نفسي : كنا كلانا ضائعين ، خائبين . ورحت أداعب شعره ، وأفرض على نفسي مخاطبته

بضمير الأنت :

– لماذا تكرهني ؟

فقال في أسف :

– آه ! كان غصباً ! كان غصباً .

– لكني لا أكرهك . انني احب حقاً ان أكون بين ذراعيك .

– هذا صحيح ؟

– صحيح .

على نحوٍ ما ، كان هـــذا صحيحاً . فقد كان شيء ما يحدث : كان فاشلاً ، حزيناً ، سخيفاً ، لكنه كان حقيقياً . وابتسمت :

– لقد جعلتني أمضي ليلة ظريفة : ابداً لم أمضِ ليلة مماثلة .

– ابداً ؟ حتى مع شبان ؟ ألا تكذبين ؟

كانت الكلمات قد كذبت عني : لقد اخذت كذبها على عاتقي .

– ابداً .

وضمني إليه في حمى . ثم من جديد دخل فيّ . وقال : « اريد ان تتمتعي في الوقت نفسه معي . أتريدين ؟ ستقولين لي : الآن .. » .

وفكرت في غيظ : هذا ما اخترعوه : التوافق ! وكأن هذا يثبت شيئاً ما . وكأن هذا يمكن ان يحل محل التفاهم . حتى ولو تمتعنا معاً ، فهل سنكون أقل انفصالاً ؟ انني اعلم جيداً ان لذتي ليس لها صدى في قلبه ، وإذا كنت انتظرها في نفاد صبر ، فهذا فقط كي أتخلص . ولكني كنت مقهورة : لقد قبلت ان أتنهد وان أئن . ليس بشكل أخرق على ما أتصور ، لأنه سألني :

– أتمتعت ؟

– نعم ، أؤكد لك .

لقد كان مقهوراً هو ايضاً ، لأنه لم يلحّ . وفوراً تقريباً نام ملتصقاً بي ونمت انا ايضاً . وأيقظتني ذراعه التي كانت في صدري ، وقال:

– آه ! انت هنا ! » وفتح عينيه : « كنت أرى كابوساً . انني ارى دومـــاً

كوابيس » . كان يحدثني من بعيد لبعيد ، من اعماق الظلمات :
– أليس عندك مكان تخبئينني فيه ؟
– أخبئك فيه ؟
– نعم . من المفيد ان نختفي ، ألا نستطيع ان نختفي معاً ، بضعة ايام ؟
– ليس عندي مكان . ولا استطيع ان اذهب .
فقال :
– هذا مؤسف . » وسأل : « ألا ترين ابداً كوابيس ، انت ؟ » .
– ليس غالباً .
– آه ! انني أحسدك . انني بحاجة إلى احد إلى جانبي ، ليلاً .
فقلت :
– ولكن سيتوجب عليّ ان اذهب .
– ليس فوراً . لا تذهبي . لا تتركيني . » وامسك كتفي : كنت طوفاً ، في اي غرق ؟ وقلت :
– سأنتظر ان تنام . أتريد ان نلتقي ثانيةً غداً ؟
– بالتأكيد . سأكون عند الظهر في المقهى – التبغ جانب بيتك . أهـذا مناسب ؟
– اتفقنا . حاول ان تنام بهدوء .
عندما اشتد تنفسه ، انسبت خارج السرير . كان من القسوة ان انتزع نفسي من هذه الليلة التي تلتصق بجلدي . لكن لم اكن اريد اثارة شكوك نادين . كانت لكل منا طريقتها في خدع الأخرى : فهي تقول لي كل شيء ، وانا لا أقول لها شيئاً . وبينما كنت أعيد لنفسي امـام المرآة قناعاً من الاحتشام ، كنت أفكر بأنها أثـّرت على قراري وانني حاقدة عليها لذلك . وبمعنى ما لم أكن نادمـة على شيء . فالمرء يتعلم اشياء كثيرة عن رجل ، في سرير ! اكثر بكثير من إجباره على الهذر طوال اسابيع فوق اريكة . كل ما هنالك ، انني ، بالنسبة لهذا النوع من التجربة كبيرة القابلية للأذى .

لقد شغلت كثيراً طوال الصباح . سيزوناك لم يأتِ . لكن جـــاءني زبائن كثيرون . ولم استطع ان افكر إلا بشكل اصم بسكرياسين : انني بحاجـة إلى رؤيته ثانية . ان ليلتنا تثقل على قلبي ، غير منتهية ، لا مجدية ، وكنت آمل اننا بالحديث سننجح في ختمها ، في انقاذها . ووصلت إلى المقهى قبله : مقهى صغير احمر جداً ، طاولاته مصقولة ، كنت اشتري منه غالباً سجاير،لكني لم اجلس فيه مطلقاً . في المقصورات ، كان ازواج يتهـامسون . وطلبت كأس بورتو مقلد . كنت اشعر انني في مـــدينة غريبة ، ولا ادري مـــاذا كنت انتظر . ووصل سكرياسين راكضاً :

– انني أعتذر . كان عندي عشرة مواعيد .

– لطف منك ان تأتي على كل حال .

وابتسم لي : « أنت جيداً ؟ » .

– جيداً جيداً .

وطلب هو أيضاً كأس بورتو مقلد ثم مال نحوي . لم يكن قد بقي شيء حاقد في وجهه :

– أريد ان اطرح عليك سؤالاً ؟

– اطرحه .

– لماذا قبلت بسهولة ان تصعدي الى غرفتي ؟

وابتسمت وقلت : « مودّة » .

– لكنك لم تكوني سكرانة ؟

– مطلقاً .

– ولم تندمي ؟

– كلا .

وتردد . كنت أشعر انه يتمنى لكاتالوجه الخاص كلمة نقدية مفصلة : « أريد ان اعرف . في إحدى اللحظات قلت لي انك لم تقضي ابداً ليلة مماثلة : هل كان هذا صحيحاً ؟ » .

فضحكت في شيء من الحرج : « نعم ولا » .
فقال خائباً :
ـ آه ! هذا ما كنت أظنه . ليس هذا صحيحاً قط .
ـ انه صحيح في لحظتها . وأقل صحة في اليوم التالي .
وجرع دفعة واحدة النبيذ الممزوج وتابعت : « أتعرف ما الذي جمّدني : انه كان يبدو عليك احياناً حقد شديد » .
فهز كتفيه : « هذا لا يمكن تجنّبه ! » .
ـ لماذا ؟ صراع الجنسين ؟
ـ اننا لسنا في نفس الشاكلة . اقصد سياسياً » .
ولبثت مذهولة : « للسياسة مكان صغير جداً في حياتي ! » .
فقال في جفاء : « حتى اللامبالاة هي اتخاذ موقف . ففي هذا الميدان ، كما ترين ، اذا لم يكن المرء معي تماماً فهو بعيد جداً عني » .
فقلت مؤنبة :
ـ اذن ، كان يجب ألا تسألني الصعود الى غرفتك .
فغضنت ابتسامة مختالة عينيه :
ـ ولكن سواء عليّ ان تكون المرأة بعيدة عني ، اذا كنت أشتهيها . انني استطيع بكل بساطة ان انام مع فاشية .
ـ هذا ليس عليك سواء لأنك كنت حاقداً .
فابتسم ايضاً :
ـ في السرير ، ليس رديئاً ان نتكاره قليلاً .
فقلت :
ـ هذا فظيع . » وتفرست في وجهه وقلت : « انت لا تخرج بسهولة من نفسك ! انت تستطيع ان تنضم إلى الناس في الشفقة ، في توبيخ الضمير : ويقيناً ليس في المودة » .
فقال :

– آه ! انت اليوم التي تحللين نفسيتي . تابعي : انني أعبد هذا .

كان في عينيـــه الشر الأهوس نفسه الذي كان فيهما عندما كان يراقبني ، في الليل : وما كنت لأتحمله إلا لدى طفل او مريض .

– انت تعتقد ان العزلة يمكن ان تتحطم بالضربات الحازمة : ولكن في الحب ليس هناك اخرق من ذلك .

وفهم الضربة !

– بمجمل القول ، ان تلك الليلة كانت فاشلة .

– بقدر متفاوت .

– هل تعاودينها ؟

فترددت :

– نعم . انني لا أحب ان انام على فشل .

فتصلب وجهه وقال : « انها حجة سيئة » . وهز كتفيه : « ان الحب لا يفعل بالعقل » .

كان هذا رأيي ايضاً : اذا كانت كلماته ورغباته قد جرحتني ، فلأنهـا كانت آتية من عقله . وقلت : « أعتقد ان لدينا من العقل أكثر مما ينبغي لكلينا » .

فقال :

– اذن من الأفضل ألا نعاود .

– هذا ما اعتقده ايضاً .

نعم ، ان فشلاً ثانياً سيكون اسوأ . ولم يكن النجـاح معقولاً : إننا لا نحب بعضنا البعض مطلقاً . حتى الكلمات كانت لاجدية، فلم يحدث شيء لينقذ ، وليس لهذه القصة ختام . وتبادلنا أيضاً في تهذيب بعض الثرثرة وعدت إلى البيت .

انني غير حاقدة عليه . ولا أكاد احقد على نفسي . وعلى كل حال ، وكما قال لي روبـــير فوراً ، ليس لهذا أهمية كبيرة : لا شيء إلا ذكرى تجرّ نفسها في ذاكرتينا ولا تخص احداً غيرنا. ولكني عندما صعدت الى غرفتي ، وعدت نفسي بألا أحاول مطلقاً بعـد اليوم ان انزع قفازي اللذين من جلد جدي بارد. وتمتمت

وانا ألقي نظرة الى المرآة : « لقد فات الأوان . ان قفازي الآن متلحمان بجلدي، ولكي انزعها ، لا بد ان اسلخه » . كلا ، لم تكن فقط غلطة سكرياسين اذا كانت الأمور قد سارت هكذا . انها غلطتي ايضاً . فقد رقدت في ذلك السرير، فضولاً، تحدياً ، تعباً ، ولأثبت لنفسي لست ادري ماذا : ويقيناً انني اثبت العكس . وبقيت منتصبة امام المرآة . كنت أفكر بشكل مبهم انه كان بامكاني ان اجعل حياتي مختلفة . كان بإمكاني ان ألبس ، واعرض نفسي ، وأعرف ملذات الغرور الصغيرة او حميات الحواس الكبيرة . لقد فات الأوان . وفجأة فهمت لماذا يبدو لي ماضيّ احياناً ماضي امرأة اخرى . فأنا الآن امرأة اخرى : امرأة في التاسعة والثلاثين ، امرأة لها عمر !

وقلت بصوت عال : « لي عمر ! » . قبل الحرب كنت أكثر شباباً من ان تثقل علي السنون ، ثم طوال خمس سنوات نسيت نفسي تماماً . وانا اجد نفسي الآن ثانية لأعلم انني محكوم علي : فشيخوختي تنتظرني ، وليس هناك وسيلة للافلات منها. انني منذ الآن ألمحها في أعماق المرآة . اواه ! انني ما زلت امرأة، ما زلت أنزف كل شهر ، ولم يتبدل شيء . كل ما هنالك انني ، الآن ، اعرف. ورفعت شعري : هذه الخطوط البيضاء ، ليست فضولاً ولا علامة ، بل بداية ، سوف يأخذ رأسي وانا حية ، لون عظامي . قد يبدو وجهي انه لا يزال مصقولاً مشدوداً ، لكن بين لحظة وأخرى ، سوف ينهار القناع ، معرّياً عينين مضنكتين لامرأة عجوز . ان الفصول تعود ثانية ، والهزائم تعوّض: لكن ليست هناك أية وسيلة لتوقيف هرمي . وكنت أفكر وانا اشيح عن صورتي : « بل لم يعد هناك وقت لأقلق . لقد فات الأوان للتأسفات . وليس عليّ إلا ان استمر » .

الفصل الثالث

جاءت نادين لتأخذ هنري عدة مرات من الجريدة . بل صعدا ذات ليلة من جديد إلى غرفة في فندق ، دون فائدة كبيرة . لقد كان فعل الحب بالنسبة لنادين شاغلاً مملاً بالتأكيد : وقد مل هنري بسرعة هو ايضاً . لكنه كان يحب جداً ان يخرج مع نادين ، ان يراها تأكل ، ان يسمعها تضحك ، ان يتكلم معها . كانت عمياء بالنسبة لكثير من الأشياء . لكن رد فعلها على ما تراه كان عنيفاً ودون ان تغشّ ابداً . وكان يقول في نفسه انها ستكون رفيقة رحلة ممتعة، وكان متأثراً بشرهها . وفي كل مرة كانت تسأل :

– أتكلمت ؟

– ليس بعد .

فتطرق رأسها في أسف عميق حتى انه كان يشعر انه مخطىء . ها هو يحرمها ايضاً من الشمس ، من الأكل ، من رحلة حقيقية ، من كل ما حرمت منه . وعلى كل حال ، وحتى لمصلحة بول ، كان من الأفضل ان يشرح لها قبل الرحيل بدل ان يتركها تستهلك نفسها في الأمل طوال مدة فراقهما . وكان يشعر ، بعيداً عنها ، انه مصيب : فهو لم يمثل عليها ابداً . وهي تكذب على نفسها عندما تتظاهر بالايمان ببعث ماض مات ودفن . ولكن عندما كان يجد نفسه قربها ، كان يشعر ان له اخطاءه هو الآخر . وكان يتساءل وهو يراها تذهب وتجيء عبر الاستديو : « هل انا نذل لأنني كففت عن حبها ? او هل كان غلطة حبي لها ? » . كان في « الدوم » مع جوليان ولويس ، وإلى طاولة مجاورة كانت هناك تلك المرأة الجميلة

التي بلون نبات الحلوة ، تقرأ « حادث سوء » في تصنع . وكانت قد وضعت على الطاولة قفازين طويلين بنفسجيين . وعندما مرّ من أمامها، قال : « لديك قفازان جميلان حقاً ! – أيعجبانك ؟ انها لك. – وماذا تريدين ان اصنع بها ؟ – ستحفظ بهما ذكرى للقائنا » . وتألقت نظرتهما في آن واحد ، معاً . وبعد ساعات كان يضمها إليه ، عارية ، ويقول : « انت جميلة جداً ! » . كلا ، انه لا يستطيع ان يدين نفسه . كان من الطبيعي ان يؤخذ بجمال بول ، بصوتها ، بلغز حديثهـــا ، بحكمة ابتسامتها البعيدة . كانت اكبر سناً منه قليلاً ، وكانت تعرف كمية من الأشياء الصغيرة كان يجهلها وتبدو له أهم من الأشياء الكبيرة . وكان اكثر مـــا يعجب به فيها، احتقارها لثروات هذا العالم. كانت تحلق في منطقة خارقة للطبيعة، وكان يائساً من اللحاق بها ، ولقد اقلقه ان تتنازل لتصبح جسداً بين ذراعيـه . واعترف في نفسه : « يقيناً لقد ركبت رأسي قليلاً » . لقد صدقت إيمان الأبدية ومعجزة ان تكون نفسها . ولا شك في انه مذنب في هـذه النقطة : عندما تجدّد بول بلا حد كي يأخذ فيا بعد بشكل واعٍ جداً حده . نعم ، لقد ارتكب كلاهما اخطاء ، وليست هذه هي المشكلة : بل المشكلة ان يخرج من هنا . وكان يقلب عبارات في فمه : هل تشك في الأمر ؟ بشكل عام ، عندما كان يلزم الصمت ، كانت تتسرع في سؤاله .

وسأل :

– لماذا تغيرين مكان هذه التحف ؟

– ألا تجد ان هذا اجمل هكذا ؟

– أيضجرك ان تجلسي دقيقة ؟

– هل اغيظك ؟

– مطلقاً . ولكن اريد ان أكلمك .

وضحكت ضحكة صغيرة متشنجة : « كم تبـدو وقوراً ! لن تقول لي انك لم تعد تحبني ؟ » .

– كلا .

فقالت وهي تجلس :

ـ اذن كل ما تبقى سواء عندي . » ومالت نحوه بوجه صابر ، وساخر قليلاً :
« تكلم ، يا حبي ، إني مصغية لك » .

فقال :

ـ ان نتحاب ، او لا نتحاب : ليست هذه المشكلة الوحيدة .

ـ بالنسبة لي ، إنها الوحيدة .

ـ ليس بالنسبة لي ، انت تعرفين ذلك . فللأشياء الأخرى أهميتها .

ـ نعم ، اعرف : عملك ، الأسفار . انني لم احولك عنها قط .

ـ هناك شيء آخر انا حريص عليه ، ولقد قلته لك غالباً : حريتي .

فابتسمت من جديد : « لا تقل لي انني لا اتركك حراً ! » .

ـ حراً بقدر ما تسمح به حيـــاة مشتركة . ولكن الحرية بالنسبة لي ، تعني، اولاً الوحدة. أتذكرين، عندما اقمت هنا ، اتفقنا على ان هذا لمدة الحرب فقط .

كانت قد كفت عن الابتسام وقالت : « لم أكن اظن انني اثقل عليك » .

ـ ما من احد يستطيع ان يكون اقل ثقلاً منك . لكني أرى ان الوضع كان افضل عندما كان كل منا يعيش لوحده .

فابتسمت بول : « كنت تجدني هنا كل ليلة . وتقول انك بدوني لا تستطيع ان تعيش » .

لقد قال هذا طوال سنة ، ليس اكثر ، لكنه لم يحتج . وقال : « موافق . لكني كنت اشتغل في غرفتي ، في الفندق ... » .

فقالت بصوت متسامح :

ـ كانت تلك الغرفة احدى نزواتك وانت شاب . لا اختلاط ، ولا تلاصق : اعترف انه كان مجرداً جداً ، دستورك . انني لا استطيع ان أصدق انك لا تزال تنظر إليه بعين الجد .

ـ كلا . انه ليس مجرداً . ان الحياة المشتركة تؤدي إلى التوتر والتراخي في آن واحد . فأنا أتبين انني غالباً كريه او مهمل وان هذا يؤلمك . فمـن الأفضل ألا

نلتقي إلا عندما نكون راغبين حقاً .
فقالت موبخة :
– انني دوماً راغبة في رؤيتك .
– انا ، عندما اكون متعباً او سيء المزاج ، او عندما اشتغل ، أفضل ان اكون وحيداً .
كان صوت هنري جافاً . ومن جديد ابتسمت بول :
– ستكون وحيداً طوال شهر . سنرى عند العودة إذا لم تبدل رأيك .
فقال في حزم :
– كلا . لن أبدّله .
وفجأة اهتزت نظرة بول وتمتمت : « اقسم لي شيئاً » .
– ماذا ؟
– انك ابداً لن تقيم مع امرأة اخرى ؟...
– انت مجنونة ! يا لها من فكرة ! يقيناً انني اقسم لك .
فقالت في لهجة مستسلمة :
– اذن ، تستطيع ان تسترد عاداتك كشاب .
وتفرس في وجهها في فضول : « لماذا سألتني هذا ؟ » .
ومن جديد ، ترنحت نظرة بول . ولزمت الصمت لحظة . ثم قالت بصوت مصطنع الهدوء : « اواه ! انني أعلم ان ما من امرأة أخرى ستحصل ذات يوم على مكاني في حياتك. ولكني أتعلق برموز» . وقامت بحركة لتنهض ، وكأنها خشيت ان تسمع المزيد لكنه أوقفها . وقال :
– انتظري . يجب ان أحدثك بصراحة تامة . لن أعيش أبداً مع اخرى ، ابداً . ولكن ، وهذا بلا شك بسبب تقشف هذه السنوات الأربع ، بي رغبة الى الأشياء الجديدة ، الى المغامرات . بي رغبة الى قصص بلا أهمية مع نساء .
فقالت بول في رصانة :
– ولكن عندك واحدة ، أليس كذلك ؟ مع نادين .

ـ كيف تعرفين ذلك ؟

ـ انت لا تحسن الكذب .

انها أحياناً عمياء للغـــاية ! وأحياناً ثاقبة النظر للغاية ! كان محتاراً . وقال في حرج : « لقد كنت أبله إذ لم أحدثك عن الأمر . لكن كنت أخشى ان اؤلمك، وبدون سبب . لم يحدث شيء ، ولن تدوم القصة طويلاً » .

ـ اواه ! اطمئن ! انني لا أغار من طفلة ، وعلى الأخص نادين ! » واقتربت من هنري وجلست على ذراع مقعده : « لقد قلت لك ذلك ليلة الميلاد : ان رجلاً مثلك لا يخضع للقوانين نفسها التي يخضع لها الآخرون . هناك شكل مبتذل للوفاء لن أطلبه منك ابداً . الهُ مع نادين ، ومع مـن تشاء » . وداعبت في مرح شعر هنري : « انت ترى انني أحترم حريتك ! » .

فقال :

ـ نعم . » كان قد اطمأن وخاب أمله في آن واحد ، فهذا النصر السهل جداً لا يقوده الى شيء . وعلى الأقل يجب دفعه حتى النهاية . وأضاف : « ليس لنادين ظل عاطفة عليّ . كل ما تريده هو ان أصطحبها في رحلتي . ولكن بالطبـع عنـد العودة سنفترق » .

ـ في رحلتك ؟

ـ سترافقني الى البرتغال .

ـ كلا ؟ » قالت ذلك بول . وفجأة تطاير قناعها الهادىء مزقاً ، ورأى هنري أمامه وجهاً من لحم وعظم ، مرتجف الشفتين ، لامع العينين بالدموع : « لقـــد قلت انك لا تستطيـع ان تأخذني ! » .

ـ لم تكوني حريصة على ذلك ، فلم أسعَ .

فصرخت في تمرد :

ـ لم أكن حريصة على ذلـــك ! لكني كنت سأضحي بإحدى يدي لأذهب معك . إلا انني فهمت انك تريد ان تكون وحيداً . انني أريد كل الإرادة ان أضحي بنفسي من أجل وحدتك ، وليس من اجل نادين ، لا !

فقال في إقتناع مصطنع :

– وحيداً او مع نادين ، ليس من فرق كبير : ما دمت لا تغادرين منهـــا .

فقالت بصوت متهدج :

– بل هناك كل فرق العالم . فلوحدك ، انا معك ، ونظل معاً . اول سفر بعد الحرب : ليس لك الحق في القيام به مع امرأة اخرى .

فقال :

– اسمعي ، اذا كنت ترين في هذا رمزاً ما ، فأنت مخطئة . نادين تود ان ترى العالم ، وهي فتاة مسكينة لم تشاهد شيئاً ابداً . يسرني ان أنزهها : ولن يتجاوز الأمر طويلًا أبعد من هذا .

فقالت بول في بطء :

– إذن ، إذا كان الأمر حقاً لا يتجاوز أكثر من هـــذا فلا تصطحبها . »

ونظرت إلى هنري بوجه ضارع : « اني اطلب ذلك منك باسم حبنا » .

وتصادمت نظراتهما لحظة في صمت . لم يكن وجه بول كله إلا رجاء ، ولكن هنري شعر بنفسه فجأة انه عنيد كما لو ان عليه ان يواجه ، بدلاً من امرأة يائسة ، معذبين مسلحين . وقال : « لقد قلت لي انك تحترمين حريتي » .

فقالت في لهجة مستفرسة :

– نعم . ولكن إذا كنت تريد ان تهدم حبنا ، فسوف امنعك . لن اتركك تخون حبنا .

فقال بصوت ساخر :

– بتعبير آخر ، انني حر في ان افعل ما تريدينه .

فقالت منتحبة :

– اواه ! ما اظلمك ! انني اقبل كل شيء منك ، كل شيء ! ولكن هنـــا اعرف انه يجب ألا اقبل . ما من احد غيري يجب ان يذهب معك .

فقال :

– انت التي تسنّين هذا .

– ولكن هذا بديهي !

– ليس كذلك في نظري .

– لأنك تتعامى ، لأنك تريد ان تتعامى ! » وقالت بصوت منطقي : «اسمع ، انت غير حريص على هذه الفتاة ، وانت ترى اي ألم تسببه لي : فلا تصطحبها » .

ولزم هنري الصمت . لم يكن هناك ما يستطيع ان يرد به على هـذه الحجة . وحقد على بول لذلك ، وكأنها استعملت ضده اكراهاً جسدياً . وقال :

– حسناً ، لن اصطحبها ! » ونهض وسار نحو الدرج : « ولكن لا تأتي بعد الآن لتحدثيني عن الحرية ! » .

وتبعته بول ووضعت يديها على كتفيه :

– أحريتك ، هي ان تؤلمني ؟

وتملص بعنف : « إذا قررت انك تتألمين عندما افعل ما ارغب في فعله ، فعلي ان اختار بينك وبين حريتي » .

وخطا خطوة ونادت بصوت قلق : « هنري ! » . وكان ثمة رعب في عينيها : « ماذا تريد ان تقول ؟ » .

– ما قلته .

– لن تتعمد تعمداً ان تهدم حبنا ؟

فاستدار هنري نحوها ، وقال : « طيب ! حسناً ! ما دمت تصرين ، فلنتفاهم مرة واحدة ! » . كان غاضباً عليها بما فيه الكفاية ليذهب إلى اقصى حد للحقيقة : « يوجد سوء تفاهم بيننا . اننا لا نكوّن فكرة واحدة عن الحب ... » .

فأسرعت بول تقول :

– ليس هناك اي سوء تفاهم . اعرف ما الذي ستقوله لي : ان الحب هو كل حياتي ، وانت تريد ان يكون شيئاً واحداً فقط في حياتك . انني اعرف هـذا ، وانا موافقة .

فقال هنري :

– نعم ، ولكن بدءاً من هنا تنطرح اسئلة .

فقالت بول :

– كلا ! آه ! كل هذا بلاهة . » واضافت بصوت مضطرب : « لن تعيد النظر في حبنا لأنني طلبت منك ألا ترحل مع نادين !

– لن أرحل معها ، اتفقنا . ولكن إنما أعني شيئاً آخر ...

فقالت بول فجأة :

– اواه ! إسمع . لنتنبه من هذا . اذا كنت بحاجة حقاً الى اصطحابها لتثبت لنفسك انك حر ، فانني لأفضل ان تصطحبها . لا أريد ان تعتقد انني أضطهدك .

– لن أصطحبها بالتأكيد ، اذا كنت ستتألمين طوال هذه الرحلة !

– سأتألم أكثر ايضاً اذا تسليت بتهديم حبنا حقداً .» وهزت كتفيها :« وانت قادر على هذا تماماً : لأنك تعلق أهمية كبيرة على أبسط نزواتك » .

ونظرت اليه بوجه ضارع . كانت تنتظر ان يجيب : « لن أحقد عليك » . انها تستطيع ان تنتظر طويلاً . وتنهدت : « انت تحبني ، لكنك لا تريد ان تضحي بشيء من اجل حبنا . يجب ان أكون انا التي تعطي كل شيء » .

فقال بصوت ودي :

– بول ، اذا قمت بهذه الرحلة مع نادين ، فانني أكرر عليك انني سأكف عن رؤيتها عند العودة ، وانه لن يتغير شيء بينك وبيني .

وسكتت . وفكر هنري : « إن ما أفعله شانتاج، انه دنيء قليلاً » . والأقبح من كل شيء هو ان بول تعي ذلك . انها ستمثل دور الكريمة مع علمها انها راضية بمساومة قذرة للغاية . ولكن ماذا ؟ يجب ان يريد الانسان ما يريده . وكان يريد ان يصطحب نادين .

وقالت بول :

– إفعل ما تشاء .» وتنهدت : « افترض انني أعلق أهمية كبيرة على الرموز . واذا شئت الحقيقة ، فانه سواء رافقتك هذه الفتاة أم لم ترافقك ، فليس هناك أي فرق » .

فقال هنري في حزم :

– صحيح ، ليس هناك أي فرق .

ولم تعد بول الى المسألة في الأيام التالية ، ولكن كل حركة من حركاتها ، كل صمت ، كان يعني : « انني بلا دفاع . وأنت تستغل ذلك » . صحيح انها لا تملك أي سلاح ، ولا ابسط سلاح : ولكن حتى هـذا العري كان فخاً . فهو لا يترك لهنري أي مخرج سوى ان يجعل من نفسه ضحية او جلاداً . ولم تكن به أية رغبة في تمثيل دور الضحية . والمزعج انه لم يكن أيضاً جلاداً . ولقد شعر بضيق من نفسه في المساء الذي انضم فيـه الى نادين على رصيف محطة اوسترليتز . وقالت مدمدمة بين أسنانها :

– لم تأتِ قبل الموعد .

– لم آتِ متأخراً.

– لنسرع في الصعود : فقد يمضي القطار .

– لن يمضي قبل الميعاد .

– من يدري !

وصعدا واختارا مقصورة فارغة . ولبثت نادين مغروسة مدة طويلة والحيرة بادية عليها بين المقعدين ، ثم جلست الى جانب النافذة ، مديرة ظهرها للقاطرة . وفتحت حقيبتها وشرعت تتهيأ للاقامة بحركات عانس عجوز مدققة : فضمت روب دي شامبر ، وشبشبين ، ولفت ساقيها بغطـاء ، ووضعت وسادة تحت رأسها . ومن السلة التي كانت تستعملها بدل حقيبة أخرجت حبة علكة ، وعندئذ تذكرت وجود هنري وابتسمت بشكل مغرٍ :

– هل تنازعت مع بول عندما رأت انك مصمم على اصطحابي ؟

فهز هنري كتفيه : « بديهي ان هذا لم يعجبها » .

– ماذا قالت ؟

فقال في جفاء :

– لا شيء يخصك .

– ولكن احب ان اعرف .

– وانا لا احب ان اروي لك .

وأخرجت من سلتها غزلها الأحمر واخـــذت تطقطق الصنارتين وهي تمضغ علكتها . وفكر هنري في استياء : « انها تبالغ » . لعلها كانت تثيره عن قصد ، لأنها تشك في ان تأنيب ضمير هنري لا يزال متخلفاً في الاستديو الأحمر . لقـــد قبلته بول دون دموع : « قم برحلة جميلة » . ولكنها في هذه اللحظة ، كانت تبكي . وقال في نفسه : « سأكتب فور وصولي » . كان القطار يهتز ، ويمخر عبر غسق حزين في الضاحية . وفتح هنري رواية بوليسيـة . وألقى نظرة على الوجـه المتجهم ، تجاهه . انه الآن ، لا يستطيـع شيئاً ضد حزن بول ، فلا داعي لافساد متعة نادين بالاضافة إلى ذلك . وبذل جهداً وقال بانطلاق :

– غداً في مثل هذه الساعة سنعبر اسبانيا .

– نعم .

– انهم لا ينتظرون مجيئي في مثل هذا الموعد المبكر في لشبونة،لهذا سيكون امامنا يومان لنا نحن الاثنين .

ولم تجب بشيء . . وتابعت الغزل للحظة في اجتهاد . ثم تمددت على المقعد ، ودفعت بكرتين من الشمع إلى اذنيها ، وعصبت عينيها بمنديل وأدارت ردفهـــا لهنري . وقال في نفسه في سخرية : « انا الذي كان يأمل ان يجد تعويضاً عن دموع بول في ابتسامات ! » . وانهى روايته واطفأ النور . كان الدهان الأزرق قـــد اختفى من على الزجاج ، لكن السهول كانت سوداء كلهـا تحت سماء بلا نجوم ، وكان الجو بارداً في المقصورة . لماذا هو في هذا القطار ، تجاه هذه الغريبة التي كانت تتنفس بصوت مسموع ? وفجأة خيل إليه ان من المستحيل ان يكون المـاضي بانتظاره .

وقال في نفسه صباح اليـــوم التالي في حقد ، على الطريق الذي يؤدي إلى « ايرون » : « انها تستطيـع على كل حال ان تكون اكثر لطفاً ! » . ولم تبتسم نادين حتى عند خروجها من محطة « هنداي » حيث شعرا بالشمس والريح الخفيفة على جلديها . وبينا كان يسجل الفيزا على جوازيها ، كانت تتثاءب بلا تحفظ . وهي

الآن تسير امامه في خطى كبيرة غلامية . كان يحمل الحقيبتين الثقيلتين ، ويشعر بالحر تحت هذه الشمس الجديدة، وينظر دون سرور إلى الساقين القويتين المشعرتين قليلًا اللتين كان الجوربان يظهران عريها الكريه . وكان حاجز قد اغلق وراءهما ، ولأول مرة منذ ستة اعوام كان يدوس ارضاً ليست فرنسية . وارتفع حاجز امامها وسمع صيحة نادين : « اواه ! » . كان هذا الأنين الأساسي هو ما حاول ان ينتزعه منها عبثاً بمداعباته .

– اواه ! انظر !

على حافة الطريق ، قرب منزل محروق ، كانت واجهة دكان برتقال ، وموز، وشوكولا . واندفعت نادين ، وامسكت برتقالتين وناولت احداهما لهنري . وعند رؤية هذا الفرح السهل الذي يفصله كيلومتران عن فرنسا بشكل حاسم ، شعر في صدره بذلك الشيء الأسود القاسي ، الذي اخذ منذ اربع سنين مكان قلبه ، يتحول إلى خيوط حريرية. لقد نظر دون ان يرف له جفن إلى صور أطفال هولانديين يحتضرون جوعاً : وها هو يشتهي الجلوس على حافة الحفرة ، ورأسه بين يديه ، والا يتحرك بعد ذلك .

كانت نادين قد استعادت مزاجها الحسن . وحشت نفسها بالثمار والسكاكر عبر الأرياف الباسكية والبوادي القشتالية . وكانت تنظر مبتسمة إلى سماء اسبانيا . وامضيا ليلة اخرى نائمين على غبار المقاعد . وعند الصباح تابعا نهراً ازرق شاحباً كان يزحف بين اشجار الزيتون ثم تحول إلى نهر عريض ، ثم إلى بحيرة . وتوقف القطار : لشبونة .

– كل هذه التاكسيات !

كان صف طويل من التاكسيات ينتظر في ساحة المحطة . ووضع هنري الحقيبتين في مكتب المحطة وقال لأحد السائقين : « نزّهنا » . كانت نادين تشد على ذراعه صارخة من الرعب وهما يجتازان ، في سرعة كانت تبدو مدوخة ، الشوارع الوعرة حيث تتدحرج الحافلات : لقد فقدا عادة ركوب السيارة . وكان هنري يضحك هو الآخر وهو يشد على ذراع نادين . كان يدير رأسه ، يميناً وشمالاً ، في

فرح غير مصدق : كان الماضي بالانتظار . مدينة جنوبية ، مدينة حارقة ورطبة وعلى أفقها وعد البحر وريح مالحة تصفع تضاريسها : انه يتعرفها . ومع ذلك فقد كانت تدهشه أكثر بما كانت تدهشه مارسيليا ، واثينا ، ونابولي ، وبرشلونة ، لأن كل جـدة اليوم كانت أشبه بمعجزة . لقد كانت جميلة هذه العاصمة ذات القلب الحكيم ، والتلال غير المنتظمة ، بمنازلها الباردة ذات الألوان الدافئة ، وبمراكبها البيضاء الكبيرة . وقال :

ـ اتركنا في مكان ما في الوسط .

وتوقف التاكسي في ساحة كبيرة محاطة بدور السينما والمقاهي . على الأرصفة كان يجلس رجال في بزات قاتمة : لا نساء . فالنساء كن يتزاحمن في الشارع التجاري الذي يهبط نحو المصب . وعلى حين غرة توقف هنري ونادين مذهولين :

ـ أترين !

انه جلد ، جلد حقيقي سميك ومرن ، تُشمّ رائحته . حقائب من جلد الخنزير ، وقفازات من جلد البيكاري ، وعلب تبغ ملسية اللون ، وعلى الأخص هـذه الأحذية ، ذات النعال السميكة المصنوعة من الكريب ، أحذية يسير بها الانسان دون ان يحدث صوتاً ودون ان يبلل قدميه . وحرير حقيقي ، وصوف حقيقي ، وبزات من الفلانيل ، وقمصان من البوبلين . وتبين هنري فجأة ان ثيـابه المكونة من طقم من الفيبران وحذائين متشققين مرحلين ، هي بالأحرى حقيرة . وبـين هاته النسوة اللواتي يلبسن الفرو ، والجوارب الحريرية ، والنعال الرقيقة ، كانت نادين أشبه بمتشردة . وقال :

ـ غداً سنشتري لأنفسنا أشياء ، أشياء كثيرة .

فقالت نادين :

ـ هذا لا يبدو حقيقياً ! قل إذن ، ماذا سيقولون اذا رأوا هذا ، أهـل باريس !

فقال هنري ضاحكاً :

ـ بالضبط ما نقوله نحن .

وتوقفا أمام مطعم حلويات ، وفي هذه المرة لم تكن الشراهة، بل الفضيحة هي التي جمدت نظرة نادين . ولبث ، هو أيضاً ، مذهولاً من عدم التصديق ودفع نادين من كتفها : « لندخل » .

باستثناء شيخ وصبي صغير ، لم يكن هناك إلا نساء حول الطاولات ، نساء مدهونة شعورهن بالزيت ، مثقلات بالفرو ، وبالمجوهرات والانتفاخ الجلدي . يتناولن بخشوع وجبتهن اليومية الشرهة . وكانت فتاتان صغيرتان ، ضفائرهما سود ، يتصالب على صدريهما شريط حريري أزرق ، وتتدلى كمية من الميداليات من رقبتيها ، تلتهمان في تحفظ صحناً من الشوكولا السميك تعلوه كريما مخفوقة . وقال هنري :

– اتريدين منه ؟

فأشارت نادين ان نعم برأسها. وعندما وضعت الخادمة الفنجان أمامها ، حملته الى شفتيها ، وانحسر الدم عن وجهها . وقالت : « لا أستطيع » . وأضافت في لهجة اعتذار : « لم تعد معدتي معتادة » . لكن استياءها لم يأت من معدتها ، فقد فكرت بشيء ما أو بشخص ما . ولم يطرح عليها أسئلة .

كانت غرفة الفندق ممدودة بالكرتون الفاخر. وكان في غرفة الحمام ماء ساخن، وصابون حقيقي ، وثياب حمام من نسيج المناشف . واستعادت نادين كل مرحها. وطلبت ان تفرك هنري بقفاز الليف وعندما أصبح جلده من رأسه الى أخمص قدميه احمر لاهباً ، قلبته وهي تضحك على السرير . وفعلت الحب في مزاج طيب للغاية حتى ان المرء ليظن انها تجد فيه متعة . وكانت عيناها تلمعان في صباح الغد عندما كانت تجس بيدها الخشنة الأغطية الصوفية السميكة ، واللحف الحريرية : « هل كان في باريس مخازن بمثل هذا الجمال ؟ » .

– بل كان هناك مخازن أجمل . ألا تذكرين ؟

– لم اكن أذهب الى المخازن الجميلة ، فقد كنت صغيرة جداً . » ونظرت الى هنري في امل : « اتعتقد ان هذا سيعود ذات يوم ؟ » .

– ذات يوم ، ربما .

– ولكن كيف هم أغنياء الى هذا الحد هنا ؟ لقد كنت اظن انه بلد فقير .
– انه بلد فقير فيه أناس أغنياء جداً .

وابتاعا ، لها ولأهل باريس ، أقمشة ، وجوارب ، وقمصاناً داخلية ، وأحذية ، وكنزات . وتناولا الغداء في طابق ارضي مزدان بتصاوير ملونة تمثل مصارعين على الخيل يتحدون ثيراناً حانقة . وقالت نادين ضاحكة : « لحم او سمك : لديهم على كل حال قيود ! » . وأكلا بفتيكاً بلون الرماد . ثم تسلقا الشوارع المبلطة بالحصى المستديرة التي تصعد نحو الأحياء المكتظة بالسكان ، وهما ينتعلان احذية بلون اصفر صارخ ، لكنها فخمة النعال . وعند احد مفارق الطرق ، كان اطفال حفاة ينظرون دون ضحك الى اراكوز صغير باهت اللون . وكانت الدرب تضيق ، والواجهات تتناثر ، ووجه نادين يغيم .

– انه لمقرف هذا الشارع ، أيوجد كثير مثله ؟
– أعتقد ان نعم .
– يبدو انه لا يسخطك ؟

لم يكن على استعداد للسخط . وفي الحقيقة ، إنما باندفاع ممتع ، كان يرى ثانية الغسيل المزركش منشوراً على النوافذ المشمسة ، فوق فجوة من ظل . وسارا في صمت في زقاق ، وتوقفت نادين وسط درج ذي بلاط متسخ . وكررت : « هذا مقرف ! هيا بنا من هنا » .

فقال هنري :

– اواه ! لنتابع ايضاً .

لقد أمضى ساعات في مرسيليا ، ونابولي ، والبيريه ، وباريو – شينو ، يتسكع في مثل هذه الأزقة الصارخة . ويقيناً ، لقد كان يتمنى آنذاك ، كاليوم ، ان ينتهي العالم من هذ البؤس كله . ولكن هذه الأمنية تظل مجردة ، ولم يرغب أيضاً في الهرب : كانت هذه الرائحة البشرية العنيفة تدوخه . انه ، من أعلى التل ، إلى أسفله ، الطنين نفسه ، والسماء نفسها تحترق خلف الأسطحة . وكان يخيل لهنري انه بين لحظة وأخرى سيجد ثانية الفرح القديم في كل كثافته . وكان هذا ما

يطارده من زقاق إلى زقاق : لكنه ما كان يجـده . كانت النساء الجالسات امام الأبواب يقلـين سمك السردين على قطع من فحم الخشب . وكانت رائحة السمك المنتن تغطي رائحة الزيت الحار . وكانت اقدامهن حافية . هنا جميـع النـــاس يسيرون حفاة . ولم يكن في الأقبية المفتوحة على الشارع سرير ، او قطعة أثاث ، او صورة : بل حصر ، واطفـال ملطخون بالقوبة الصفراء ، ومن بعيد إلى بعيد عنزة . وفي الخارج ما من صوت مرح ، ما من ضحكة ، بل عيون ميتة . هـل كان البؤس هنا ميئوساً منه أكثر من المدن الأخرى ؟ أم انّ الانسان ، بدل ان يتصلب ، تزيد حساسيته بالتعـــاسة ؟ كانت زرقة السماء تبدو وحشية فوق الظل الوسخ ، وهنري يشعر ان تجهم نادين الأخرس يتملكه . وصادفا امرأة في أسمال سود ، يتعلق طفل بثديها العاري ، كانت تجري ساهمة ، وقال هنري فجأة :

– آه ! انت على حق ، لنذهب من هنا .

ولكن لم يفدهما شيئاً ان يذهبا من هناك . وقد ادرك هنري ذلك منذ اليوم التالي اثناء حفلة الكوكتيل التي اقامتها القنصلية الفرنسية . كانت المائدة مليئة بالسندويشات والحلويات الاسطورية، والنساء يرتدين ثياباً منسية الألوان، وجميع الوجوه تضحك ، والناس يتحدثون بالفرنسية ، وتل « النعمة » بعيداً جـداً ، في بلد اجنبي تماماً لا تمس هنري مصائبه ، وكان يضحـــك في ادب مع الآخرين ، عندما جره الشيخ ماندوز داس فيرناس إلى إحدى زوايا القاعة . كان يضع قبة قاسية ، وربطة عنق سوداء ، ولقد كان وزيراً قبل دكتاتورية سالازار . وحدج هنري بنظرة مرتابة .

– اي انطباع خلفته فيك لشبونة ؟

فقال هنري :

– مدينة جميلة حقاً ! » وغامت النظرة واضاف هنري مبتسماً : « يجب ان اقول انني لم أشاهد شيئاً كثيراً بعد » .

فقال داس فيرناس في حقد :

– عادة ، الفرنسيون الذين يأتون إلى هنا يرتبون امورهم بحيث لا يشاهدون

شيئاً مطلقاً . خذ فاليري : لقد اعجب بالبحر ، بالحدائق . امـا بالنسبة للباقي ، فقد كان أعمى » . وصمت الشيخ قليلاً ليستريح : « هل انت حريص ايضاً على اغلاق عينيك ؟ »

فقال هنري :

– على العكس ! انني لا أطلب إلا ان استعملهما .

فقال داس فيبرناس بصوت عاد إليه اللطف :

– آه ! بعد الذي قيل لي عنك ، هذا ما كنت آمله . ستأخذ موعداً للغد وانا أتكفل بأن أريك لشبونة . واجهة جميلة ، نعم ! لكنك سترى ماذا يوجد وراءها !

فقال :

– لقد قمت امس بجولة في تل « النعمة » .

– لكنك لم تدخل إلى البيوت ! اريد ان تلاحظ بنفسك ما يأكله الناس ، وكيف يعيشون : لن تصدقني إذا اخبرتك » . وهز داس فيبرناس كتفيه : « كل ذلك الأدب عن الكآبة البرتغالية وسرها ! لكن الأمر مع ذلك بسيط : من بين سبعة ملايين برتغالي ، سبعون ألفاً فقط يأكلون حتى الشبع » .

من المستحيل الهرب : هكذا أمضى هنري صباح اليوم التالي في زيارة الأكواخ . وقد دعا الوزير السابق اصدقاء له عند نهاية بعد الظهر عن قصد ليرووا له : من المستحيل الرفض . كانوا جميعاً يرتدون بزات قاتمة ، وقبات قاسية ، وقبات لينة ، ويتكلمون في وقار ولكن بين الحين والآخر كان الحقـد يغير وجوههم العاقلة . كانوا وزراء سابقين ، وصحفيين سابقين ، ومعلمين سابقين ، خربهم رفضهم التحالف مع النظام . وكان لهم جميعـاً اقرباء واصدقاء منفيون ، وكانوا فقراء ويائسين . اما من كان منهم لا يزال يعاند في العمل فكان يعلم ان جزيرة الجحيم تنتظره : بل إذا أراد طبيب ان يعالج البائسين مجاناً ، او إذا حاول ان يفتح مستوصفاً او يدخل بعض النظافة في المستشفيات ، فإنه سريعاً ما يصبح مشبوهاً . ومن ينظم دروساً ليلية ، ومن يقوم بحركة كريمة او مجرد إحسان ، فهو عـدو

للكنيسة والدولة . لكنهم مع ذلك كانوا يعاندون . ويريدون ان يؤمنوا ان دمار النازية سيؤدي إلى نهاية هـــذه الفاشية المتصنعة التقوى . ويحلمون بقلب سالازار وبإنشاء جبهة وطنية شبيهة بالتي تأسست في فرنسا . وكانوا يعرفون انهم وحيدون : فالرأسماليون الانكليز لهم مصالح ضخمة في البرتغال ، والأميركان يتفاوضون مع الحكومة لشراء قواعد جويـة في « آسور » . وكانوا يرددون : « فرنسا املنا الوحيد » . ويتضرعون: « قل للفرنسيين الحقيقة . فهم لا يعرفون، ولو كانوا يعرفون ، لجاؤوا لمساعدتنا » . وفرضوا على هنري مواعيد يوميـــة . وراحوا يرهقونه بالوقائع ، والأرقام ، ويتلون عليه الاحصاءات ، وينزهونـــه في الأحياء المكتظة الجائعة : لم يكن هذا بالضبط نوع الاجازة التي حلم بها ، ولكن لم يكن له خيار. وكان يعد بأن يحرك الرأي العام الفرنسي بحملة صحيفة: الاضطهاد السياسي ، الاستغلال الاقتصادي ، الارهاب البوليسي ، تجهيـل الجماهير المنظم ، تحالف الكهنـة المخجل ، سيقولون كل شيء . وكان داس فييرناس يؤكد : « اذا علم كارمونا ان فرنسا مستعدة لتأييدنا ، فسوف يمشي معنا » . وكان قد عرف في الماضي (بيدو) ويفكر بأن يقترح عليه نوعاً من معاهدة سرية : مقابل تأييدها ، فإن الحكومة البرتغاليـة القادمة يمكنها ان تقدم لفرنسا تنازلات رابحة بخصوص المستعمرات الافريقية . وكان من الصعب ان يشرح له دون ان يجرحه الى أي حد كان هذا المشروع خيالياً !

ووعد هنري عشية رحيله إلى « ألغارف » :

– سأرى تورنيل ، الأمين العام لوزارته . إنه رفيق من رفاق المقاومة .

وقال داس فييرناس :

– سأضع مشروعاً دقيقاً أعطيكه عند عودتك .

كان هنري مسروراً بمغادرة لشبونة . واعارته الخدمات الفرنسية سيارة ليقوم بجولة محاضراته بشكل مناسب،ودعته الى استخدامها ما شاء،وانها ستكون اخيراً اجازة حقيقية . ولسوء الحظ كان أصدقاؤه الجدد يعتمدون كل الاعتماد على انـه سيمضي اسبوعه الأخير في التآمر معهم : لهذا سيجمعون وثائق مستوعبة ويرتبون

اجتماعات مع بعض شيوعيي ورشات « زامورا » . ولا مجال للرفض .

قالت نادين بلهجة سعيدة :

ـ هذا يعني ان لدينا خمسة عشر يوماً لنتسكع .

كانا يتناولان العشاء في حانة خارج البلدة ، على الضفة الأخرى لنهر « التاج ». وكانت خادمة قد وضعت على الطاولة شرائح من سمك مقدد مقلي وزجاجة خمر لونها وردي كدر . ومن خلال الزجاج كانا يلمان اضواء لشبونة التي تصطف بين السماء والماء .

وقال هنري :

ـ في خمسة عشر يوماً ، في سيارة ، سنرى كثيراً من البلد ! أتدركين الحظ الذي أتيح لنا !

ـ بالضبط : من المؤسف ألا نستفيد منه .

ـ جميع اولئك الأشخاص الذين يعتمدون عليّ ، سيكون من الجبن ان أخيب أملهم ، أليس كذلك !

فهزت كتفيها : « انت لا تستطيع شيئاً من اجلهم » .

ـ انني استطيع ان أتكلم باسمهم . هذه مهنتي . وإلا لا داعي لأن أكون صحفياً .

ـ ربما لا داعي هناك .

فقال بلهجة مصالحة :

ـ لا تفكري من الآن بالعودة . سنقوم برحلة رائعة . وانظري إذن إلى تلك الأضواء الصغيرة على حافة الماء ، ما اجملها .

فقالت نادين :

ـ ما الجميل فيها ? » كان هذا نوع الأسئلة المغضبة التي تتمتع بطرحها . وهز كتفيه . وتابعت : « كلا ، جدياً ، لماذا تجدها جميلة ? » .

ـ انها جميلة ، هذا كل شيء .

وألصقت جبينها بالزجاج : « لعلها تكون جميلة لو اننا لا نعرف ما وراءها .

ولكن عندما نعرف ذلك ... » . واستنتجت في حنق : « انها ايضاً خـدعة ، انني أكره هذه المدينة القذرة » .

انها خدعة ، دون ادنى شك . ومع ذلك لم يكن يستطيع ان يمنع نفسه من ان يجد تلك الأضواء جميلة . انه لن يترك نفسه تؤخذ بعد الآن برائحة البؤس الحارة ، وزركشاته الفرحة . ولكن تلك الألسنة الصغيرة التي كانت تلمع على طول الميـاه القاتمة ، كانت تؤثر عليه ، رغم كل شيء وضده : ربما لأنها تذكره بزمن كان يجهل فيه ما يختبىء وراء الديكورات . وربما لم يكن يحب هنـا إلا ذكرى سراب . ونظر الى نادين . ثمانية عشر عاماً ، ولا سراب واحـد في ذاكرتها ! لقد كان له هو على الأقل ماضٍ . واحتج في نفسه : « وحاضر . لحسن الحظ لا تزال هناك أشياء تحب ! » .

لا تزال هناك مثل هذه الأشياء، لحسن الحظ ! أية لذة في ان يكون بين يديه من جديد مقود ، وهذه الطرق أمامه ، على مد النظر ! بعد تلك السنوات كلها ، شعر هنري بالخوف ، في اليوم الأول . فقد كانت السيارة تبدو وكأن لها حياتها الخاصة . وبالإضافة الى ذلك فقد كانت ثقيلة ، لا تنطلق بسرعة ، صاخبة وذات نزوات . ومع ذلك ها هي تطيع تلقائياً كأنها يده .

كانت نادين تقول :

– ما أسرعها ، إنها رائعة !

– لقد تنزهت سابقاً في سيارة ، أليس كذلك ؟

– في باريس ، في سيارات جيب . ولكني لم أسرع ابداً بمثل هذه السرعة .

هذا ايضاً كان كذبة ، الوهم القديم بالحرية والقوة ، لكنها كانت تقبل بـه دون تشكك . كانت تخفض جميع نوافـذ الزجاج ، وتشرب في شراهة الهواء والغبار . ولو استمع اليها هنري ، لما نزلا من السيارة ابداً . فما كانت تحبه ، هو ان تجري بأسرع ما يمكن ، بين الطريق والسماء . وكانت لا تكاد تبالي بالمناظر . ومع ذلك ، ما كان أجملها ! غبار الميموزا الذهبي ، الجنان البدائية الحكيمة التي تكررها الى ما لا نهاية أشجار البرتقال المستديرة الرأس ، هذيان حجارة بتاغليا ،

الدرجان الجليلان اللذان يتصاعدان متعانقين نحو كنيسة بيضاء وسوداء ، شوارع بيجا حيث تزحف الصيحات القديمة لراهبة أصيبت بداء الحب . وفي الجنوب ذي الرائحة الافريقية ، كانت حمير صغيرة تدور حول نفسها لتنتزع شيئاً من الماء عن التربة القاحلة . ومن بعيد إلى بعيد كانا يلمحان ، وسط نباتات الباهرة الزرقاء التي تخزق الارض الحمراء، الرطوبة الكاذبة لبيت مصقول أبيض كاللبن . وعاود الصعود نحو الشمال على طرق تبدو كأنها سرقت من الأزهار أعنف ألوانها: طرق بنفسجية، وحمراء ، وقاتمة . ثم تعود الألوان ازهاراً بين تلال مينهو الوديعة . نعم ، ديكور جميل ، وينبسط بسرعة أكبر من ان يتاح للمرء التفكير بما يختبىء وراءه . وعلى طول شطآن الغرانيت ، كما على طرق ألغارف المحرقة ، كان الفلاحون يسيرون حفاة ، لكن قلما كانا يلتقيان بهم. وفي « بورتولاروج » ، حيث للمدن لون الدم، انتهى العيد . فعلى جدران الأكواخ ، الأشد قتامة ورطوبة من أكواخ لشبونة، والرابلة بالاطفال العراة ، علقت لافتات : « غير صحي . ممنوع السكن هنا » . وكانت فتيات صغيرات في الرابعة او الخامسة، مرتديات أكياساً مثقوبة ، ينبشن في سلال الزبل . ولتناول الغداء ، اختبأ هنري ونادين في مؤخرة مطعم مظلم ، لكنهما كانا يلمحان اوجهاً ملتصقة بنوافذ المطعم . وقالت نادين حانقة : « انني اكره المدن ! » . وظلت حبيسة طوال النهار في غرفتها وفي صباح اليوم التالي ، على الطريق ، لم تنبس تقريباً ببنت شفة . ولم يحاول هنري ان يبعد عنها غمها .

وفي اليوم المحدد لعودتهما ، توقفا لتناول الغداء في مرفأ صغير على بعد ثلاث ساعات من لشبونة . وتركا العربة امام المنزل ليتسلقا إحدى التلال المطلة على البحر . كانت تنتصب ، في القمة ، طاحونة بيضاء ملفحة بقرميد اخضر . وقد علق بأجنحتها جرار صغيرة من الفخار المشوي ، ضيقة العنق ، تغني فيها الريح . ونزل هنري ونادين راكضين من التل بين أشجار الزيتون المورقة واشجار اللوز المزهرة وكانت الموسيقى الصبوية تتبعهما . وتهالكا على رمل الخليج . وكانت زوارق صدئة الأشرعة تتماوج فوق البحر الشاحب . وقال هنري :

— سنكون على ما يرام هنا .

فقالت نادين متجهمة :

– نعم . وأضافت : « انني أموت جوعاً » .

– بديهي : فأنت لم تأكلي شيئاً .

– انني اطلب بيضاً غير مسلوق تماماً فيأتونني بابريق ماء ساخن وبيض نيء .

– سمك الموري طيب جداً . وكذلك الفول .

– نقطة واحدة من الزيت وتقلب معدتي . » وبصقت في غضب : « يوجد زيت في ريقي » .

وبحركة عازمة نزعت قميصها .

– ماذا تفعلين ؟

– ألا ترى .

لم تكن ترتدي مشد صدر ، وإذ تمددت على ظهرها ، كانت تعرض للشمس عري ثدييها الخفيفين .

– كلا ، يا نادين : إذا جاء احد .

– لن يأتي احد .

– يرضيك ان تعتقدي ذلك .

– انني لا أبالي . أريد ان أحس بالشمس . » كانت تنظر إلى السماء ، ثدياها للهواء ، وشعرها مهجور على الرمل ، وقالت مؤنبة : « يجب ان استفيد منها حقاً لأنه اليوم الأخير » .

ولم يجب وقالت بصوت يئن :

– أتصر حقاً على العودة إلى لشبونة هذا المساء ؟

– تعلمين جيداً انهم ينتظروننا .

– اننا لم نرَ الجبل . والجميع يقولون انه اجمل شيء : في ثمانية ايام ، اننا نستطيع ايضاً ان نقوم بجولة رائعة .

– ما دمت اقول لك ان عليّ ان ارى اناساً .

– السادة الشيوخ ذوو القبات القاسية ؟ ان منظرهم سيكون جميلاً في «متحف

الانسان » . ولكن كثوريين ، دعني أضحك .

قال هنري :

– اما انا ، فأجدهم مؤثرين . وتعلمين ، انهم يجازفون بأخطار عظيمة .

– انهم يتكلمون كثيراً .» وتركت الرمل ينساب بين اصابعها: « كلمات ، كما يقول الأخ . كلمات » .

فقال في شيء من الغيظ :

– من السهل دوماً ان يتعالى الانسان على الناس الذين يحاولون شيئاً ما .

فقالت في غضب :

– ان ما آخذه عليهم هو انهم لا يحاولون شيئاً عن حق . بدلاً من الثرثرة كثيراً ، فانني افضل ان اغتاله مرة واحدة ونهائية .

– هذا لن يقدم الأمور إلى الأمام .

– هذا سيقدم بأنه سيكون ميتاً . وكما يقول فانسان ، ان الموت على الأقل لا يسامح . » كانت تنظر إلى البحر متأملة : « إذا قررنا ان نقتل انفسنا معه ، فيمكننا بالتأكيد الحصول على جلده » .

فقال هنري مبتسماً :

– لا تحاولي ! » ووضع يده على الذراع الملطخة بالرمل : « سأبدو في منظر جميل ، أتدركين ! » .

فقالت نادين :

– سيكون نهاية جميلة .

– أأنت مستعجلة جداً ان تنتهي ؟

فتثاءبت : « أيسليك ان تعيش ؟ » .

فقال في مرح :

– هذا لا يضجرني .

وانتصبت على مرفقها وتفحصته في فضول : « اشرح لي . ان تكتب كما تفعل من الصباح إلى المساء ، أهذا يملأ حقاً حياتك ؟ » .

فقال :

ـ عندما اكتب، نعم، هذا يملأ حياتي . بل اني لأشعر برغبة قذرة في المتابعة.

ـ كيف حصل لك ان رغبت في الكتابة ؟

فقال هنري :

ـ اواه ! هذا يعود إلى فترة بعيدة

كان ذلك يعود إلى فترة بعيدة ، لكنه لم يكن يعرف اية اهميـــة يعلق على ذكرياته .

ـ عندما كنت حدثاً ، كان يبدو لي الكتاب سحرياً .

فقالت نادين في حمية :

ـ انا ايضاً أحب الكتب . ولكن هناك كثير منها الآن ! فما الفائدة مـن تأليف كتاب آخر ؟

ـ ليست الأشياء التي نريد ان نقولها هي نفسها تماماً التي قالها غيرنا : ان للمرء حياته الخاصة به ، علاقاته الخاصة به مع الأشياء ، مع الكلمات .

فقالت نادين بصوت مغضب وبشكل مبهم :

ـ اولاً يزعجك ان تفكر ان غيرك قد كتب اشياء افضل بكثير مما ستبيضه، انت ؟

فقال هنري مبتسماً :

ـ في البداية، كنت افكر بذلك . ان المرء متعجرف ما دام لا يفعل شيئاً. ولكنه ما إن يغطس في القضية مرة حتى يهتم بما يكتب ولا يضيع وقتـــه في مقارنة نفسه .

فقالت بصوت حرد وهي تتهالك بكل طولها على الأرض :

ـ اواه ! يقيناً ، انه يرتب أموره !

ولم يعرف كيف يجيبها : من الصعب جداً ان يشرح لمَ يحب الكتابة لأحـد لا يحب ذلك . وعلى كل حال ، هل يستطيع ان يشرح هـــذا لنفسه ؟ لم يكن يتخيل انه سيقرأ إلى الأبد ، ولكنه عندما كان يكتب ، كان يشعر انه مقيم في

الأبدية . وما كان ينجح في صبه في كلمات كان يخيل إليه انه انقذ ، اطلاقاً . اي شيء حقيقي في هذا ؟ إلى اي مدى لم يكن هذا ايضاً إلا سراباً ؟ هي ذي اشياء كان عليه ان يوضحها لنفسه اثناء هذه الاجازة ، لكنه في الحقيقة لم يوضح شيئاً مطلقاً . والأكيد ، انه كان يشعر في نفسه بشفقة شبه قلقة على كل تلك الحيوات التي لا تحاول حتى ان تعبر عن نفسها : حياة بول ، وآن ، ونادين . وفكر : « ها ! في هذه الساعة الآن ، كتابي قد ظهر ! » . منذ زمن طويل لم يواجه الجمهور وكان خائفاً من التفكير بأن أناساً يقرأون الآن روايته ويتحدثون عنها . ومال على نادين وابتسم لها .

– على ما يرام ؟

فقالت بلهجة تئن قليلاً :

– نعم . اننا مسروران هنا !

– اننا مسروران .

ومزج أصابعه بأصابع نادين والتصق بالرمل الحار . بين البحر المتاوج الذي كانت الشمس تفقده لونه وزرقة السماء الآسرة، كانت ثمة سعادة معلقة، وليستطيع ان يمسك بها ، ربما كانت ابتسامة من نادين تكفي : انها تصبح جميلة تقريباً عندما تبتسم . ولكن الوجه الملطخ بالنمش ظل بلا حياة . وقال : « نادين المسكينة ».

فانتصبت فجأة : « لمَ مسكينة ؟ » .

يقيناً ، كانت تستحق الرثاء ، ولكنه لم يكن يعرف لماذا : « لأن هذه الرحلة قد خيبت أملك » .

– اواه ! أتعلم ، لم اكن انتظر منها كثيراً .

– ومع ذلك كانت هناك اوقات طيبة .

– يمكن ان يكون منها المزيد ايضاً . » ودبت الحرارة في زرقة عينيها الباردة : « دعك من اولئك الحالمين المسنين . اننا لم نأتِ لهذا . لنتنزه . لنلهُ ما دام لنا لحم على العظام » .

فهز كتفيه : « تعلمين جيداً انه ليس من السهل جداً ان نلهو » .

– لنحاول . ان جولة كبيرة في الجبال ستكون رائعة، أليس كذلك ؟ انت تحب التجول . في حين ان تلك الاجتماعات ، وتلك التحقيقات ، تضجرك .
– بالتأكيد .
– اذن ؟ ما الذي يرغمك على فعل أشياء تسئمك ؟ أهي دعوة ربانية ؟
– ادركي هذا : « هل أستطيع ان اشرح لأولئك الشيوخ المساكين ان مصائبهم لا تهم احداً ، وان البرتغال صغيرة جداً ، وان العالم لا يكترث لها ؟ »
ومال هنري على نادين مبتسماً : « هل أستطيع » ؟ .
– تستطيع ان تتصل بهم هاتفياً وتقول لهم انك مريض وتهرب إلى إيفورا .
فقال هنري :
– هذا سيحطم قلوبهم . كلا ، لا أستطيع .
فقالت نادين في حدة :
– قل إنك لا تريد .
فقال في نفاد صبر :
– ليكن ، انني لا أريد .
فزمجرت وهي تدس أنفها في الرمل : « انت اسوأ ايضاً من أمي » .
وتهالك هنري بكل جسده الى جانبها . « لنله » . في الماضي ، كان يعرف كيف يلهو . وأحلام المتآمرين المسنين ، كان سيضحي بها باندفاع من أجل تلك الافراح التي عرفها ، في الماضي . وأطبق عينيه . كان راقداً على شاطىء آخر إلى جانب امرأة ذهبية الجسد ، ترتدي تنورة باهتة مزهرة ، اجمل النساء ، بول . وكانت سعف نخيل تتأرجح فوق رأسيها ، ومن خلال القصب كانا ينظران إلى يهوديات بدينات ضاحكات ، يتقدمن نحو البحر ، متعثرات بأثيابهن ، وبراقعهن ، ومجوهراتهن . وفي الليل أحياناً كانا يرقبان النساء العربيات اللواتي كن يغامرن في الماء ، ملتحفات في ملاآتهن. او كانا يشربان في الحانة ذات الأسس الرومانية قهوة كثيفة . او كانا يجلسان في ساحة السوق وهنري يشرب النارجيلة وهو يتحادث مع « عمور حارسين » . ثم كانا يعودان الى الغرفة المليئة بالنجوم ، ويتهالكان على

السرير . ولكن الساعات التي كان هنري يتذكرها الآن في أشد الحنين ، هي الصباحات التي كان يمضيها على سطح الفندق بين زرقة السماء ورائحة الأزهار الهائمة وكان ، في رطوبة النهار الوليد ، في لظى الظهيرة ، يكتب ، وكان الاسمنت ، تحت قدميه ، حارقاً ، إلى ان يهبط ، بعد ان تدوخه الشمس والكلمات ، إلى ظل صحن الدار ليحتسي عرقاً مثلجاً . كانت سماء « جربا » ، ودفلها ، ومياهها العنيفة ، هي التي جاء يبحث عنها هنا ، كانت غبطة لياليها الثرثارة ، وعلى الأخص رطوبة صباحاتها ولظاها . لماذا لا يجد ثانيـة ذلك الطعم الحارق العذب الذي كان لحياته سابقاً ، ومع ذلك ، فقد اشتهاها هذه الرحلة ، وطوال أيام لم يفكر في شيء آخر . طوال أيام حلم بأنه ينام على الرمل ، تحت الشمس . وها هو الآن هنا ، حيث الشمس ، وحيث الرمل : غير ان شيئاً في داخله كان ناقصاً . انه لم يعد يعرف جيداً ماذا تعنيه الكلمات القديمة : السعادة ، السرور . ليس لنا إلا حواس خمس ، وهي تسأم بسرعة كبيرة . وكانت نظرته قد أخذت تسأم من الأسباب الى ما لا نهاية على تلك الزرقة التي لم تكن تنتهي من ان تكون زرقاء . وكانت به رغبة في خرق هذا الحرير الأطلس ، في تمزيق جلد نادين اللدن . وقال:

ـ بدأ الجو يصبح رطباً .

ـ نعم . » وفجأة التصقت به . ومن خلال قميصه ، شعر على صدره بالثديين الشابين العاريين : « أدفئني » .

فدفعها في لطف . « البسي . لنعد الى القرية » .

ـ أتخاف ان يرونا ؟ » كانت عينا نادين تلمعان ، وقد صعد قليل من الدم الى خديها . لكنه كان يعرف ان فمها ما زال بارداً . وسألت في اغواء : « ماذا تظن انهم سيفعلون بنا ؟ هل سيرجموننا ؟ » .

ـ انهضي . آن ان نعود .

كانت تثقل عليه بكل وزنها ، وما كان يحسن مقاومة الشهوة التي تخدره . انه يحب صدرها الشاب ، جلدها الصافي . لو انها فقط رضيت بأن تترك اللذة تهدهدها بدل ان تقفز في السرير في صفاقة مقصودة ... كانت تراقبه ، عيناها نصف

مطبقتين ، ويدها تهبط نحو بنطلونه الكتاني .

– دعني ... واستسلم .

كانت يدها وفمها ماهرين ، لكنه كان يكره الانتصار المضمون الذي يقرأه في عينيها في كل مرة يستسلم فيها . وقال : « كلا . كلا . ليس هنا . ليس هكذا » .

وتملص وانتصب . كان قميص نادين يرقد على الأرض فرماه على كتفيها . وقالت في غضب :

– لماذا ؟ » وأضافت بصوت متثاقل: « ربما في الهواء الطلق ، كان هذا مسلياً أكثر قليلاً » .

كان ينفض الرمل الذي غبر ثيابه . وتمتم في لهجة متكلفة الحلم :

– انني اتساءل ما اذا كنت ستصبحين امرأة ذات يوم .

– اواه ! أتعرف ، ان النساء اللواتي يحببن ان يوطأن ، أنا واثقة انه لا يوجد منهن واحدة على مئة : إنما هي عادة يسرن عليها ، حباً بالظهور وتقليداً .

فقال وهو يأخذ ذراعيها :

– هيا ، دعينا من الخصام . تعالي. سوف نشتري لك كاتو وشكولا لتأكليهما في السيارة .

فقالت :

– انت تعاملني كطفلة .

– انني أعلم جيداً انك لست طفلة . انني أفهمك أكثر مما تظنين .

فنظرت اليه في ارتياب وتلألأت ابتسامة صغيرة على شفتيها .

وقالت :

– اواه ! انني لا أكرهك دوماً .

وشد أكثر قليلاً على ذراعها ، وسارا في صمت نحو القرية . كان النور يضعف . والزوارق تعود الى الميناء ، ثم تسحبها ثيران الى الشاطىء . كان القرويون ، وقوفاً او جلوساً على شكل دائرة ، ينظرون . كانت قمصان الرجال ، وتنانير النساء

الفضفاضة ، مزركشة بالألوان الفرحة : لكن هذا المرح كان متجمداً في سكون كئيب . وكانت المناديل السوداء تؤطر أوجهاً من حجر ، والعيون الرانية الى الأفق لا تأمل شيئاً. لا حركة، لا كلمة وكأن لعنة قد شلّت جميع الألسنة.
فقالت نادين :

— انهم يدفعونني إلى الصراخ .

— بل افترض انهم لن يسمعوك .

— ماذا ينتظرون ؟

— لا شيء . انهم يعرفون انهم لا ينتظرون شيئاً .

في الساحة الرئيسية ، كانت الحياة تلجلج في ضعف . وكان أطفال يصيحون . وكانت أرامل الصيادين الذين ابتلعهم البحر ، يتسولن ، جالسات على حافة الرصيف . ولقد نظر هنري ونادين بغضب ، في الأيام الأولى ، إلى البورجوازيات المتدثرات بالفرو السميك اللواتي كن يجبن المتسولين في عظمة : « اصبروا ! » . اما الآن، فإنهما يهربان كلصين عندما تمتد الأيدي نحوهما: كان عددهم كبير جداً .

وقال هنري وهو يوقف نادين امام مطعم الحلويات :

— اشتري لنفسك شيئاً ما .

ودخلت . كان طفلان ، حليقا الرأس ، يسحقان انفهما على الزجاج . وعندما ظهرت ثانية ، مثقلة الذراعين بأكياس الورق ، صاحا . فتوقفت :

— ماذا يقولان ؟

فتردد : « انك محظوظة إذ تستطيعين ان تأكلي حتى الشبع » .

— اواه !

وبحرقة حانقة ، ألقت في أذرعهما الأكياس المنتفخة . فقال هنري :

— كلا . سأعطيهم مالاً .

فسحبته : « دعهما ، لقد قطعا شهيتي ، هاتان القملتان القذرتان .

— لقد كنت جائعة .

— أقول لك انني لم أعد جائعة .

وركبا السيارة وسارا في صمت فترة من الزمن. وقالت نادين بصوت مخنوق:
– كان يجب ان نذهب إلى بلاد أخرى .
– أين ؟
– لست أدري . ولكن انت ، لا بد انك تعرف .
فقال :
– كلا ، لست اعرف .
فقالت :
– على كل ، يجب ان يكون هناك بلد يستطيع فيه الانسان ان يعيش .
وفجأة ، اغرورقت عيناها ونظر إليها في ذهول : كانت دموع بول طبيعية كالمطر ، ولكن ان يرى نادين تبكي ، فهذا محرج كما لو انه فاجأ دوبروي ينتحب. وطوق كتفيها بذراعه وجذبها نحوه .
– لا تبكي . لا تبكي . » كان يداعب الشعر الخشن : لماذا لم يعرف كيف يجعلها تبتسم ؟ لمَ كان قلبه مثقلاً ؟ ومسحت نادين دموعها ومخطت بصوت عالٍ . وقالت :
– ولكن انت ، عندما كنت شاباً ، أكنت سعيداً ؟
– نعم . كنت سعيداً .
– أرأيت !
فقال : « انت ايضاً ، ستكونين سعيدة ، ذات يوم » .
كان يجب بالأحرى ان يضمها إليه بقوة أكثر وان يقول لها : « انا سأجعلك سعيدة » . في تلك اللحظة ، كانت به رغبة : رغبة لحظة في ان يُلزم حياته كلها. لم يقل شيئاً . وفكر فجأة : « الماضي لا يعود . الماضي لن يعود » .
– فانسان !
واتجهت نادين نحو المخرج . كان فانسان يحرك يـــده مبتسماً ، وهو في زي مراسل حربي. وانزلقت نادين على نعليها المصنوعين من الكريب ثم اعتدلت قامتها وهي تتعلق بذراع فانسان : « مرحباً ، انت ! » .

فقال فانسان في مرح : « مرحباً ايها المسافران ! » . وصفر اعجاباً : « ما هذه الثياب ! » .

فقالت نادين وهي تدور على نفسها : « سيدة حقيقية ، أليس كذلك ؟ » . كانت ، بمعطفها الفروي ، وجوربيها ، ونعليها ، تبدو أنيقة وانثوية تقريباً .

وقال فانسان وهو يمسك كيس البحار الطويل الذي كان هنري يسحبه وراءه:

ــ اعطني هذا ! أهي جثة ؟

فقال هنري :

ــ خمسون كيلو من الطعام . ان نادين تريد ان تموّن أهلها . ولكن كيف السبيل إلى حملها حتى رصيف فولتير ، فتلك هي المشكلة .

فقال فانسان في لهجة انتصار :

ــ ليست هناك مشكلة .

فقالت نادين :

ــ أسرقت سيارة جيب ؟

ــ لم أسرق شيئاً .

واجتاز في حزم باحة الوصول وتوقف امام سيارة سوداء صغيرة : « انها جيدة ، أليس كذلك ؟ » .

فقال هنري :

ــ أهي لنا ؟

ــ نعم . لقد تدبر لوك امره أخيراً .

فقالت نادين :

ــ انها صغيرة .

فقال هنري وهو يفتح الباب :

ــ انها ستخدمنا بشكل قذر .

وكوموا الحقائب في المؤخرة كيفما اتفق . وسألت نادين :

ــ هل تأخذني للنزهة ؟

فقال فانسان :

ـ هل انت مجنونة ؟ انها اداة عمل . » واضاف بلهجـــة من يسلم بحقيقة : « بديهي ، مع كل هذا الحمل ، سنتضايق قليلاً » .

وجلس امام المقود وأقلعت العربة وهي تشهق شهقات مؤلمة . وسألت نادين :

ـ أواثق انك تعرف القيادة ؟

ـ لو رأيتني في تلك الليلة انقض في سيـارة جيب ، دون مصباح ، على طرق ملفوفة ، لما شتمتني مجاناً . » ونظر فانسان إلى هنري : « هـل أوصل نادين ثم أوصلك إلى الجريدة ؟ » .

ـ اتفقنا . كيف حال « الأمل ؟ » . لم أرَ عدداً واحداً منها في تلك البلاد اللعينة . الا زلنا نصدر دوماً في حجم طابع بريد ؟

دوماً ، لقد سمحوا بصحيفتين جديدتين ، لكنهم لا يجدون لنا ورقاً . سيروي لك لوك افضل مني ، فأنا عائد لتوي من الجيش .

ـ لكن الاصدار لم ينخفض !

ـ لا أعتقد .

كان هنري يستعجل العودة ثانية إلى الجريـــدة . لكن بول قد تلفتت إلى المحطة دون شك ، وهي تعلم انه لم يحدث أي تأخير . انها تنتظر ، وعيناهـــا عالقتان بالساعة ، تترصد كل صوت . وعندما تركا نادين في قفص المصعد وسط حقائبها ، قال هنري :

ـ بعد ان فكرت ، فإنني سأمر أولاً على البيت .

فقال فانسان :

ـ لكن الرفاق ينتظرونك .

ـ قل لهم انني سأكون في الجريدة خلال ساعة .

فقال فانسان :

ـ انني تارك لك إذن الرولز . » وأوقف السيارة امام كوخ للكلاب وسأل : « أأخرج الحقائب ؟ » .

ـ أصغرها فقط . شكراً .

وفي أسف دفع هنري الباب الذي اصطدم بسلة مهملات في صوت عالٍ وأخذ كلب البوابة ينبح . وقبل ان يدق هنري ، كانت بول قد فتحت :

ـ انه أنت ! انت ! » وبقيت لحظة ساكنة بين ذراعيه ثم تراجعت : تبدو في صحة جيدة ، وقد اسمر لونك ! ألم تكن متعبة كثيراً هذه العودة ؟ » . كانت تبتسم ولكن كانت هناك عضلة صغيرة تختلج بحركة تشنجية عند زاوية فمها .

ـ مطلقاً . » ووضع الحقيبة على الأريكة : « هذه لك ! » .

ـ ما ألطفك !

ـ افتحيها .

وفتحتها : جوارب حرير ، نعال أيل ، حقيبة متناسبة ، أقمشة ، مناديل ، قفازات . لقد اختار كل حاجة في عناية قلقة . وخاب أمله قليلاً لأنها كانت تنظر دون ان تلمس شيئاً ، دون ان تنحني ، بطريقة منفعلة وحليمة الى حد ما . وكررت : « أنت لطيف جداً » . وأدارت نظرتها بجدة نحوه : « وحقيبتك انت اين هي ؟ » . فقال بصوت منتعش :

ـ في الأسفل ، في السيارة . لأنك ربما تعلمين ان « الأمل » قد حصلت على سيارة : لقد جاء فانسان لآخذي فيها .

فقالت بول :

ـ سأتلفن للبوابة كي تصعد حقيبتك .

فقال هنري :

ـ لا داعي للمشقة . » وتابع بسرعة كبيرة « كيف أمضيت الشهر ؟ ألم يكن الطقس رديئاً جداً ؟ هل خرجت قليلاً ؟

فقالت في لهجة متهربة :

ـ قليلاً .

كان وجهها قد تجمد .

ـ من رأيت ؟ ماذا فعلت ؟ اروي لي .

فقالت :

– اواه ! ليس في ذلك ما يثير الاهتمام . لا تتحدث عني . » وتابعت في حمية، لكن بصوت ساهم : « انت تعرف ان كتابك أصاب نجاحاً كبيراً » .

– لا أعرف شيئاً . أهو يسير حقاً ؟

– اواه ! ان النقاد لم يفهموا منه شيئاً ، بالطبع . لكنهم شموا رائحة الأثر العظيم .

فقال في ابتسامة مغتصبة :

– انني مسرور جداً ، كان بوده ان يطرح أسئلة أخرى ، ولكنه ما كان يحتمل مفردات بول . وغيّر الموضوع: «أرأيت آل دوبروي ؟ كيف أحوالهم؟» .

– لقد رأيت آن . إنها مشغولة جداً .

كانت تجيب بطرف شفتيها ، وكان متلهفاً جداً لمعاودة الاحتكاك بحياته ! وسأل :

– ألم تحتفظي بأعداد « الأمل » ؟

– لم أقرأها .

– صحيح ؟

– لم تكن تكتب فيها ، وكانت عندي أشياء أخرى أفكر بها . » وبحثت عن نظرته وانتعش وجهها : « لقد فكرت كثيراً خلال هذا الشهر ، وفهمت كثيراً من الأشياء . انني آسفة على الفصل الذي فعلته معك قبل رحيلك . انني آسفة جداً » .

فقال :

– اواه ! دعينا من الحديث عن ذلك ! ثم انك لم تفعلي معي أي فصل .

فقالت :

– بلى ! وانني أكرر لك انني آسفة . أترى ، انني أعرف منذ زمن بعيد ان امرأة لا تستطيع ان تكون كل شيء بالنسبة لرجل مثلك . حتى ولا جميع النساء . لكني لم اقبل ذلك حقاً . والآن انني مستعدة لحبك في كرم مطلق ، من

أجلك ، لا من اجلي . ان لك رسالتك ويجب ان تمر قبل كل شيء .

– اية رسالة ؟

فنجحت في ان تبتسم : « لقد أدركت انني كنت أثقل عليك غالباً . انني افهم ان ترغب في ان تستعيد بعض العزلة . لكن تستطيع ان تكون واثقاً . العزلة ، الحرية ، انني أعدك بهما » . ونظرت الى هنري في إلحاح : « انت حر ، يا حبي ، اعلم ذلك جيداً . وعلى كل ، لقد أثبت ذلك ، أليس كذلك ؟ » .

فقال :

– نعم . وأضاف في وهن : « لكني شرحت لك ... » .

فقالت :

– انني أذكر. لكني أؤكد لك انه لم يعد لديك أي سبب للاقامة في الفندق، بعد التبدل الذي طرأ عليّ . إسمع ، انت راغب في الاستقلال ، في المغامرات ، لكنك راغب أيضاً فيّ ؟

– بالتأكيد .

– إذن إبق هنا . لن تندم على ذلك . انني أقسم لك . سترى ان العمل قد تم فيّ وكم سأكون خفيفة عليك من الآن فصاعداً . » ونهضت ومدت يدها إلى الساعة : « ابن اخي البوابة سيصعد لك بحقيبتك » .

ونهض هنري ايضاً وسار نحو الدرج الداخلي . وقال في نفسه : « فيما بعد » . انه لا يستطيع ان يعاود تعذيبها منذ اللحظات الأولى . وقال : « سأزيل عني الوسخ قليلاً . انهم ينتظرونني في الجريدة . لقد جئت فقط لأقبلك » .

فقالت في حنان :

– انني افهم جيداً .

وفكر بدون سرور وهو يجلس في العربة السوداء الصغيرة : « انها ستجتهد في ان تثبت لي انني حر . اواه ! لكن هذا لن يدوم ، فلن أقيم عندها طويلاً » . وعد نفسه بذلك في حقد وقرر : « من الغد سأهتم بتسوية ذلك » . اما الآن فإنه لا يريد ان يفكر بها . فهو مسرور للغاية من وجوده ثانية في باريس ! في الشوارع

كان الجو رمادياً، وكان الناس يشعرون بالبرد والجوع هذا الشتاء ، لكنهم أخيراً يحتذون جميعهم احذية . ثم انه يستطيع ان يحدثهم ، ويتحدث عنهم . أما ما كان متعباً جداً للأعصاب في البرتغال فهو انه كان يشعر انه الشاهد اللامجدي تماماً على تعاسة اجنبية . وعند نزوله من السيارة ، نظر في حنان إلى واجهة البناية . كيف سارت « الأمل » ؟ هل صحيح ان روايته أصابت نجاحاً ؟ وارتقى الدرج في حمية وفجأة تعالى هتاف . كانت لافتة تسد سقف الممر : أهلاً بالمسافر . وكانوا يقفون صفاً واحداً ، قرب الجدران ، رافعين أقلامهم كسيوف ، منشدين مقطعاً غير مفهوم تنتهي قافيته من قبيل الصدفة القذرة بكلمة سالازار . كان لامبير فقط غائباً : لماذا ؟ وصاح لوك :

– الجميع إلى البار ! » ووضع يده في ثقل على كتف هنري : « أ كانت رحلة جيدة ؟ » .

– انت مسمّر بشكل ظريف .

– انظر إلى هذين الحذائين !

– أجئتنا بريبورتاج ؟

– أرأيت القميص !

كانوا يجسون البزة ، وربطة العنق ، ويهتفون ، ويطرحون سؤالاً اثر سؤال بينا كان النادل يملأ الأقداح . وكان هو ايضاً يسأل . لقد انخفض الاصدار قليلاً ، إلا ان الجريدة ستظهر من جديد في حجم كبير ، وهذا سيعيد الأمور إلى حالتها الأولى . ولقد حدثت قصة مع الرقابة ، ولكن لا خطورة في الأمر . وكان جميع الناس يقرظون كتابه ، وما أكثر البريد الذي تلقاه ، وسوف يجد على مكتبه مجموعة « الأمل » كلها ، وقد يمكنهم ان يحصلوا بوساطة بريستون ، الأميركي ، على مزيد من الورق ، وهذا سيسمح بإصدار مجلة يوم الأحد، وهناك أشياء أخرى كثيرة يجب النقاش فيها . كان يشعر بأنه مدوخ قليلاً بسبب تلك الليالي الثلاث من الأرق ، وتلك الضجة ، وتلك الأصوات . وتلك الضحكات ، وتلك المشاكل . مدوخ وسعيد . يا لها من فكرة ان يذهب إلى البرتغال ليسعى

وراء ماضٍ مات ودفن في حين أن الحاضر حي بهذا الشكل الفرح . وقال في انطلاق :

– انني مسرور جداً بعودتي !

فقال لوك :

– لسنا مستائين برؤيتك ثانية . » وأضاف : « بل لقد بدأنا نحتاج إليك . سيكون لديك شغل ، انني انذرك » .

– آمل ذلك جيداً .

كانت الآلات الكاتبة تتكتك . وتفرقوا في الممرات وهم ينزلقون ويضحكون : كم يبدون شباناً عند الخروج من بلاد ، جميع الناس فيها بلا عمر ! ودفع هنري باب مكتبه وجلس على مقعده في غبطة بيروقراطي قديم . وبسط أمامه الأعداد الأخيرة من « الأمل » . التواقيع المعهودة ، اخراج حسن، بدون هدر بوصة واحدة من الورق . وقفز شهراً إلى الوراء وأخذ يقلب الأعداد الواحد تلو الآخر . لقد استغنوا عنه بسهولة ، وهذا ما يثبت نجاحه : ان « الأمل » لم تكن مجرد مغامرة حرب ، بل مشروعاً متيناً حقاً . كانت ممتازة مقالات فانسان عن هولندا ، وأكثر ايضاً مقالات لامبير عن المعسكرات . لا شك انهم عرفوا كيف يجدون اللهجة المطلوبة : لا سخافات ، ولا أكاذيب ، ولا قذارات . لقد كانت « الأمل » تؤثر على المثقفين بنزاهتها وتصطاد الجمهور الواسع لأنها حية للغاية. نقطة واحدة ضعيفة : مقالات سيزوناك كانت رديئة .

– أأستطيع الدخول ؟

كان لامبير يبتسم في خجل عند فرجة الباب .

– بالتأكيد ! أين كنت مختبئاً ؟ كنت تستطيع ان تأتي إلى المحطة ، أيها المهمل القذر .

فقال لامبير في حرج :

– لقد فكرت انه لن يكون هناك مكان لأربعة . » وأضاف في حرد : « وحفلتهم الصغيرة ... » . وقطع كلامه : « لكن ، الآن ، هل أزعجك ؟ » .

ـ مطلقاً . اجلس إذن .

ـ أ كانت جيدة تلك الرحلة ؟ » وهز لامبير كتفيه : « لا بد انهم سألوك ذلك عشرين مرة » .

ـ كانت جيدة ورديئة . ديكور جميل ، وسبعة ملايين من الأموات جوعاً .

فقال لامبير وهو يتفحص هنري في إعجاب :

ـ عندهم أقمشة جميلة . وابتسم : « أهي الموضة ، هناك ، الأحذية البرتغالية ؟

ـ البرتقالية او الليمونية . ولكنها من جلد جميل . للأغنياء ، يوجد كل شيء ، هذا أقذر ما في الأمر . سأقص عليك . ولكن هات لي أولاً أنباء هنا . لقد قرأت مقالاتك : انها جيدة ، لو تعلم .

فقال لامبير بصوت ساخر :

ـ كأنها انشاء في اللغة الفرنسية : صف انطباعاتك خلال زيارة لمعسكر منفيين . اعتقد اننا كنا اكثر من عشرين عالجوا الموضوع . » واضاء وجهه : « أتعرف ما الرائع هنا حقاً : كتابك . كنت متعباً ، وأمضيت نهاراً وليلة دون ان اطبق جفوني عندما بدأته : وقد قرأته دفعة واحدة ، لم أستطع ان أنام قبل إنهائه » .

فقال هنري :

ـ أنت تسرني !

ان التقريظ لمحرج . ولكن لامبير قد سرّه حقاً : فهكذا بالضبط كان حلم بأن يُقرأ : طوال ليلة كاملة ، من قبل شاب عادم الصبر .

وهذا وحده يكفي لتحمل مشقة الكتابة : على الأخص هذا . وقال لامبير :

ـ لقد فكرت بأنك ستتسلى برؤية النقد . » وألقى على الطاولة مغلفاً أصفر كبيراً : « لقد شاركت بمقال ، انا ايضاً » .

فقال هنري :

ـ يقيناً ان هذا ليسليني ، شكراً .

ونظر إليه لامبير في شيء من القلق : « أكتبت هناك ؟ » .

ـ ريبورتاجاً .

– لكنك الآن ستعطينا رواية أخرى ؟

– سأبدأ فيها ما إن يتاح لي الوقت .

فقال لامبير :

– جدْ لك وقتاً . لقد فكرت اثناء غيابك ... » . واحمر : « يجب ان تدافع عن نفسك » .

فقال هنري مبتسماً :

– ضد من ؟

ومن جديد تردد لامبير : « يبدو ان دوبروي ينتظرك في نفاد صبر. لا تترك نفسك تسير في حزبه ... » .

فقال هنري :

– لقد سرت فيه قليلاً او كثيرا .

– حسناً ! اسرع في الخروج منه .

فابتسم هنري : « كلا. لم يعد من الممكن اليوم ان يظل المرء ضد السياسة» .

فغام وجه لامبير : « آه ! إذن انت تلومني ؟ » .

– مطلقاً . أعني انه غير ممكن بالنسبة لي . اننا لسنا في عمر واحد .

فسأل لامبير :

– ما دخل العمر في هذا ؟

– سترى . ستفهم أشياء ، وستتغير . » وابتسم : « أعدك بأن أجد وقتاً للكتابة » .

فقال لامبير :

– يجب ذلك .

– لكن قل إذن ، انت الذي يعظ جيداً جداً ، أين هي تلك القصص التي أعلنت لي عنها ؟ » .

فقال لامبير :

– انها ليست بذات قيمة .

- ائتني بها وسنذهب لتناول العشاء معاً ذات مساء وسأحدثك عنها .

فقال لامبير :

- اتفقنا » . ونهض : « افترض انك لن تقابلها ، ولكن هنـاك الصغيرة ماري - آنج بيزيه التي تصر على إجراء مقابلة معك . انهـا تنتظر من ساعتين . ماذا أقول لها ؟

- انني لا أعطي أبداً مقابلات وان لدي عمل فوق رأسي .

وأغلق لامبير الباب وراءه وافرغ هنري المغلف الأصفر على الطاولة. على ملف منتفخ ، كانت السكرتيرة قد كتبت : « بريد الرواية » . وتردد ثانية من الزمن. لقد كتبت هذه الرواية أثناء الحرب دون ان يفكر بالمصير الذي ينتظرها ، بل لم يكن واثقاً ان مصيراً ما ينتظرها : والآن قد نشر الكتاب ، وقرأه النـاس . وها هو هنري يحكم عليـه ، ويناقش ، ويصنف كما كان غالباً يحكم على الآخرين ويناقش فيهم . وفرق القصصات واخذ يتقرأها. لقد قالت بول : « انتصار » وقد ظن انها تبالغ . ولكن الواقع ان النقاد يستعملون هم ايضاً كلمات كبيرة . مـن الواضح ان لامبير كان محابياً ، وكذلك لاشوم ، وجميع اولئك النقـاد الشباب الذين ولدوا كانوا عازمين على محاباة الكتّاب المقاومين . ولكن الرسائل الحـارة المرسلة من أصدقاء ومن مجهولين كانت تؤكد حكم الصحافة . حقاً ، ان فيهـا ما يستطيع ان يسر به ، دون ان يركبه الغرور : ان تلك الصفحات التي كتبت بانفعال كانت قـد أثارت الانفعال . وتمطى هنري في غبطة . انه لشيء فيه بعض من معجزة ذاك الذي حدث . قبـل سنتين ، كانت ستائر سميكة تخفي النوافذ المدهونة بالأزرق ، وكان مقطوعاً عن المدينة السوداء وعن كل الأرض ، وكان قلمه يتردد فوق الورق : أما اليوم ، فان ذلك الضجيج المبهم في حنجرته قـد أصبح في العـالم صوتاً حياً . وتحولت حركات قلبه السرية إلى حقيقة في قلوب أخرى . وقـال في نفسه : « كان يجب ان أشرح لنادين اذا كان الآخرون لا حساب لهم ، فليس للكتابة من معنى . ولكن اذا كان لهم حساب ، فانه لشيء ضخم ان ينـال بالكلمات صداقتهم ، وثقتهم . انه لشيء ضخم ان يسمع أفكاره

الخاصة به ترن في نفوسهم » . ورفع عينيه : كان الباب يفتح . وقال صوت نائح :
– لقد انتظرت ساعتين . أنت تستطيع بسهولة ان تمنحني ربع ساعة .
وانتصبت ماري – آنج امام مكتبه : « انها مقابلة لـ « الغد » ، مقال كبير على الصفحة الأولى ، مع صورة » .
– إسمعي ، انني لا أعطي مقابلات ابداً .
– بالضبط . ولهذا فان مقابلتي ستساوي ذهباً .
وهز هنري رأسه وتابعت في سخط : « لن تهدم مستقبلي لمسألة مبدأ ؟ » .
وابتسم . ان ربع ساعة مقابلة يعني بالنسبة لها شيئاً كثيراً ، أما هو ، فانه لا يكلفه كثيراً ! بل الحقيقة انه راغب في الحديث عن نفسه . فبين الناس الذين أحبوا كتابه، من يتمنى حقاً ان يعرف المؤلف. انه راغب في تزويدهم بالمعلومات. كي تتوجه مودتهم اليه حقاً . وقال :
– حسناً . ماذا تريدين ان اقول لك ؟
– طيب ! اولاً ، اين نشأت ؟
– كان والدي صيدلياً في « تول » .
فقالت :
– ثم .
وتردد هنري . فليس المناسب ان يبدأ فوراً في الحديث عن نفسه .
وقالت ماري – آنج :
– هيا . قص عليّ ذكرى او اثنتين من طفولتك .
ان لديه ذكريات ، كسائر النـــاس ، لكنها لم تكن تبدو له مهمة مطلقاً : باستثناء ذلك العشاء ، في قاعة الطعام المؤثثة على طراز هنري الثاني ، الذي تخلص أثناءه من الخوف وقال :
– طيب ، إليك واحدة . انهـا ليست شيئاً تقريباً ، لكنها كانت بالنسبة لي بداية الكثير من الأشياء .
ونظرت اليه ماري – آنج مشجعة ، وقد علقت قلمها فوق دفترها ، وتابـع :

– كان أهم موضوع للحديث بين والديّ ، المصائب التي كانت تهدد العالم : الخطر الأحمر ، الخطر الأصفر، البربرية، الانحطاط ، الثورة ، البولشفية . وكنت أرى هذه الأشياء كغيلان فظيعة ستلتهم الانسانية كلها . وفي ذلك المساء ، كان والدي يتنبأ كعادته : الثورة وشيكة الوقوع ، الانسانية تأفل ، وكانت أمي توافق وقد بدا عليها الرعب . وفجأة فكرت : « ولكن على كل حال ، ان الذين سينتصرون ، سيكونون بشراً » . ربما لم تكن هذه الكلمات نفسها التي قلتها ، ولكن كان هذا هو معناها » .

وابتسم هنري : « لقد كان تأثيرها عجائبياً . فلم يعد هناك وجود لغيلان : انني على الارض ، بين مخلوقات بشرية ، بين أبناء جنسي » .

وقالت ماري – آنج :

– ثم ؟

فقال :

– ثم ، منذ ذلك اليوم ، رحت أطارد الغيلان .

فنظرت ماري آنج إلى هنري في حيرة :

– ولكن قصتك ، كيف تنتهي ؟

– أية قصة ؟

فقالت في نفاد صبر :

– تلك التي بدأتها .

فقال هنري :

– ليس لها نهاية أخرى . لقد انتهت .

فقالت ماري – آنج :

– آه ! » وأضافت نائحة : « كنت أريد شيئاً مثيراً » .

فقال هنري :

– آه ! لم يكن في طفولتي شيء مثير . كانت الصيدلية تضجرني وكنت سئماً من العيش في الأقاليم . ولحسن الحظ كان لي عم في باريس أدخلني إلى

« الجمعة » .

وتوقف . انه يرى أمامه أشياء كثيرة يستطيع ان يقولها، عن سنواته الأولى في باريس ، لكنه لا يعرف أيها يختار . وقالت ماري – آنج :

– « الجمعة » ، كانت جريدة يسارية . أكانت لك منذ ذلك الوقت أفكار يسارية ؟

– كنت على الأخص أشمئز من الأفكار اليمينية كلها .

– لمَ ذلك ؟

وفكر هنري : « كنت طموحاً عندما كنت في العشرين . ولهذا بالضبط كنت ديموقراطياً . كنت أريد ان أكون الأول : ولكن الأول بين متساوين . ولو كان السباق مغشوشاً مسبقاً ، لفقد الرهان كل قيمة » .

وكتبت ماري – آنج على دفترها . لم تكن تبدو ذكية . وبحث هنري عن كلمات سهلة : « بين قرد وآخر البشر ، يوجد فرق أكبر بكثير مما بين هذا الأخير وانشتاين ! ان وعياً يشهد على ذاته ، لهو مطلق » . وكان يهم بفتح فمه لكن ماري – آنج سبقته :

– حدثني عن بداياتك .

– أية بدايات ؟

– بداياتك في الأدب .

– كنت أكتب دوماً سواء قليلاً او كثيراً .

– كنت في أي عمر عندما ظهرت « حادث سوء » ؟

– في الخامسة والعشرين .

– أهو دوبروي الذي فتح أمامك طريق الشهرة ؟

– لقد ساعدني كثيراً .

– كيف تعرفت اليه ؟

– لقد أرسلوني لأجري معه مقابلة : فجعلني أتكلم بدلاً منه . وقال لي ان اعود لرؤيته وعدت ...

فقالت ماري – آنج بصوت يشكو :
– اعطِ تفاصيل . انت لا تحسن القص . » ونظرت اليه في عينيه :
– عمَ تتحدثان عندما تكونان معاً ؟
فهز كتفيه : « عن كل شيء ولا شيء ، كسائر الناس » .
– وقد شجعك على الكتابة ؟
– نعم . وعندما أنهيت « حادث سوء » ، أعطاها لموفان ليقرأها فأخذها فوراً ...
– هل أصبت نجاحاً ضخماً ؟
– نجاح تقدير لا بأس به . أتعرفين ، غريب ...
فقالت في انطلاق :
– نعم . اروِ لي أشياء غريبة !
فتردد هنري :
– غريب عندما يبدأ الانسان بتصور أحلام مجد كبيرة : ثم عند اقل نجاح ، يأخذه سرور تام ...
وتنهدت ماري – آنج :
– عناوين كتبك الأخرى وتواريخها عندي . هل جُندّت ؟
– في المشاة ، في المرتبة الثانية . لم اشأ ابداً ان أكون ضابطاً . جرحت في ٩ أيار في مون ديو ، قرب فوزيه ، وسُرّحت في مونتيلياو وعدت إلى باريس في ايلول .
– ماذا فعلت على الضبط في المقاومة ؟
– لقد أسسنا ، انا ولوك ، « الأمل » في عام ١٩٤١ .
– ولكن كان لك نشاط آخر ؟
– لا أهمية له . دعيك منه .
– ليكن . كتابك الأخير ، متى كتبته على الضبط ؟
– بين ١٩٤١ و ١٩٤٣ .

ـ هل بدأت شيئاً آخر ؟
ـ كلا . ولكني سأفعل ذلك .
ـ ماذا ؟ رواية ؟
ـ رواية . ولكنها لا تزال مبهمة جداً
ـ سمعتهم يتحدثون عن مجلة .
ـ نعم. سأهتم مع دوبروي بمجلة شهرية ستظهر عند موفان وستدعى «الطواري».
ـ ما ذاك الحزب السياسي الذي يعمل دوبروي على تأسيسه ؟
ـ سيستغرق وقتاً طويلاً شرح هذا .
ـ ولكن أخبرني بالمزيد .
ـ اذهبي للسؤال عن هذا من دوبروي .
ـ لا يمكن الاقتراب منه . » وتنهدت ماري ـ آنج : « انتم غريبون . لو كنت مشهورة هنا ، لأعطيت مقابلات في كل لحظة » .
ـ عند ذاك لن يبقى لديك وقت لفعل أي شيء ولن تصبحي مشهورة مطلقاً. والآن ستكونين لطيفة وتتركيني أعمل .
ـ ولكن لا تزال عندي كمية من الأسئلة: أية انطباعات عدت بها من البرتغال؟
فهز كتفيه : « انها مقرفة » .
ـ لماذا ؟
ـ بسبب كل شيء .
ـ اشرح قليلاً ، لا أستطيع ان اقول فقط لقرائي : انها مقرفة . فقال هنري بصوت سريع :
ـ حسناً ! قولي لهم ان ابوة سالازار ديكتاتورية دنيئة ، وان على الأميركان ان يسرعوا في التخلص منه . ولسوء الحظ لن يتم هذا غداً : فسوف يبيعهم قاعدة جوية في « آسور » .
فطبقت ماري ـ آنج حاجبيها وأضاف هنري : « اذا كان هذا يجرحك ، فلا تتحدثي عنه . سوف أفعل ذلك في « الأمل » .

فقالت ماري ـ آنج :

ـ بلى ، سأتحدث عن ذلـك ! » ونظرت الى هنري نظرة عميقة : اية اسباب داخلية دفعتك الى القيام بهذه الرحلة ؟ » .

ـ إسمعي ، انت لست مجبرة للنجاح في المهنة ان تطرحي أسئلة بلهاء . وأكرر عليك ان هذا يكفي : اذهبي الآن في لطف .

ـ كنت أود مفارقات .

ـ ليس عندي شيء منها .

وابتعدت ماري ـ آنج في خطى صغيرة . وشعر هنري ببعض الخيبة : انها لم تطرح الأسئلة التي كان يجب ان تطرح ، ولم يقل شيئاً مما كان يريد قوله . وبعد كل شيء ، ماذا كان لديه ليقوله بالضبط ؟ « وددت لو يعرف قرائي مـن انا ، ولكني لست محدداً انا نفسي » . أخيراً ، انه سيبدأ كتـــابه خلال بضعة أيام ، وسيحاول ان يحدد نفسه منهجياً .

وعاد إلى فتح بريده . كم من برقيات وقصاصات صحف عليـه ان يفحصها ، وكم من رسائل عليه ان يكتبها، وكم من أناس عليه ان يقابلهم ! لقد حذره لوك: ان لديه عملاً. وأمضى الأيام التاليـة ملازماً مكتبه‌وهو لا يكاد يجد الوقت لتحرير ريبورتاجه الذي كان عمال المطبعة يأتون لانتزاعه منه ورقة ورقه . ولقد كان مسروراً ، بعد إجازته الطويلة جداً ، من هذا الانهماك في النشاط . وتعرف دونما حماسة صوت سكرياسين على التلفون .

ـ قل إذن ، أيها المتهرب ، ها قد مضت أربعة ايام على عودتك ونحن لم نرك بعد . تعال فوراً إلى « العزبة » ، شارع بلزاك .

ـ آسف ، فلدي عمل .

ـ لا تأسف على شيء ، تعال : إننا ننتظرك لشرب شمبانيا الصداقة .

فقال هنري في مرح :

ـ من ينتظرني ؟

فقال صوت دوبروي :

ـ أنا ، بالاضافة الى الآخرين . وآن ، وجوليان . لدي خمسون شيئاً أريد ان اقولها لــك . ما الذي تصنعه إذن ؟ ألا تستطيع ان تخرج من جحرك ساعة او ساعتين ؟

فقال هنري :

ـ كنت عازماً على المجيء إليك غداً .

ـ مرّ إذن على « العزبة » فوراً .

ـ حسناً ، إنني قادم .

ووضع هنري السماعة ، وابتسم . انـه لراغب حقاً في رؤية دوبروي . ورفع السماعة ونادى بول :

ـ هـذا أنا . ان آل دوبروي وسكرياسين ينتظروننا في « العزبة » . نعم . لست أعرف اكثر منك . سأمر لآخذك في السيارة .

وبعد نصف ساعة ، كان يهبط مع بول درجاً يصطف على جانبيه قوزاق في البسة زاهية . كانت ترتدي ثوباً طويلاً ، جديداً ، ولكنه بعد ان تفحصها ، وجد ان الأخضر لا يلائمها . وتمتمت :

ـ ما أغربه من مكان .

ـ مع سكرياسين ، يجب ان نتوقع كل شيء .

في الخارج ، كان الليل مقفراً جداً ، أبكم جداً بحيث ان ترف « العزبة » كان يبدو مقلقاً : كأنها غرفـة داعرة ملاصقة لغرفة تعذيب ، كانت الجدران المبطنة مدهونة بالدم ، وكان الدم يخضب ثنـايا الطنافس وكانت قمصان الموسيقيين الغجر حمراء اللون . وقالت آن :

ـ آه ! ها أنتما ! هل افلتما منهم ؟

قال جوليان :

ـ يبدو انهما سالمان صحيحان .

وقال دوبروي :

ـ لقد هوجمنا من قبل صحفيين .

وقالت آن :

– صحفيين مسلحين بآلات تصوير .

وقال جوليان بصوت متحمس لجلاج :

– لقد كان دوبروي رائعاً . لقد قال ... لم أعد اعرف ما قال، لكنها كانت ضربة بارعة . بل انه همّ بالانقضاض عليهم ...

كانوا يتكلمون جميعاً معاً ، باستثناء سكرياسين الذي كان يتسم في شيء من التفوق . وقالت آن :

– لقد ظننت حقاً ان دوبروي سيصطدم معهم .

وقال جوليان وكأن الإلهام جاءه :

– لقد قال : إننا لسنا قروداً عالمة .

وقال دوبروي في عزة :

– لقد اعتبرت دوماً وجهي ملكيتي الخاصة .

وقالت آن :

– المشكلة ان العري ، بالنسبة لأناس أمثالك ، يبدأ من الوجه . أظهر انفك وعينيك ، فتكون قد أصبت برض العرض .

فقال دوبروي :

– إنهم لا يتصورون المصابين برض العرض .

فقال جوليان :

– هذا خطأ .

فقال هنري وهو يناول بول كأس فودكا :

– اشربي ، اشربي ، لقد تأخرنا كثيراً . » وأفرغ كأسه وسأله : « لكن كيف عرفوا انكم هنا ؟ » .

فقالوا وهم يتبادلون النظر في دهشة :

– هذا صحيح . كيف ؟

فقال سكرياسين :

– افترض ان رئيس الخدم قد تلفن .

فقالت آن :

– لكنه لا يعرفنا .

فقال سكرياسين :

– انه يعرفني . وعض على شفتـه السفلى في خجل امرأة أمسكت في جرم : « كنت أريد ان يعاملكم حسب مقامكم ، فقلت له من أنتم » .

فقال هنري :

– حسناً تبدو لي قد نجحت في ضربة صائبة .

كان غرور سكرياسين الصبيـــاني يدهشه دوماً . وانفجر دوبروي ضاحكاً : « لقد فضحنا بنفسه ! ما كنا لنكتشف هذا ! » . واستدار في حدة نحو هنري : « إذن تلك الرحلة ؟ كأني بك ، بدل الاجازة ، قد أمضيت وقتك في المحاضرات والتحقيقات ؟ » .

فقال هنري :

– اواه ! لقد تنزهت على كل حال .

– ان ريبورتاجك يبعث الرغبة بالأحرى في الذهاب للتنزه في مكان آخر : يا لها من بلاد حزينة !

فقال هنري في مرح :

– كانت رحلة حزينة، لكنها جميلة. انهاحزينة على الأخص بالنسبة للبرتغاليين.

فقال دوبروي :

– لست ادري اذا كنت قد فعلت ذلك عمداً : لكن عندما تقول ان البحر أزرق ، فإن الأزرق يصبح لوناً كئيباً .

– لقد كان هكذا أحياناً ، ليس دوماً . » وابتسم هنري : « أنت تعرف كيف يكون الانسان عندما يكتب » .

فقال جوليان :

– نعم . لا بد من الكذب كي لا يكون الانسان صادقاً .

فقال هنري :

– على كل حال ، إنني مسرور بالعودة .

– لكنك لا تستعجل رؤية اصدقائك ؟

فقال هنري :

– بلى ، كنت أستعجل كثيراً . في كل صبـــاح كنت اقول في نفسي إنني سأمر عليكم ، ثم فجأة تكون الساعة قد تجاوزت منتصف الليل .

فقال دوبروي في صوت مؤنب :

– نعم . حسناً ! تدبر أمرك غداً لتراقب ساعتك بشكل أفضل . يجب ان أطلعك على كمية من الأشياء . » وابتسم : « أعتقد اننـا في طريقنا إلى الانطلاق انطلاقة طيبة » .

فسأله هنري :

– ابدأتم تسجلون ؟ هل قرر سامازيل ؟

فقال دوبروي :

– إنه غير موافق على كل شيء ، لكننا سنتوصل إلى تسوية .

فقال سكرياسين :

– لا أحاديث جديدة هـذه الليلة ؟ » وأشار الى رئيس الخدم الذي كان يضع مونوكلاً متعجرفاً : « زجاجتا نبيذ مز » .

فقال هنري :

– هل هذا ضروري حتماً ؟

– نعم ، إنها الأوامر . » كان سكرياسين يتبع بنظاريه رئيس الخدم : « لقد نحف كثيراً منذ ١٩٣٩ . انه كولونيل سابق » .

فقال هنري :

– هل انت معتاد على هذا الماخور ؟

– في كل مرة أرغب فيها في تحطيم قلبي ، آتي لأسمع هذه الموسيقى .

فقال جوليان :

– هناك وسائل كثيرة اقل كلفة ! » واستنتج بلهجة غامضة: « على كل ، ان جميع القلوب ممزقة منذ زمن بعيد » .

فقال هنري :

– ان قلبي لا يتحطم إلا بالجاز . أما غجرك فهم بالأحرى يكسرون قدمي .

فقالت آن :

– اواه !

وقال سكرياسين :

– الجاز ! لقد كتبت صفحات حاسمة عن الجاز في « أبناء هابيل » .

فقالت بصوت مرتفع :

– هل تعتقد ان بالإمكان كتابة شيء حاسم ؟

فقال سكرياسين :

– لا أناقش، ستقرئين . ان الطبعة الفرنسية ستصدر وشيكاً . » وهز كتفيه: « خمسة آلاف نسخة، هذه مهزلة! يجب ان تكون هناك تدابير استثنائية للكتب القيمة . كم طبعت ؟

فقال هنري :

– خمسة آلاف .

– حماقة . لأنك اخيراً كتبت كتاب الاحتلال. ان مثل هذا الكتاب يجب ان يطبع منه مئة ألف .

فقال هنري :

– اذهب لتعرض رأيك على وزير الاستعلامات .

لقد أغاظته حماسة سكرياسين المتعجرفة : فهو يتجنب الحديث عن كتبه بين أصدقائه : هذا يحرج كل انسان ولا يسلي احداً .

وقال دوبروي :

– سنصدر مجلة في الشهر القادم . وللحصول على الورق ، اقسم لكم انها كانت مشكلة !

فقال سكرياسين :

– هذا لأن الوزير لا يعرف مهنته . إنني استطيع ان أجد له ، انا ، ورقاً .

عندما كان سكرياسين يتناول بصوته التعليمي مشكلة فنية ، كان معينه لا ينضب . وبينما كان يغرق فرنسا على هواه بالورق ، قالت آن بصوت خافت : « أتعرف ، اعتقد ما من كتاب منذ عشرين سنة قد اثر في كروايتك . انها كتاب ... مما يود الانسان بالضبط ان يقرأه بعد هذه السنوات الأربع . لقد اثار انفعالي كثيراً بحيث انني اضطررت إلى اطباقه عدة مرات والذهاب للتنزه عبر الشوارع لأهدئ نفسي » . واحمرت فجأة : « اشعر انني سخيفة عندما أقول هذه الأشياء ، ولكن من السخافة ايضاً ألا تقال . فهذا لا يمكن ان يؤلم » .

فقال هنري :

– انه يسر .

فقالت آن :

– لقد لمست قلب الكثير من الناس . » وأضافت في نوع من الحماسة :«جميع أولئك الذين لا يرغبون في النسيان ». وابتسم لها في ود . كانت ترتدي هذا المساء ثوباً مخططاً زاهياً يعيد إليها شبابها ، وكانت حسنة التبرج . وعلى نحو ما كانت تبدو أصغر سناً بكثير من نادين . فما كانت نادين لتحمر ابداً .

وفرض سكرياسين صوته :

– تلك المجلة يمكن ان تكون اداة ثقافة وعمل هامة تماماً ، لكن بشرط ألا تعبر فقط عن ميول كنيسة صغيرة . انني اقدر ان رجلاً مثل لويس فولانج يجب ان يكون احد محرريها .

فقال دوبروي :

– لا مجال لهذا .

فقال سكرياسين :

– ان خور مثقف ، ليس بالشيء الخطير جداً . من هو المثقف الذي لم يخطئ ابداً ؟ » وأضاف بصوت قاتم : « هل يجب ان يتحمل الانسان طوال حياته ثقل

اخطائه ? » .

فقال دوبروي :

– ان تكون عضواً في الحزب في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٣٠ ، فهـــذه لم تكن خطيئة .

– إذا لم يكن لنا الحق في ان نخطيء فهذا كان جريمة .

فقال دوبروي :

– انها ليست مسألة حق .

فقال سكرياسين ، دون ان يسمعه :

– كيف تجرؤون على تنصيب أنفسكم قضاة ? هل تعرفون أسباب فولانج ، اعذاره ? هل انتم واثقون ان جميع الناس الذين تقبلونهم في جهازكم يفضلونه قيمة?

فقال هنري :

– اننا لا نحكم . اننا نأخذ موقفاً ، هذا يختلف كثيراً .

لقد كان فولانج اخرق بما فيه الكفاية كي لا يورط نفسه جدياً . لكن هنري كان قد اقسم بألا يصافح يده بعد الآن . وعلى كل حال ، انه لم يفاجأ عندما قرأ المقالات التي كان لويس يكتبها من المنطقة الحرة : فمنذ ان تركا التجهيز ، كانت صداقتهما قد تحولت إلى عداوة شبه مكشوفة .

وهز سكرياسين كتفيه في حركة من زالت الغشاوة مـــن عينيه وأشار إلى رئيس الخدم : « زجاجة اخرى ! » . ومن جديد راح يتفحص المهاجر المسن : « الا يؤسيكم ، هذا الراس ? الجيوب تحت العينين ، وثنية الفم ، وجميع عوارض الانحطاط . قبل الحرب ، كان هذا الوجه لا يزال صلفاً. لكن حقـــارة طبقتهم ودناءتها تتآكلهم وخيانتهم » .

كان يحدق إلى الرجل بنظرة معجبة ، وفكر هنري : « انه رقيقه » . هـــو ايضاً كان قد هرب من بلاده حيث كانوا يدعونه خائناً . وهذا بلا شك ما يفسر غروره : فليس له من وطن او شاهد سوى نفسه . ولهذا فلا بد له ان يتأكد ان اسمه يعني شيئاً في مكان ما من العالم .

وهتفت بول :

– آن ! يا للهول !

كانت آن تفرغ كأسي الفودكا في كأس الشمبانيا . وفسرت :

– انها تنعش الشمبانيا . جربي إذن ، انها لذيذة جداً .

فهزت بول رأسها . وقالت آن :

– لمَ لا تشربين « أن مرحنا يزداد عندما نشرب .

فقالت بول :

– الشرب يسكرني .

فأخذ جوليان يضحك : « انت تذكرينني بتلك الفتاة – فتاة لطيفة قابلتها امام باب فندق صغير ، شارع مونبارناس – التي كانت تقول لي : « اواه ! انا ، ان العيش يقتلني ... » .

فقالت آن :

– انها لم تقل هذا .

– كانت تستطيع ان تقوله .

فقالت آن بصوت متصنع السكر :

– على كل حال ، كانت على حق . فالعيش يعني الموت قليلاً ...

فقال سكرياسين :

– اصمتوا ، بحق الإله ! إذا كنتم لا تصغون ، فدعوني على الأقل استمع !

كانت الاوركسترا قد بدأت في حماسة « العيون السود » . وقالت آن :

– لندعه يحطم قلبه .

فتمتم جوليان :

– على حطام قلب محطم ...

– آن لكم ان تصمتوا !

وصمتوا . كان سكرياسين ، وعيناه عالقتان بأصابع عازفي الكمان الراقصة ، يصغي في ذهول إلى ذكرى ما قديمة ، كان يظن ان من الرجولة ان يفرض

نزواته . لكنهم كانوا يخضعون له كما يخضع الانسان لامرأة عصبية . كان يجب ان تبدو له هذه الوداعة مشبوهة : ولعلها كانت تبدو كذلك ... وابتسم هنري وهو ينظر إلى دوبروي الذي كان ينقر على الطاولة . كانت مجاملته لامتناهية إذا لم تمتحن مدة اطول مما ينبغي : فسرعان ما يتبين المرء ان لها حدوداً . كان هنري يود كثيراً لو يتحادث معه في هدوء ، لكنه لم يكن فاقداً للصبر . لم يكن يحب الشمبانيا ، ولا الموسيقى الغجرية ، ولا هذا الترف المقلد : لكن هذا لا يمنع ان تكون حفلة جلوسه في الساعة الثانية صباحاً في مكان عام . وقال في نفسه : « اننا من جديد في وطننا » . آن ، بول ، جوليان ، سكرياسين ، دوبروي : «اصدقائي» وطقطقت الكلمة في قلبه في غبطة شجرة ميلاد .

بينما كان سكرياسين يصفق في حمية ، جر جوليان بول إلى ساحة الرقص والتفت دوبروي إلى هنري :

– جميع اولئك الأشخاص الذين رأيتهم هناك ، يأملون في ثورة ؟

– انهم يأملون . لسوء الحظ ان سالازار لن يسقط قبل ان يطاح بفرانكو والأميركان لا يبدون مستعجلين .

فهز سكرياسين كتفيه :

– انني افهم الا يرغبوا في انشاء قواعد شيوعية على البحر المتوسط .

فقال هنري بصوت غير مصدق :

– أخوفاً من الشيوعية ، تذهب إلى حد دعم فرانكو ؟

فقال سكرياسين :

– أخشى ألا تكون فاهماً للموقف .

فقال دوبروي في مرح :

– اطمئن ، اننا نفهمه جيداً جداً .

وفتح سكرياسين فاه لكن دوبروي أوقفه ضاحكاً : « نعم ، انت ترى جيداً : لكنك لست على كل حال نوسترادامس . فأنت لا تعرف شيئاً أكثر منا عما سيحدث بعد خمسين عاماً . اما ما هو أكيد ، في هذه اللحظة ، فهو ان

الخطر الستاليني اختراع اميركي » .

فنظر سكرياسين إلى دوبروي في شك : « انت تتحدث تماماً كشيوعي » .

فقال دوبروي :

– آه عفواً ! ان شيوعياً لن يقول بصوت عالٍ مـــا قلته انا . فعندما تهاجم اميركا ، يتهمونك بأنك تلعب لعبة الطابور الخامس .

فقال سكرياسين :

– سيتغير الشعار قريباً . انت تسبقهم ببضعة اسابيع ، هـذا كل شيء . »

وقطب حاجبيه : « يسألونني غالباً عن النقاط التي تفترق بهـــا عن الشيوعيين . واعترف انني أجد مشقة في الاجابة » .

فأخذ دوبروي يضحك : « لا تجب » .

فقال هنري :

– قل إذن ! كنت أظن انها ممنوعة ، الأحاديث الجدية .

وبهزة مغتاظة من كتفيه ، أشار سكرياسين إلى ان الحفة لم يكن لها مكان ، وسأل وهو يحدج دوبروي بنظرة متهمة : « أهو تهرب » .

فقال دوبروي :

– كلا . انني لست شيوعياً ، انت تعرف هذا جيداً .

– انني لا اعرفه جيداً . » وتغير وجه سكرياسين ، وابتسم بابتسامته الأكثر سحراً : « حقاً ، أحب لو اعرف وجهة نظرك . »

فقال دوبروي :

– اعتقد ان الشيوعيين في هذا الوقت يواجهون صعوبات في الداخـل . انني اعرف جيداً لماذا يؤيدون يالطا ، انهم يريدون ان يتركوا للاتحـــاد السوفياتي فرصة للنهوض ثانية : لكن النتيجة هي ان العالم سينقسم من جديد إلى معسكرين ستكون لهما كل الأسباب ليتحاربا .

فسأل سكرياسين في قسوة :

– اهذا كل ما تأخذه عليهم ؟ غلطة حساب ؟

– انني آخذ عليهم انهم لا يرون ابعد من أنوفهم . » وهز دوبروي كتفيه : « ان اعادة البناء شيء جميل جداً : لكن ليس بأية وسيلة مهما كانت، انهم يقبلون المعونة الأميركية ، وذات يوم سيعضون على أصابعهم : فرويداً رويداً ستقع فرنسا تحت سيطرة اميركا » .

وافرغ سكرياسين كأس شمبانياه ووضعها على الطاولة في ضجة : « هي ذي نبوة متفائلة جداً ! » . وتابع بصوت جدي : « انني لا احب اميركا. ولا اؤمن بالحضارة الاطلسية . لكني أتمنى الهيمنة الأميركية لأن المسألة المطروحة اليوم هي مسألة الوفرة : وأميركا وحدها يمكن ان تقدمها لنا » .

فقال دوبروي :

– الوفرة ؟ لمن ؟ بأي ثمن ؟ » وأضاف بصوت ساخط : انــه سيكون يوماً جميلاً اليوم الذي نستعمر فيه من قبل اميركا ! » .

فقال سكرياسين :

– اتفضل ان يبتلعنا الاتحــاد السوفياتي ? وأوقف دوبروي بحركة : « إنني اعرف : أنت تحلم بأوروبا موحدة، مستقلة ، اشتراكية . لكنها اذا رفضت حماية الولايات المتحدة ، فستسقط حتماً بين يدى ستالين » .

فهز دوبروي كتفيه : « الاتحاد السوفياتي لا يريد ان يبتلع شيئاً مطلقاً » .

فقال سكرياسين :

– على كل حال ، ان اوروبا تلك لن تتحقق .

فقال دوبروي :

– انت الذي يقول هـــذا ! » وتابع في حمية : « على كل حال ، هنا ، في فرنسا ، لنا هدف محدد تماماً : ان نحقق حكومة جبهة شعبية حقيقية. ولهذا لا بد من يسار غير شيوعي يعرف كيف يتحمل الصدمة » . والتفت نحو هنري : « يجب الا نضيع المزيد من الوقت. ان الناس في هذه الفترة يشعرون ان المستقبل مفتوح : فلا ننتظر ان تثبط عزيمتهم » .

وجرع سكرياسين قدح فودكا وغاص في تأمل رئيس الخدم . لقد تخلى عن

مخاطبة مجانين بالعقل . وقال هنري :
– كنت تقول ان البداية كانت طيبة ؟
– لقد بدأنا . ولكن الآن يجب ان نتابع . أريد ان تقابل سامازيل في أقرب وقت ممكن . ويوم السبت سيعقد اجتماع للجنة ، إنني أعتمد عليك .
فقال هنري :
– دعني أفكر . » ونظر الى دوبروي في شيء من القلق . لن يكون من السهل ان يدافع عن نفسه ضد هذه الابتسامة الطيبة المتطلبة . وقال دوبروي في شيء من التأنيب :
– لقد اخرتُ المناقشة كي تستطيع ان تحضرها .
فقال هنري :
– كان يجب ألا نفعل . إنني أؤكد لك انك تبالغ في كفاءتي .
فقال دوبروي :
– وانت في عدم كفاءتك ! » ونظر إلى هنري في قسوة : « لقد درست الموقف بكامله خلال هذه الأيام الأربعة ، ولقد تطور بشكل قذر ! لا بد انك أدركت ان الحياد مستحيل » .
فقال هنري :
– لكني أبداً لم أكن محايداً ! لقد رضيت دوماً بالسير مع « الاشتراكي الثوري الحر » .
لنتحدث عن ذلك : إسمك وبضعة أفعال حضور . هذا كل ما وعدتني به .
فقال هنري في حدة :
– لا تنسَ ان بين يدي جريدة .
– بالضبط . إنما بجريدتك على الأخص كنت أفكر : انها لا تستطيع ان تبقى محايدة بعد الآن .
فقال هنري في دهشة :
– لكنها ليست محايدة !

– ما الذي يلزمك !» وهز دوبروي كتفيه : «ان تكون الى جانب المقاومة، هذا لا يشكل برنامجاً » .

فقال هنري :

– ليس لي برنامج . ولكن في كل مرة يكون هناك داعٍ ، فإن « الأمل » تأخذ موقفاً .

– كلا إنها لا تأخذ موقفاً . وليس أكثر من الصحف الأخرى على كل حال . أنتم تتنازعون على السفاسف ، ولكنكم متفاهمون جميعا على إغراق السمكة . »
كان ثمة غضب في صوت دوبروي : « من « الفيغارو » إلى « الاومانيته [1] » ، أنتم جميعاً مزيفون . إنكم تقولون نعم لديغول ، نعم لياالطا ، لكل شيء . وانتم تتظاهرون بالإيمان بأنه لا تزال هناك مقاومة وإننا نسير نحو الاشتراكية : ثمة واحد قد فك الحصار في قوة في افتتاحياته الأخيرة هو صديقك لوك . والحقيقة هي اننا نراوح في مكاننا ، بل لقد بدأنا السير القهقرى : وليس بينكم من يجرؤ على فضح الكذبة !

فقال هنري :

– كنت أظن انك متفق مع « الأمل » . كان قلبه قد أخذ ينبض في سرعة أكبر ، وكان يشعر انه مصدوم . لقد تلاءم طوال تلك الأيام الأربع مع هذه الجريدة كما يتلاءم الانسان مع حياته الخاصة . وها هي « الأمل » توضع موضع اتهام فجأة ، ومن قبل دوبروي !

وقال دوبروي :

– متفق على أي شيء ؟ ليس لـ « الأمل » خط . أنتم تتباكون كل يوم على ان التأمينات لم تتم . ثم ؟ ان المهم ان تقولوا من يعرقلها ، ولماذا .

فقال هنري :

– لا أريد ان أضع نفسي في مركز طبقي . ان الاصلاحات ستتم عندما

---

[1] ـ الفيغارو من اهم الصحف اليمينية : و « الاومانيتيه » اي « الانسانية » هي جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي . « المترجم » .

يطلبها الرأي العام : وانا أحاول ان احث الراي العام . ولهذا يجب ألا اصدم نصف القراء ...

فسأل دوبروي في شك :

– انت لا تتصور ان صراع الطبقات قد انتهى ؟

– كلا .

فقال دوبروي :

– إذن لا تحدثني عن الرأي العام . هناك من جهة البروليتاريا التي تريد الاصلاحات، ومن الجهة الثانية البورجوازية التي لا تريدها. والبورجوازيةالصغيرة تتأرجح لأنها لم تعد تعرف جيداً اين هي مصلحتها . ولكن لا تأمل في التأثير عليها : ان الموقف هو الذي سيقرر .

وتردد هنري . ان صراع الطبقات لم ينته : فهل هذا يدين كل نداء إلى إرادة الناس الطيبة ، إلى حسهم الشريف ؟ وقال :

– ان مصالحها معقدة . وانا لست واثقاً مطلقاً من أنه يمكننا التأثير عليها .

وبدرت عن دوبروي حركة ، لكن هنري أوقفه وقال في حدة :

– ثمة شيء آخر . إن العمال يقرأون « الأمل » ، يقرأونها لأنها تغير عندهم جو « الاومانيته » ، وتأتيهم بالهواء . فاذا ما وضعت نفسي على صعيد الصحف الشيوعية ذاته ، فإما ان أردد الأشياء نفسها التي يرددونها ، وإما ان اتخذ موقفاً ضدهم : وعندئذ يتخلى العمال عني ». وأضاف بصوت مصالح : « إنني ألمس جمهوراً اوسع من الذي تجمعونه . فأنا مضطر لأن تكون لي أرضية اوسع بكثير » .

فقال دوبروي :

– نعم ، انت تلمس جمهوراً اوسع . ولكنك قلت بنفسك لماذا ! اذا كانت صحيفتك تعجب جميع الناس ، فهذا لأنها لا تزعج احداً . لا تهاجم شيئاً ، ولا تدافع عن شيء ، وتتجنب كل المشاكل الحقيقية . إنها تقرأ في رضى : لكن كما تقرأ مجلة محلية » .

وساد صمت . كانت بول قد عادت للجلوس قرب آن : كانت تبدو غاضبة وآن

محرجة كثيراً. وقد اختفى جوليان. اما سكرياسين فكان قد انتزع من تأملاته، وراح ينظر مرة إلى هنري ومرة إلى دوبروي وكأنه يحكم على الضربات. لكن لم تكن هناك جولة، فان هنري كان قد تزعزع لعنف الهجوم. وقال :

– إلى أين تريد الوصول ؟

فقال دوبروي :

– اغطس في القضية بأجمعك، وخذ موقفك من الحزب الشيوعي .

وتفرس هنري في وجه دوبروي في شك . كان يحدث له غالباً ان يزج نفسه بحمية في قضايا الآخرين، ولكنه غالباً ايضاً ما كان يجعل منها قضيته الخاصة في الحقيقة : « باختصار، انه برنامج « الاشتراكي الثوري الحر » الذي تقترحه علي؟ »

فقال دوبروي :

– نعم .

– لكنك لا تريد على كل حال ان تصبح « الأمل » جريدة الحركة ؟

فقال دوبروي :

– سيكون هذا طبيعياً . ان ضعف « الأمل » متأتٍ من انها لا تمثل شيئاً . ومن جهة اخرى، فان الحركة دون صحيفة، ليست لها اي حظ تقريباً في النجاح. ولما كانت اهدافنا واحدة ..

فقال هنري :

– اهدافنا، وليس طرقنا . » وفكر في اسف : « لهذا إذن كان دوبروي متلهفاً على رؤيتي ! » . كان كل مرحه قد اختفى . وقال في نفسه : « ألا يمكن ان نمضي سهرة بين اصدقاء دون ان نتكلم في السياسة ؟ » . لم تكن هذه المحادثة بعاجلة جداً . ولقد كان بإمكان دوبروي ان يرجئها يوماً او يومين : لكنه قد اصبح لا يقل هوساً عن سكرياسين .

وقال دوبروي :

– بالتحديد، انت ستستفيد من تغيير طريقك .

فهز هنري رأسه : « سأريك رسائل أتلقاها . رسائل من مثقفين على الأخص:

معلمين ، وطلاب . ان ما يعجبهم في « الامل » ، هو حسن نيتها . فإذا ما اعلنت برنامجاً ، فقدت ثقتهم » .

فقال دوبروي :

ـ بالتأكيد . ان المثقفين يغتبطون عندما يشجعون على ألا يكونوا لا لحماً ولا سمكاً . وثقتهم ... كما يقول الآخر : ما العمل بها ؟

فقال هنري :

ـ اعطني سنتين او ثلاثاً ، وسآتيك بهم من يدهم إلى « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال دوبروي :

ـ أتعتقد هذا ؟ حسناً ! انت مثالي لعين !

فقال هنري في شيء من الغضب :

ـ ممكن . في عام ١٩٤١ ايضاً وصفوني بأني مثالي . واضاف بصوت حازم: « ان لدي افكاري عما يجب ان تكون عليه جريدة » .

وبدرت عن دوبري حركة تهربية : « سوف نعاود الحديث عن هذا . لكن صدقني : خلال ستة اشهر ستنتهج « الأمل » سياستنا ، والا فلن تكون إلا ورقة ملفوف » .

فقال هنري :

ـ ليكن ، سنعاود الحديث عن هذا بعد ستة اشهر .

كان قد شعر فجأة انه متعب لا حيلة له . لقد فاجأه اقتراح دوبروي . لكنه كان عازماً كل العزم على ألا يترك لذلك تأثيراً عليه . إلا انه كان بحاجة إلى الإنفراد بنفسه ليستعيد قواه . وقال : « يجب ان اعود » .

والتزمت بول الصمت طوال الطريق ، لكن ما ان اصبحا في البيت ، حتى هاجمت :

ـ لن تعطيه الجريدة ؟

فقال هنري :

– يقيناً لا .

فقالت :

– أواثق حقاً انت ؟ ان دوبروي يريدها وهو عنيد .

– انا ايضاً عنيد .

فقالت بول بصوت انفجر فجأة :

– لكنك تنتهي دوماً بالاستسلام له . لماذا قبلت بالدخول إلى « الاشتراكي الثوري الحر » ذاك ؟ كأنك ليس عندك ما يكفي من الشغل ! لقد عدت منذ اربعة ايام ، ولم نتحادث خمس دقائق ، ولم تكتب سطراً من روايتك !

– سأبدأ غداً فيها صباحاً . لقد بدأت تتجمع اليوم .

– ليس هذا سبباً لتحمل نفسك سخرات جديدة . » كان صوت بول يعلو : « لقد أدى لك دوبروي خـــدمة منذ عشر سنين ، فلن يجعلك تدفعها له طوال حياتك » .

– ولكن يا بول ، لن اعمل له لأؤدي له خدمة : بل لأن هذا يهمني .

فهزت كتفيها :

– هيا إذن !

– ما دمت أقول لك .

فسألت في شيء من القلق :

– أتصدق ما يروونه : انه ستنشب حرب من جديد ؟

فقال هنري :

– كلا . قد تكون ثمة قلاقل في اميركا ، لكنهم لا يحبون الحرب ، هناك . أن ما هو حقيقي هو ان العالم سيتغير جدياً : إلى أفضل او أسوأ . فيجب ان نحاول ان يكون إلى أفضل .

فقالت بول :

– لقد كان العالم يتغير دوماً .وقبل الحرب كنت تتركه يتغير دون ان تتدخل .

وصعد هنري الدرج في حزم . وقال وهو يتثاءب : « ان ما قبل الحرب لم يعد له وجود » .

– ولكن لماذا لا نعيش كما قبل الحرب ؟

– لقد تغيرت الظروف وكذلك انا . » وتثاءب من جديد : « انني ناعس ».

كان ناعساً، لكنه عندما رقد إلى جانب بول ، لم يستطع ان ينام : انها خطيئة الشمبانيا ، والفودكا ، ودوبروي . كلا ، لن يتخلى له عن « الأمل » : وهذه بديهة لا تحتاج إلى تبرير . ولكنه يود على كل حال ان يجد بعض الأعذار المعقولة. مثالي : هل هذا صحيح ؟ وعلى كل ماذا تعني هذه الكلمة ؟ من البديهي انه ، إلى حد ما ، يؤمن بحرية الناس ، إرادتهم الطيبة ، بقوة الافكار . « انت لا تتصور ان صراع الطبقات قد انتهى ؟ » . كلا . انه لا يتصور ذلك : ولكن ماذا عليه ان يستنتج منه ؟ وتمدد على ظهره ، واشتهى سيجارة ، لكنه سيوقظ بول بذلك وستكون سعيدة للغاية بإلهائه عن أرقه . ولم يتحرك . وقال في نفسه في شيء من القلق : « يا إلهي ! ما أجهل الانسان ! » . كان يقرأ كثيراً مع ذلك ، ولكن معرفة جديرة بهذا الاسم لم تتوفر له إلا في الأدب . ولم يكن هذا قد أزعجه حتى الآن . فلا حاجة لكفاءات خاصة للمشاركة في المقاومة ، ولا لتأسيس صحيفة سرية : ولقد ظن ان الأمر سيستمر هكذا . ولقد أخطأ دون شك . ما الرأي العام ؟ ما الفكرة ؟ ماذا تستطيع الكلمات ، على من ، في أية ظروف؟ إذا كان المرء يدير صحيفة ، فلا بد ان يجيب على هذه الأسئلة . وها هي ، على حين فجأة ، تتراقص امامه كلها . وقال هنري في نفسه : « اننا مرغمون على التقرير في حالة الجهل! » . حتى دوبروي مع علمه ، كان يتصرف غالباً وهو يتلمس طريقه تلمساً. وتنهد هنري : انه لا يستطيع ان يكتفي بهذه الهزيمة . هناك درجات في الجهل : والحقيقة انه ليس مهيأ كما يجب للحياة السياسية . وقال في نفسه : « ليس علي إلا ان أبدأ بالعمل » . لكنه إذا كان يريد ان يعمق الأشياء ، فأمامه سنوات طويلة لذلك : الاقتصاد ، والتاريخ ، والفلسفة، ابداً لن ينتهي منها ! ان مجرد الاطلاع على الماركسية ، كم يتطلب هذا من جهد ! ولن يعود أمامه مجال للكتابة. وكان

يريد ان يكتب . إذن ؟ انه لن يتخلى على كل حال عن « الأمل » لأنه لا يعرف المادية التاريخية بتفاصيلها . واغلق عينيه . كان ثمة شيء ما غير عادل في هذه القضية ! كان يشعر انه مرغم ، كسائر الناس ، على الاهتمام بالسياسة : ولكن كان يجب إذن الا يتطلب هذا تدرباً خاصاً . ولو كان هذا من اختصاص التكنيكيين ، فعليهم الا يطلبوا منه ان يزج نفسه في الأمر .

وفكر هنري وهو يستيقظ : « ان ما يلزمني ، هو الوقت ! » . « المشكلة الوحيدة هي ان اجد الوقت » . كان باب الاستديو قد فتح وأغلق ثانية . كانت بول قد خرجت ولما عادت ، اخذت تجول في الغرفة في خطى حذرة . ورمى أغطيته . « لو كنت اعيش بمفردي ، لوفّر علي هذا ساعات ! » . ولن تكون هناك احاديث لغو ، ولا مآدب منظمة : سوف يقلب الصحف اليومية ، وهو يحتسي قهوته في بار « بيار » الصغير عند الزاوية ، وسيشتغل حتى موعد ذهابه إلى الجريدة ، وسيكتفي بسندويشة بدل الغداء . وعندما ينتهي العمل ، سيتناول العشاء بسرعة وسيقرأ إلى ساعة متأخرة ليلاً . وعلى هذا النحو ، سينجح في ان يجمع بين « الأمل » ، وروايته ، وقرائه . وقرر : « سأكلم بول هذا الصباح بالذات » .

وقالت بول في مرح :

ـ أنمت جيداً ؟

ـ جيداً جداً .

كانت تضع زهوراً على الطاولة وهي تدندن . لقد كانت دوماً مرحة ، في عناد ، منذ عودة هنري : « لقد اعددت لك قهوة حقيقية ، ولا تزال هناك زبدة طازجة » .

وجلس واخذ يدهن بالزبدة قطعة خبز محمصة : « هل أكلت ؟ » .

ـ لست جائعة .

ـ انت لا تجوعين ابداً .

ـ اواه ؟ إنني آكل ، اؤكد لك . إنني آكل جيداً جداً .

وعض على قطعة الخبز . ما العمل ؟ انه لا يستطيع ان يغذيها بالمسبار : « لقد نهضت باكراً جداً » .

– نعم . لم اعد استطيع النوم . » ووضعت على الطاولة البوماً ضخماً مذهّباً لدى الحافة : « لقد انتهزت الفرصة لأصنف صورك في البرتغال » . وفتحت الألبوم وأشارت إلى درج « براغا » : كانت نادين جالسة على درجة تبتسم . وقالت :

– انت ترى انني لا أحاول ان اهرب من الحقيقة .

– لكني اعرف ذلك جيداً .

لم تكن تهرب من الحقيقة ، بل كانت تمر من خلالها ، وهذا أكثر إحراجاً بكثير . وقلبت بضع صفحات . « حتى في صورك وانت طفل كانت لك هـــذه الابتسامة المرتابة نفسها . كم تشبه نفسك ! » . لقد ساعدها في الماضي على جمع هذه الذكريات . أما اليوم فهذا يبدو له باطلاً . وكان يغتاظ من استمرار بول في المعاندة في نبشه وتحنيطه .

– ها انت ، عندما عرفتك !

فقال وهو يدفع الألبوم :

– لا يبدو علي أنني خبيث .

فقالت :

– كنت شاباً . كنت كثير التطلبات .

وانتصبت امام هنري وقالت في حدة مفاجئة :

– لماذا أعطيت مقابلة لـ « الغد » ؟

– آه ! أظهر العدد الجديد ؟

– نعم . لقد اتيت به . » وذهبت لتأتي بالمجلة من آخر الاستديو ورمتها على الطاولة : « لقد قررنا ألا تقبل ابداً بإعطاء مقابلات » .

– لو كان علينا ان نتمسك بكل القرارات التي نتخذها ...

– كان ذلك القرار جدياً . كنت تقول انه عندما يبـــدأ المرء بالابتسام للصحفيين ، فهذا يعني انه قد نضج للأكاديمية الفرنسية .

ـ لقد قلت الكثير من الأشياء .

فقالت :

ـ لقد تألمت جسدياً عندما رأيت صورتك منشورة في هذه الصحيفة .

ـ انت تغتبطين عندما ترين إسمي .

ـ اولاً . إنني لست مغتبطة . هذا مختلف جداً .

لم تكن بول قد فاهت بتناقض ، لكن ما قالته أغاظ هنري بشكل خاص : أنها تريده ان يكون أكثر البشر مجداً ، وهي تتظاهر باحتقار المجد . هذا لأنها تعاند في ان تحلم بنفسها كما كان قد حلم بها ، في الماضي : مترفعة ، سامية . وفي الوقت نفسه كانت تعيش ، بالتأكيد ، على الارض ، كسائر الناس . وفكر في إشفاق مفاجىء : « وليست هذه بالحياة الطيبة ، فمن الطبيعي ان تكون بحاجة إلى تعويض » .

وقال في لهجة مصالحة :

ـ لقد أردت ان أساعد تلك الفتاة . إنها مبتدئة ، وهي لا تحسن تدبر حالها .

وابتسمت له بول في حنان : « ثم انك لا تعرف ان تقول لا » .

لم تكن هناك أية فكرة مسبقة في ابتسامتها . وابتسم بدوره :

ـ لا اعرف ان اقول لا .

وبسط امامه المجلة الأسبوعيـة . على الصفحة الأولى ، كانت صورته تبتسم . حديث مع هنري بيرون . كان يسخر تماماً مما تظنه ماري ـ آنج عنه . ولكنه امام هذه الأسطر المطبوعة كان يستعيد بعضهـا من إيمان الفلاح الساذج الذي يقرأ التوراة : لكأنه لستطاع اخيراً من خلال هذه الجمل التي بعثها هو نفسه ان يعرف من هو . « في ظل صيدلية في تول ، وسحر الأنابيب الحمراء والزرقاء ... لكن الطفل العاقل يكره هذه الحياة الضيقة ، ورائحة الأدوية ، وشوارع مدينته الأصلية الحقيرة ... وترعرع ونداء المدينة الكبيرة يصبح أكثر إلحاحاً ... واقسم امام نفسه ان يرتفع فوق توافه الحياة العادية . وفي ركن مظلم من قلبه ، كان يأمل بالصعود أكثر من سائر الآخرين ... وكان لقـاء من العناية الإلهية مع روبير

دوبروي ... وبدل هنري بيرون ، مذهولاً ، محتـــاراً ، متوزعاً بين الإعجاب والتحدي ، احلام مراهقته بطموح رجل حقيقي . واشتغل في عناد ... وأصدر كتاباً صغيراً ولكنه كان كافياً ليدخل المجد الى حياته : كان في الخامسة والعشرين أسمر ، عيناه متطلبتان، فم قاسٍ ، مباشر، مفتوح ، وفي الوقت نفسه سري...» ورمى الصحيفة . لم تكن ماري ـ آنج بلهاء ، بل كانت تعرفه بما فيه الكفاية ، وقد جعلت منه نائباً لراستينياك [1] صالحاً لعاملات الخياطة .

وقال :

– انت على حق . يجب ان أرفض الادلاء بحديث إلى الصحفيين . ان الحياة بالنسبة لهم ليست إلا مهنة ، والعمل ليس إلا وسيلة للوصول . ان ما يسمونـه نجاحاً ، هو الضجة التي يثيرها الانسان والمال الذي يربحه . ويستحيل اخراجهم عن هذه الفكرة .

وابتسمت بول في تسامح : « لاحظ ان تلك الصغيرة قد قالت أشيـاء لطيفة عن كتابك . كل ما هنالك انها كالآخرين . انهم يعجبون دون فهم » .

فقال هنري :

-- انهم لا يعجبون إلى هذا الحد ، أتعرفين . انها الرواية الأولى التي تظهر منذ التحرير : إذن فهم مرغمون على مدحها .

ان هذا السيل من التقريظ ، لمحرج بالأحرى ، عندما يزيد على حده . فهـو يظهر حسن صدور الكتاب في حينه لكنه لا يكشف مطلقاً عن محاسنه . بل لقد انتهى الأمر بهنري إلى الاعتقاد بأنه مدين بنجاحه إلى سوء تفاهم . فلامبير يعتقد انه اراد من خلال العمل الجماعي ان يتغنى بالفردية ، ولاشوم على العكس يعتقد انه يعظ بتضحية الفرد لمصلحة المجموع . والجميـع ينوهون بالصفة البناءة للروايـة ، مع انها كانت صدفة تقريباً ان يجعل هنري قصته تدور اثناء المقاومة . لقد فكر بإنسان ، وبموقف ايضاً . بعلاقة معينة بين ماضي بطلة والأزمة التي يجتازهـــا .

---

١ ـ راستينياك : شخصية خلقها بلزاك في « الاب غوريو » : نموذج للوصولي الانيق .
«المترجم»

وبأشياء اخرى كثيرة لم يتحدث عنها اي ناقد . أهي غلطته أم غلطة القراء ؟ لقد أحب الجمهور كتاباً مختلفاً تماماً عن الكتاب الذي ظن هنري انه يقدمه له . وسأل بصوت ودي :

– ماذا ستفعلين اليوم ؟

– لا شيء خاصاً .

– وغير ذلك ؟

وفكرت : « حسناً ! سأتلفن إلى خياطتي لأنظر معها إلى تلك الأقمشة الجميلة التي أتيتني بها » .

– وبعد ذلك ؟

فقالت في مرح :

– اواه ! لدي دوماً أشياء أفعلها .

فقال هنري :

– يعني انك لا تفعلين شيئاً . » ونظر إلى بول في قسوة : « لقد فكرت بك كثيراً خلال هذا الشهر . أرى ان من الاجرام ان تمضي ايامك تختنقين بين هذه الجدران الأربعة .

فقالت بول :

– أتسمي هذا اختناقاً ؟ » وابتسمت في عذوبة وكما في الماضي كانت حكمة العالم كلها في ابتسامتها : « عندما يحب الانسان ، لا يختنق » .

– لكن الحب ليس شاغلاً .

فقاطعته :

– أسألك عفواً : فأنا ، هذا يشغلني .

فاستأنف :

– لقد فكرت ثانية فيما قلته لك ليلة الميلاد . وانا واثق انني كنت على حق : يجب ان تعودي إلى الغناء .

فقالت بول :

ـ منذ سنوات وانا أعيش كما أعيش الآن . فلماذا تقلق فجأة ؟

فقال في حزم :

ـ اثنـــاء الحرب ، كنا نستطيع ان نكتفي بقتل الوقت ، لكن الحرب انتهت . اسمعي : ستذهبين لتقولي للشيخ « غريبان » انك تريدين ان تعودي للعمل . وسأساعدك انا على اختيار أغانٍ . بل سأحاول ايضاً ان اكتب لـــك وسأطلب ايضاً ذلك إلى الرفاق : آه ! سيسر جوليان بذلك كذلك ، وانا واثق انه سيكتب أغاني ساحرة . وسيضع لنا بروجير موسيقاها : سترين المجموعة التي ستكون لديك ، خلال شهر ! وفي اليوم الذي تستعدين فيـه سيسمعك سابريزو واني أضمن لك ان يجعل منك نجمة النوادي لعام ١٩٤٥ . وعندئذ ، تكونين قد انطلقت .

وادرك انه تكلم بسرعة وسهولة أكثر مما ينبغي ، وبكثير من الطلاقة. كانت بول تتفرس في وجهه وقد بدا عليها تأنيب مدهوش . وقالت : « ثم ماذا ؟ هـل سأكون أعظم في نظرك إذا كتب اسمي على الاعلانات ؟ » .

فهز كتفيه : « ما أبلهك ! يقيناً لا . ولكن من الأفضل ان تفعلي شيئاً على ألا تفعلي شيئاً مطلقاً . انني أحاول الكتابة . وانت عليك ان تغني مـــا دمت موهوبة لذلك » .

ـ انني أحيا ، أحبك : هذا ليس بلا شيء .

فقال في نفاد صبر :

ـ انت تتلاعبين بالكلمات . لماذا لا تريدين ان تحاولي ؟ هل اصبحت كسولة جداً ؟ ام انت خائفة ؟ ام ماذا ؟

فقالت في صوت تصلب فجأة :

ـ اسمع ، حتى لو كانت هذه الأباطيل كلها : النجاح ، الشهرة ؟ لا يزال لها معنى بالنسبة لي ، فإنني لن أذهب لأبدأ في السابعة والثلاثين مهنة من الدرجـــة الثانية . عندما ضحيت من اجلك بتلك الجولة في البرازيل ، كان ذلك تخليـــاً نهائياً . انني غير آسفة مطلقاً . ولكن لا نعد إلى هذا الموضوع .

وفتح هنري فمه ليحتج . تلك التضحية التي قررتها حماسة ، دون ان تستشيره ، ها هي كأنها تجعله عنها مسؤولاً ! وتمالك نفسه وتفرس في وجه بول في حيرة. انه لم يعرف ابداً ما إذا كانت تحتقر الشهرة ام انها كانت تخاف ألا تبلغها . وقال :

– صوتك لا يزال جميلاً كما في الماضي . وانت ايضاً .

فقالت في نفاد صبر :

– كلا . » وهزت كتفيها : « إنني اعرف : ستكون هناك قبضة من المثقفين سيرددون طوال عدة أشهر لإرضائك انني موهوبة . ثم مساء الخير . ربما كان بإمكاني ان أكون « داميـــا » او « اديث بياف » . لكني تركت فرصتي تمر . حيفاً علي ، لكن لنبق هنا » .

انها لن تصبح بلا شك نجمة . لكن يكفي ان تصيب بعض النجاح ، وستقلع عن ادعاءاتها . على كل حال ، ستكون حياتها اقل مدعاة للشفقة اذا اهتمت فعلياً بشيء ما . وقال في نفسه : « وانا ، هذا سيرتب أموري بشكل رائع ! » . كان يعلم جيداً ان حياته هي المطروحة على بساط البحث، أكثر من حياة بول. وقال:

– حتى لو لم تبلغي الجمهور الكبير ، فهـذا يستحق الجهد . ان لك صوتك ، ومواهبك الخاصة بك . سيكون من المفيد ان تحاول استخلاص كل ما بامكانك. انا واثق ان هذا سيمنحك مسرات حقيقية .

فقالت :

– عندي مسرات حقيقية في حياتي . » وتألق وجهها : « لا يبدو عليك انك تفهم ما هو حبي لك » .

فقال في حدة :

– بلى ! » وأضاف بصوت مستاء : « لكنك لن تذهبي إلى حـد ان تفعلي ، حباً بي ، ما أطلبه منك » .

فقالت في رصانة :

– لو كانت لك اسباب حقيقية لتطلب ذلك مني ، فإني فاعلة .

– لكنك تفضلين اسبابك على اسبابي .

فقالت في هدوء :

– نعم ، لأنها افضل . انت تكلمني من وجهة نظر خارجية تماماً ، وجهة نظر دنيوية ليست حقاً وجهة نظرك .

فقالت في استياء :

– انني لا أرى ما هي وجهة نظرك انت ! » ونهض . لا فائدة من النقاش ، سيحاول بالأحرى ان يضعها امام الأمر الواقع : سيأتيها بأغانٍ ، وسيأخذ مواعيد لها : « حسناً ، كفانا حديثاً عن الموضوع . لكنك مخطئة » .

وابتسمت دون ان تجيب : « ستذهب للعمل ؟ » .

– نعم .

– بروايتك ؟

– نعم .

فقالت : « هذا حسن » .

وارتقى الدرج . انه يتلهف إلى معاودة الكتابة . ويهنىء نفسه على فكرة ان هذه الرواية لن تكون بناءة مطلقاً : لم تكن لديه بعد أية فكرة محددة عما سيفعله . كان شعاره الوحيد ان يتسلى مجاناً بأن يكون صادقاً . وبسط مسوداته امامه : حوالي مئة صفحة . كان حسناً ان يتركها تستريح مدة شهر ، وسوف يعيد قراءتها بعين جديدة . وفي البداية استسلم للذة استعادة كمية من الانطباعات والذكريات مصبوبة في جمل مفكر بها . وشيئاً فشيئاً تملكه قلق . ما الذي سيفعله بكل هذا ؟ ان هذه الخربشات ليس لها رأس من ذنب . كان ثمة شيء مشترك بينها ، جو معين : ما قبل الحرب . وبالضبط ، كان هذا ما أحرج هنري فجأة . لقد فكر في غموض : « سوف أحاول ان اسجل طعم حياتي » كأنه ليس إلا امام عطر معنون ماركة مسجلة ، لا يتغير عبر السنين جميعاً . ولكن ما كان يقوله مثلاً عن الاسفار ، كان يخص فقط الشاب ذا الأعوام الخمسة والعشرين الذي كانه في سنة ١٩٣٥ . شيء لا يمت بصلة إلى ما شعر به وهو في البرتغال . وكانت قصته مع بول مسجلة ايضاً : لا لامبير ، ولا فانسان ، ولا أي واحد من الشبان الذين

يعرفهم ، يمكن ان تكون لهم اليوم ردود الفعل ذاتها . وعلى كل ، إن امرأة في السابعة والعشرين ، مع خمس سنوات من الاحتلال وراءها ، ستكون مختلفة جداً عن بول . وكان هنـــاك حل ، وهو ان يجعل روايته تجري حوالي عام ١٩٣٥ . ولكن لم تكن به أية رغبة في تأليف رواية « تاريخية » ، تصف عالماً قـد انتهى . بل ما كان يتمنـاه على العكس وهو يخط هذه السطور ، هو ان يلقي بنفسه وهو في ذروة الحياة على الورق. إذن كان يجب ان يكتب هذه القصة في الزمن الحاضر بأن ينقل الشخصيات والأحداث . وقال في نفسه : « ان انقل : يا لها من كلمة مسخطة ! يا لها من كلمة بلهاء ! إنهـــا لا معقولة الحرية التي يتصرف بها المرء مع شخصيات الرواية . إنهم ينقلونها من عصر الى عصر ، ويجرونها من بلد إلى آخر ، ويلصقون حاضر هذه بماضي تلك ، بإدخال نزوات شخصية فيها : فاذا نظرنا اليها عن كثب ، وجدناها كلها غيلاناً والفن كله يقوم على منع القارىء من النظر اليها عن كثب أكثر مما ينبغي . طيب . لا ننقل . يمكننا ان نصنع أناساً من مختلف الأشكال لا يكون لديهم شيء مشترك مع بول ، مع لوسي ، مع ذاتي . لقـــد فعلت ذلك في مرات سابقة ، ولكن في هذه المرة ، إنما كنت أريد ان اعبر عن حقيقة تجربتي بالذات... » . ودفع رزمة المسودات . إنها لطريقة رديئة ان يجمع مواد كيفما اتفق . كان يجب ان يعمل فيها حسب العادة ، ان ينطلق من شكل كلي ، من هدف محدد . وفكر : ما هو ؟ عن أية حقيقة أتمنى ان أعبر حقيقتي : ماذا يعني هذا بالضبط ؟ كان ينظر ببلاهة إلى الصفحـــة البيضاء . ان اغوص في الفراغ ، خاوي اليدين ، هذا مخيف ! ربما لم يعد عندي شيء أقوله . ولكن كان يبدو له على العكس انه لم يقل شيئاً ابداً . كان لديه كل شيء ليقوله ، كجميع الناس ، في جميع الأزمان . كل شيء : هذا كثير . وتذكر لغزاً قديماً كان محلولاً في أسفل صفحة : « اننا ندخل ، ونصرخ ، وهذه هي الحياة : اننا نصرخ ، ونخرج ، وهذا هو الموت » . ماذا يضيف ؟ اننا نسكن جميعاً الكواكب نفسه ، ونولد من بطن وسوف نُسمن الدود . وقصتنا جميعاً واحدة : فلماذا أقرر انها قصتي وان علي ان أرويها ؟ وتثاءب . لم يكن قد نام بما فيـه الكفاية ، وكانت

هذه الورقة العارية تسبب له الدوار . وكان يسقط في أعماق اللامبالاة . لا يمكن ان يُكتب شيء في اللامبالاة . يجب الصعود ثانية إلى سطح الحياة ، هناك حيث للحظات والافراد حسابهم ، واحداً واحداً. ولكن لا ، كل ما كان يجسده ، اذا هز نفسه من خموله ، هو الهم . « الأمل » ، صحيفة محلية : هل هذا صحيح ؟ عندما أحاول ان أؤثر على الرأي العام ، هل أكون مثالياً ؟ كان من الأفضل ، بدل ان احلم امام هذه الورقة ، ان ادرس ماركس جدياً . نعم، هذا عاجل : يجب ان يوجد لنفسه برنامجاً وان يكد بلا انقطاع . كان يجب ان يفعل ذلك منذ زمن بعيد . وعذره ، هو ان الأحداث قد فاجأته ، ففعل ما باستطاعته . ولكنه ارتكب بعض الطيش ايضاً : فهو منذ التحرير يعيش في نوع من الحبور لا شيء يبرره . ونهض . انه عاجز هذا الصباح ان يركز أفكاره حول عمل ما ، فحديثه مع دوبروي قد هزه بعنف . ثم انه ترك مراسلاته غير منتهية أمس ، ويجب ان يتحدث إلى سيزوناك، وكان قلقاً لمعرفة ما اذا كان بريستون سيأتيه بالورق ، وهو لما يسلم بعد إلى « كاي دورسي[1] » رسالة الشيخ داس فيرناس . وقرر :«حسناً! سآخذها حالاً » .

– هل استطيع ان أرى لمدة خمس دقائق السيد تورنيل ؟ من قبل هنري بيرون . إنني مكلف برسالة له .

فقالت السكرتيرة وهي تناول هنري صيغة مطبوعة :

– اذا اردت ان تسجل إسمك ودافع الزيارة .

واخرج قلماً : أي دافع؟ احترام وهم. كان يعلم مدى لا جدوى هذه الخطوة. وكتب : خاص . اليك » .

وامسكت السكرتيرة بالورقة في حلم واتجهت نحو الباب . كانت ابتسامتها وكبرياء مشيتها تعنيان بوضوح ان الأمين العام سيد مهم جداً بحيث لا يمكن ازعاجه دون تأمل مسبق . ونظر هنري في شفقة إلى المغلف الأبيض السميك الذي يمسكه في يده . لقد لعب دوره إلى أقصى حد ، لكنه الآن لم يعد يستطيع ان

---

١ ـ مقر وزارة الخارجية الفرنسية . «المترجم»

ينكر الواقع : ان المسكين داس فيبرناس سيصطدم بجواب قاسٍ او بالصمت .

وظهرت السكرتيرة ثانية : « السيد تورنيل يسر جداً إذا ضرب لك موعداً في أقرب فرصة ممكنة . تستطيع ان تترك لي رسالتك ، وسأنقلها له في لحظة » .

فقال هنري :

— شكراً جزيلاً . » وناولها المغلف : إنه لم يبدُ له مطلقاً لا معقولاً أكثر منه الآن وهو بين يدي هذه المرأة الكفء . واخيراً ، حسناً ، لقد فعل ما طلب اليه ان يفعله ، اما البقية فلا تعنيه . وقرر ان يمر على « البار الأحمر » فقد كانت ساعة تناول المقابلات ، ولا بد ان لاشوم موجود فيه ، وهو يريد ان يشكره على مقاله. وبينما كان يدفع الباب ، لمح نادين جالسة بين لاشوم وفانسان . وقالت بصوت غاضب :

— اننا لا نراك كثيراً .

— انني أعمل .

وجلس إلى جانبها وطلب قدح « توران — جن » . وقال لاشوم في مرح :

— كنا نتحدث عنك. عن مقابلتك في « الغد » . حسناً فعلت اذ قلتها : أعني بخصوص سياسة الحلفاء في اسبانيا .

فقال فانسان :

— لمَ لا تقولونها أنتم انفسكم ؟

— لا نستطيع. ليس في هذا الوقت. ولكن لا بأس في ان يفعل ذلك احد ما.

فقال فانسان :

— سخيف !

فقال لاشوم :

— انت لا تريد ان تفهم شيئاً .

— انني افهم جيداً جداً .

— كلا انت لا تفهم .

وشرب هنري قدح التوران — جن وهو يصغي في شرود . لم يكن لاشوم

يضيع فرصة ليشرح الحاضر ، والماضي ، والمستقبل ، وقد اعاد الحزب النظر فيها وأصلحها ولكن لم يكن من الممكن الغضب منه لذلك : فقد اكتشف وهو في العشرين في المقاومة المغامرة،والرفقة،والشيوعية، وهذا يبرر تعصبه. وفكر هنري في سخرية : « إنني احبه كثيراً لأنني أديت له خدمة » فقد خبأه مدة ثلاثة أشهر في استديو بول، وحصل له على اوراق مزيفة، وعندما غادره اهداه معطفه الوحيد. وقال بدون تمهيد :

– اسمع . إنني اشكرك على مقالك . انه لطيف حقاً .

فقال لاشوم :

– لقد قلت ما أعتقده . على كل ، ان جميع الناس من رأيي : انه كتاب رائع .

فقالت نادين :

– نعم ، هذا مضجر . لأول مرة يتفق النقاد جميعاً : كأنهم يدفنون احداً او يمنحون جائزة فضيلة .

فقال هنري :

– في الأمر شيء من هذا . » وفكر في حقد هازل : « يا للأفعى الصغيرة ! لقد وجدت بالضبط الكلمات التي ما كنت أريد ان اقولها لنفسي » . وابتسم للاشوم : لقد اخطأت في نقطة واحدة : فبطلي لن يصبح شيوعياً ابداً » .

– ماذا تريده ان يصبح غير ذلك ؟

فأخذ هنري يضحك : « حسناً ! ما اصبحته انا ! » .

فضحك لاشوم ايضاً : « بالضبط ! » . وحدق إلى هنري في عينيه : « في أقل من ستة اشهر لن يعود « للاشتراكي الثوري الحر » وجود ، وستفهم ان الفردية لا تفيد . وستتسجل في الحزب الشيوعي » .

فهز هنري رأسه : « إنني أؤدي لكم خدمات أكثر هكذا . انت مسرور تماماً من انني قلت تلك الكلمة بدلاً منك . وماذا سيفيد ان تردد « الأمل » ما تردده « الأومانيته » ؟ إنني اقوم بعمل أكثر جدوى بمحاولة دفع النـــاس الى

التفكير ، بطرح الأسئلة التي لا تطرحونها ، بقول بعض الحقائق التي لا تقولونها ».
فقال لاشوم :
— كان يجب ان تفعل هذا العمل وانت شيوعي .
— ما كنتم لتتركوني افعل !
— بلى . يقيناً ، ثمة تعصب اكثر من اللازم في الحزب الآن . لكنها خطيئة الظروف . هذا لن يدوم إلى ما لا نهاية . » وتردد لاشوم : « لا تقل هذا لأحد . ولكنني والرفاق نأمل في ان تكون لنا قريباً مجلة ، مجلة هامشية الى حد ما ، سنناقش فيها الأمور بحرية تامة » .
فقال هنري :
— المجلة ليست صحيفة يومية . اما بخصوص الحرية ، فإني اطلب ان اراها . »
ونظر الى لاشوم في مودة : « ولكن لا بأس في ان تكون لك مجلة : أتعتقد انها ستروج ? » .
— هناك فرصة طيبة .
ومال فانسان إلى الأمام ونظر إلى لاشوم في تحدٍ : « إذا استطعت ان تتكلم بحرية حقاً ، فاشرح لهم ، للرفاق ، ان من المقرف ان يستقبلوا بأذرع مفتوحة جميع الانذال الذين يزعمون أنهم تابوا »
— نحن ? نحن نستقبل المتعاونين بأذرع مفتوحة ? اذهب إذن وقل هذا لقراء « الفيغارو » ، فهذا سيروّح عنهم قليلاً .
— هناك كومة من الأوغاد تقومون بحمايتهم خلسة .
فقال لاشوم :
— لا تشوش كل شيء : فعندما نقرر ان نمحو الأخطاء ، فهذا لأن الشخص قابل للاصلاح .
— إذا سرت في هذا الخط ، فكيف تعرف أن الأشخاص الذين قتلناهم لم يكونوا قابلين للاصلاح ?
— في ذلك الوقت ، لم يكن هناك مجال لذلك . كان يجب ان يقتلوا .

ـ في ذلك الوقت ! لقد قتلتهم انا عن حياتي كلها ! » وابتسم فانسان في خبث : « ولكن سأقول لك شيئاً طيباً : كانوا جميعاً زبلاً ، بدون استثناء . وما تبقى علينا عمله ، هو ان تقتل سائر الذين نسيناهم » .

فسألت نادين :

ـ ماذا تعني ؟

فقال فانسان :

ـ أعني ان علينا ان ننظّم أنفسنا .

وبحثت نظرته عن نظرة هنري . وقال هنري ضاحكاً :

ـ ننظّم ماذا ؟ غزوات تكيلية ؟

فقال فانسان :

ـ انت تعرف انهم في مارسيليا يعتقلون الآن جميع المقاومين كمجرمين تجاه الحق العام . فهل يجب ان نتركهم يفعلون ؟

فقال لاشوم :

ـ الارهاب ليس علاجاً .

وقال هنري :

ـ كلا . » ونظر إلى فانسان : « لقد حدثوني عن عصابات تتلهى بتمثيل دور رجال العدالة . لو كانت المسألة مسألة تسوية حسابات شخصية ، لفهمت . ولكن أشخاصاً يتخيلون انهم ينقذون فرنسا باغتيال متعاون هنا أو هناك ، فهم اما مرضى او فروج حمقى » .

فقال فانسان :

ـ اعرف : إن ما هو صحيح هو التسجل في الحزب الشيوعي او «الاشتراكي الثوري الحر » . وهز رأسه : « لن تنالوني » .

فقال هنري بصوت ودي :

ـ سنستغني عنك .

ونهض ونهضت نادين ايضاً :

– انني مرافقتك .

كانت قد أخذت بتنكرها الانثوي . وحاولت ان تتبرج . ولكن أهدابها كانت تشبه شوك قنفذ البحر ، وكانت هناك خطوط سوداء تحت عينيها . وما ان خرجا ، حتى سألت : « أتتغدى معي ؟ » .

– كلا . لدي عمل في الجريدة !

– في مثل هذه الساعة ؟

– في كل ساعة .

– إذن ، لنتعشَ معاً .

– كلا . انني أظل في الجريدة حتى ساعة متأخرة جداً . ثم أذهب لرؤية والدك .

– اواه ! يا لتلك الجريدة ! أليس لديك غير هذه الكلمة على شفتيك ! انها على كل حال ليست مركز العالم !

– انا لا اقول هذا .

– كلا ، بل تعتقده . » وهزت كتفيها : « إذن ، متى نتقابل ؟ » .

فتردد : « حقاً ، نادين ، في هذه الأيام ، لا املك دقيقة واحدة » .

– لكن يحدث لك على كل حال ان تجلس الى المائدة وتأكل ، أليس كذلك؟ انني لا أرى لمَ لا استطيع ان اجلس تجاهك . » وحدقت إلى هنري في وجهه : « إلا اذا كان هذا يزعجك » .

– يقيناً لا .

– إذن ؟

– ليكن . تعالي غداً لأخذي بين التاسعة والعاشرة .

– اتفقنا .

كان يشعر بمودة حقيقية نحو نادين ، ولم تكن رؤيتها تزعجه ، لكن لم تكن هذه هي المسألة . المسألة هي ان عليه ان ينظم حياته في ادق اقتصاد : ليس لديه متسع لنادين .

وتابعت نادين :

ـ لماذا اجبت فانسان بمثل تلك القسوة ؟ كان يجب ألا تفعل .

ـ أخشى ان يرتكب حماقات .

ـ حماقات ! ما إن يريد الانسان ان يعمل ، حتى تسمي هـذا حماقات . ألا تعتقد ان اسخف السخافات ان تكتب كتباً ؟ إنهم يصفقون لك وانت تكتظ . ولكن بعد ذلك يضع الناس الكتاب في زاوية ما ولا يعود احد يفكر فيه .

فقال :

ـ هذه مهنتي .

ـ مهنة ظريفة .

وتابعا السير في صمت ، وامـام باب الصحيفة قالت نادين في جفاء : « طيب ، سأعود . الى الغد » .

ـ إلى الغد .

وظلت منتصبة امامه في تردد : « بين التاسعة والعاشرة ، تكون الساعة متأخرة جداً . ولن يتاح لنا الوقت لعمل أي شيء . ألا نستطيع ان نبدأ السهرة في موعد أبكر قليلاً ؟ » .

ـ لست حراً قبل ذلك .

فهزت كتفيها : « إذن ، في التاسعة والنصف. لكن ما الفائدة من ان يكون الانسان شهيراً اذا لم يأخذ الوقت ليعيش ؟ » .

وفكر بينما كانت تستدير على عقبيها : « العيش ، في فهن ، يعني دوماً الاهتمام بهن . ولكن هناك أكثر من طريقة للعيش ! » . كان يحب رائحة الغبـار العتيق والحبر الجديد تلك . وكانت المكاتب لا تزال فارغة ، والطابق الارضي صامتاً : عما قليل سينبجس عالم من هذا الصمت ، عالم من خلقه . وكرر في نفسه « ما من احد سيضع يـــده على « الأمل » . وجلس امام مكتبه وتمطى . هيا ، لا داعي لثورة الأعصاب . انه لن يتخلى عن الجريدة . اما الوقت ، فيستطيع دوماً ان يجده . وعندما ينام ليلة هانئة ، فإن عمله سيسير بشكل افضل .

وانهى بسرعة بريده ونظر إلى ساعته. كان عنده موعد مع بريستون بعد نصف ساعة، وهذا يترك له الوقت على سعة ليتفاهم مع سيزوناك. وطلب إلى سكرتيرته: « هل تريدين ان تطلبي لي سيزوناك؟ » . وجلس امام مكتبه . جميل جداً ان يثق الانسان بالناس . كل ما هنالك ان ثمة مجموعة من الرفاق على استعداد لأخذ محل سيزوناك عن طواعية ، وهم يستحقونه أكثر منه . إن الفرصة التي يعاند في إعطائها لأحدهم ، يحرم منها تعسفاً غيره ، وهذا لا يمكن قبوله مطلقاً . وقال هنري في نفسه: « يا للخسارة! » . انه يذكر كم كان سيزوناك طليقاً عندما جاء به شانسيل. ولقد كان طوال عام اكثر وكلاء الارتباط اخلاصاً . لعله بحاجة الى ظروف استثنائية: فهو يسير خلف فانسان ، شاحباً ، منتفخاً ، زجاجي العينين ، كما لو انه لم يعد قادراً على كتابة جملتين منسجمتين .

– آه ! ها انت ! اجلس .

وجلس سيزوناك دونما كلمة . وتبين هنري فجأة انه اشتغل معه طوال سنة لكنه لا يعرفه مطلقاً . فهو مطلع إن كثيراً وإن قليلاً على حياة الآخرين ، ومشاربهم ، وأفكارهم : اما هذا فقد كان دوماً صامتاً . وقال بصوت أكثر جفاء مما كان يود : « اريد ان اعرف إذا كنت ستقرر ، نعم أم لا ، ان تقدم لنا شيئاً آخر غير المماسح ؟ » .

وهز سيزوناك كتفيه في عجز .

– ما الذي لا يسير على ما يرام ؟؟ أأنت في ورطة ؟ أهناك مشاكل ؟

كان سيزوناك يكور منديلاً بين يديه وينظر في ثبات إلى الأرض . وكان من الصعب حقاً ان يقيم احتكاكاً معه . وكرر هنري :

– ما الذي لا يسير ؟ انني أريد حقاً ان اعطيك فرصة اخرى .

فقال سيزوناك :

– كلا . ان الصحافة لا تجذبني .

– في الأيام الاولى لم تكن الحال في مثل هذا السوء .

فابتسم سيزوناك ابتسامة غامضة : « كان شانسيل يساعدني قليلاً » .

– على كل حال لم يكن يكتب لك مقالاتك ؟ » .

فقال سيزوناك دون تأكيد : « كلا » . وهز رأسه : « لا داعي للالحاح ، انه ليس بالعمل الذي يعجبني » .

فقال هنري في شيء من الغيظ : « كان يمكنك ان تقول هذا قبل الآن » .

وساد صمت جديد وسأل هنري : « ماذا تريد ان تعمل ؟ » .

– لا تقلق ، سأتدبر أمري .

– وغير ذلك ؟

– سأعطي دروساً في الانكليزية . ثم انهم قد وعدوني بترجمات . » ونهض : « لقد كنت لطيفاً إذ احتفظت بي طوال هذه المدة » .

– إذا ما رغبت مرة في ان ترسل لنا مقالاً » .

– إذا أمكن هذا .

– هل استطيع ان افعل شيئاً ما لأجلك ؟

فقال سيزوناك :

– تستطيع ان تقرضني ألف فرنك .

فقال هنري :

– إليك ألفين . ولكن ليس هذا حلاً .

فدس سيزوناك منديله في جيبه ، وللمرة الأولى ابتسم : « انه حل مؤقت : وهذه هي أوثق الحلول » . ودفع الباب : « شكراً » .

فقال هنري :

– حظ سعيد .

كان يشعر انه مرتبك . لكأن سيزوناك لم يكن ينتظر إلا فرصة للهرب . وفكر ليطمئن نفسه : « سأطلع على اخباره من فانسان » . لكنه كان مزعوجاً قليلاً من انه لم يعرف كيف يحمله على الكلام . واخرج قلمه وبسط امامه ورق الرسائل . سيكون بريستون هنا بعد ربع ساعة . لم يكن يريد ان يفكر كثيراً بتلك المجلة قبل ان يتأكد ، لكن رأسه كان مليئاً بالمشاريع . ان جميع

الصحف الأسبوعية التي تظهر الآن لفي حالة يرثى لها ، واصدار مجلة جيدة حقاً سيكون امراً مسلياً للغاية .

وفتحت السكرتيرة الباب :

– المستر بريستون هنا .

– ادخليه .

لم يكن بريستون يبدو مطلقاً ، في ملابسه المدنية ، اميركياً . وتصنّعه المتقن للفرنسية هو الذي كان يجعله مشتبهاً به قليلاً . ودخل في الموضوع فوراً تقريباً . وقال :

– لا بد ان صديقك لوك قد قال لك اننا التقينا عدة مرات اثناء غيابك . لقد رثينا معاً لوضع الصحافة الفرنسية المثير للاعصاب حقاً . ومن عظيم سروري ان استطيع مساعدة جريدتكم بتقديم مزيد من الورق إليكم .

فقال هنري :

– آه ! هذا سيترتب امورنا تماماً ! » وأضاف : بالطبع ، لا نستطيع ان نفكر بتعديل الحجم ، فنحن متضامنون مع الصحف الأخرى . ولكن لا شيء يمنعنا من اصدار مجلة يوم الأحد ، وهذا سيفتح كمية من الامكانيات » .

وابتسم بريستون ابتسامة تبعث على الاطمئنان . وقال : « عملياً ، ليست هناك مشكلة . فهذا الورق ، تستطيع الحصول عليه غداً » . واشعل سيجارته من ولاعة من الك الأسود على مهل : « يجب ان اطرح عليك بصراحة تامة سؤالاً : الخط السياسي لـ « الأمل » لن يتغير ؟ » .

– كلا . لماذا ؟

فقال بريستون :

– إن « الأمل » تمثل في نظري بالضبط المرشد الذي يحتاجه بلدكم ، ولهذا نريد انا واصدقائي ان نساعدكم . اننا معجبون باستقلالكم الفكري ، بشجاعتكم ، بذكائكم » .

وسكت . لكن صوته ظل معلقاً . فقال هنري :

– ثم ؟

– لقد تتبعت باهتمام كبير ريبورتاجك عن البرتغال . لكني فوجئت قليلاً هذا الصباح عندما قرأت في مقابلة انك تنوي ، بخصوص نظام سالازار ، ان تنتقد السياسة الأميركية في البحر المتوسط .

فقال هنري في شيء من الجفاء :

– انني اجد بالفعل ان هذه السياسة مؤسفة . منذ زمن بعيد كان يجب ان يصفى فرانكو وسالازار .

فقال بريستون :

– الأشياء ليست في مثل هذه السهولة ، انت تعرف ذلك جيداً . من البديهي اننا مزمعون حقاً على مساعدة الاسبانيين والبرتغاليين على استعادة حرياتهم الديموقراطية : لكن في الوقت المناسب .

فقال هنري :

– الوقت المناسب ، هو الآن . هناك محكومون بالاعدام في سجون مدريد. ان لكل يوم أهميته .

فقال بريستون :

– هذا رأيي ايضاً . والرأي الذي ستتبناه وزارة الخارجية الأميركية . » وابتسم: « لهذا يبدو لي انه من غير المناسب ان يثار الرأي العام الفرنسي ضدنا ».

فابتسم هنري ايضاً : « ان السياسيين غير مستعجلين ابداً . ويبدو لي من المفيد ان اقطع عليهم كل منفذ » .

فقال بريستون في ود :

– لا تتوهم كثيراً . ان صحيفتك مقدّرة كثيراً في الأوساط السياسية الأميركية . لكن لا تأمل بالتأثير على واشنطن .

فقال هنري :

– اواه ! انني لا آمل ذلك . وأجاب في حدة : « انني اقول ما اعتقده، هذا كل شيء . كنت تهنئني على استقلالي ... » .

فقال بريستون :

– بالضبط ، هذا الاستقلال ستجازف به . » ونظر إلى هنري في تأنيب : « بفتحك هذه الحملة ، ستنفذ مآرب الذين يريدون ان يمثلونا كاستعماريين » . وأضاف : «انك تنطلق من وجهة نظر انسانية أؤيدها تماماً ، ولكنها ليست بذات قيمة سياسيا . اترك لنا سنة : وستعود الجمهورية الى اسبانيا ، في افضل شروط» .

فقال هنري :

– لست ازمع ان أفتح حملة . كل ما أريده ان أسجل بعض وقائع .

فقال بريستون :

– لكن هذه الوقائع ستستخدم ضدنا .

فهز هنري كتفيه : «هذا لا يعنيني . إنني صحفي . اقول الحقيقة . هذه مهنتي» .

فتفرس بريستون في وجه هنري : « اذا كنت واثقاً ان حقيقة معينة ستؤدي إلى نتائج مشؤومة ، فهل تقولها ؟ » .

فتردد هنري : « لو كنت واثقاً ان الحقيقة مضرة ، لما رأيت إلا حلاً واحداً : سأستقيل . وسأهجر الصحافة » .

فابتسم بريستون ابتسامة مشجعة :

– أليست هذه اخلاقاً شكلية تماماً ؟

فقال هنري :

– لي أصدقاء شيوعيون طرحوا علي بالضبط السؤال نفسه . ولكن ليست هي الحقيقة التي أحترمها كثيراً . بل هم قرائي . انني أقرّ بأن الحقيقة يمكن ان تكون في بعض الظروف ترفاً . » وأضاف مبتسماً : « ربما هذه هي الحال في الاتحاد السوفياتي . ولكن في فرنسا ، اليوم ، لن أعترف لأي انسان بالحق في احتكارها . وربما كان هذا أقل بساطة بالنسبة لدبلوماسي . ولكني ، انا ، لست من جانب الذين يناورون : إني مع الذين يحاولون ان يناورو عليهم . لأنهم يعتمدون عليّ لأطلعهم على الأمور بأفضل ما استطيع ، واذا سكت او اذا كذبت فإني اخونهم» .

فهز بريستون رأسه : « لقد عدنا الى سوء التفاهم نفسه . ان ما تسميه اطلاعاً ،

أرى فيه انا طريقة في العمل. أخشى الا تكون ضحية المذهب الفكري الفرنسي. اما انا ، فذرائعي . ألا تعرف ديوي ؟

ـ كلا .

ـ خسارة . اننا غير معروفين جيداً في فرنسا . انه فيلسوف كبير . » وسكت بريستون لحظة : « لاحظ جيداً اننا لا نرفض مطلقاً ان نُنتقد . فما من احد مفتوح كأميركا للانتقادات البناءة . اشرح لنا كيف نحتفظ بمحبة الفرنسيين، وسوف نصغي اليك بأعظم اهتمام . لكن فرنسا غير مؤهلة تماماً للحكم على سياستنا في البحر المتوسط » .

فقال هنري في غيظ :

ـ لن أتكلم إلا باسمي . وسواء كنت مؤهلاً او غير مؤهل ، فإن لي الحق دوماً في ابداء رأيي .

وساد صمت وقال بريستون اخيراً :

ـ بديهي انك تفهم انه اذا ما اتخذت « الأمل » موقفاً ضد اميركا ، فلن استطيع ان احتفظ لها بودتي .

فقال هنري في جفاء :

ـ إنني افهم. وستفهم من جانبك انني لا أستطيع ان افكر بإخضاع «الأمل» لرقابتكم .

فقال بريستون وقد بدا عليه انه صُدم :

ـ لكن من يتحدث عن رقابة ! كل ما أتمناه ، ان اراك مثابراً على إخلاصك لذلك الحياد الذي جعلت منه قاعدة لك .

فقال هنري في غضب مفاجىء :

ـ بالضبط ، إني مخلص له . ان « الأمل » ليست للبيع ببضعة كيلووات من الورق .

فقال بريستون :

ـ اواه! إذا كنت تأخذ الأمر بهذه اللهجة ! » ونهض : « صدق انني آسف» .

فقال هنري :

– انا لا آسف على شيء .

وطوال اليوم شعر انه مغضب بشكل ما : حسناً ! كانت لديه فرصة جميلة ليغضب . لقد كان أبله إذ تصور ان بريستون سيلعب دور الأب نويل . انه عميل لوزارة الخارجية الأميركية . ولقد برهن هنري على سذاجة لا تغفر بتناقشه معه كما يتناقش مع صديق. ونهض فمضى إلى غرفة التحرير . وقال وهو يجلس على حافة الطاولة الكبيرة :

– يا مسكيني لوك ، لقد طارت المجلة .

فقال لوك :

– لا ؟ لماذا ؟

كان وجهه منتفخاً ومتهرماً ، كوجه قزم . وكان ما إن تصيبه خيبة ، حتى يبدو كأنه على وشك البكاء .

– لأن الأميركي هذا يريد ان يمنعنا من فتح فمنا ضد اميركا : بل لقد ساومني تقريباً .

– غير ممكن ! كان يبدو عليه انه شخص طيب !

فقال هنري :

– بمعنى ما ، هذا مدعاة للفخر ، فنحن موضع طمع كبير . ألا تعرف ماذا اقترح دوبروي البارحة مساء ؟ ان تصبح « الأمل » جريدة « الاشتراكي الثوري الحر » .

ورفع لوك نحو هنري وجهاً متجهماً : « وهل رفضت ؟ » .

– بالتأكيد .

فقال لوك بصوت ضارع :

– جميع تلك الأحزاب ، التجمعات ، والحركات ، التي تبعث ثانية ، يجب ان تظل خارج هذا كله .

كان اقتناع لوك تاماً للغاية حتى ان الانسان ، ولو كان يشاركه اياه ، ليميل

إلى اقلاقه بعض الشيء . وقال هنري : « لكن من الصحيح مع ذلك ان وحدة المقاومة لم تعد إلا لفظة ، وانه لا بد من ان نحدد موقفنا بوضوح » .

فقال لوك في حمية مفاجئة :

ــ لكنهم هم الذين يخربون الوحــــدة ! « الاشتراكي الثوري الحر » ، انهم يدعون هذا تجمعاً . وفي الواقع ، انهم يخلقون انشقاقاً جديداً .

ــ كلا ، الانشقاق إنما تخلقه البورجوازية . وعندما نزعم اننا نقف خــــارج صراع الطبقات ، فإننا نجازف بتنفيذ مآربها .

فقال لوك :

ــ اسمع ، الخط السياسي للجريدة ، إنما انت الذي يقرره ، فلديك من العقل اكثر مما لدي . أما التشيع « للاشتراكي الثوري الحر » ، فهـذه قصة اخرى : هنا ، أنا مخالف ، اطلاقاً . » وظهر التصميم على وجهه : « لقد أخفيت عنــــك تفاصيل مصاعبنا ، فيما يخص الشؤون المالية ، لكني حذرتك من أن الأمور ليست على أتم ما يرام . فإذا ما سرنا خلف حركة لا تعني شيئاً كبيراً ، بالنسبـة لأي انسان ، فهذا لن يسوي أمورنا » .

فقال هنري :

ــ أتعتقد اننا سنفقد المزيد من القراء ؟

ــ بديهي ! وعندئذ نكون قد صفينا .

فقال هنري :

ــ نعم ، هذا يبدو اكثر من مرجح .

فلقد انخفض الاصدار كثيراً ، لأن سكان الأقاليم كانوا يفضلون جرائــــدهم المحلية على الصحف الباريسية ، ما دامت هذه تصدر في حجم ورقة الملفوف الصغيرة. وهو لم يكن حتى واثقاً ان « الأمل » ستستعيد زبائنها ، عندما تستعيد حجمهـــا الطبيعي . وعلى كل حال انه لا يستطيـع ان يعرض نفسه لترف ازمة . وفكـر هنري : « يقيناً ، اني لست إلا مثالياً ! » . لقد عارض دوبروي بقصص ثقـــة ، ونفوذ ، ومسؤولية تؤدى ، مع ان الجواب الحقيقي كان موجوداً في الأرقام :

إننا سنفلس . ان هـــذه لحجة قوية لا تستطيع تجاهها شيئاً لا السفسطات ولا الاخلاق . وانه ليتحرق الى استعمالها .

ووصل هنري في الساعة الثانية إلى رصيف فولتير، لكن الهجوم المتوقع لم يبدأ فوراً . وكالعـــادة جاءت آن على عربة صغيرة دوارة بنوع من العشاء ، مقانق برتغالية ، ولحم خنزير ، وسلطة أرز ، وبزجاجة من مصنوعات « مورسو » احتفاء بعودة هنري . وتبادلوا تكراراً انطباعات عن السفر وآخر الشائعات الباريسية ، وفي الحقيقة لم يكن هنري يشعر انه على استعداد للقتال ، كان مسروراً من وجوده ثانية في ذلك المكتب . فهذه الكتب المستعملة ، ولكن المهدى معظمها ، والطُرَف الغربية التي كانت كلها تذكارات من اسفار، وكل هذه الحياة بامتيازاتها الخفية ، كان يقدرها عن بعد ، وفي الوقت نفسه كان هنا بيته الحقيقي ، وكان يشعر فيه بالدفء ، وبصميمية حياته الخاصة به . وقال لآن :

ــ ان الانسان ليرتاح عندك حقاً .

فقالت في مرح :

ــ أليس كذلك ؟ ما إن أخرج . حتى أشعر بالضياع .

وقال دوبروي :

ــ يجب القول بأن سكرياسين اختار مكاناً يخيف .

فقال هنري :

ــ نعم ، يا له من ماخور ! ولكن السهرة ، بشكل عام ، كانت ممتعة » وابتسم : « إلا النهاية » .

فقال دوبروي في سيماء من البراءة :

ــ النهاية ؟ كلا ، فأنا لم أشعر بالضيق إلا في لحظة « العيون السود » .

وتردد هنري . لعل دوبروي قد قرر ألا يعود الى المحاولة بسرعة كبيرة . وليس عليه إلا ان يستفيد من صمته ، إذ ان من الخسارة ان يفسد هذه اللحظة . لكن هنري كان متلهفاً على تأكيد انتصاره السري . وقال بصوت مرح :

ــ لقد نزلت بـ « الأمل » إلى دون الأرض .

فقال دوبروي مبتسماً :

– كلا ..

– آن شاهدة ! » وأضـاف هنري : « لم يكن كل شيء مزوراً في دعواك . لكني كنت أريد ان اقول لك : لقد فكرت ثانية باقتراحك بربط « الأمـل » « بالاشتراكي الثوري الحر » ، بل لقد حدثت عنه لوك : هذا لا مجال له إطلاقاً .

وامحت ابتسامة دوبروي . وقال : « آمل ألا تكون هذه كلمتك الأخيرة . لأن « الاشتراكي الثوري الحر » ، دون جريـدة ، لن يكون شيئاً مطلقاً . ولا تقل لي ان هنـاك صحفاً أخرى : فليس لأحد منها اتجاهنا بالضبط . واذا رفضت انت ، فمن سيقبل ؟ » .

فقال هنري :

– اعرف . لكن ادرك هذا: ان « الأمل » حالياً في ازمة ، كمعظم الصحف. اعتقد اننـا سنخرج منها ، لكننا سنتعب قليلاً في سد عجز ميزانيتنا . وفي اليوم الذي نقرر فيه أن نصبح جريدة حزب سياسي ، فإن الطبـع سينخفض مباشرة : ونحن لسنا قادرين على تحمل الضربة .

فقال دوبروي :

– ان منظمتنا ليست حزباً . انها حركة واسعة بما فيه الكفاية كي لا يتخوف قراؤك منها .

فقال هنري :

– سواء كانت حزباً او حركة ، فهذا شيء واحد عملياً . جميـع اولئك العمال الشيوعيين او المناصرين للشيوعية الذين كنت أحدثك عنهم، يشترون عن طواعية، في الوقت نفسه الذي يشترون فيه « الاومانيتيه » ، جريدة إخبارية ، لكن ليس صحيفة سياسية اخرى . حتى لو سار « الاشتراكي الثوري الحر » يداً في يد مع الحزب الشيوعي ، فهذا لن يغير شيئاً : سوف تصبح « الأمل » مشبوهة مـــن اللحظة التي تلصق فيها على نفسها بطاقة . » وهز هنري كتفيه : « في اليوم الذي لن نقرأ فيه الا من قبل اعضاء « الاشتراكي الثوري الحر » ، فإننا نستطيع ان

نضع المفتاح تحت الباب » .

فقال دوبروي :

ـ ان اعضاء « الاشتراكي الثوري الحر » سيزدادون كثيراً جداً عندما يكون لنا دعم من جريدة .

فقال هنري :

ـ بانتظار ذلك، ستكون هناك مرحلة تقهقر طويلة . وهذا يكفي لإفلاسنا، مما هو في غير مصلحة احد .

فقال دوبروي مسلماً :

ـ كلا ، هذا ليس في مصلحة احد . » والتزم الصمت لحظة . وكان، بأطراف اصابعه ، يربت على نشافته . وقال : « بديهي ، ان هناك مجازفة » .

فقال هنري :

ـ مجازفة لا نستطيع السماح لأنفسنا بالمغامرة فيها .

وفكر دوبروي للحظة ثانية ، وقال متنهداً : « يلزمنا لذلك مال ».

ـ بالضبط ، نحن لا نملكه .

فاعترف دوبروي بصوت حالم :

ـ نحن لا نملكه .

يقيناً ، كان لا يعترف امام نفسه بالهزيمة بمثل هذه السهولة ، وكان لا يزال يقلب آمالاً في رأسه . لكن الحجة قد أتت ثمارها ، ولم يعد إلى الموضوع طوال الأسبوع التالي . ومع ذلك فقد رآه هنري غالباً ، وكان حريصاً على ان يثبت له ارادته الطيبة : فقابل سامازيل مرتين ، وحضر اجتماعات اللجنة ، ووعد بنشر البيان في « الأمل » . وكان لوك يقول « افعل ما شئت ، ما دمنا مستقلين » .

كانوا باقين على استقلالهم، فهذا شيء تحقق : لكن كان لا بد ايضاً من معرفة ما العمل بهذا الاستقلال . ففي ايلول ، كان كل شيء يبدو بسيطاً : شيء من الحس السليم وشيء من الارادة الطيبة ، وكان هذا يكفي ، وكانوا في أمان . اما الآن ، فإن المشاكل لا تتوقف عن طرح نفسها ، وكل منها يعيد النظر في كل

شيء . فقد نوه لاشوم في سخاء بمقالات هنري عن البرتغال حتى ان « الأمل » كادت تعتبر اداة في يد الحزب الشيوعي : هل يجب التكذيب ؟ لم يكن هنري يريد ان يخسر ذلك الجمهور من المثقفين الذين يحبون « الأمل » لتجردها . كما انه لا يريد ان يغضب قراءه الشيوعيين . لكنه ، بمداراته جميع الناس ، يحكم على نفسه باللامعنى ، وبذلك يساهم في تخدير الناس . إذن ماذا ؟ كان يقلب السؤال في رأسه ، وهو يسير نحو « السكريب » حيث كان لامبير ينتظره للعشاء . انه ، مهما سيقرر ، يكون قد استسلم لمزاج لا لبداهة . وعلى الرغم من كل قراراته ، كان لا يزال عند النقطة نفسها: انه لا يعرف بما فيه الكفاية ، انه لا يعرف شيئاً. وقال في نفسه : « من المنطقي على كل حال ان أستعلم اولاً ثم أتكلم » . ولكن الأمور لا تسير على هذا النحو . فأولاً ، يجب الكلام ، لأن هذا عاجل جداً . وفيما بعد ستظهر الأحداث ما إذا كنت على صواب او خطأ . وقال في نفسه في استياء : « هذا بالضبط ما يسمى خداعاً . فأنا ايضاً أخدع قرائي » . كان قد وعد نفسه بأن يقول للناس اشياء تستطيع ان تنيرهم ، ان تساعدهم على التفكير ، اشياء حقيقية ، وهو الآن يخدع . ما العمل ؟ لم يكن يستطيع ان يغلق المكاتب، ويسرح الموظفين كلهم، وان يسجن نفسه طوال عام في غرفة مع كتب! كان على الصحيفة ان تعيش ، وكي تعيش كان هنري مرغماً على ان يكرس نفسه لها يوماً فيوماً ، وتوقف امام « السكريب » . كان مسروراً بتناول العشاء مع لامبير . وكان يزعجه قليلاً اضطراره إلى تحديثه عن اقاصيصه ، لكنه كان يأمل بأن لامبير لا يعلق عليها اهمية كبيرة . وادار الباب الدوار . وخيل إليه انه نقل فجأة إلى قارة اخرى : كان الجو دافئاً ، ورجال ونساء يرتدون بزات اميركية ، والهواء يعبق برائحة التبغ الأصهب وفي الواجهات تنتشر طرف غالية . وتقدم لامبير مبتسماً،متنكراً هو ايضاً في زي ملازم.وكان في غرفة المطعم التي يستخدمها المراسلون الحربيون مقصف، كان على الطاولات زبدة وموشورات من خبز شديد البياض . وقال لامبير في مرح :

— أتعرف ، إننا نستطيع ان نحصل على نبيذ فرنسي في مخزن الأدوية هذا .

وسنأكل كما يأكل اسير حرب الماني .

– أيسخطك انت ان يغذي الأميركان اسرهم كما يجب ؟

– ليس هذا على وجه الخصوص، وان كان من المغضب حقاً ان ترى الفرنسيين في بعض الزوايا يأكلون القرميد . إنما المجموع هو المقرف : كيف يداورون الالمان ، بما فيهم النازيون ، وكيف يعاملون رجال المعسكرات .

فقال هنري :

– اود كثيراً لو اعرف ما اذا كان صحيحاً انهم يمنعون الصليب الأحمر الفرنسي من دخول المعسكرات .

فقال لامبير :

– هذا اول ما سأتحقق منه .

فقال هنري وهو يملأ صحنه بالطعام :

– يقيناً ، اننا لسنا متحمسين لأميركا هذه الأيام .

– لا مجال هناك لأن نكون كذلك ! » وقطب لامبير حاجبيه : « خسارة ان يسر لاشوم كثيراً » .

فقال هنري :

– كنت أفكر بهذا وانا قادم . اذا قلت كلمة واحدة ضد الحزب الشيوعي، فأنت تنفذ مآرب الرجعية ! واذا انتقدت واشنطن ، فها انت شيوعي . اللهم إلا اذا شكوا في انك من الطابور الخامس .

فقال لامبير :

– لحسن الحظ ان إحدى الحقيقتين تصلح الأخرى .

فهز هنري كتفيه : « يجب ألا نثق بذلك كثيراً . أتذكر ، ليلة سهرة الميلاد عندما كنا نقول ان « الأمل » يجب ألا تتبع لجماعة . الواقع ان هذا ليس سهلاً» .

فقال لامبير :

– ليس علينا إلا ان نستمر في الكلام حسب ضميرنا !

فقال هنري :

– أتدرك ذلك ! في كل صباح أشرح لمئة ألف شخص ماذا يجب ان يعتقدوا : وبمَ أهتدي ؟ بصوت ضميري ؟ » وصبّ لنفسه كأس نبيذ : « هذا غش ! » .

فابتسم لامبير . وقال في حب : « اذكر لي صحفيين اكثر وسواساً منك . انت تفتح بنفسك جميع البرقيات ، وتراقب كل شيء .

فقال هنري :

– انني أحاول ان اكون شريفاً ، يوماً فيوماً . ولكن هذا ، بالضبط ، لا يترك لي دقيقة واحدة لأدرس الأشياء التي أتكلم عنها دراسة عميقة .

فقال لامبير :

– هيا ! ان قراءك مسرورون جداً هكذا . انني اعرف مجموعة من الطلاب لا يحلفون إلا على « الأمل » .

فقال هنري :

– إنما لهذا أشعر انني اكثر ذنباً !

فنظر إليه لامبير في قلق : « لن تجلس طوال اليوم لتدرس احصاءات ؟ » .

فقال هنري :

– هذا ما يجب ان افعله !

وساد صمت قصير وفجأة قرر هنري : من الأفضل التخلص بأسرع ما يمكن من تلك السخرة . وقال :

– لقد أتيتك بقصصك . » وابتسم للامبير : « هذا غريب ، لديك كومة من التجارب وراءك ، وقد عشتها بشكل قوي جداً ، وقد حدثتني عنها بشكل جيد غالباً ، وريبورتاجاتك حافلة دوماً بأشياء . ولكنك في قصصك لا تضع منها شيئاً . انني أتساءل لماذا .

فقال لامبير :

– أتجدها رديئة ؟ » وهز كتفيه : « لقد حذرتك » .

فتردد لامبير : « ان الأشياء التي تلمسني حقاً لا تهم احداً » .

فابتسم هنري : « ان المرء ليشعر تماماً ان الأشياء التي تتكلم عنها لا تلمسك

مطلقاً . كأنك كتبت هذه القصص كما تكتب عقاباً فُرض عليك » .

فقال لامبير :

ـ اواه ! كنت أشك تماماً في انني لست موهوباً .

كان يبتسم ، لكن كانت ابتسامته مغتصبة . وشعر هنري انه في الحقيقة يعلق أهمية كبيرة على هذه القصص . وقال :

ـ من هو موهوب ، ومن هو غير موهوب ؟ اننا لا نعرف كثيراً ماذا يعني هذا . كلا ، لقد اخطأت باختيارك مواضيع ، خارجية بالنسبة لك تماماً ، هذا كل شيء . في المرة القادمة ، ضع نفسك حقاً في الأمر .

فقال لامبير :

ـ لن استطيع . » وضحك ضحكة صغيرة « انني النموذج الكامل للمثقف الصغير المسكين العاجز ابداً عن ان يصبح مبدعاً » .

فقال هنري :

ـ لا تستسلم ! ان هذه القصصِ لا تثبت شيئاً . ومن الطبيعي ان يخطىء المرء الاصابة ، في المرة الأولى .

فهز لامبير رأسه : « انني اعرف نفسي . لن افعل ابداً شيئاً ذا قيمة . وإنه ليدعو للرثاء المثقف الذي لا يفعل شيئاً » .

ـ ستفعل شيئاً ما إذا كنت حريصاً على ذلك . ومن جهة اخرى ، أن تكون مثقفاً ، فليس هذا عيباً !

فقال لامبير :

ـ وليس نعمة .

ـ إنني من المثقفين ، وانت تريد كثيراً ان تخصني بتقديرك .

فقال لامبير :

ـ انت ، هذا يختلف .

ـ كلا . انني مثقف . ويغيظني ان يجعلوا من هذه الكلمة إهانة : يبدو على الناس انهم يعتقدون ان فراغ عقولهم يقوي أصلابهم .

كان يبحث عن نظرة لامبير ، لكن لامبير كان ينظر في عناد إلى صحنه . وقال : « إنني أتساءل إلام سأصير إليه عندما تنتهي الحزب » .

– ألا تريد ان تبقى في الصحافة ؟

فقال لامبير :

– مراسل حربي ، هذا مقبول ، اما مراسل سلمي ، فهذا غير معقول . » وأضاف بصوت منتعش : « امتهان الصحافة كما تمتهنها انت ، فهذا يستحق الجهد : إنها مغامرة حقيقية . ولكن ان اكون محرراً ، حتى في « الأمل » ، فلا بد ان اكون بحاجة إلى كسب حياتي ليكون هذا معنى . ومن جهة أخرى ، ان اعيش كصاحب دخل ، فهذا يزعج ضميري » . وتردد : « لقد تركت لي امي الكثير من المال : ان ضميري منزعج على كل حال » .

فقال هنري :

– جميع الناس على هذه الحال .

– اواه ! انت ، كل ما تملكه هو ما تكسبه ، فلا مجال لذلك .

فقال هنري :

– ابداً لا يكون الانسان مرتاح الضمير . مثلاً ان آكل هنا وان أحرم على نفسي مطاعم السوق السوداء: هذا صبياني. ان لنا جميعاً حيلنا . فدوبروي يتظاهر بأنه يأخذ المال لعامل طبيعي . وهذا لا شك صحيح إلى حد كبير . ولكنه لا يفعل شيئاً ليربح المال ، ولا يرفض إعطاءه لأي انسان ابداً ، ويترك لآن امر تدبيره . وهي تتدبر امرها بأن لا تعتبره مالها : إنما لأجل زوجها وابنتها تنفقه ، ولتؤمن لهما حياة مريحة تستفيد منها . اما انا فما يساعدني هو انني اجد مشقة عظيمة في سد عجز ميزانيتي ، لذلك يخيل إليّ انني لا املك شيئاً اكثر من اللازم . وهذا ايضاً طريقة في الغش .

– هذا على كل حال يختلف .

فهز هنري رأسه : « عندما يكون الوضع غير عادل ، فلا يمكنك ان تعيشه كما يجب . ولهذا نحن مقادون الى العمل في السياسة : كي نحاول ان نغير الوضع » .

فقال لامبير :

– إنني أتساءل احياناً ما اذا لم يكن من واجبي ان ارفض هذا المال، ولكن ماذا سيفيد هذا ؟ » وتردد : « ثم انني اعترف ان الفقر يخيفني » .

– حاول بالأحرى ان تستعمله بشكل مفيد .

– حسناً ! بالضبط : كيف ؟ ماذا استطيع ان افعل به ؟

– لا بد ان هناك اشياء تهمك ؟

فقال لامبير :

– انني أتساءل ...

فقال هنري في شيء من نفاد الصبر :

– انت تحب اشياء ، أليس كذلك ؟ ألا تحب شيئاً ؟

– اني لا أرغب في ان أحب رفاقاً ، لكن منذ التحرير لا نكف عن الخصام. اما النساء ، فانهن بلهاوات او انهن لا يحتملن . واما الكتب ، فقد ملأت بها رأسي ومللت ، واما السفر ، فان الأرض حزينة ايضاً في كل مكان . » وختم كلامه : « ثم انني، منذ بعض الوقت، لم اعد اعرف كيف اميز الخير من الشر ».

– كيف ذلك ؟

– منذ سنة ، كان ذلك بسيطاً جداً ، كصورة من « أبينال [1] » اما الآن فاننا نتبين ان الأميركان غلاظ عنصريون كالنازيين وأنهم لا يبالون بأن يستمر الناس في الموت بالمعسكرات . والمعسكرات ، يبدو ان في الاتحاد السوفياتي عدداً منها ليس جميلاً مطلقاً أيضاً . ونحن نُعدم بعض المتعاونين وآخرون لا يقلون نذالة نغطيهم بالزهور .

– اذا كنت تسخط ، فهذا يعني انك لا زلت تؤمن ببعض الأشياء .

– كلا ، بصراحة ، عندما يبدأ المرء بطرح أسئلة على نفسه ، فلا شي يقاوم . هناك كمية من القيم تعتبر مسلماً بها : باسم ماذا ؟ في الحقيقة ، لمَ الحرية ، لمَ المساواة، أية عدالة لها معنى ؟ لماذا نفضل الآخرين على انفسنا ؟ ان انساناً لم يبحث

---

١ ـ مدينة فرنسية صغيرة مشهورة بصنع الصور . «المترجم»

إلا عن التمتع بالحياة مثل ابي ، هــل كان على خطأ كبير ؟ » ونظر لامبير إلى هنري في قلق : « هل اصدمك ؟ » .

– مطلقاً . يجب علينا ان نطرح هذه الأسئلة على انفسنا .

فقال لامبير الذي كان صوته يعلو :

– يجب على الأخص ان يجيب احدهم على هذا . انهم يصدعون رأسنا بالسياسة : لكن لمَ نفضل سياسة على اخرى ؟ اننا بحاجة أولاً إلى اخلاق ، إلى فن للحياة . » ونظر لامبير إلى هنري في شيء من التحدي : « هذا ما يجب عليك ان تعطينا اياه . وسيكون هذا اكثر فائدة من مساعدة دوبروي على تحرير بيانات »

فقال هنري :

– ان الأخلاق تتضمن بالضرورة موقفاً سياسياً . وبالعكس : فالسياسة شيء حي .

فقال لامبير :

– لا أرى هذا . في السياسة ، لا يهتمون إلا بأشياء لا وجود لها : المستقبل ، المجتمع . في حين ان ما هو حسي هو اللحظة الحاضرة ، هم الأفراد واحداً واحداً .

فقال هنري :

– ولكن الأفراد يعنيهم التاريخ الجماعي .

فقال لامبير :

– المصيبة ، انهم في السياسة لا يعودون ابداً مــن التاريخ إلى الفرد . انهم يضيعون في التعميات ، وما من أحد يبالي بالحالات الخاصة .

كان لامبير قد تكلم بصوت ملح جداً حتى أن هنري نظر إليه في فضول : « مثلاً ؟ » .

– مثلاً ، خذ مشكلة الأذناب . سياسياً ، تجريدياً ، ان انساناً عمل مــع الألمان ، لهو نذل . والناس يبصقون عليه ، وليست هناك مشكلة . والآن إذا رأيت عن قرب شخصاً معيناً ، فالقضية لا تعود ذاتها .

فقال هنري :

– أتفكر بوالدك ؟

– نعم . منذ زمن وأنا اريـــد ان أسألك نصيحة : هل يجب عليّ حقاً ان استمر في ادارة ظهري له ؟

فقال هنري مبغوتاً :

– في السنة الماضية ، كنت تتحدث عنه بلهجة !

– لأنني في ذلك الحين كنت اعتقد انه وشى بروزا . لكن أقنعني بهـــذا الخصوص : لم يكن له دخل في الأمر . كان الجميع يعرفون ان روزا يهودية . كلا ، ان والدي إنما تعاون تعاوناً اقتصادياً ، وهذه دناءة طبعاً . ولكنه اخيراً سيجر امام المحاكم وسوف يدان دون شك . انه شيخ ...

– أرأيته ثانية ؟

– مرة واحدة . ثم أرسل لي عدة رسائل ، رسائل بلبلتني بالأحرى ، اعترف لك .

فقال هنري :

– إذا كنت ترغب في التصالح معه : فأنت حر تماماً . وأضاف : « لكني كنت اعتقد ان علاقاتكما سيئة للغاية ؟ » .

– عندما عرفتك نعم . » وتردد لامبير وقال في جهد : « انه هو الذي رباني. اعتقد انه على طريقته كان يحبني كثيراً . كل ما هنالك ، كان يحب ألا أعصاه » .

فسأل هنري :

– قبل ان تعرف روزا ، لم تعصه ابداً ؟

فقال لامبير :

– كلا . وهذا ما يجعله يجن غضباً : كانت المرة الأولى التي أعارضه فيها . » وهز كتفيه : « بل لقد ناسبني ان اعتقد انه وشى بها ، فهكذا لم تعد هنـــاك مشكلة : كنت على استعداد لقتله بيدي في ذلك الوقت » .

– لكن كيف توصلت إلى الشك فيه ؟

– لقد وضع لي بعض الرفاق هذه الفكره في رأسي : ومنهم فانسان . لكني

كلمته مرة اخرى عن الأمر ، ليس عنده مطلقاً أي دليـــل ، حتى ولا أبسط دليل . وقد اقسم بي على قبر أمي ان هذا كذب . والآن ودمي بارد ، فأنا واثق انه ما كان ليستطيع ان يرتكب شيئاً كهذا ، ابداً .

فقال هنري :

ـ هذا يبدو بالأحرى وحشياً . » وتردد . كان لامبير يتمنى والده بريئاً ، كما تمناه قبل سنتين مذنباً ، دون أدلة . ولم تكن هناك بلا شك اية وسيلة لمعرفة الحقيقة . وقال هنري : « فانسان يبرع أكيداً في الرواية البوليسية . إسمع ، اذا لم تعد تشك في والدك ، اذا لم تعد حاقداً عليه شخصياً ، فليس عليك انت ان تمثل دور رجال العدالة . عد إلى رؤيته ، افعل ما يعجبك ، ولا تهتم بأحد » .

فقال لامبير :

ـ اتعتقد حقاً انني أستطيع ؟

ـ من يمنعك ؟

ـ ألا تظن ان هذا سيكون دليلاً على المرض بالطفولة ؟

فتفرس هنري في وجه لامبير في دهشة : « الطفولة ؟ » .

فاحمر لامبير : « اعني ، دليل جبن ؟ » .

ـ كلا . ليس من الجبن ان تعيش كما تحس .

فقال لامبير :

ـ نعم ، انت على حق . سأكتب له . » وأضاف بصوت معترف بالجميـــل : « لقد فعلت حسناً اذ كلمتك » .

وغرز معلقته في الملام الوردي الذي كان يهتز في صحنه . وتمتم : « تستطيع ان تساعدنا كثيراً . ليس انا فقط : فهناك كثيرون من الشبان في حالتي » .

فقال هنري :

ـ أساعدكم على ماذا ؟

ـ انت تملك حس ما هو عيني . عليك ان تعلمنا كيف نعيش يوماً فيوماً .

فابتسم هنري : « الاخلاق ، فن الحياة ، لا تدخل مطلقاً في مشاريعي » .

ورفع لامبير نحوه عينين لامعتين : « اوه ! لقد اخطأت التعبير عن مقصدي. لم اكن أفكر بدراسات نظرية . لكنك حريص على أشياء ، تؤمن بقيم . إذن يتوجب عليك ان تظهر لنا ما يمكن ان يحب على هذه الأرض . وايضاً ان تجعلها قابلة للسكن قليلاً بأن تكتب كتباً جميلة . يخيل إلي ان هذا هو دور الأدب » .

كان لامبير قد ألقى هذا الخطاب القصير دون ان يأخذ نفساً . وشعر هنري انه أعده مسبقاً وانه ينتظر منذ ايام اللحظة التي يجـــدها مناسبة ليلقيه . وقال : « ان الأدب ليس بالضرورة مرحاً » .

فقال لامبير :

– بلى ، بالضرورة . حتى ما هو كئيب يصبح مرحاً عندما يجعل منه فناً. » وتردد : « مرح ، ربما ليست هذه هي الكلمة . لكن اخيراً ، هذا قابل للتبرير ». وتوقف تماماً واحمرّ : « اواه ! لا أريد ان أملي عليك كتبك . لكن ، يجب ألا تنسى انك قبل كل شيء كاتب ، فنان » .

فقال هنري :

– انا لا انسى هذا .

– اعرف ، ولكن ... » ومن جديد اضطرب لامبير : « مثلاً،ريبورتاجك عن البرتغال جيد جداً ، لكني أتذكر صفحات عن صقلية ، في المـــاضي . اني لآسف قليلاً أنك لم تكتب مثلها ثانية » .

فقال هنري :

– لو رأيت البرتغال ذات مرة، فلن ترغب في وصف أشجار الرمان المزهرة .

فقال لامبير بصوت ملح :

– آه ! أود لو تعاودك تلك الرغبة . لمَ لا ؟ ان لنا كل الحق بأن نتنزه على شاطىء البحر دون ان نقلق لأسعار السردين .

فقال هنري :

– المشكلة انني لم أستطع .

فتابـع لا مبير في حدة :

ـ لقد اشتركنا في المقاومة لندافع عن الفرد ، عن حقه في أن يكون كما هو وان يكون سعيداً . وقد آن ان نجني ما زرعناه .

فقال هنري :

ـ المصيبة ، هي انه يوجد بضعة مليارات من الأفراد ليس هذا الحق بالنسبة لهم إلا لفظاً ميتاً . » وهز كتفيه : « اعتقد اننا ، لكوننا قد بدأنا بالاهتمام بهم ، لم نعد نستطيع ان نتوقف » .

فقال لامبير :

ـ إذن ، على كل فرد ان ينتظر ان يكون جميع العالم سعيداً قبل ان يحاول ان يكون كذلك ؟ الفن والأدب ، هل تُركا للعصر الذهبي ؟ مع اننا ، إنما نحتاج إليهما الآن !

فقال هنري :

ـ انا لا أقول انه يجب ألا نكتب بعد الآن . » وتردد . لقد أصابه تأنيب لامبير في الصميم . نعم لقد كانت هناك حقاً اشياء اخرى تقال عن البرتغال، وهو لم يغفلها بدون أسف اطلاقاً . فنان ، كاتب : هذا ما يريد ان يكونه ، وقد كان يجب ألا ينسى ذلك . لقد وعد نفسه بوعود عظيمة في الماضي . وقد آن أن يفي بها . نجاح في ايام الشباب ، وكتاب جاء في أوانه يقرظونه بلا تميز : كان يريد شيئاً آخر . واستأنف كلامه : « بالفعل ، لقد شرعت في كتابة رواية يحبها قلبك . رواية مجانية تماماً ، أروي فيها اشياء للذتي الخاصة » .

فقال لامبير :

ـ أهذا صحيح؟ » وأضاء وجهه: « أكتبت منها كثيراً؟ وهل هي تسير؟ » .

فقال هنري :

ـ البدايات دائماً صعبة . لكنها تسير !

فقال لامبير :

ـ اواه ! انني مسرور جداً ! كانت خسارة كبيرة ان تتركهم يأكلونك !

فقال هنري :

– لن أترك نفسي يأكلونني .

سألت بول :
– أتتقدم روايتك المرحة؟
فقال هنري :
– نعم ، إنها تتقدم .
وتمددت على السرير ، خلفه ، وشعر على رقبته بنظرتها المتأملة . ان النظرة لا تحدث صوتاً ، وهو سيبدو غليظاً اذا طردها ، لكنها كانت تثقـــل عليه . وبذل جهداً ليعيد انتباهه الى روايته . لقد اتخذ قرارات أثناء هذا الشهر ، ورضخ لجعل احداث قصته تدور في ١٩٣٥ . ربما كان هذا خطأ ، فما قد مضت الأيام والجمـل تجف على طرف قلمه .
وقال في نفسه مقرراً : « نعم ، هذا خطأ » . كان يريد ان يتكلم عن نفسه : حسناً ! لم تعد له علاقة بمـــا كان عليه في ١٩٣٥ . لامبالاته السياسية ، فضوله ، طموحه ، كل ذلك التمسك بالفردية ، ما كان أقصره ، ما كان أسذجه ! كان ذلك يفترض مستقبلاً بلا عقبات ، تقدماً مضموناً ، اخوة مباشرة بين البشر ، اجيـالاً قادمة صديقة : كان ذلك يفترض على الأخص أنانية وطيشاً . اواه ! كان يستطيع بدون شك ان يجد لنفسه أعذاراً . لكنه يكتب هذا الكتاب ليحاول ان يقول حقيقة حياته ، لا ليشرح أخطاءها. وقرر : « يجب ان اكتبه في الزمن الحاضر». وأعاد قراءة الصفحات الأخيرة. من المؤسف التفكير بأن هذا الماضي سوف يدفن نهائياً : المجيء الى باريس ، اللقـاءات الأولى مع دوبروي ، السفر الى « جوبا » . وقال في نفسه : « اواه ! لقد عشته ، هذا يكفي ! » . لكن اذا سار في هـــذا الطريق ، فان الحاضر ايضاً يكفي نفسه ، والحياة تكفي نفسها : والمشكلة انهـا لا تكفي نفسها لأنه بحاجة للكتابة ليشعر بأنه حي تماماً . اخيراً ، ليكن . على كل حال لا يمكن انقاذ كل شيء . القضية هي ان يعرف ماذا لديه ليقوله عـــن نفسه ، اليوم . « اين انا ؟ من هذا ؟ ماذا أريـد ؟ » . شيء غريب . اذا تشبث الانسان إلى هـــذا الحد بالتعبير عن نفسه ، فهذا لأنه يشعر انه فريد ، وهو لا

يستطيع حتى ان يقول : بمَ هو فريد . « من انا ؟ » . لم يكن يسأل نفسه هـذا السؤالَ في الماضي . في الماضي كان الناس الآخرون محددين جميعاً ، لهم حدودهم : اما هو فلا . كانت كتبه وحياته امامه ، وكان هذا يسمح له بأن ينقض جميـع الأحكام التي تؤخذ عنه ، وان ينظر إلى جميع النـاس ، حتى دوبروي ، في شيء من التعالي ، من أعلى اعماله المستقبلة . لكن عليه الآن ان يعترف انه انسان قـد تم : فالشبان يعـاملونه كأخ بكر ، والراشدون كواحد منهم ، بل والبعض يظهرون له تقديراً . ثم انه قد تحدد ، انتهى ، هو وليس غيره ، لا احـد آخر غيره : من ؟ بمعنى ما ، إن كتبه هي التي ستقرر ذلك . ولكن بالعكس كي يكتبها لا بد له ان يعرف حقيقته الخاصة . للوهلة الأولى ، كان معنى الأشهر التي عاشها واضحاً بما فيه الكفاية ، ولكن اذا نظر عن قرب أقرب ، فإن كل شيء يتشوش . ان يساعد الناس على التفكير بشكل افضل ، على العيش بشكل افضل ، هل هو متمسك بهذا حقاً ام ان هذا ليس إلا حلماً مدعي الحب للانسانية ؟ هـل يهتم حقاً لمصير الآخرين ، ام يهتم فقط بسلام ضميره ؟ والأدب : ماذا أصبح بالنسبة له ؟ ان يريد الانسان الكتابة ، فهـذا شيء مجرد تماماً عندما لا يكون لديه شيء عاجل يجب ان يقوله . وكانت ريشته باقيـة معلقة ، وفكر في غيظ ان بول ترى انه لا يكتب . وسأل : « هل تذهبين الى عند غريبان غداً صباحاً ؟ » .

فضحكت بول ضحكة صغيرة : « انت ، عنـدما تكون عندك فكرة في رأسك ! » .

– إسمعي ، ان تلك الأغنية تناسبك كقفاز ، وتقولين انك تحبينها ، وموسيقى بيرجير رائعة ، وسابريريو سيسمعك يوم تريدين : إذن تستطيعين ان تعطيها صوتك ! وبدل إن تتناومي في هذا السرير ، تستطيعين ان تشتغلي صوتك حتى لا يكون اسوأ من المجموع ، اؤكد لك .

– انني لا أتناوم .

– على كل حال ، الآن وقد اخذت لك هذا الموعد ، سوف تذهبين إليه ؟

فقالت :

– أريد كثيراً ان اذهب إلى عند غريبان وأتعلم جيداً كيف أغني أغنيتك .
– لكنك لن تغنّيها امام مستمعين ، أهذا ما تريدين قوله ؟
فقالت : « شيء ما كهذا » .
– انت تثبطين شجاعتي !
– اعترف بأنني لم اشجعك ابداً ! » وابتسمت من جديد ، وقالت في حنان: « لا تهتم بي إذن » .

كان يود كل الود لو اهتم بها مرة واحدة نهائية ، ثم لا يعود يشعر بها هكذا خلفه تترصده . لكن لعلها تدرك ذلك . كان قد تكلم مع سابريريو ، وكتب اغنيتين ، وألف برنامجاً كاملاً ، وتلفن إلى غريبان ، وفعل كل ما باستطاعته ان يفعل من أجلها . كانت تريد حقاً ان تغني له ، بل وفي أغلب الأحيان من اجل رغبته : لكنها كانت معاندة في رفضها . وعاد يصف دون فرح جملاً ميتة .

كانت قد مضت ساعتان وهو سأمان امام الورق عندما قرع باب الاستديو بتواصل . ونظر إلى ساعته : منتصف الليل وعشر دقائق : « لقد دق الباب » .

كانت بول تتناوم على سريرها ، وانتصبت : « هل افتح ؟ » .

وقرع الباب من جديد وسمعا صوتاً مرحاً : « انا دوبروي ، هل ازعجكما؟ » .
وهبطا معاً الدرج وفتحت بول الباب : « لم يحدث شيء ؟ » .
فقال دوبروي باسماً :
– لمن ؟ لقد رأيت نوراً ، ففكرت انني استطيع ان اصعد . ان منتصف الليل لم يكد يمضي . هل كنتما على وشك النوم ؟ » .
وكان قد جلس على المقعد الجلدي حيث يجلس عادة . وقال هنري :
– كنت راغباً على الضبط في شرب قدح ! وما كنت لأجرؤ على شربه بمفردي . انه ملاكي السيء الذي أتى بك .
فسألت بول وهي تفتح الخزانة :
– كونياك ؟
– بسرور . » وتطلع دوبروي إلى هنري بوجه مشرق : « انني آتيك بنبأ

سيهمك كثيرا ، وهو لما يزل حارا » .

– ماذا إذن ؟

– لقد تخلينا بشكل من الأشكال عن فكرة جعل « الأمل » جريدة « الاشتراكي الثوري الحر » بسبب الأزمة المالية التي يمكن ان تتبع ذلك ...

فقال هنري :

– نعم . » واخذ القدح الذي كانت بول تمده له وشرب جرعة في قلق غامض.

– حسناً ! انني خارج من عند شخص محشو بالمال مستعد لدعمنا عند الحاجة . ألم تسمع بشخص يدعى تراريو ؟ تاجر احذية ضخم ساهم بعض الشيء في المقاومة ؟

– هذا يذكرني بشيء ما .

– انه يملك ملايين فائضة ، وإعجاباً لا حدود له بسامازيل : تركيبة سعيدة تقوده إلى مساعدة « الاشتراكي الثوري الحر » بشكل جوهري جداً . وهذا المساء ، اخذني سامازيل اليه . انه على استعداد لتمويل مهرجان حزيران الخطابي. وسيقدم كل الرساميل الضرورية اذا اصبحت « الأمل » جريدة الحركة .

فقال هنري :

– لسامازيل علاقات جميلة حقاً .

وأفرغ كأسه بجرعة واحدة . كان مغتاظاً قليلاً من مرح دوبروي السريع العدوى . وقال دوبروي ضاحكاً :

– سامازيل ، شخص من النوع الذي يتعشى في المدينة . اما أنت وانا فهذا آخر شيء يمكن الحصول عليه منا ، فأنا أفضل ان أبحث في مكاني . ولكن هو ، هذا يعجبه ، وهو يعجب . هذا أفضل ، لأنه هكذا يجمع مالاً : لست أعرف أين كنا سنكون بدونه في المسائل المالية . لقد عرف تراريو أثناء الاحتلال وثقّفه .

– أهو من « الاشتراكي الثوري الحر » ذلك الاسكافي بكل ملايينه ؟

– أيدهشك هذا ؟

كانت بول قد جلست تجاه دوبروي ، وكانت تدخن سيجارة وهي تنظر إليه في ثبات ، في سيماء من كراهية . وهمت بأن تفتح فمها وأحس هنري بصوتها

الساخط ، فسبقها :

– لن أقول لك ان اقتراحك يحمسني .

فهز دوبروي كتفيه : « أتعرف ، ان جميع الصحف ستضطر آجلاً ام عاجلاً إلى قبول معونات خاصة . الصحافة الحرة كذبة جميلة أخرى ! » .

فقال هنري :

– لقد أصلحت « الأمل » وضعها . إننا نستطيع ان نكتفي أنفسنا طويلاً إذا بقينا على ما نحن عليه .

فقال دوبروي في حدة :

– ستكفون أنفسكم : ثم ماذا ؟ إنني أفهم جيداً : لقد خلقت « الأمل » بمفردك ، وتحب ان تتحمل الضربة بمفردك . » وكرر : « إنني أفهم . لكن فكر بالذي عليك ان تلعبه ! أأدركت خلال هذا الشهر حاجة «الاشتراكي الثوري الحر » إلى صحيفة أم لا ؟

فقال هنري :

– بلى .

– وانت موافق على أهمية محاولتنا إذن ؟

فقال هنري :

– اذا كان هذا السيد سيمول « الأمل » ، فسوف يريد ان يدس انفه فيها .

فقال دوبروي :

– آه ! هذا لا مجال له ! انه لن يتدخل بالتأكيد في إدارة الجريدة . في الحقيقة ، انك ستكون أكثر استقلالاً مع مثل هذا الوصي بما أنت عليه الآن : لأنك ، ها أنت اخيراً مربوط خوف ان تفقد قراءك .

– انه يبدو لي انساناً محباً للمجتمع ، غريباً ، رجلك ذاك .

فقال دوبروي :

– وإذا رأيته ، فسوف تفهم حالاً .

فقال هنري :

– لا أستطيع على كل حال ان أعتقد انه لن يفرض عليّ أي شرط .
– ولا شرط ، أضمن لك هذا . هذه مسألة قد سويت نهائياً .
– كل هذا ، اليس مجرد كلمات في الهواء ، أأنت واثق تماماً ؟
فقال دوبروي :
– إسمع ، كلّمه بنفسك ! ليس عليك إلا ان تدعوه بالتلفون : إنه مستعد للتوقيع غداً .

كان دوبروي على كثير من الحماسة حتى ان هنري ابتسم : « انتظر قليلاً ! يجب أولاً ان أرى لوك . ثم حتى لو قررنا ان نعلن أنفسنا مع « الاشتراكي الثوري الحر » فربما سنحاول ان نتدبر أمرنا لوحدنا : إنني أفضل ذلك كثيراً » .
فقال دوبروي :
– شخصياً ، اني مطمئن إلى ان « الأمل » لن تفقد قراءها . وأنا موافق تماماً على محاولة العملية دون تراريو » . وتردد : « من الأفضل على كل حال ان تجري محادثة معه » .

فقال هنري :
– لن يقول لي اكثر مما قال لك . وانا غير حريص على أن يقدم لي ماله ما دمت استطيع ان أمنع ذلك .
– كما تشاء . » ونظر دوبروي إلى هنري في قلق :« ارجوك ، حاول ان تقرر بسرعة . لقد اضعنا حتى الآن الكثير من الوقت ! » .

فقال هنري :
– هذا خطير ، أتعلم ، ما تطلبه إليّ . ليس في اللعبة غيري . حاول من جهتك ان تكون صبوراً قليلاً .
فقال دوبروي متنهداً :
– انا مرغم على ذلك تماماً . » ونهض وابتسم ابتسامة كبيرة لبول : « ألا تأتيان لتقوما بجولة معي ؟ » .
فقالت بول :

ـ اين ؟

ـ في اي مكان كان . انها ليلة جميلة . ليلة صيف حقيقية .

فقالت بول في مشاكسة :

ـ كلا ، اني ناعسة .

وقال هنري :

ـ انا ايضاً .

فقال دوبروي وهو يتجه نحو الباب :

ـ على رسلكما . سأتنزه بمفردي . إلى السبت .

وقفل هنري الباب . عندما استدار، كانت بول واقفة تجاهه ، مهتاجة الوجه:

« هذا جنون ! انه يريد ان يسرق جريدتك منك ! » .

فقال هنري :

ـ اسمعي ، ليست القضية قضية سرقة . » وتثاءب متصنعاً . ففي مثل هـذه الحالات كان لا يتحمل النقاش مع بول : عندما تكون من رأيه . كان هو ايضاً غاضباً : يا لها من عملية شعوذة غريبة ! كان يكفي ان يطلب دوبروي هذه الصحيفة كي يخلق لنفسه حقوقاً عليه . « نفوري الشخصي ، لا يبالي به . ان صداقته لا تزن كثيراً عندما يقرر ان يستخدمك لمصلحته » .

وقالت بول :

ـ كان يجب ان تطرده . انه لن ينظر إليك بعين الجد ابداً . ستكون دوماً الشاب الصغير الذي اطلقه في عالم الأدب والذي يدين له بكل شيء .

فقال هنري :

ـ بعد كل شيء ، انه لا يطلب شيئاً غير عادي . انني في « الاشتراكي الثوري الحر » وأدير « الأمل » : فمن الطبيعي بالأحرى ان يندمج الشيئان .

ـ لن تكون بعد الآن سيد نفسك ، سترغم على أخذ اوامرهم . » كان صوت بول يرتجف استنكاراً : « ثم ستغرق حتى عنقك في السياسة . ولن تعود لك دقيقة واحدة . ولقد كنت تشكو من نقص الوقت لروايتك ... » .

فقال هنري :

ــ لا تهلعي . لم يقرر شيء بعد . لم أقل مطلقاً انني قبلت .

كان حقد هنري يتبدد وهو يصغي الى احتجاجات بول . بل لقد كانت حدتها تظهر دوافعها تافهة : وكانت هي الدوافع نفسها التي يجترها في داخله . « انني أتمرد لأنني اخشى ان تلتهمني السياسة ، لأنني أخاف من المسؤوليات الجديدة ، لأنني أتمنى أوقات فراغ ، وعلى الأخص ان أبقى السيد في بيتي » . أسباب تافهة جداً باختصار . وعندما ذهب إلى الجريدة في الغد ، كان يأمل من أعماق قلبه ان يقدم لوك اسباباً افضل .

لكن لوك كان مأخوذاً بالأحداث . إذ لم يعد هناك شك في ان لاشوم قد أدى خدمة سيئة لـ « الأمل » . وكان الهمس يدور بأن هنري يخضع لأوامر الشيوعيين . وهذا ما يدعو لمزيد من الغضب في هذا الوقت الذي يأخذ فيه عليهم أشياء كثيرة : الخلط الذي يعتمدونه بين المقاومة والحزب ، شوفينيتهم ، ديماغوجية دعايتهم الانتخابية ، تسامحهم العادم الحياء وقسوتهم التعسفية تجاه المتعاونين . لكن صحف اليمين كانت تستغل في سرور هذا الالتباس . وكان كثير من القراء يتشكون ، ولامبير يطلب ان تتخذ تدابير ، ومعظم أفراد الجريدة يشعرون بعدم الراحة ، ولوك أيضاً . وقال عندما شرح له هنري الموقف: « بطاقة بدل بطاقة ، لكن من الأفضل ان نمثل « الاشتراكي الثوري الحر » من ان نعتبر شيوعيين » . وكان هذا هو الرأي السائد تقريباً . وقال فانسان : « انا لا أؤمن لا بالاشتراكي الثوري الحر ولا بالحزب الشيوعي ، فلا فرق بينهما . قرر حسب فكرك » .

واستنتج هنري عندما وجد نفسه وحيداً في مكتبه : « باختصار ، انهم جميعاً موافقون . إنهم لا يرون أي سبب للرفض » . وانقبض قلبه : سوف يرغم إذن على القبول . كان « الاشتراكي الثوري الحر » بحاجة الى جريدة ، وهو يمثل فرصة لا يحق له ان يرفضها . كان العالم يتردد بين الحرب والسلم ، وربما كان المستقبل متعلقاً بشيء تافه : ستكون جريمة ألا يحاول المرء كل شيء من اجل السلم . ونظر

هنري إلى المكتب ، والمقعد ، والجدران ، وأصغى إلى صوت المطابع الدائرة ، وخيل إليه فجأة انه يستيقظ من حلم تافه طويل . لقد اعتبر « الأمل » حتى الآن كنوع من الدمية : العدة الكاملة للطابع الصغير ، طبيعة مدهشة ، لعبة عظيمة . ولقد كانت أداة ، سلاحاً . ولهم الحق بأن يسألوه حساباً عن نوع استعماله لها . وسار نحو النافذة . اواه ! انه يبالغ قليلاً : إنها لم تكن تافهة إلى هذا الحد . انه يضطرب كثيراً بخصوص هذه الجريدة ، بعد ان تبدد حبور أيلول منذ زمن بعيد . ولكنه على كل حال كان يعتقد ان ليس عليه ان يؤدي حساباً إلا أمام نفسه . كان مخطئاً بلا شك . وقال في نفسه : « هذا غريب . ما إن تفعل شيئاً مناسباً ، حتى يخلق هذا لك واجبات ، بدل ان يمنحك حقوقاً » . لقد أسس « الأمل » وها هي تقوده بأن يلقي بنفسه جسداً وروحاً في المعرض السياسي . إنه يتصور من الآن تدخل سامازيل ، مواعظه الطويلة المضجرة ، مكالمات دوبروي الهاتفية ، الاجتماعات ، المشاورات ، الخصومات ، والمصالحات . كان قد وعد نفسه : « لن أترك نفسي يأكلونني » . حسناً ! لقد تحتم الأمر : سوف يؤكل . وخرج من مكتبه ونزل الدرج . تحت الضباب ، كانت المدينة هذه الليلة أشبه بمحطة ضخمة : لقد أحب الضباب ، والمحطات . اما الآن فلم يعد يحب شيئاً : لقد ترك نفسه يؤكل . ولهذا عندما كان يحاول ان يتكلم عن نفسه ، لم يكن يجد شيئاً يقوله . « أنت حريص على اشياء ، قل لنا ما هي » . ما هي ؟ انه لا يحب لا بول ولا نادين . والسفر لم يعد يستهويه مطلقاً . ولم يعد يحدث له ابداً ان يقرأ للذته الخاصة ، ولا ان يتنزه ، ولا ان يسمع الموسيقى . انه لم يعد يفعل شيئاً للذته الخاصة . ابداً لم يعد يقف مندهشاً في زاوية الشارع ، ابداً لم يعد يتلهى بذكرى . أناس عليه ان يراهم ، أشياء عليه ان يفعلها : كان يعيش كمهندس في عالم من أدوات . فلا غرو اذا أصبح أكثر جفافاً من حصاة . وحث الخطى . انه ليقرفه ، هذا الجفاف . لقد وعد نفسه كثيراً ليلة الميلاد بأن يستعيد حياته : ولم يكن يستعيد شيئاً . وبالاضافة إلى ذلك كان دوماً غير مرتاح داخل نفسه ، في حالة دفاع دوماً ، متوتراً ، قابلاً للغضب ، غاضباً . كان يعلم جيداً ان هذه السخرات كلها

التي يكلف نفسه بها ، لا يقوم بها على النحو الواجب ، وهذا لا يسبب له إلا توبيخ ضمير . « لست أعرف أشياء كثيرة ، لا أرى بوضوح ، آخذ موقفا باستخفاف ، ليس لدي وقت ، لن يكون لدي وقت ابداً » . إنها لمتعبة ، هذه اللازمة . ولن يكف عن سماعها، فكل شيءسيكون أسوأ من السابق، أسوأ بكثير. ما كول، ملتهم ، منظّف حتى العظام . لن يكون هناك مجال للكتابة . الكتابة ، إنها طريقة في الحياة ، وسوف يختار طريقة أخرى ، ولن يبقى لديه شيء يوصله إلى احد . وقال في نفسه في تمرد : « لا أريد » . كلا ، ان نفوره لم يكن تافهاً . انه يستطيع على العكس بشيء من الشجى ان يقول في نفسه ان هذه المسألة مسألة حياة او موت : حياته او موته ككاتب يراهن عليها : يجب ان يدافع عن نفسه . وفكر : ان « الاشتراكي الثوري الحر » بعد كل حساب ، لا يمسك بين يديه مصير الانسانية . ولا انا أمسك بين يدي مصير « الاشتراكي الثوري الحر». لقد قال هذا في نفسه غالباً : « اننا ننظر إلى انفسنا بجدية اكثر مما ينبغي . وفي الحقيقة ان اعمالنا ليس لها وزن ثقيل ، وهذا العالم ليس له وزن ثقيل : انه ليفي ، مسامي ، بلا صلابة » . كان المارة يسرعون من خلال الضباب وكأن من المهم ان يصلوا إلى هنا او هناك قبل الموعد بقليل . انهم في النهاية سيموتون جميعاً ، وانا ايضاً : كم يخفف هذا من الحياة . اننا لا نستطيع شيئاً ضد الموت ، وإذن فاننا لا نستطيع شيئاً لأحد ، ولا ندين بشيء لأحد : لا فائدة من تسميم وجودنا . ليفعل إذن ما هو قادر على فعله، ليترك « الأمل » و « الاشتراكي الثوري الحر »، ليغادر باريس ، ليقم في زاوية ما في الجنوب ، وليكرس نفسه للكتابة . كان لامبير يقول : « لنجنِ ما زرعناه » . ليحاول ان يكون سعيداً قبل ان يكون العالم كله كذلك . لمَ لا ؟ كان هنري يتخيل البيت المنزوي ، الصنوبر ، رائحة الغابات . « لكن ماذا سأكتب ؟ » . وتابع السير ، فارغ الرأس . وقال في نفسه : « ان الفخ مصنوع جيداً . في اللحظة التي تظن انك تفلت منه ، ينطبق عليك » . ان يستعيد الماضي ، ان ينقذ الحاضر بواسطة كلمات ، هذا شيء جميل جداً ، لكن هذا لا يمكن ان يتم إلا بأن يرويها للآخرين . هذا ليس له معنى إلا

اذا كان الماضي ، إلا اذا كان الحاضر ، إلا اذا كانت الحياة لها وزن ثقيل . اذا لم يكن لهذا العالم أهمية ، اذا لم يكن للبشر الآخرين حساب ، فما الفائدة من الكتابة ؟ لا يبقى إلا ان يتثاءب مللاً . ان الحياة لا تتجزأ ، يجب ان تؤخذ ككل ، فإما الكل أو لا شيء : كل ما هنالك أننا لا نملك الوقت لكل شيء ، هذه هي المأساة . ومن جديد انطلق الصخب في رأس هنري ، انه حريص على تلك الجريدة . وهمومه بخصوص الحرب ، والسلم ، والعدالة ، لم تكن باطلة . لا مجال لإلقاء هذا كله إلى عرض البحر . لكنه كان كاتباً ، ويريد الكتابة . كان حتى الآن قد تدبر أمره ليوفق بين كل شيء إن حسناً وإن سيئاً : بالأحرى سيئاً . اذا استسلم لدوبروي ، فلن ينجو بجلده ابداً . إذن ما العمل ؟ أيستسلم ؟ ألا يستسلم؟ أيعمل ؟ أيكتب ؟ وعاد لينام .

بعد بضعة ايام ، كان هنري لا يزال يشعر انه متردد ايضاً . « نعم أم لا ؟ ». ان هذا السؤال المسيطر سيجعل مزاجه رديئاً في النهاية . وادرك ذلك عندما لمح من فرجة الباب وجه لاشوم الباسم : « أيمكنك ان تمنحني خمس دقائق ؟ » .

كان لاشوم يمر غالباً على الجريدة ليرى فانسان . وعندما كان يأتي إلى مكتب هنري ، كان دوماً مرحباً به . لكن هنري قال هذه المرة بصوت شديد الجفاء : « افضل اكثر غداً . عندي مقال عليّ ان أنهيه » .

فقال لاشوم دون ان تثبط شجاعته :

– ذلك اني أريد ان أكلمك ، اليوم .

وجلس في حزم :

– عمّ إذن ؟

ونظر لاشوم إلى هنري في نوع من القسوة :

– حسب ما يقوله فانسان ، فهناك احتمال بأن تندمج «الأمل» بـ «الاشتراكي الثوري الحر » ؟

فقال هنري :

– فانسان ثرثار جداً . انه احتمال هوائي تماماً .

فقال لاشوم :

ـ آه ! افضل هذا !

فقال هنري بصوت عدائي قليلاً :

ـ لِمَ إذن ؟ ماذا يمكن ان يسببه لك هذا ؟

فقال لاشوم :

ـ ستكون غلطة خطيرة .

فقال هنري :

ـ ما الخطورة فيها ؟

فقال لاشوم :

ـ كنت اعتقد تماماً انك لا تعي ذلك . إنما لهذا أردت ان أحذرك . » وتصلب صوته : « في الحزب ، نعتبر ان « الاشتراكي الثوري الحر » في طريقه لأن يصبح حركة ضد الشيوعية » .

فأخذ هنري يضحك : « حقاً ! ما كنت لأكتشف هذا بمفردي ! » .

فقال لاشوم :

ـ ليس ثمة ما يدعو للضحك !

فقال هنري :

ـ انت صعب الضحك ! » ونظر إلى لاشوم في سخرية : « انت تغطي « الأمل » بالزهور ، حتى اكثر مما ينبغي قليلاً مجاملة لي . ودوبروي الذي يقول الأشياء نفسها التي أقولها ، هو ضدكم ! » . وأضاف : « ماذا حدث ؟ كان لافوري ودياً كل الود في الأسبوع الماضي » .

فقال لاشوم بصوته الوقور :

ـ ان حركة كالاشتراكي الثوري الحر مبهمة جداً . فمن جهة ، تجتذب أناساً إلى اليسار ، هذه حقيقة . ولكن في اللحظة التي تلحق بنفسها صحيفة ، وتنظم مهرجاناً ، فهذا يعني انها تزمع ان تقلل من شأننا . في البداية ، كان الحزب الشيوعي يتمنى تحالفاً ، لكن عندما يعلنون أنفسهم ضدنا ، فنحن مرغمون على

ان نكون ضدهم .

– تقصد انه لو كان « الاشتراكي الثوري الحر » فئة صغيرة منسية ، صامتة ، عاملة بوداعة في ظلكم ، لكنتم سمحتم به بل وشجعتموه ؟ ولكنه إذا أخذ يكوّن وجوده الخاص ، فان الاتحاد المقدس لا يعود ورقة صالحة للعب ؟

فقال لاشوم :

– أكرر عليك انه يسعى إلى التقليل من شأننا . إذن لا مجال هناك لاتحاد مقدس .

فقال هنري :

– نعم ، هكذا منطقكم ! حسناً ! إليك نصيحة مقابل نصيحتكم : لا تبدأوا في مهاجمة « الاشتراكي الثوري الحر » . أنتم لن تستطيعوا ان تقنعوا احداً انه حركة ضد الشيوعية . وستعطون الحق لكل اولئك الذين يعتبرون الجبهة الوطنية خدعة . إذن صحيح انكم لا تتحملون وجود يسار خارج عنكم ؟

فقال لاشوم :

– اننا لا نفكر حالياً بمهاجمة « الاشتراكي الثوري الحر » علناً . فنحن نرقبه ، وهذا كل شيء . ونظر إلى هنري في خطورة : « في اليوم الذي سيملك فيه صحيفة ، سيصبح خطراً . لا تتخلّ لهم عن الأمل » .

فقال هنري :

– ولكنّ هذا شانتاج . إذا تخلى عن فكرة الحصول على صحيفة ، فان « الاشتراكي الثوري الحر » يستطيع ان يختنق في هدوء ، أليس كذلك ؟

فقال لاشوم مؤنباً :

– شانتاج ! إذا بقي « الاشتراكي الثوري الحر » في مكانه ، فسوف نظل اصدقاء . وإلا ، فلا . هذا منطقي .

فهز هنري كتفيه : « عندما كان سكرياسين يؤكد لي انه لا يمكن العمل معكم ، لم أكن أريد ان أصدقه . ولكنه كان على حق . ان لنا الحق في ان نطيعكم في كل ما تريدون ، لا أكثر » .

فقال لاشوم :

ـ انت لا تريد ان تفهم . » وأضاف بصوت ملحّ : « لماذا لا تبقى مستقلاً ؟ كان هذا مصدر قوتك » .

فقال هنري :

ـ إذا سرت مع « الاشتراكي الثوري الحر » ، فسأقول الأشياء نفسها بالضبط التي كنت أقولها سابقاً . أشياء توافق عليها أنت .

ـ لكنك ستقولها باسم فئة معينة وسيصبح لها معنى آخر .

ـ في حين انه كان من الممكن حتى الآن ان أعتبر انني متفق مع الحزب الشيوعي على كل الخط ؟ كان هذا يناسبكم ؟

فقال لاشوم في حرارة :

ـ صحيح انك كنت متفقاً . وإذا كنت قد سئمت من تمثيل دور المتطوع، تعالَ معنا . ان « الاشتراكي الثوري الحر » على كل حال ، بدون مستقبل : ابداً لن ينالوا البروليتاريا. في الحزب الشيوعي إذا تكلمت، فهناك أناس يستمعون إليك . وتستطيع ان تؤدي عملاً حقيقياً .

فقال هنري :

ـ ولكن هذا عمل لا يعجبني . » وفكر في سخط : « لقد ألحقوني بهم كما يريدون » . كان لاشوم مستمراً في تحريضه . كان عليه أن يدرك ان هذا النوع من القصص لا يدفعه إلى الاقتراب منهم . ترى هل جاء ليحذر هنري كصديق ، ليناوره ؟ لا شك في ان الشيئين يسيران معاً ، وهذا أقذر ما في الأمر . وقال هنري فجأة :

ـ اننا نضيع وقتنا ويجب ان أنهي مقالي .

ونهض لاشوم : « قل لنفسك انها مصلحة دوبروي ان يحصل على « الأمل » ، وليست مصلحتك » .

فقال هنري :

ـ اعتمد عليّ للدفاع عن مصالحي .

وتصافحا ، وكانت مصافحتها أقرب إلى البرودة .

كان دوبروي قد حذر من انقلاب الحزب الشيوعي . فقد أمره لافوري في تهذيب ان يتخلى عن فكرة اقامة مهرجان . وقال دوبروي : « انهم يخافون ان تزداد أهميتنا اكثر مما ينبغي . انهم يحاولون ان يخيفونا : لكن إذا قاومنا جيداً ، فلن يجرؤوا على مهاجمتنا ، ليس بشكل جدي » . كان عازماً على المقاومة ، وكان هنري موافقاً . ولكن كان لا بد على كل حال من عرض المشكلة على اللجنة : وكانت هذه مشاورة شكلية صرفاً ، لأن اللجنة كانت تنتهي دوماً إلى تأييد رأي دوبروي . وكان هنري يفكر وهو يستمع إلى ضجيج الأصوات المتحمسة : « ما اكثره من وقت ضائع ! » . ونظر من خلال النافذة إلى السماء الزرقاء الجميلة . وقال في نفسه : « سأفعل حسناً إذا ذهبت أتنزه ! » . انه أول نهار من الربيع . أول ربيع في السلم : ولم يجد دقيقة واحدة ليستفيد منه . ففي الصباح ، كان هناك مؤتمر المراسلين الحربيين الأميركان . ثم الاجتماع السري مع الافريقيين الشماليين . ثم تناول سندويشة على سبيل الغداء وهو يقلب الصحف ، وهو الآن حبيس في هذا المكتب . ونظر إلى الآخرين : ليس ثمة واحد خطر له حتى ان يفتح النافذة . وكان صوت لونوار يرتجف حماسة وخجلاً ، وكان يتلجلج تقريباً : « إذا كان هذا المهرجان سيظهر معادياً للحزب الشيوعي ، فإنني اعتبره ضاراً » .

فقال سافيير :

ــ انه ضار إذا لم يفضح اضطهاد الحزب الشيوعي . إنما بسبب هذا الجبن يسير اليسار الآن الى الموت .

فقال لونوار :

ــ لا اعتقد انني جبان ، لكن اريد ان يكون لي الحق بأن أغني مع رفاقي عندما يشعلون نيران الفرح ليلاً .

فقال سامازيل :

ــ لنرَ ، اننا في الصميم جميعاً متفقون ، وليست المسألة إلا مسألة تكتيك .

كان الجميع يصمتون، عندما يتكلم، فلا مكان لصوت آخر إلى جانب صوته .

كان صوتاً ضخماً ودقيقاً ، وعندما كان يديره في فمه، كان يبدو كأنه يجرع نبيذا أحمر . وراح يشرح بأن المهرجان يشكل في حد ذاته إعلان استقلال تجاه الحزب الشيوعي ، وان من المناسب إذن ان يكون مضمون الخطابات حيادياً ، إن لم يكن ودياً . وكان يتكلم برشاقة كبيرة إلى حد ان سافيير فكر بأن الأمر ليس إلا مناورة تهدف الى تأكيد القطيعة مع الشيوعيين مع إلقاء الأخطاء على عاتقهم ، في حين ان لونوار فهم ان التحالف محافظة عليه بأي ثمن .

وتساءل هنري : « لكن ما الفائدة من هذه المهارة ؟ ان إخفاء خلافاتنا ، لا يعني اننا تغلبنا عليها » . وكان دوبروي الآن يفرض قراراته بسهولة . « لكن اذا توتر الموقف، إذا هاجمنا الشيوعيين مثلاً، فماذا ستكون ردود فعل كل واحد؟» . كان لونوار مأخوذاً بالشيوعيين . وكانت مشاربه الأدبية وصداقته لدوبروي فقط هي التي تمنعه من التسجل عندهم . أما سافيير فكان على العكس يجد مشقة في السيطرة على كراهيته كمناضل اشتراكي قديم . وأما سامازيل ، فلم يكن هنري يعرف أفكاره جيداً ، وكان يرتاب فيه بشكل غامض ، كان النموذج التام للسياسي . وبسبب بدانته وحرارة صوته البحاء ، كان يبدو عميق الجذور في الأرض ، ويخيل لمن يراه انه يحب بقوة الناس ، والأشياء . لكنهم في الحقيقة ما كانوا يخدمونه إلا في تغذية حيويته الآمرة : وكانت الشيء الوحيد الذي يسكر به . كم كان يحب الكلام ! ومع أي كان ! كان يناسبه تماماً ان يتعشى في المدينة! عندما يعلق انسان أهمية على جرس صوته أكبر مما يعلق على معنى كلماته، فأين هو صدقه ؟ كان برونو وموران صادقين ، لكن مترددين . إنها بالضبط من اولئك المثقفين الذين كان لاشوم يتحدث عنهم ، ممن يريدون ان يشعروا انهم مفيدون دون ان يضحوا بفرديتهم . وقال هنري في نفسه : « مثلي مثل دوبروي. ما دمنا نستطيع ان نمشي مع الشيوعيين دون ان نكون منهم ، فلا بأس . لكن إذا قرروا ذات يوم ان يخرجونا من الشيوعية ، فهذا سيخلق مشكلة لعينة » . ورفع هنري عينيه الى السماء الزرقاء . لا فائدة من ان يرغب في حلها اليوم ، لأنه لا يستطيع أصلاً ان يطرحها بشكل حسي : جميع المنظورات ستتبدل اذا تبدل

موقف الحزب الشيوعي . وما هو أكيد، هو ان عليه الا يدع الخوف يتملكه. والجميع متفقون على هـــذا ، وهذه المناقشات كلها باطلة . وقال هنري في نفسه : « في هذه اللحظة بالذات ، ثمة أشخاص يصيدون بالقصبة » . لم يكن يحب الصيد ، لكن الصيادين كانوا يحبونه ، وانهم لمحظوظون حقاً .

وعندما صوتت اللجنة اخيراً بالاجمـــاع إلى جانب فكرة المهرجان ، اقترب سامازيل من هنري وقال :

– يجب ان يكون لهذا المهرجان دوي !

كان في صوته تأنيب مبهم . فقال هنري :

– نعم .

فقال سامازيل :

– لهذا ، يجب ان تزداد الانتسابات بسرعة .

– هذا ما نتمناه .

– أتدرك ، انه اذا كان لنا جريدة ، فسنضمن مستمعين أكثر بكثير .

فقال هنري :

– أعرف .

كان يتفحص بـلا سرور الوجه المتين ذا الابتسامة الطافحة . وفكر : « اذا سرت معهم ، فسيكون عليّ ان أواجهه ، بقدر دوبروي على الأقل » . وكان سامازيل لا يتعب من النشاط ، وقال :

– سنحتاج سريعاً إلى معرفة جوابك .

– لقد أخطرت دوبري أنه يلزمني بضعة أيام للتفكير .

فقال سامازيل :

– نعم . لقد مضت بضعة أيام على ذلك .

وردد هنري في نفسه : « يقيناً ، إنني لا أحبه ». وقال في نفسه لائماً : « هوذا رد فعل فردي ! » . ان الحليف ليس بالضرورة صديقاً . وتساءل وهو يشد على يد دوبروي : « على كل حال ، ما الصديق ? » . صديقان : إلى أي حـد ? بأي

ثمن ؟ اذا لم ارضخ ، فماذا سيحدث بهذه الصداقة ؟ وقال دوبروي :

ـ لن تنسى ان هناك مخطوطات تنتظرك في « الطوارىء » ؟

فقال هنري :

ـ سأمر هناك فوراً .

كان على استعداد لأن يهتم عن طواعية أكثر بتلك المجلة ، اذ كان يستهويه انه ساعد دوبروي على جمع نصوص، واختيارها لكنها دوماً اللازمة نفسها . لا بد من الوقت لقراءة المخطوطات في عناية ، للكتابة إلى مؤلفيها ، للحديث معهم . لا مجال لهذا . كان عليه ان يقتصر على تصفح كتابات غفـل بسرعة . وفكر وهو يجلس امام مقود السيارة السوداء الصغيرة : « إنني أهمج كل شيء همجاً » . وهـذا النهار الجميل ، انه يهمجه ايضاً . ويوماً بعد يوم ، سينتهي إلى همج حياته .

وقالت نادين :

ـ أجئت تأخذ بريدك ؟ » وناولتـه في وقار مغلفاً أصفر ضخماً كانت تنظر بعين أكثر مما ينبغي إلى دورها كسكرتيرة : « وهذه هي التقارير ، اذا كنت تريد ان تلقي عليها نظرة » .

فقال هنري :

ـ في يوم آخر .

وتفحص في إشفـاق رزم الورق المكومة على الطاولة . دفاتر سود ، حمر ، خضر ، وعلب ورق ، سيئة الربط ، وسجلات ما أكثرها من مخطوطات ، وكل واحد منها ، بالنسبة لمؤلفيها ، فريد .

وسألت نادين وهي تنكب على فيشاتها :

ـ اعطني قائمة المخطوطات التي ستأخذها .

فقال هنري :

ـ سآخذ هذه الرزمة . » وأضاف وهو يشير إلى رواية أعجبته الصفحة الأولى منها : « وهذا المخطوط ايضاً . انها تبدو أقرب إلى الجودة » .

ـ كتاب الصغير بولوفي ؟ انه يبـدو لطيفاً ، ذلك الأصهب ، لكن ماذا

يستطيع ان يكتب في مثل تلك السن ؟ انه لا يتجاوز الثانية والعشرين . »
ووضعت على الدفتر يداً آمرة : « دعه لي . سآتيك به هذا المساء » .

– لست واثقاً مطلقاً انه جيد ...

فقالت نادين :

– أريد ان أراه.» كان هواها الوحيد هذا الفضول النهم . وأضافت بصوت متشكك : « سنلتقي هذا المساء ؟ »

– هذا متفق عليه . في الساعة العاشرة ، في حانة الزاوية .

– ألن تأتي إلى منزل ماركوني قبل ذلك ؟ انهم يحتفلون بسقوط برلين ، وسيكون جميع الرفاق هناك .

– ليس لدي وقت .

– يبدو ان لدى ماركوني احدث الاسطوانات . انا ، لا أبالي بذلك كثيراً، لكنك تزعم انك تحب الجاز .

– أحب الجاز ، لكن لدي عملاً .

– بين الخامسة والسادسة ، ألا تستطيع ان تجد دقيقة ؟

– كلا في السابعة ، سأذهب لرؤية تورنيل الذي ضرب لي اخيراً موعداً .

فهزت نادين كتفيها : « سيسخر منك في وجهك ! » .

– أشك في ذلك . لكن سأستطيع ان أكتب للمسكين داس فييرناس انني كلمته بصوت حاد .

وأنهت نادين قائمتها في سكوت ، وقالت وهي ترفع رأسها :

– طيب إذن ، إلى هذا المساء .

فابتسم لها هنري : « إلى هذا المساء » .

سوف يراها ثانية في الساعة العاشرة . وفي الحادية عشرة ، سوف يصعدان معاً إلى الفندق الصغير مقابل الجريدة : كانت هي التي ألحت لتنام معه من جديد . وكان عزاء ان يفكر بأن هذا النهار القاحل سينفتح بعد عدة ساعات على ليلة دافئة وردية . وجلس هنري من جديد في عربته وانطلق نحو الجريدة ، كان الليل لا

يزال بعيداً ، وسوف ينتهي بعد الظهر دون فرح . ان يستمع إلى جاز غير معروف بعد ، وان يشرب مع رفاق ، وان يبتسم لنساء ، نعم، انه كان ليحب هذا كثيراً . لكن دقائقه كانت معدودة : وفي الجريدة ، كان أناس يعدون دقائقه . كان يحب ان يوقف السيارة على طول الرصيف ، وأن يستند إلى الجسر، وينظر إلى الماء المشمس . او ينطلق نحو الأرياف الحيّة التي تحيط بباريس: كان يحب لو يفعل أشياء كثيرة . لكن لا . هذه السنة ايضاً كانت حجارة باريس ستخضرّ ثانية بدونه . « لا توقف ابداً : لا شيء له وجود إلا المستقبل وهو يتراجع إلى ما لا نهاية . وهذا ما يدعونه العمل ! » . مناقشات ، محاضرات : ما من ساعة من تلك الساعات قد عاشها لذاتها . والآن سيبدأ بافتتاحيته ، وسيرى تورنيل ، وسيكون لديه الوقت بالضبط قبل العاشرة لينهي مقاله ولينزل إلى المطبعة . وأوقف السيارة امام مبنى الجريدة . انه لحظ ايضاً ان يحصل على هذه العربة ، وبدونها ، ما كان ليستطيع ابداً ان ينهي ما كان عليه ان ينهيه . وفتح الباب ولامست نظرته لوحة العداد : ٢٣٢٧ وأعاد قراءة الرقم في دهشة . كان واثقاً ان العداد كان يؤشر البارحة الي ٢١٠٢ . لم يكن هناك غير أربعة يملكون مفتاح المرأب : كان لامبير في المانيا ، ولوك أمضى صباحه في الجريدة ، وما الداعي لأن يقوم فانسان بمئتين وخمسة وعشرين كيلومتراً بين منتصف الليل والظهر؟ انه لم يكن شاباً من النوع الذي ينزّه بغياً ، وكان يفضل المواخير على كل شيء آخر . وعلى كل حال أين أمكنه الحصول على وقود ، ثم كان يجب ان يخطره ، فهم يخطرونه دوماً . وارتقى هنري الدرج وعلى عتبة مكتبه توقف بلا حراك . كانت قصة العداد تلك تثير فضوله . وسار نحو غرفة التحرير ووضع يده على كتف فانسان :

— قل إذن ...

واستدار فانسان وابتسم . وتتردد هنري . لم يكن ما في ذهنه حتى مجرد شك . لكنه قبل حين ، وهو يقرأ نبأ في « فرانس سوار » في أسفل الصفحة الأولى ، تذكر ابتسامة معينة من فانسان ، في « البار الأحمر » . وكان فانسان

الآن يبتسم ، وفكر ثانية بذلك النبأ ، وترك سؤاله معلقاً وقال : « أتأتي لتشرب قدحاً ؟ » .

فقال فانسان :

ـ هذا لا يرفض ابداً .

وصعدا حتى البار ، وجلسا امام طاولة مستديرة ، قرب الباب الذي كان يفضي إلى السطح. وطلب هنري كأسين من النبيذ الأبيض واستأنف: « قل إذن، أأنت الذي أخذت السيارة هذا الصباح ? » .

ـ السيارة ? كلا .

ـ هذا غريب . لا بد ان احداً غيرنا يملك المفاتيح . لقد أدخلتها البارحة مساء في منتصف الليل وبعد ذلك قام أحدهم بمئتين وخمسة وعشرين كيلومتراً .

فقال فانسان :

ـ لا بد انك اخطأت في الأرقام .

ـ كلا ، انا واثق ان لا . لقد لاحظت انها تجاوز ٢١٠٠ بالضبط. » وسكت هنري لحظة : « كان لوك هنا هذا الصباح. إذا لم تكن انت الذي أخرج السيارة، فإنني لأتساءل حقاً من يكون . يجب ان أحل هذا اللغز » .

فقال فانسان :

ـ ماذا يمكن لهذا ان يؤثر عليك ? » . كان ثمة شيء ملحّ في صوته وتفرس هنري في وجهه في صمت وقال :

ـ لا أحب الأسرار .

ـ انه مجرد سر صغير !

ـ أتظن ?

ومن جديد ساد صمت وسأل هنري :

ـ أنت الذي أخذها ?

فابتسم فانسان : « اسمع ، سأسألك خدمة . انسَ هذه القصة ، انسها تماماً . السيارة لم تخرج منذ البارحة مساء ، هذا كل شيء » .

وأفرغ هنري كأسه . ٢٢٥ كيلومتراً . « آتيشي » على بعد ١٠٠ كيلومتر من باريس . وكان نبأ « فرانس سوار » يروي ان الطبيب بومال ، المشتبه بأنه عمل مع الجستابو والذي لم يثبت ضده شيء في المحكمة مؤخراً ، قد وُجد عند الفجر قتيلاً في بيته في « آتيشي » . وتفحص هنري فانسان من جديد . انها أشبه بالروايات الخيالية ، هذه القصة . وكان فانسان يبتسم ، من لحم وعظم ، وكان حقيقياً تماماً . ونهض هنري . في آتيشي كانت هناك جثة حقيقية تماماً ، والقتلة كانوا في مكان ما ، من لحم وعظم . وقال :

– افضل لنا ان نتحدث على السطح .

فقال فانسان وهو يتقدم نحو الحاجز الذي يُرى منه لمعان أسطحة باريس :

– نعم ، انه لنهار جميل .

فقال هنري :

– أين كنت هذه الليلة ؟

فقال فانسان :

– أتصر على معرفة ذلك ؟

كان يبتسم لأفكاره . وقال هنري فجأة :

– كنت في آتيشي .

وتغير وجه فانسان . ونظر إلى يديه . ما كانتا ترتجفان . ورفع عينيه إلى هنري في حدة :

– ما الذي يجعلك تقول هذا ؟

فقال هنري :

– هذا واضح جداً .

في الحقيقة ، كان قد ألقى كلماته دون ايمان بها . وفجأة أصبح الأمر حقيقياً . ان فانسان مشترك في احدى تلك العصابات . وفي تلك الليلة ، كان في آتيشي .

وقال فانسان في صوت حانق :

ـ أهذا واضح إلى هذا الحد ؟

كان مكتئباً من انه ترك أمره يُكشف بمثل هذه السهولة ، وكان الباقي كله يبدو له عديم الأهمية تماماً .

وأمسكه هنري من كتفه : « لا يبدو عليك انك تدرك : انه لقذر هـذا النوع من القصص ، انه لقذر تماماً » .

فقال فانسان بصوت هادىء :

ـ الدكتور بومـال هو الذي كان يُستدعى إلى شارع « لابومب » ليعتني بالرفاق الذين كان يغمى عليهم . فكان ينعشهم، ويعاودون تعذيبهم من أصابعهم إلى اقدامهم . لقد قام بهذا العمل طوال سنتين .

وشد هنري بقوة اكبر على الكتف التي ليس فيها إلا عظام: « نعم ، انه لنذل دنيء . ثم ماذا ؟ ماذا يفيد ان يقل عدد الأنذال على الأرض واحداً ؟ اغتيـال المتعاونين في ١٩٤٣ ، انا معك . لكن الآن ، هذا لا يفيد شيئاً ، وليس فيه اية مجازفة تقريباً ، انه ليس عملاً ، ولا شغلاً ، ولا حتى رياضة : مجرد لعبة صغيرة قذرة . هناك على كل حال أشياء افضل للعمل » .

فقال فانسان :

ـ انت تعترف ان التطهير ملهاة مقرفة .

فقال هنري :

ـ هذه ايضاً ملهاة ، مقرفة مثلها . » وأضاف بصوت ساخط : « أتريـد ان أقول لك ؟ انه ليقلقكم ان تكون المغامرة قد انتهت ، لذلك تتظاهرون بإطالتها . ولكن يا إلهي ! لم يكن المهم المغامرة : بل الأشياء التي كنا ندافع عنها » .

فقال فانسان بصوته الهادىء :

ـ اننا لا زلنا ندافع عن الأشياء نفسها . قال ذلك وكأنه يناقش مسألة بيزنطية مجردة تماماً . وتابـع : « أتعرف ، ان هذه الوقائع الصغيرة المتفرقة لمفيدة جداً لإنعاش ذاكرة الناس . انهم بحاجة إلى ذلك بشكل قذر . اليـك : في

الأسبوع الماضي صادفت لامبير يتنزه مع والده . ثمة شيء يسيرٌ متحفظ من سوء الاستعمال ، أليس كذلك ؟

فقال هنري :

– لقد نصحته ان يراه ثانية إذا كان يرغب في ذلك . هذا لا يعني احداً غيره . » وتابع وهو يهز كتفيه : « ترطيب ذاكرة الناس ! لا بد ان تكون مجنوناً حتى تصدق ان هذا سيغير من الأمر شيئاً » .

فقال فانسان بصوت ساخر :

– من يغير شيئاً ما ، لماذا ؟

فقال هنري في غضب :

– أتعرف لمَ نحن في حالة عطب ؟ لأننا لسنا عديدين بما فيه الكفاية . انها خطيئتك انت ، وخطيئة زملائك ، وجميع الشبان الذين يتلهون بالسخافات بدل القيام بعمل حقيقي .

فقال فانسان بصوت ساخر :

– أتريد ان أتسجل في « الاشتراكي الثوري الحر » ؟

فقال هنري :

– هذا أفضل كثيراً ! اخيراً ادرك هذا : ما الفائدة من محاربة انذال مغمورين لا يبالي بهم احد ؟ ان اليمين لا يصيبه شيء من هذا .

فقاطعه فانسان : « لاشوم يقول ان «الاشتراكي الثوري الحر» يخدم الرجعية ودوبروي يقول ان الحزب الشيوعي يخون البروليتاريا: اذهب إذن لتتعرف نفسك بين كل هذا ! » . تلك القصة . إنني أعد بألا استخدم السيارة ثانية » .

فقال هنري :

– انني لا أبالي بالسيارة .

فقطع عليه فانسان الطريق: «لا تبالِ بالباقي» . واجتاز البار وسأل فانسان :

– أتأتي إلى بيت ماركوني ، بعد قليل ؟

– كلا . فلدي عمل كثير .

– خسارة ! انها المرة الأولى التي سنستطيع فيها ان نتمتع جميعاً معاً بأشياء واحدة ! كنا نحب كثيراً لو تأتي !

– كنت أحب انا ايضاً .

ونزلا الدرج في صمت . كان هنري يريد لو يضيف شيئاً ما ، حجة مقنعة : ولم يكن يجد شيئاً . وكان يشعر انه منهوك جداً . كان وراء فانسان اثنتا عشر جثة ، وكان يحاول ان ينساها بمتابعة القتل . وأثناء ذلك كان يسهر كثيراً : وسوف يسكر سكرة قوية عند ماركوني . لا يمكن ان يَدَعه يتابع على هذا النحو . ولكن كيف السبيل إلى منعه ؟ وقال هنري في نفسه : « ثمة شيء نتن في مكان ما » . أشياء كثيرة يجب ان تفعل ! وشبان كثيرون لا يعرفون ماذا يفعلون ! كان يجب ان يجتمع الطرفان : ثم لم يجتمعا . وقرر : « سأرسله للقيام بريبورتاج طويل ، بعيداً جداً » . لكن لم يكن هذا إلا حلاً مؤقتاً . كان يجب ان يكون لديه شيء متين يقدمه لفانسان . لو ان « الاشتراكي الثوري الحر » سار على نحو افضل ، لو انه مثّل املاً حقاً ، لاستطاع هنري ان يقول له : « إننا بحاجة اليك » . اما الآن ، فهذا شيء لا يزال بعيداً .

عندما جاء هنري إلى « كاي دورسي » بعد ساعتين ، كان متجهماً . وكان قد توقع أكثر مما ينبغي استقبال تورنيل الودي ، وإبتسامته المحترسة . وقال تورنيل:

– قل لصديقك داس فييرناس ان رسالته سوف ينظر اليها بعين الاعتبار ، لكن أنصحه بالصبر . » وأضاف : « إنني أتكفل بإيصال ردّك بواسطة الحقيبة الدبلوماسية ، فليس عليك إلا ان تسلمها لسكرتيرتي ، لكن كن على كل حال شديد الحذر » .

– بالتأكيد . فالشيخ المسكين مشتبه به بما فيه الكفاية ! » ونظر هنري إلى تورنيل في شيء من التأنيب : « انهم حالمون ، ولا يدركون طبيعة الأمور . لكنهم محقون تماماً بالرغبة في الاطاحة بسلازار » .

فقال تورنيل :

– بديهي انهم محقون ! » كان ثمة نوع من الحقد في صوته ، وتفرس هنري في

وجهه بمزيد من التنبه . وقال :

– إذن ، ألا تجد ان علينا ان نحاول مساعدتهم بطريقة أو اخرى ؟

– أية طريقة ؟

– أنا لا اعرف : هذا مجالك .

فهز تورنيل كتفيه : « انت تعرف الموقف جيداً كما أعرفه انا . كيف تريد ان تفعل فرنسا شيئاً ما للبرتغال او لأي كان ، في الوقت الذي لا تستطيع فيه شيئاً لنفسها ! » .

ونظر هنري في قلق الى الوجه الساخط . كان تورنيل من أوائل من نظموا المقاومة ، ولم يشك ابداً في النصر : ان هذا الاعتراف بالهزيمة لا يشبهه . وقال هنري :

– لدينا على كل حال بعض النفوذ .

– أتعتقد هذا ؟ انت من اولئك الناس الذين يشعرون بالفخر لأن فرنسا دعيت إلى سان فرنسيسكو ؟ ماذا تتصور ؟ الحقيقة انه لم يعد لنا حساب .

فقال هنري :

– ليس وزننا بالثقيل ، ليكن . لكن اخيراً نستطيع ان نتكلم ، وأن ندافع عن وجهات نظر ، وان نضغط ...

فقال تورنيل في لهجة مرة :

– انني لأذكر . كنا نريد ان ننقذ الشرف حتى تستطيع فرنسا ان تخاطب الحلفاء مرفوعة الرأس . ثمة أشخاص قد قتلوا من اجل هذا : انه لدم ضائع حقاً !

فقال هنري :

– لن تقول لي انه كان يجب ألا نقاوم .

– لا اعرف . كل ما اعرفه هو ان هذا لم يفدنا كثيراً ! » ووضع تورنيل يده على كتف هنري : « لا تكرر ما قلته لك ! » .

فقال هنري :

– بالتأكيد لا .

وأعاد تورنيل إلى شفتيه ابتسامة دنيوية :

– انا مسرور بأن أتيحت لي هذه الفرصة لرؤيتك ثانية .

فقال هنري :

– انا ايضاً .

واجتاز بخطى سريعة الممرات وعبر الباحة . كان قلبه منقبضاً : « المسكين داس فيبرناس . يا للسذج الشيوخ المساكين ! » كان يرى ثانية قبانهم القاسية ، وقبعاتهم ، وذلك الغضب المعقول في أعينهم . كانوا يقولون : « فرنسا أملنا الوحيد » . ولم يكن هناك أي أمل ، في أي مكان، لا في فرنسا ولا في اي مكان آخر . واجتاز المدخل واستند إلى حاجز الرصيف : كانت فرنسا لا تزال تحتفظ، من البرتغال ، ببريق النجوم الميتة العنيد ، ولقد ترك هنري نفسه يقع في الفخ . وفجأة ، كان يكتشف انه يسكن العاصمة المحتضرة لبلد صغير جداً . كان السين يجري في مجراه ، والمادلين ، ومجلس النواب في مكانهما ، والمسلة ايضاً ، كان يمكن الاعتقاد بأن الحرب قد وفرت باريس بشكل عجائبي . وفكر هنري وهو يقود السيارة في شارع سان جرمان حيث كانت اشجار الكستناء تزهر في وفاء : « اننا نريد ان نعتقد ذلك» . لقد قبلوا جميعاً في رضى بأن يخدعوا بهذه المنازل ، بهذه الأشجار ، بهذه المقاعد التي تقلد الماضي بدقة كبيرة . ولكنها ، في الحقيقة ، قد أبيدت ، المدينة المتكبرة المنتصبة فوق قلب العالم ، ولم يعد هنري إلا المواطن المنسي لدولة من الدرجة الخامسة . و « الأمل » صحيفة محلية ، من نوع « بوتي ليموزان » . وارتقى درج الجريدة في خطا كئيبة . « فرنسا لا تستطيع شيئاً». ان يزود بالمعلومات اناساً لا يستطيعون شيئاً ، وان يثير سخطهم ، ويبعث حماسهم، ما الفائدة من هذا ؟ ذلك الريبورتاج عن البرتغال ، لقد اعتنى هنري به وكأنه سيثير الرأي العام من احد القطبين إلى الآخر . وما كانت واشنطن لتبالي، وما كان « كاي دورسي » ليستطيع شيئاً . وجلس إلى مكتبه وأعاد قراءة بداية مقاله : ما الفائدة ؟ سيقرأه الناس ، وسيهزون برؤوسهم ، وسيرمون الجريدة في سلة الورق ، وانتهى الأمر ! ما أهمية ان تبقى « الأمل » او ألا تبقى مستقلة ،

وان يكون قراؤها اكثر او اقل ، او حتى ان تفلس ؟ وفكر هنري فجأة : « لا داعي لتحمل مشقة العناد ! » . كان دوبروي وسامازيل يعتقدان انهما يستطيعان استخدامها ، هذه الجريدة . وكانا يعتقدان ايضاً انه سيكون لفرنسا دور تلعبه إذا لم تبقَ معزولة : الآمال كلها كانت إلى جانبهما . اما من الأمام ، فلا شيء إلا الفراغ . وقال هنري في نفسه : « إذن ؟ لماذا لا أتلفن بأنني اقبل؟». ونظر ملياً إلى الجهاز ، على مكتبه . لكن يده ما كانت تقرر . وعاد ثانية إلى مقاله .

– آلو ، هنري ؟ انا نادين . » كانت ثمة رعدة تائهة في صوتها : « إنك لم تنسني ؟ » .

ونظر إلى ساعته في دهشة : « كلا ، كنت سأنزل . انها لم تتجاوز العاشرة والربع ، أليس كذلك ؟ » .

– العاشرة وسبع عشرة دقيقة .

– لا بأس ! كان عندي عمل .

وأعاد السماعة في نفاد صبر . لمثل هذه الأشياء ، كانت موهوبة : كانت ترتب أمورها دوماً بحيث تفسد لقاءاتهما . لقد فكر غالباً ، أثناء هذا النهار القاحل ، بتلك اللحظة التي سيضم فيها بين ذراعيه جسدها المصقول الطري . فآنذاك كان يحصل اخيراً على نصيبه من الربيع . وها هي الكراهية فجأة تغرق رغبته . وكان يقول في نفسه وهو يهبط الدرج : « امرأة اخرى تعتقد ان لها حقوقاً عليّ ؟ ان بول لتكفي ... » . ودفع باب المقهى الصغير . كانت نادين تقرأ في سيماء من وقار وهي تشرب ماءً معدنياً .

– إذن ؟ ألا تستطيعين ان تنتظري عشرين دقيقة ؟

فرفعت رأسها : « اعتذر . لم أكن أريد ان ازعجك .. لكن هذا اقوى مني . ما ان ابدأ بالانتظار ، حتى يخيل إليّ انني لن أرى ثانية الشخص الذي أنتظره» .

– ان الناس لا يختفون هكذا .

– أتعتقد ؟

وأدار رأسه في شيء من الخجل . فقد تذكر فجأة أنها في الثامنة عشرة وان لديها ذكريات ثقيلة .

– أطلبت شيئاً ما ؟

– نعم ، لديهم بفتيك هذا المساء . » وأضافت في ابتسامة مصالحة : « لقد فعلت حسناً إذ لم تأتِ إلى بيت ماركوني ، فلم يكن الجو ظريفاً » .

– هل سكر فانسان ؟

– كيف عرفت ؟

– انه يسكر دوماً . يجب ان تحاولي ان ترشديه .

فقالت نادين بصوت حالم :

– اواه ، فانسان ! ان له كل الحقوق . انه مختلف كثيراً عن الآخرين : انه ملاك ...

وثبتت نظرها على هنري : « إذن ، أرأيت تورنيل ؟ » .

– رأيته . انه يقول اننا لا نستطيع شيئاً .

فقالت نادين :

– كنت اعرف انك تتعب نفسك دونما فائدة .

فقال :

– كنت اعرف ذلك ايضاً .

فقالت نادين :

– إذن لم يكن هناك حقاً داعٍ لتحمل المشقة ! » كان وجهها قد أصبح حرداً من جديد . وناولت هنري الدفتر الأسود : « لقد أتيتك بالمخطوط » .

– كيف هو ؟

فقالت نادين بصوت متجرد :

– انه يروي أشياء عن الهند الصينية مسلية جداً .

– أتعتقدين انه يمكن ان ننشر مقتطفات في المجلة ؟

– اواه ! بالتأكيد . لو كنت انا لنشرته كله . » ونظرت الى المخطوط في

شيء من الحقد : « يجب ألا يكون المرء خجولاً حتى يجرؤ ان يتحدث عن نفسه هكذا . انا لن أستطيع ابداً » .

فابتسم لها هنري : « ألم ترغبي ابداً في الكتابة ؟ » .

فقالت نادين في تبجح :

– ابداً . ثم انني لا أفهم ان يكتب الانسان اذا لم تكن عنده عبقريته .

فقال هنري :

– احياناً أشعر ان الكتابة قد تساعدك .

فتصلّب وجه نادين :

– تساعدني ؟ علامَ ؟

– على تدبّر امرك في حياتك .

فقالت وهي تبادر إلى أكل قطعة البفتيك :

– انني أتدبر امري على احسن وجه، شكراً . » وأضافت: « انتم مضجرون، اكثر من المدمنين » .

– لماذا المدمنون ؟

– المدمنون يريدون ان يدمن جميع الناس . وانتم تريدون ان يكتب جميع الناس .

وفتح هنري المخطوط ، ومن جديد رنّت الجمل المكتوبة بالآلة الكاتبة في داخله في صوت واضح ، جاف ، مرح ، كوابل من حصى صغيرة . وقال :

– بالنسبة لفتى في الثانية والعشرين ، هذا جيد حقاً .

فقالت :

– نعم ، هذا جيد . » وهزّت كتفيها: « كيف يمكنك ان تتحمس لشخص لا تعرفه مجرد معرفة ؟ » .

– انني لا أتحمس . بل ألاحظ انه موهوب .

– وماذا؟ ألا يوجد ما فيه الكفاية من الكتاب الموهوبين على هذه الأرض؟» وتابعت في عناد : « اشرح لي : اية حاجة تشعر بها ، انت وبابا ، لتكتشفا الأعمال

الجيدة المجهولة بعد ؟ »

فقال هنري :

– إذا كتبنا ، فهذا يعني اننا نؤمن بالأدب . وانه لمن دواعي السرور ان يغتني بكتاب جيد .

– تقصد ان هذا ينعكس على نشاطكما الخاص ويبرره ؟

– بشكل ما ، نعم .

فقالت بصوت راضٍ :

– هذا ما كنت اعتقده . ان الاهتمام الذي تظهرونه نحو الشباب ، هو في الحقيقة انانية .

– اواه ! ما أرخصه من مجون !

– ألا نتصرف دوماً بدافع الأنانية ؟

– لنقل ان هناك اشكالاً من الأنانية مستطابة نوعاً ما عند الآخرين .

لم يكن يريد على الأخص ان يناقش . كانت تنظف اسنانها بطرف عود ثقاب وكان يشعر انه مغتاظ . واسقطت العود على الأرض : « انت ايضاً تعتقد انني أخطأت إذ استلمت منصب السكرتيرة هذا ؟ » .

– لماذا تسألينني هذا ؟ انت تقومين به على احسن وجه .

– انني لا أتكلم عن مصلحة المنصب ، بل عن مصلحتي . أكنت مصيبة أم مخطئة ؟

في الحقيقة ، لم يكن له رأي معين . ولقد كانت نادين ستدهش ، رغم كل مجونها ، لو علمت إلى اي حد لا يبالي بمشاكلها . وقال بطرف شفتيه :

– بديهي انك كنت تستطيعين متابعة دراستك .

– كنت أريد ان أكون مستقلة .

ولقد كان استقلالاً غريباً ان تعمل في مجلة والدها . ولقد كانت، في الحقيقة، تجتهد في احتقار اهلها ، ان لم يكن في كراهيتها ، ولكنها ما كانت لتحتمل الا تكون حياتها حياتها : كانت بحاجة إلى ان تزدريهما وهي معهما . وقال في

رخاوة : « انت افضل قاضٍ » .

– إذن ، أترى انني كنت مصيبة ؟

– انت مصيبة في ان تفعلي ما يحلو لك . » كان يجيب رغماً عنه ، لأنه كان يعلم ان نادين تعبد الحديث عن نفسها ، ولكن أي حكم، ولو كان رفيقاً، يجرحها. وفي الحقيقة ، لم يكن هناك هذا المساء ما يريد الحديث عنه . كل ما كان يتمناه ، ان ينام معها في السرير .

– اتعرفين ماذا ستفعلين لو كنت لطيفة ؟

– ماذا ؟

– ستجتازين الشارع معي .

وغام وجه نادين ، وقالت في غضب : « عندما تراني ، فليس إلا من أجل هذا » .

– لم أكن أفكر بإهانتك .

فقالت متشكية : « كنت أريد ان نتحادث » .

– حسناً لنتحدث ! أتريدين كأس كونياك ؟

– تعرف جيداً ان لا .

– دائماً زاهدة هكذا كما لو انك من بنات الراهبات . ولا سيجارة ايضاً ؟

– كلا .

وطلب كونياك وأشعل سيجارة :

– عمّ كنت تريدين ان نتحادث ؟

لم يكن صوته ودياً . ولكن نادين لم تسمح لنفسها بالتردد :

– أريد ان اتسجل في الحزب الشيوعي .

– تسجّلي .

– ولكن ما هو رأيك ؟

فقال في حدة :

– ليس ثمة ما يقال . فعليك انت ان تعرفي ماذا تريدين ان تفعلي .

– لكني أتردد ، فليس الأمر بسيطاً جداً . لهذا كنت أريد ان نتحادث ...
– ان المناقشات لا تقنع احداً ابداً .
فقالت نادين التي احتد صوتها فجأة :
– مع أناس آخرين ، انت تتناقش . ومعي ، لا تريد ابداً . افترض ان هذا لأنني امرأة . فالنساء ، لا يصلحن إلا للحب .
فقال :
– انني أمضي أيامي في الثرثرة . وليتك تعرفين كيف ينتهي المرء إلى السأم من ذلك .
والحقيقة انه ما كان ليتهرب لو كان النقاش مع لامبير او فانسان . وكانت نادين بحاجة الى المساعدة بقدر ما يحتاجان . لكنه تعلم على حسابه ان مساعدة امرأة يعني دوماً ان يتنازل لها عن حق . إنهن يجعلن من أبسط عطاء وعداً . لذلك كان موقفه دفاعياً . وقال في جهد :
– ما أعتقده ، هو انك اذا دخلت الى الحزب فلن تبقي فيه طويلاً .
فقالت في حماسة :
– اواه ! ان وساوسكم كمثقفين ، ليست هي التي تشغلني . والشيء المؤكد ، هو انني لو كنت مسجلة ، لما أنبني ضميري كما أنبني عندما كنا نرى اولئك الأطفال في البرتغال يغطسون جوعاً .
والتزم الصمت . نعم ، ان التخلص مرة واحدة نهائية من تأنيبات الضمير كلها ، شيء مغرٍ حقاً . ولكن لو تسجل الانسان لا لشيء إلا لذلك ، فانه سيفشل في ضربته حتماً .
وقالت نادين :
– بمَ تفكر ؟
– كنت افكر انك إذا كنت راغبة في التسجّل ، فيجب ان تفعلي ذلك.
– ولكن انت ، انك تفضل البقاء في «الاشتراكي الثوري الحر» على الدخول إلى الحزب الشيوعي ؟

فقال هنري :

ـ ما الداعي لأن أكون قد غيّرت رأيي ؟

ـ إذن ، انت تعتقد ان الشيوعية صالحة لي وليس لك ؟

ـ هناك اشياء كثيرة عندهم لا اقبلها : فإذا كنت تقبلينها ، فهيا .

فقالت :

ـ أرأيت ، انت لا تريد النقاش !

ـ انني أناقش .

ـ بطرف شفتيك . » وأضافت في تأنيب : « يبدو عليك انك سئم معي للغاية ! » .

ـ كلا ، انني لست سئماً . لكني هذا المساء منهك حقاً .

ـ انت دوماً منهك عندما تراني .

ـ لأنني اراك مساء ، انت تعرفين جيداً انه ليس لدي وقت حر في غير هذا الوقت .

وساد صمت قصير وقالت: « اسمع ،سأسألك شيئاً. لكنك بالطبع سترفض...

ـ ماذا ؟

ـ عطلتك الأسبوعية القادمة ، اقضها معي .

فقال :

ـ لكني لا استطيع . » ومن جديد تصاعد الحقد إلى صدره . انها ترفض له هذا الجسد الذي يشتهيه ،وتطلب وقتاً واهتماماً .. «تعرفين جيداً انني لا استطيع» .

ـ بسبب بول ؟

ـ بالضبط .

ـ كيف يستطيع رجل ان يقبل بأن يظل طوال حياته عبد امرأة لم يعد يحبها ؟

ـ لم اقل لك ابداً انني غير حريص على بول .

ـ انت تشفق عليها وضميرك يوبخك . هذه التركيبات العاطفية كلها ، انها

مقرفة للغاية . عندما لا يعود الانسان يسر برؤية الناس، يتركهم، هذا كل شيء.
فقال وهو ينظر إليها في وقاحة :
ـ على هذا الأساس يجب الا تطلبي شيئاً من احد . وعلى الأخص ألا تسخطي إذا أجابوك : كلا .
ـ ما كنت لأسخط ابداً لو قلت لي بصراحة : انني لا ارغب في ان اقضي معك هذه العطلة ، بدل ان تحدثني عن واجباتك .
وضحك هنري ضحكة صغيرة وفكر : « كلا ، لن أقع هـــذه المرة في فخ الصراحة : انها تطلب الحقيقة ، وستنالها » . وقال بصوت عالٍ : « لنفرض انني أقول لك هذا بصراحة ؟ » .
ـ لن يكون عليك ان تقوله لي مرتين .
وتناولت من على الطاولة حقيبتها واغلقتها في حركة جافية ، وقالت : « لست من نوع العلق ، انني لا أتشبث بأحد . وعلى كل كن مطمئناً : انني لا احبك » . وتفرست في وجهه لحظة في صمت : « وكيف يمكن للانسان ان يحب مثقفاً ! ان لكم ميزاناً مكان قلبكم ومخاً صغيراً في اسفل مؤخرتكم » . وختمت كلامها :«وفي الحقيقة ، انتم جميعاً فاشيون » .
ـ انني لا أتابعك .
ـ انتم لا تعاملون الناس ابداً على قدم المساواة ، وانتم تتصرفون بهم حسب ضميركم الصغير . ان كرمكم ليس إلا امبريالية . ونزاهتكم ليست إلا عجرفة .
كانت تتكلم بلا غضب ، بشكل حالم . ونهضت وضحكت ضحكة صغيرة مقتضبة .
ـ اواه ! لا تأخذ هذه السحنة المتألمة . انك تضجر من رؤيتي ، وفي الحقيقة هذا لم يعد يستهويني : ليست هناك مأساة . سنتحادث عندما نلتقي . دون حقد .
واختفت في ليل الشارع ، وطلب هنري الحساب . لم يكن راضياً عن نفسه . « لماذا كنت فظاً معها هكذا؟ » . كانت تغيظه ، لكنه كان يحبها كثيراً . وقال في نفسه : « إنني أغتاظ هذه الأيام أكثر مما ينبغي . كل شيء يغيظني : ثمة شيء

ما لا يسير على ما يرام » . وافرغ كأس الخمر . لا عجب : إنه يمضي أيامه في فعل اشياء لا يجب ان يفعلها ، ويعيش من الصباح الى المساء رغماً عنه . «.وكيف وصلت إلى هنا ؟ » . للوهلة الأولى ، لم يكن ما اقترحه على نفسه غداة التحرير يبدو طموحاً أكثر مما ينبغي : ان يستعيد حياته ما قبل الحرب ، وان يغنيها ببعض النشاطات الجديدة . كان يظن انه سيستطيع ان يدير « الأمل » وان يعمل في « الاشتراكي الثوري الحر » دون ان يكف من اجل ذلك عن الكتابة ولا عن ان يكون سعيداً : لكنه لم يكن يستطيع . لماذا ؟ لم تكن المسألة مسألة وقت . لو اراد حقاً ، لتدبر أمره بعد ظهر هذا اليوم ليتسكع في الشوارع او ليذهب الى بيت ماركوني . والآن بالضبط ، لديه وقت ليعمل ، ويستطيع ان يطلب ورقاً من الخادم ، ولكن هذه الفكرة كانت تقرفه . كانت نادين تقول : « مهنة غريبة ! » . وكانت على حق . كان الروس ينهبون برلين ، وكانت الحرب تنتهي وأخرى تبدأ : كيف يمكنه ان يلتهي بكتابة قصص لم تحدث ابداً ؟ وهز كتفيه : هذا ايضاً من نوع الاعذار التي يتذرع بها عندما لا يسير العمل . كانت الحرب تهدد ، ثم اندلعت الحرب ، وكان لا يزال يتلهى برواية قصص : لمَ ليس الآن ؟ وخرج من المقهى . كان يتذكر ليلة أخرى ، ليلة ضباب ، تنبأ فيها في نفسه ان السياسة ستأكله : لقد تم الأمر واكلته ، ولكن لمَ لم يدافع عن نفسه بشكل افضل ؟ من اين ينبع هذا الجفاف الداخلي الذي يشله ؟ لماذا يجد ذاك الفتى الذي يمسك بمخطوطة بين يديه أشياء يقولها ، وهو لا ؟ كانت له اثنتان وعشرون سنة واشياء يقولها ، وكان يمشي في هذه الشوارع وهو يحلم بكتابة : الكتاب .. وأبطأ خطاه. انها لم تعد الشوارع نفسها في الماضي، كانت باهرة النور وكانت تشق عاصمة العالم . اما اليوم، فإن بصيص مصباح يثقب الليل من بعيد إلى بعيد فيلاحظ المرء عند ذاك ان الرصيف ضيق وان المنازل متداعية. لقد انطفأت مدينة النور . واذا ما أضاءت من جديد ذات يوم ، فستكون عظمة باريس كعظمة العواصم الساقطة : البندقية ، براغ ، و « بروج [1] » الميتة . ليست

---

١ ـ عاصمة فلاندرا وهي احد اقاليم بلجيكا ، كانت عاصمة ذات شأن في القرون الوسطى . « المترجم »

الشوارع نفسها ، ولا المدينة نفسها ، ولا العالم نفسه . كان هنري قد وعد نفسه ليلة الميلاد ان يعبر بالكلمات عن عذوبات السلم : لكن هذا السلم كان بلا عذوبة. كانت الشوارع متجهمة ، وجسد نادين كئيباً . ولم يكن لدى هذا الربيع شيء يقدمه له : فالسماء الزرقاء ، والبراعم الخاضعة لروتين الفصول ، كانت بلا وعد . « ليتني أعبر عن طعم حياتي » . لم يعد لها طعم لأنه لم يعد للأشياء معنى . ولهذا لم يعد للكتابة معنى . في هذه النقطة كانت نادين على حق : فهو لا يستطيع ان يصف الأضواء الصغيرة على طول نهر « التاج » ما دام يعلم انها تضيء مدينة تغطس جوعاً والناس الذين يغطسون جوعاً ليسوا ذريعة للعبارات . والماضي لم يكن إلا سراباً : فماذا يبقى بعد ان يتبدد السراب ؟ تعاسة ، وأخطار ، وبقع غير واضحة ، وسديم . لقد خسر هنري عالماً : ولم يأخذ شيئاً بديلاً عنه . لم يكن في مكان ، ولا يملك شيئاً ، ولم يكن شيئاً : انه لا يستطيع ان يتكلم عن شيء . وفكر : « حسناً ! ليس عليّ إلا ان أسكت . اذا اخذت حقاً موقفي ، سأكف عن ان أبعد . ربما سأفعل بكل رضى السخرات التي انا مرغم على فعلها » . وتوقف أمام « البار الأحمر » . ولمح من خلال الزجاج جوليان جالساً لوحده على مقعد عالٍ . ودفع البـــاب وسمع همساً باسمه . انه بالأمس فقط كان سيتأثر لذلك . لكنه بينما كان يشق طريقه بين جمهرة الزبائن الوطنيين ، لام نفسه على انـه ترك ذاته تخدع بسراب حقير آخر ، ان يكون كاتباً كبيراً في غواتيمالا او هندوراس ، يا له من نصر ساخر ! في الماضي كان يعتقد انه يسكن مكاناً ممتازاً من العالم تنتشر منه كل كلمة عبر الأرض اجمع لكنه الآن يعرف ان جميع كلماته كانت تموت عنـــد قدميه .

وقال جوليان :

– فاتك الوقت !

– لماذا فاتني الوقت ؟

– تحطيم الفك ، لقد خسرت رؤيته . » وأضاف : « اواه ! لا شي يذكر . انهم ما عادوا يعرفون حتى ان يحطموا فك بعضهم البعض بشكل نظيف » .

– بأي شأن ؟

فقال جوليان بصوت غير واثق :

– نعت شخص بيتان بـ « الماريشال » . » وأخرج من جيبه قارورة مسطحة: « أتريد ويسكي حقيقة ؟ » .

– أريد .

فقال جوليان :

– مدموازيل ، كأساً ثانية وصودا ثانية ، من فضلك .

وملأ كأس هنري حتى نصفه . وقال هنري :

– عظيم ! » وجرع جرعة كبيرة : « كنت بحاجة إلى مقوٍ صغير : كان يومي حافلًا جداً ، هذا جنون ! ألم تلاحظ كيف يشعر الانسان بنفسه فارغاً بعد يوم حافل تماماً ؟

– الأيام حافلة دوماً ، دون ان تستثني ساعة واحدة : اما الزجاجات ، فشيء مختلف لسوء الحظ .

ولمس جوليان الدفتر الذي وضعه هنري على المنضدة : « ما هـذا ؟ وثائق سرية ؟ » .

– رواية لفتى صغير .

– قل لفتاك الصغير ان يصنع منها ورقاً لتلف به أخته الصغيرة شعرها . لو أصبح صاحب مكتبة ، مثلي ، فهذه مهنة رائعة . الاحظت : اذا بعت زبدة أو مدافع للألمان، فإنهم يسامحونك ، ويقبلونك ، ويقلدونك وساماً . ولكن اذا كتبت كلمة زائدة هنا او هناك ، عندئذ يسددون البنادق ! نار ! يجب ان تكتب مقالاً عن هذا . .

– انني أفكر بذلك .

– انت تفكر بكل شيء ، أليس كذلك؟ » وأفرغ جوليان قارورة الوسكي في الكأسين : « انني لأتصور انك تستطيع ان تملأ أعمدة واعمدة لتطالب بالتأميم ! عمل وعدالة : أتعتقد ان هذا سيكون مضجراً ؟ وتأميم الأقفية ، متى هذا ؟ » .

ورفع كأسه : « نخب مذابح برلين ! » .

– مذابح ?

– ماذا تظن انهم يفعلون هذه الليلة في برلين ، القوزاق الطيبون ? مذابح واغتصاب ! انت تتحدث عن ماخور عام . انه النصر ، عجباً ! نصرنا . ألا تشعر بالفخر ?

– آه ! لن تجعلني انت ايضاً اغوط على السياسة !

فقال جوليان :

– آه ! كلا . خراء على السياسة !

فقال هنري :

– اذا كنت تريد ان تقول ان هـــذا العالم ليس ظريفاً جداً ، فأنا أفكر مثلك .

– انا ايضاً . انظر إلى هذا الماخور: انه يدعى باراً . حتى السكارى لا يتحدثون إلا عن اعلاء فرنسا . والنساء ! ولا امرأة واحـــدة فرحة في الحي ، كلهن مزعجات .

ونزل جوليان عن مقعده : « آه ! تعال إذن إلى مونبارناس معي . هناك على الأقل نجد فتيات لطيفات . ربمـا لسن حقيقيات ، فتيات حقيقيات ، لكنهن مرضيات وغير مزعجات مقابل فلسين » .

فهز هنري رأسه : « انني عائد لأنام » .

فقال جوليان في قرف :

– انت ايضاً لست ظريفاً . كلا . بالنسبة لما بعد الحرب ، هذا لم ينجح حقاً !

فقال هنري :

– هذا لم ينجح ! » وتبع بعينيه جوليان الذي كان يمشي في عزة نحو الباب . هو ايضاً ، لم يكن ظريفاً ، بل انه ليعتبره خشناً ولكن بعد كل شيء، لماذا يجب ان يكون ما بعد الحرب ظريفاً بشكل خاص ? نعم ، تحت الاحتلال ، كان جميلاً حقاً : قصة قديمة . كفى دندنة بأغنية الغد . فالغد قد أصبح اليوم، ولم يعد

قابلاً ليُتغنى به . في الحقيقة ، لقد دمرت باريس ومات جميع الناس في الحرب .
وقال هنري في نفسه : « انا ايضاً » ثم ماذا ؟ ليس من المزعج ان يموت إذا تخلى
عن التظاهر بأنه يعيش . انتهت الكتابة ، انتهت الحياة . شعار واحد : العمل .
العمل مع الجماعة ، دون الاهتمام بالذات ، والزوع ، والزوع ايضاً ، دون جني ابداً .
العمل ، الاتحاد ، الخدمة ، اطاعة دوبروي ، الابتسام لسامازيل . سوف يتلفن :
« الجريدة لكم » . الخدمة ، الاتحاد ، العمل . وطلب كأس كونياك مضاعفاً .

الفصل الرابع

ان استمر في الحياة ، ان اسكن في الجانب الآخر من حياتي: بعد كل شيء، هذا مريح جداً . فلن انتظر شيئاً ، ولن اخشى شيئاً ، والساعات كلها تشبه ذكريات . هذا ما اكتشفته اثناء غياب نادين : يا لها من راحة ! لم تعد ابواب الشقة تصفق ، وصرت استطيع ان أتحادث مع روبير دون ان أهمل احداً وان أسهر إلى ساعة متأخرة ليلاً دون ان يقرع بابي . وكنت استفيد من ذلك. كنت أحب ان أفاجىء الماضي في اعماق كل لحظة . كانت تكفي دقيقة واحدة من الأرق ، كانت النافذة المفتوحة على ثلاث نجوم تبعث فصول الشتاء كلها،والأرياف المتجمدة ، وعيد الميلاد . وفي ضجيج سلال المهملات التي كانت تحرك ، كانت جميع صباحات باريس منذ طفولتي تستيقظ . وكانت دوماً الصمت القديم نفسه في مكتب روبير بينما هو يكتب ، محمر العينين ، أصم ، عديم الحساسية . وكم كان أليفاً عليّ حفيف تلك الأصوات المستثارة ! كانت لهم وجوه جديدة ، وهم يدعون اليوم لونوار ، سامازيل . لكن رائحة التبغ الرمادي ، تلك الأصوات العنيفة ، تلك الضحكات المتساهلة ، كنت أتعرفها . عند المساء ، كنت أسمع إلى حكايا روبير ، وانظر إلى طرفنا الساكنة ، وكتبنا ولوحاتنا ، وأقول في نفسي ربما كان الموت اكثر رأفة مما كنت أظن .

كل ما هنالك ، انه كان يجب ان أحبس نفسي في قبري . ولكن ها نحن نصادف في الشوارع المبللة رجالاً في بيجامات مخططة : اوائل المبعدين يعودون .

وعلى الجدران ، وفي الصحف ، كانت ثمة صور تكشف لنا اننا لم نستشعر ، طوال هذه السنوات ، ما تعنيه كلمة « فظاعة » . كان أموات جدد يأتون ليزيدوا في حجم جمهرة الأموات الذين تنم عليهم حيواتنا . وفي مكتبي ، كنت أرى بعضاً ممن بقوا على قيد الحياة لا يستطيعون، هم ، ان يستريحوا في الماضي « أريد كثيراً لو أنام ليلة واحدة دون ان أتذكر » . كانت تتضرع تلك الفتاة الكبيرة ، التي لا تزال غضة الخدين، ولكن التي ابيض شعرها . كنت، عادة ، أعرف كيف ادافع عن نفسي . فجميع المصابين بالعصاب الذين كبتوا ، اثناء الحرب ، جنونهم ، يثأرون اليوم ثأراً مسعوراً ، ولم أكن أخصهم إلا باهتمام مهني . ولكن امام هؤلاء العائدين ، كنت أشعر بالخجل : الخجل من انني لم أتألم بما فيه الكفاية ، من انني هنا سالمة ، مستعدة لإرشادهم من علو صحتي . آه ! كانت الأسئلة التي طرحتها على نفسي تبـــدو لي باطلة : مهما كان مستقبل العالم ، فلا بد من مساعدة هؤلاء الرجال والنساء على النسيان ، على الشفاء . والمشكلة الوحيدة هي انني مهما كنت آخذ من لياليّ ، فإن نهاراتي قصيرة جداً .

وزاد الطين بلة عودة نادين . كانت تجر وراءها كيس بحـــار كبيراً مليئاً بالمقانق التي بلون الصدأ ، وبلحم الخنزير ، والسكر ، والقهوة ، والشوكولا . ومن حقيبتهـــا أخرجت حلويات دسمة بالسكر والبيض ، وجوارب ، وأحذية ، ومناديل ، وأقمشة ، وعرقاً . وراحت تقول في فخر : « اعترفا بأنني عرفت كيف أتدبر أمري ! » . كانت تلبس تنورة مخططة زاهية ، وقميصاً أحمر جيد الخياطة ، ومعطفاً من الفرو الرمادي ، وحذاء من جلد السمك . وقالت لي وهي تلقي بين ذراعي بنسيج أزغب غني بالألوان الخريفية : « اسرعي في خياطة ثوب لـك ، يا أمي المسكينة ، فأنت على كل حال مهملة في لبسك » . وطوال يومين وصفت لنا البرتغال بدقة . كانت لا تتقن الحديث ، وترسم بحركات كبيرة جملًا لا تستطيع كلماتها ان تملأها . وكان في صوتها حـدة قلقة : كأنها بحاجة لأن تبهرها كي تسر بالتذكر . وتفحصت البيت في رصانة .

ـــ ألا تدركين : هذه النوافذ ! هـذه الأرضيات ! كلا ، الآن والزبائن

يهجمون ، ما عدت تستطيعين ان تتولي كل شيء بنفسك .

كان روبير يلح ، هو أيضاً . وكنت ، انا ، أنفر قليلاً من فكرة ان يخدمني احد ، لكن نادين كانت تقول ان هـذه وساوس بورجوازية صغيرة . وبين عشية وضحاها وجـدت لي امرأة لتدبير شؤون البيت ، شابة متقنة ، نشيطة تدعى ماري . وقد اضطررت على كل حال إلى طردها من الأسبوع الأول . كان روبير قد خرج ، فجأة ، كما يحدث له غالباً هذه الأيام ، وقد ترك أوراقه متناثرة على الطاولة . ولما سمعت صوتاً في مكتبه فتحت الباب قليلاً ورأيت ماري محنية على أوراق مخطوطة .

– ماذا تصنعين ؟

فقالت في هدوء :

– انني أرتب . انني أنتهز فرصة غياب السيد .

– قلت لك ألا تلمسي هذه الأوراق ابداً . وما كنت ترتبين ، بل تقرئين !

فقالت في أسف :

– انني لا أستطيع قراءة خط السيد . » وابتسمت لي . كان لها وجه صغير كالح لا توقظه ابتساماتها : « غريب جداً ان أرى السيد يكتب طوال النهار : هل يخرج هذا كله من رأسه ؟ كنت أريد ان أرى ماذا يشبه هـذا على الورق . لم أفسد شيئاً » .

وترددت ، وفي النهاية لم يطاوعني قلبي . ان تمضي يومها في التنظيف والترتيب ، يا للسأم ! وعلى الرغم من سحنتها المتناومة ، لم تكن تبدو بلهاء ، وكنت أفهم ان تحاول تسلية نفسها . وقلت :

– حسناً . لكن لا تعاودي . » وأضفت : « أتستهويك القراءة ؟ » .

فقالت ماري :

– لا يتاح لي الوقت لها .

– هل انتهى يومك الآن ؟

– في البيت يوجد ستة اطفال ، وانا البكر .

وقلت في نفسي : « من المؤسف الا تستطيع تعلم مهنة حقيقية » . وكنت افكر بشكل مبهم ان أحدثها عن ذلك ، لكني ما كنت أراهـا مطلقاً وكانت شديدة التحفظ .

ونبهتني نادين بعد بضعة أيام من عودتها :

– لامبير لم يتلفن . لكنه يعلم جيداً ان هنري قد عاد ، وانا ايضاً .

– لقد كررت عليه عشرين مرة قبل رحيلك انك انت التي ستتصلين به : انه يخشى ان يزعجك .

– اواه ! إذن كان حرداً ، فهذا شأنه . لكنك ترين انه يستطيع ان يستغني عني .

ولم أجب ، وأضافت بلهجة عدائية :

– كنت اريد ان اقول لك : لقد اخطأت كثيراً بخصوص هنري . ان أقع في حب رجل مثله ، انا لم أخلق لذلك ! انه واثق جـــداً من نفسه . » وختمت كلامها في استياء : « ثم انه ممل » .

يقيناً لم تكن تشعر بأي حنان نحوه . ولكنها في الأيام التي كانت ستراه فيها، كانت تتبرج بعناية خاصة جداً . وعندما كانت تعود ، تكون أشد شراسة مما هي عليه عادة . وهذا لا يعني شيئاً قليلاً . فكل ذريعة صالحة عندها لتصاب بنوبات غضب . وذات صباح ، جاءت إلى مكتب روبير وهي تهز جريدة في سيماء من انتقام :

– انظر هذا !

على الصفحة الأولى من « الغد » كان سكرياسين يبتسم لروبير الذي كان ينظر حوله في سحنة حانقة . وقال وهو يمسك بالمجلة الأسبوعية :

– آه ! لقد نالوني ! » وقال لنادين : « كان هذا في تلك الليلة ، في «العزبة» . لقد قلت لهم ان يغربوا ، لكنهم نالوني !

فقالت بصوت يخنقه الغضب :

– وقد أخذوك مع هذا الشخص القذر . لقد فعلوا ذلك عمداً .

فقال روبير :

– سكرياسين ليس بالشخص القذر .

– جميع الناس يعرفون انه مباع لأميركا . هذا مقرف . ماذا ستفعل ؟

فهز روبير كتفيه : « ماذا تريدين ان افعل ؟ » .

– ارفع دعوى . لا يحق لهم ان يصوروا الناس رغماً عنهم .

كانت شفتا نادين ترتجفان . كانت تكره دوماً ان يكون ابوها رجلاً معروفاً. عندما كان استاذ جديد او فاحص يسألها : « انت ابنة روبير دوبروي ؟ » كانت تلزم الصمت في شراسة . ومع انها فخور به ، لكنها كانت تريد ان يكون مشهوراً دون ان يعرف ذلك .

وقال روبير :

– الدعوى ستثير ضجة اكثر مما ينبغي . كلا ، ليس لدينا أسلحة . » ورمى الجريدة : « لقد قلت شيئاً صائباً تماماً في تلك الليلة ، بأن العري بالنسبة لنا يبدأ من الوجه » .

كنت دوماً أدهش للدقة التي كان يذكرني فيها بعبارات أكون قد نسيتها تماماً . وكان يسبغ عليها عادة من المعنى اكثر مما اعطيتها انا . كان يفعل ذلك دوماً ، مع جميع الناس .

وتابع :

– العري يبدأ من الوجه ، والخلاعة مع الكلمة . إنهم يحكمون بأن علينا ان نكون تماثيل أو اشباحاً . وما ان يفاجئونا أحياء من لحم وعظم حتى يتهمونا بالغش . ولهذا فإن أبسط حركة تصبح بسهولة كبيرة فضيحة : الضحك ، الكلام، الأكل ، كلها أنواع من الجرم المشهود .

فقالت نادين التي كان صوتها يأخذ بالغضب :

– حسناً رتبوا أموركم بحيث لا تتركون احداً يفاجئكم .

فقلت :

– إسمعي لا داعي من ان نجعل من الأمر مأساة .

- اواه ! انت ! بالتأكيد ! لو داسوا على رجلك ، لفكرت بأنهم داسوا على رجل هي بالصدفة رجلك .

وبالفعل ، لم تكن تعجبني أيضاً هذه الضجة كلها التي تقام حول روبير . فعلى الرغم من انـه لم ينشر شيئاً منذ ١٩٣٩ - باستثناء مقالات في « الأمل » - كانوا يتحدثون بضجة أكثر بكثير مما قبل الحرب . وقد طلبوا اليه في حماسة ان يسعى إلى دخول الأكاديمية وان يطالب بوسام جوقة الشرف . وكان الصحفيون يلاحقونه ، وينشرون عنه أكاذيب كثيرة . وكان يقول لي : « ان فرنسا تتباهي باختصاصاتها المحلية : الثقافة والخياطة [1] » . وكان يغتاظ هو ايضاً من تلـك الضجة الباطلة حوله ، ولكن ما العمل؟ ومهما كنت اشرح لنادين اننا لا نستطيع شيئاً ، كانت تصاب بنوبة في كل مرة تقرأ فيها شائعة عن روبير او ترى في الصحف صورة له .

هنا قد عادت الأبواب تصطفق من جديد في البيت ، والأثاث يرقص ، والكتب تنهار في فرقعة على الأرض . وكانت هذه اللهجة تبدأ من ساعة مبكرة . وكانت نادين تنام قليلاً ، إذ كانت تعتبر ان النوم ضياع للوقت ، على الرغم من انهـا ما كانت تعرف كثيراً ماذا تفعل بوقتها . وكان كل شاغل يبـدو لها لا مجدياً على حساب كل الشواغل التي تضحي بها من أجله : لذلك لم يكن قرارها يقر على شاغل معين . وعندما كنت أراها جالسة ، متجهمة السحنة ، امام آلة الكتابة ، كنت أسألها : « أتتقدمين ؟ » .

- افضل لي لو درست كيميائي ، فسوف أرسب .

- ادرسي كيمياءك .

- ولكن لا بد للسكرتيرة ان تعرف الضرب على الآلة الكاتبة . » وكانت تهز كتفيها : « ومن العبث تماماً ان أحشو رأسي بالمعادلات . فأية علامة لهـذه الحياة الحقيقية » .

- اتركي كيمياءك اذا كانت تسبب لك مثل هذا الضجر .

- قلت لي عشرين مرة انه يجب ألا أتصرف كانسان متقلب الرأي .

---

١ - بين الكلمتين في الفرنسية جناس لفظي تستحيل ترجمته . « المترجم »

كانت بارعة في فن تحويل جميع النصائح التي اثقلت بها حداثتها ضدي .

– هناك حالات من الحماقة العناد فيها .

– ولكن لا تهلعي ! انني لست عاجزة إلى الحد الذي تتصورين . سوف أنجح في ذلك الامتحان .

وبعد ظهر ذات يوم ، قرعت باب غرفتي . وقالت : « جاء لامبير لرؤيتنا » . فقلت :

– لرؤيتك .

– انه سيرحل ثانية الى المانيا بعد غد . انه حريص على توديعك . » وأضافت في حيوية شاكية : « تعالي إذن . ليس لطيفاً ألا تأتي . » .

وتبعتها الى غرفة الجلوس . لكني كنت أعرف ان لامبير في الحقيقة لا يحبني مطلقاً . بلا شك – وليس بلا حق – كان يعتبرني مسؤولة عن كل ما يجرحه لدى نادين : عدوانيتها ، نفاقها ، عنادها . وافترض ايضاً انه يميل إلى ان يبحث لنفسه عن ام في امرأة اكبر سناً منه وأنه يتصلب امام هذا الاغراء الصبياني . وكان وجهه ، ذو الأنف الشامخ ، والخدين الرخوين قليلاً، ينم عن قلب وجسد تسكنهما احلام خضوع .

وقالت نادين في احتداد :

– الا تعرفين ما يرويه لي لامبير ؟ ان الأميركان لم يعيدوا إلا مبعداً واحداً من أصل كل عشرة ، فهم يتركونهم يموتون في مكانهم .

فقال لامبير :

– في الأيام الأولى ، مات نصفهم لأنهم حشوهم بالمقانق والمحفوظات . اما الآن فيعطونهم حساء في الصباح وفي المساء قهوة مع قطعة خبز . وهم يموتون بالتيفوس كالذباب .

فقلت :

– يجب ان يُعرف هذا . يجب الاحتجاج .

– بيرون سيفعل ذلك . لكنه يريد وقائع محددة ، وهذا صعب ، لأنهم

يمنعون الصليب الأحمر الفرنسي من زيارة المعسكرات . ولهذا السبب بالضبط انا راحل ثانية .

فقالت نادين :

ـ خذني معك .

فابتسم لامبير : « ما كنت لأطلب اكثر من هذا » .

فقالت نادين بصوت غاضب :

ـ هل قلت شيئاً سخيفاً ؟

فقال لامبير :

ـ تعرفين جيداً ان هذا مستحيل . انهم لا يسمحون بالمرور إلا للمراسلين الحربيين .

ـ هناك نساء مراسلات حربيات .

ـ لكنك لست منهن . والآن قد فات الأوان ، وما عادوا يقبلون احداً .» وأضاف : « على كل حال ، لا تأسفي . انها ليست مهنة اوصيك بها » .

كان يتحدث من اجل نفسه ، لكن نادين ظنت انها أحست بشيء من الحماية في صوته : « لماذا ؟ ان ما فعلته انت ، استطيع ان افعله انا ، أليس كذلك؟» .

ـ أتريدين ان تري الصور التي أتيت بها ؟

فقالت في شره : « أرني » .

وألقى بالصور على الطاولة . كنت أود ان لا أنظر إليها ، لكن لم يكن لي خيار . صور مخازن الجثث ، هذا محتمل ، فهي كثيرة جـداً ، ثم كيف ارثي لعظام ؟ لكن ما العمل بأنفسنا ونحن تجاه صور أحياء ؟ جميع هذه العيون ...

وقالت نادين :

ـ لقد رأيت أسوأ منها بكثير .

واستعاد لامبير الصور دون ان يجيب وقال بصوت مشجع : « تعرفك انك إذا كنت راغبة في كتابة ريبورتاجات ، فهذا لن يكون صعباً . ليس عليك إلا ان تكلمي بيرون بشأنها. ففي فرنسا بالذات،توجد كمية من التحقيقات الممكنة» .

فقاطعته نادين : « ما اريده هو ان أرى العالم كما هو . وبعد ذلك ، صف الكلمات هذا ، لا يستهويني » .

فقال لامبير في حرارة :

– انا واثق انك ستنجحين . فعندك جسارة . وانت تعرفين كيف تجعلين الناس يتكلمون ، وتعرفين كيف تتدبرين أمرك ، وسوف تدخلين إلى اي مكان . اما فيما يتعلق بتسويد الورق ، فهذا ستتعلمينه بسرعة .

فقالت في عناد :

– كلا . عندما يكتب الانسان ، لا يقول الحقيقة ابداً . خذ ريبورتاج بيرون عن البرتغال : ان كل شيء فيــه مكتوب بشكل جانبي : وريبورتاجاتك ، انا واثقة انها مماثلة . انني لا اؤمن بها . لهذا أريد ان أرى الأشياء بعيني انا ، لكني لن احاول ان اجعل منها سلطة وأبيعها .

كان وجه لامبير قد غام . وقلت في حدة : « انني اجد مقالات لامبير مقنعة للغاية ، فمستشفى « داشو » ، اشعر انني قد زرته بنفسي » .

فقالت نادين بصوت نافد الصبر : « ماذا تثبت مشاعرك هذه ؟ » . وساد صمت قصير وسألت : « هل ستأتي ماري بالشاي ، نعم ام خراء ؟ » . ونادت في حزم : « ماري » .

وظهرت ماري على عتبة الغرفة في قميص العمل الأزرق ونهض لامبير مبتسماً :

– ماري – آنج ! ماذا تفعلين هنا ؟

واحمرت كلها واستدارت على عقبيها . فأوقفتها : « تستطيعين ان تجيبي » .

فقالت وهي تنظر إلى لامبير في ثبات :

– انني مدبرة المنزل .

كان لامبير قـد احمر كثيراً هو الآخر وراحت نادين تتفرس فيهما في شك : « ماري – آنج ؟ اتعرفها ؟ ماري – آنج من ؟ » .

وساد صمت ثقيل وقالت فجأة : « ماري – آنج بيزيه » .

وشعرت بالغضب يصعد إلى خدي : «الصحفية؟» . فهزت كتفيها ، وقالت :

– نعم . انني ذاهبة فوراً . لا تتحملي مشقة طردي .

– أجئت تتجسسين علينا في بيتنا؟ كنذالة ،لا يمكن ان تفعلي أفضل من هذا!

فقالت وهي ترمي لامبير بنظرة :

– لم أكن اعلم انك تعرف صحفيين .

وصاحت نادين :

– ماذا تنتظرين لصفعها ! لقد سمعت احاديثنا كلها ، ونقبت في كل مكان ، وقرأت رسائلنا ، وسوف تروي كل شيء لجميع الناس ...

فقالت ماري آنج :

– اواه ! لن تخيفني بصوتك العالي .

وأتيح لي الوقت بالضبط لأردع نادين بأن أمسكت بها من معصميها . كانت ستستطيع بسهولة ان تلقي ماري – آنج ارضاً . وكانت الجرأة هي التي تنقصها فقط ، معي ، لتتملص بانتفاضة . وسارت ماري – آنج نحو الباب وتبعتها . وفي الممر سألتني في هدوء :

– ألا تريدين على كل حال ان أنهي مسح النوافذ ؟

– كلا . ما أريده هو ان اعرف أية صحيفة ارسلتك .

– ولا صحيفة . لقد جئت من نفسي. لقد فكرت انني سأكتب مقالاً جميلا يباع بسهولة .» وأضافت بصوت محترف : « أنت تعرفين ، ما يسمونه ريبورتاجاً حياً » .

– نعم . حسناً ! سوف أخطر الصحف ، ومن سيشتري سَلَطتك ، فسوف يكلفه هذا غالياً .

– أواه ! لن احاول حتى ان ابيعه ، لقد فشلت العملية الآن .

وخلعت قميصها الأزرق وارتدت معطفها : « كل ما ربحته هو ثمانية ايام من الخدمة . انني أكره تدبير المنزل ! » ، اضافت ذلك في يأس .

ولم اجب بشيء ، لكنها شعرت بلا شك بغضبي يتراخى ، لأنها تجرأت على ابتسامة صغيرة ، وقالت بصوت فتاة صغيرة :

« أتعرفين ، انني لم اسع ابداً إلى كتابة مقال فاضح . كنت أبحث فقط عن جو » .

– ألهذا نقّبت في اوراقنا ؟

– اواه ! كنت أنقب للذتي الخاصة ! » وأضافت بصوت حرد :

« يقيناً ، من السهل عليك ان تشتميني ، فأنا مخطئة . . لكن أتعتقدين ان من المريح ان يشق الانسان طريقه ؟ انت، انك زوجة شخص مشهور ، والأمور سهلة بالنسبة لك . » وقالت « اسمعي ، اعطيني فرصة : سآتيك به غداً ، هذا المقال ، وستشطبين كل ما لا يعجبك ؟ » .

– ثم ستنشرينه دون حذف !

– نعم ، انني اقسم لك . اذا اردت ، استطيع ان اعطيك أسلحة ضدي : اعترافاً صريحاً ، موقعاً ، وستمسكين بي بين يديك. قولي، اقبلي ! لقد غسلت لك الصحون . و كنت شاطرة على كل حال ، أليس كذلك ؟

– ولا زلت .

وترددت . لو رُويت لي هذه القصة ، لكنت جررت في خيالي الوقحة التي انتهكت حياتنا الخاصة من شعرها وألقيت بها من أعلى الدرج . ولكن ها هي ، هنا ، فتاة صغيرة ، سوداء ، كلها عظام ، بدون جمال وبها رغبة عظيمة في ان تشق طريقها . وأخيراً قلت :

– ان زوجي لا يعطي مقابلات ابداً . لن يقبل .

– اسأليه : ما دام العمل قد تم . .» وأضافت بسرعة : « سأتلفن غداً صباحاً. انت غير حاقدة عليّ ، أليس كذلك ؟ انني أكره ان يُحقد علي . » وضحكت ضحكة صغيرة مضطربة : « انا لا أستطيع ابداً ان احقد على احد.» .

– لست اعرف تماماً ايضاً !

– وهذا ايضاً : لقد طفح الكيل ! » . صرخت بذلك نادين وهي تبرز من الممشى مع لامبير : « تتركينها تنشر مقالاً ! تبتسمين لها ! لهذه الجاسوسة . .» .

كانت ماري – آنج قد فتحت باب الدخول الذي سرعان ما صفقته وراءها .

ـ لقد وعدت بأن تترك لي مقالها لاراه .

فكررت نادين بصوت حاد :

ـ هذه الجاسوسة ! لقـــد قرأت يومياتي ، وقرات رسائل ديبغو ، و ...

وتحطم صوتها . كانت نادين تنتفض بغضب وحشي كثورات غضبها في طفولتها : « ونحن نكافئها ! كان يجب ضربها ! » .

ـ لقد اثارت شفقتي .

ـ شفقة ! انت دوماً تشفقين على جميـع الناس ! بأي حق ؟ » كانت تنظر إلي في نوع من الحقد : « في الحقيقة هذا احتقار . فليس بينك وبين الناس ابداً حدود حقيقية » .

ـ هدّئي نفسك ، فليس الأمر خطيراً جداً .

ـ اواه ! اعرف ، انني مخطئة ، بالطبـع . انا ، انك لا تعذرينني ابداً . انت على حق تماماً ! انني لا أريد شفقتك !

فقال لامبير :

ـ انها فتاة طيبة ، أتعرفين . وصولية قليلًا لكنها لطيفة .

ـ حسناً ! اذهب إذن لتهنئها انت ايضاً . اركض .

وفجأة ركضت نادين إلى غرفتها وصفقت الباب وراءها في قرقعة .

وقال لامبير :

ـ انا آسف .

ـ انها ليست غلطتك حقاً .

ـ ان للصحفيين ، اليوم ، اخلاق الوشاة الذين يعملون لحساب البوليس . انني افهم ان تكون نادين غاضبة . فأنا ايضاً ، مكانها ، كان دمي سيفور .

لم يكن بحاجة لأن يدافع عنها ضدي ، لكنه كان يصدر عن نية طيبـــة . وقلت : « اواه ! انني افهم ايضاً » .

فقال لامبير :

ـ حسناً ! انني ذاهب .

فقلت :

– رحلة موفقة . » وأضفت : « يجب ان تأتي لرؤية نادين اكثر مما تفعل . انها تشعر بصداقة كبيرة نحوك ، انت تعرف » ...

فابتسم في حرج : « هذا ما لا يبدو مطلقاً ! » .

– لقد خاب أملها لأنك لم تتصل بها قبل الآن. ولهذا لم تكن ودوداً كثيراً.

– لكنها قالت لي ألا أتلفن قبلها .

– كانت ستسر على كل حال لو اتصلت بها . انها بحاجة لأن تكون واثقة جداً من صداقة لتمنح نفسها لها .

فقال لامبير :

– ليس عندها أي سبب لتشك في صداقتي » . وفجأة أضاف : « انني أود نادين كثيراً » .

– إذن رتب امرك بحيث تدرك ذلك .

– انني افعل ما بوسعي » . وتردد ثم مد لي يده ، وقال : «على كل حال ، سآتي ما إن اعود . »

ودخلت غرفتي دون ان اجرؤ على دق باب نادين. ما كان أظلمها! صحيح انني أبحث للآخرين عن اعذار عن طواعية ، وان التسامح يجعل القلب جافاً. وإذا كانت لي مطالب تجاهها ، فهذا لأنها ليست حالة أميل عليها لأدرسها . وبيني وبينها حد حقيقي هو ذاك الصوت المهموم في صدري .

وأبدت شيئاً من التذمر من حيث المبدأ عندما ظهر مقال الصغيرة بيزيه العادم الأهمية . لكن مزاجها تحسن كثيراً عندما فتحت مكاتب « الطوارىء » . وعندما تولت مهمتها المحددة ، اظهرت انها سكرتيرة ممتازة وجعلها هذا فخوراً كل الفخر . ولقد اصاب نجاحاً كبيراً العدد الأول من المجلة، وكان روبير وهنري مسرورين تماماً ، وراحا يعدان العدد الثاني في حماسة وكان روبير يطفح حباً بهنري منذ ان أقنعه بأن يربط مصير « الأمل » بمصير «الاشتراكي الثوري الحر» ، وانشرح صدري لذلك ، لأنه كان ، بعد كل حساب ، صديقه الوحيد . وقد كنا

نمضي اوقاتاً طيبة مع جوليان ولونوار ، وآل بلوتييه ، وآل كانج ، لكن ما كانت علاقاتنا بهم تذهب الى أبعد من ذلك . ومن بين الرفاق الاشتراكيين القدامى ، كان بعضهم قد تعاون ، وآخرون ماتوا في المعسكرات ، وشارلييه يستشفي في سويسرا ، ومن بقي منهم وفياً للحزب كان يلوم روبير الذي كان يرد لهم لومهم صاعين . وقد خاب أمل لافوري من انه أسس « الاشتراكي الثوري الحر » بدل ان ينضم إلى الشيوعية ، وكانت علاقتهما تفتقر إلى الحرارة . ولم يعد لروبير احتكاك ، إذا صح هذا التعبير ، بالرجال الذين في عمره ، لكنه كان يفضل هذا : فقد كان يعتبر جيله كله مسؤولاً عن هـــذه الحرب التي لم يعرف كيف يمنعها . وكان يقدر انه قد احتفظ بارتباطات اكثر مما ينبغي مع ماضيه ، فكان يريد ان يعمل مع رجال شبان . لقـــد كان للسياسة والعمل اليوم وجه وطرق جديدة يريد ان يتلاءم معها . بل كان يقدر ان عليه ان يعيد النظر في أفكاره نفسها : لهذا كان يردد بإلحاح كثير ان عمله لا يزال امامه . وكان يسعى ، في الدراسة التي يكتبها ، إلى تحقيق التركيب بين أفكاره القديمة وبين رؤية جديدة للعـــالم . وكانت اهدافه اهداف الماضي نفسها : فقد كان « الاشتراكي الثوري الحر » يتطلع ، بالاضافة إلى اهدافه المباشرة ، الى الحفاظ على الأمل بثورة تنسجم مع نواياه الانسانية . لكن روبير كان مقتنعاً الآن انها لن تتم بدون تضحيات قاسية . فإنسان الغد لن يكون الانسان الذي كان جوريس يعرفه في كثير من التفاؤل . إذن اي معنى ، أي حظ تحتفظ بـــه القيم القديمة : الحقيقة ، الحرية ، الأخلاق الفردية ، الأدب ، الفكر ؟ اذا كنا نريد إنقاذها ، فلا بد ان نخترعها ثانية . وهذا ما كان روبير يحاوله ، وكان هذا يحمّسه ، وكنت اقول في نفسي في رضى انه قد وجد توازناً سعيداً بين الكتابة والعمل ثانية . وبديهي انه كان مشغولاً جداً ، لكنه كان يحب ذلك . انا ايضاً كانت حيـــاتي مليئة . روبير نادين ، زبائني ، كتابي : لم يكن في نهاراتي مكان لأسف ، لشهوة . كانت الفتاة ذات الشعر الأبيض تنام بلا كابوس ، في الوقت الراهن . وقد تسجلت في الحزب الشيوعي ، واتخذت عشاقاً ، اتخذت عشاقاً كثيرين ، وكانت تشرب بلا اعتدال.

لم يكن توازناً مدهشاً ، لكنها كانت تنام اخيراً . وكنت مسرورة بعد ظهر ذاك اليوم لأن الصغير فرنان قد رسم اخيراً فيلا لها نوافذ وأبواب : لأول مرة ، بلا حاجز .

وكنت أتلفن لأمه عندما جاءت البوابة بالبريد . كان روبير ونادين في المجلة ، فقد كان يوم استقبال ، وكنت بمفردي في الشقة . وفتحت مغلف رسالة روميو : وتملكني الخوف كأنه قد ألقي بي فجأة في الفضاء . سوف يعقد مؤتمر لعلم النفس التحليلي في نيويورك في كانون الثاني . وهم يدعونني . ويستطيعون ان ينظموا لي محاضرات في انكلترا الجديدة ، وشيكاغو ، وكندا . وبسطت الرسالة على المدفأة وأعدت قراءتها في دهشة . كم ذا احببت الاسفار ! باستثناء بضعة اشخاص ، لم أحب شيئاً اكثر منها في العالم . ولكنها كانت من بين تلك الأشياء التي كنت اعتقد انها انتهت الى الأبد . لو انهم اقترحوا عليّ نزهة في بلجيكا ، او في ايطاليا ، ولكن نيويورك ! لم أكن استطيع ان أشيح بنظري عن هذه الكلمة اللامعقولة . كانت نيويورك دوماً بالنسبة لي مدينة اسطورية ، ومنذ زمن بعيد ما عدت اؤمن بالمعجزات . وما كانت هذه القطعة من الورق تكفي لقلب الزمان ، والمكان ، والعقل . ودفنت الرسالة في حقيبتي وخرجت في خطى كبيرة إلى الشوارع .

انهم يسخرون مني ، هناك من يعد لي مقلباً ، وكنت بحاجة الى روبير لأطرد هذا السحر . وصعدت في عجلة درج بيت « موفان » ، وقالت نادين في شيء من اللوم :

– آه ، هذه انت ؟

– كما تريني .

فقالت في أهمية :

– بابا مشغول .

كانت تتربع امام طاولة ، وسط مكتب كبير ، يستخدم قاعة للانتظار . وكانوا كثيرين الذين ينتظرون : شبان ، شيوخ ، رجال ، نساء ، خليط حقيقي .

قبل الحرب، كان روبير يتلقى عدداً لا بأس به من الزيارات ، ولكنها لا تقاس بهذا الجمهور . ان ما يسره ، هو ان بينهم شباناً . لا شك في ان كثيرين يأتون إلى هنا بدافع الفضول ، او البطالة ، او الوصولية ؛ لكن كثيرين ايضاً كانوا يحبون كتب روبير ويهتمون بعمله . هيا ! انه لا يتكلم في الصحراء ، فمعاصروه لا تزال لهم عيون لتقرأه ، وآذان لتسمعه .

ونهضت نادين وصاحت بصوت غليظ « الساعة السادسة ! اننـــا نقفل ! » . ورافقت حتى الباب الزوار الخائبين وأدارت المفتاح في القفل . وقالت ضاحكة : يا له من خليط ! كأنهم ينتظرون مأدبة مجانية . » وفتحت الباب الواصل :

– الطريق حر .

ومن العتبة ابتسم لي روبير : « أمنحت نفسك إجازة ؟ » .

– نعم . أود ان أقوم بجولة .

واستدارت نادين نحو ابيها :

– انه لمضجر ان نراك ذا وظيفة : كأنك كاهن على كرسي اعترافه .

– اني لأرى نفسي بالأحرى راوية مغامرات لذيذة .

وفجأة ، وكأنها ضغطت على زر ، اخذت نادين تقهقه : كانت نوبات مرحها نادرة ، لكنها حادة : « انظر هذا ! » .

وأرتنا بإصبعها حقيبة مهترئة الجوانب. على الجلد الكابي كانت بطاقة ملصوقة « حياتي بقلم جوزفين ميفر ». وقالت بين شهقتين : « انت تتحدث عن مخطوط ! انه اسمها الحقيقي . أولا تعرف ماذا قالت لي ؟ » . كان ، في عينيهـا الرطبتين بالغبطة ، بصيص من انتصار : فالضحك، كان ثأرها: « قالت لي : انا، يا آرنة، انني وثيقة حية ! في الستين من العمر . وهي تسكن في اوريلاك . انها تروي كل شيء من البداية » .

وبرفسة ، أطاحت بالغطاء . رزم ورزم من الورق الوردي ، مليئة بحـــبر اخضر ، دون شطبة واحدة . والتقط روبير ورقة ، وتقراها ، ورماها : « هـذا ليس حتى بسخيف » .

فقالت نادين في أمل :

– ربما كانت هناك مقاطع ظريفة . » وركعت امام الحقيبة . هـذا الورق كله ، هذه الساعات كلها ! ساعات دافئة تحت المصباح عند زاوية النار في رائحـة غرفة الطعام الريفية ، ساعات مليئة جداً وفارغة جداً ، مبررة بعذوبة للغايـة ، ومضيعة بحماقة للغاية : « كلا ، ليس هذا ظريفاً ! » . ونهضت نادين في نفاد صبر . لم يكن هناك من أثر للمرح على وجهها . . . « إذن أنضعها ؟ » .

فقال روبير :

– خمس دقائق .

– اسرع : ان المكان عفن برائحة الأدب .

– اية رائحة له ، الأدب ؟

– رائحة سيد مسن يهمل نفسه .

لم تكن رائحة . لكن الهواء قد أشبـع ، طوال ثلاث ساعات ، بالأمـــل ، بالخوف ، بالغضب ، وكنت أشم عبر الصمت تلك الكآبة المشوهـة التي تعقب الحميّات العقيمة . وأخرجت نادين من درجها غزلاً رمـاني اللون وراحت تقعقع الصنّارتين في سيماء من اهمية . كانت ، عادة ، سخية بوقتها ، لكن ما إن يطلب منها بعض الصبر ، حتى تستعجل في ان تظهر ان ما من لحظة من لحظاتها يجب ان تبذر . وتأخرت نظرتي على مكتبها . كان ثمة شيء مثير في ذلك الغطاء الأسود الذي تنبسط عليه في احرف حمراء كبيرة كلمات « قصائد مختارة. رنيه دوس » . وفتحت الدفتر .

– المروج سامة لكنها جميلة في الخريف . . .

وقلبت صفحة : « اصطدمت ، أتعرفون ، بفلوريدات لا تصدق . . . » .

– نادين !

– ماذا !

– شخص يرسل ، موقعة باسمه ، قطعـــاً مختارة من ابو لينير ، ورامبو ، وبودلير . . . انه لا يستطيـع على كل حال ان يفترض ان الناس سيخدعون بها .

فقالت نادين في لامبالاة :

– آه ! اعرف حقيقة الأمر . لقد اعطى هذا الفرج المسكين عشرين ألف فرنك لسيزوناك ليبيعه قصائد منه : لن تقولي ان سيزوناك سيلهو بإعطائه قصائد غير منشورة .

فقلت :

– لكن عندما سيعود ، لا بد ان تقولي له الحقيقة .

– لا فائدة ، فقد قبض سيزوناك . وسيدهشني ان يجرؤ الزبون على الاحتجاج . فهو ، اولاً ، لا حيلة له وسيكون عظيم الخجل .

فقلت في دهشة :

– هل يفعل اشياء كهذه ، سيزوناك ؟

فقالت نادين :

– كيف تظنين انه يتدبر اموره ؟ » وألقت بغزلها في الدرج : « ان عملياته مضجرة احياناً » .

فقال روبير :

– ان يدفع عشرين ألف فرنك من أجل توقيع قصائد لم يكتبها ، هذا يتركني حالماً .

فقالت نادين :

– لماذا ؟ إذا كان حريصاً على ان يرى اسمه مطبوعاً . » وأضافت من بين اسنانها ، موجهة كلامها إليّ وحدي ، لأنها كانت تنتقي لغتها امام ابيها : « الأفضل له ان يدفع من ان يكسر إسته وهو يقوم بالعمل » .

وعندما وصلنا إلى أسفل الدرج ، سألت في ارتياب :

– سنذهب لنشرب قدحاً في الحانة المواجهة ، كما فعلنا يوم الخميس الماضي .

فقال روبير :

– نعم .

وأضاء وجه نادين وقالت في مرح ، وهي تجلس امام الطاولة الرخامية :

« اعترف بأنني ادافع عنك على أحسن وجه ! » .

— نعم .

ونظرت إلى والدها في قلق : « ألست مسروراً مني ؟ » .

— اواه ! انا ، انني منشرح . إنما بالأحرى من اجلك : هـذا لن يقودك إلى شيء كبير .

فقالت نادين في خشونة مفاجئة :

— ان المهن لا تقود إلى شيء ابداً .

— هذا يتوقف . كنت تقولين في يوم سابق ان لامبير قد اقترح عليك ان تقومي بالريبورتاجات . هذا يبدو على كل حال اكثر فائدة .

فقالت نادين :

— اواه ! لو كنت رجلا ، لما قلت لا . لكن كاتبة ريبورتاجات امرأة ليس لها حظ من الف في النجـاح . » وأوقفت احتجاجاتنا بحركة ، وقالت في ترفع : « ليس ما ادعوه انا بالنجاح . فالنساء لا ينطلقن ابداً » .

فغامرت : « ليس دائماً » .

— أتعتقدين ؟ » وسخرت : « انظري إلى نفسك مثلا ، صحيح انك تدبرين امرك ، ولك زبائن . لكنك لم تصبحي في آخر الأمر ، فرويد ابداً ! » .

كانت قد اعتادت بشكل طفولي على مهاجمتي عن سوء قصد عندما يكون والدها حاضراً . فقلت :

— بين ان يكون الانسان فرويد ، وبين ألا يفعل شيئاً ، توجد درجـات متوسطة كثيرة .

— انني افعل شيئاً ما : انني سكرتيرة .

فقال روبير بسرعة :

— إذا كنت راضية هكذا ، فهذا هو الشيء الأساسي بعد كل حساب .

كنت آسفة على انه لم يعرف كيف يمسك لسانه . لقد افسد لذة نادين ، دون فائدة . وقد نبهته إلى ذلك كثيراً ، لكنه ما كان يزمع التخلي عن مطامحه الـتي

ملأ بها نفسه بخصوص نادين . وقالت بلهجة عدائية :

– على كل حال ان مصير فرد واحد قليل الأهمية للغاية اليوم .

فقال روبير مبتسماً :

– مصيرك له أهمية كبيرة في نظري .

– لكنه لا يتعلق لا بك ولا بي . لهذا فهم يضحكونني كثيراً، جميع اولئك التافهين الصغار الذين يريدون ان يصبحوا احداً . » وسعلت سعالاً خفيفاً وقالت دون ان تنظر الينا: « في اليوم الذي ستكون لي فيه الجرأة على فعل شيء صعب، فسوف ألقي بنفسي في السياسة » .

فقال روبير :

– ماذا تنتظرين للعمل في « الاشتراكي الثوري الحر » ؟

وجرعت دفعة واحدة قدح ماء « فيتل » .

– كلا ، لست موافقة . نهائياً انتم ضد الشيوعيين .

فهز روبير كتفيه : « هل تعتقدين ان لافوري سيكون ودياً إلى هذا الحد إذا كان يعتقد انني اشتغل ضدهم ؟ » .

فابتسمت نادين ابتسامة صغيرة ، وقالت : « يبدو ان لافوري سيطلب اليك ألا تعقد مهرجانك » .

فسأل روبير :

– من قال لك هذا ؟

– لاشوم ، البارحة . انهم ليسوا مسرورين من كل شيء . انهم يرون ان « الاشتراكي الثوري الحر » يسير في طريق خاطىء .

فهز روبير كتفيه : « ربما كان لاشوم وعصابته من اليساريين الصغار غير مسرورين : لكنهم يخطئون إذ يظنون أنفسهم اللجنة المركزية . لقد رأيت لافوري مرة اخرى في الأسبوع الماضي » .

فقالت نادين :

– لقد رآه لاشوم أمس الأول . » وتابعت : أؤكد لك ، الأمر جدي . لقد

عقدوا مجلس حرب كبيراً وقرروا انه يجب ان تتخذ تدابـير . سيأتي لافوري ليحدثك » .

والتزم روبير الصمت قليلاً ، وقال : « إذا كان هذا صحيحاً ، فهذا يدعو إلى اليأس من كل شيء » .

فقالت نادين :

– هذا صحيح . انهم يقولون ان « الاشتراكي الثوري الحر » بدل ان يعمل على اتفاق معهم ، يعظ بسياسة معاكسة لسياستهم ، وان هذا المهرجان تصريح بالعداء ، وانك تقسم اليسار ، وانهم سيضطرون إلى فتح حملة ضدك » . كان هناك رضى في صوت نادين ، فهي بلا شك لم تكن تقيس مدى ما تقوله . كانت عندما تواجهنا متاعب جدية ، تضطرب ، لكن استياءاتنا الصغيرة كانت تسليها .

وقال روبير :

– مضطرون ! هذا شيء لطيف ! وانـا الذي يقسم اليسار ! » وأضاف في غضب : « آه ! انهم لم يتغيروا ، انهم لن يتغيروا ابداً ! ما كانوا يريدونه ، هو ان يطيعهم « الاشتراكي الثوري الحر » على طول الخط . وعند أول بادرة استقلال ، يتهموننا بالعداء ! » .

فقالت نادين بصوت منطقي :

– حتماً إذا لم تكن من رأيهم فسيقولون انك مخطىء . وانت تفعل الشيء نفسه تماماً .

فقال روبير :

– يمكن ان تكون لنا آراء مختلفة وان نحافظ على وحدة العمل : هـذه هي فكرة الجبهة الوطنية .

فقالت نادين :

– انهم يجدونك خطراً . يقولون انك تبشر بسياسة الأسوأ ، وأنك تريد ان تخرب اعادة البناء .

فقال روبير :

– اسمعي ، تدخلي في السياسة او لا تتدخلي ، لكن لا تلعبي لعبة الببغاء . لو كنت تستخدمين مخك الخاص ، لفهمت ان سياستهم هم هي المؤذية .

فقالت نادين :

– انهم لا يستطيعون ان يتصرفوا بغير الشكل الذي يعملون به . لو كانوا يسعون إلى استلام الحكم ، فإن اميركا ستتدخل فوراً .

فقال روبير :

– انهم بحاجة لكسب الوقت ، انا موافق . لكنهم يستطيعون ان يواجهوا المشكلة بغير هذا الشكل . » وهز كتفيه : « أريد حقاً ان أقرّ ان وضعهم صعب . فهم محاصرون إن قليلاً وإن كثيراً . فمنذ ان ماتت « الشعبية الفرنسية للأممية العمالية [1] » ، وهم مرغمون على تمثيل جميع الأدوار في آن واحد ، انهم يمثلون يسار اليسار ويمينه ، بالتناوب . ولكن إنما لهذا لا بدّ ان يتمنوا وجود حزب يساري آخر » .

فقالت نادين :

– حسناً ! إنهم لا يتمنونه .

ونهضت فجأة. كانت راضية بأنها قد أحدثت تأثيرها الصغير وما كانت لترضى بأن تجر إلى مناقشة ، كان من البديهي انها لن تتغلب فيها : « سأذهب للتنزه » .

ونهضنا نحن ايضاً وعدنا على اقدامنا بمحاذاة الأرصفة . وقال لي روبير :

– سأتلفن فوراً إلى لافوري ! ما احوجنا ان نتكاتف ! وهم يعملون ذلك ! لكنهم ابداً لن يتحملوا ان يوجد يسار خارجاً عنهم . ولما كان «الحزب الاشتراكي» لم يعد له وجود ، فهم إذن يريدون الجبهة الوطنية تلك . ولكن حركة فتية يبدو انها قد انطلقت بشكل لا بأس به ، فهذا شيء آخر ...

كان يتابع الكلام في غضب ، وفكرت وانا استمع اليه : « لا أريد ان أتركه » . في الماضي لم يكن يحرجني ان أتركه : كنا نحب بعضنا البعض كما نعيش ، من خلال الأبدية . لكني أعرف الآن انه ليست لنا إلا حياة واحدة ،

---

١ - هي نفسها الحزب الاشتراكي الفرنسي . « المترجم »

انقضى منها شق غير قصير ، والمستقبل يهددها . ان روبير غير قابـــل للأذى . وفجأة كان يخيل إلي انه هش ايضاً . لقد اخطأ خطأ فادحاً باعتماده على طيبة نيـــة الشيوعيين. وأمام عدائهم، كانت هناك مشا كل كثيرة تنطرح . وقلت في نفسي: « قد وصلنا : هوذا المأزق » . لم يكن يستطيـع لا ان يتخلى عن برنامجه ، ولا ان يحافظ عليه ضد الشيوعيين : ولم يكن هنـاك حل وسط . لعل الأمور ستسوى : بشرط ان يقرر الشيوعيون التسامح بالمهرجان. لم يكن مصير روبير بين يديه هو، بل بين أيديهم : كنت أشمئز من التفكير بهـــذا . انهم يستطيعون ان يهدموا بكلمة واحدة التوازن الجميل الذي بناه روبير لنفسه . كلا ، انه ليس وقت التخلي عنه . وعندما دخلنا إلى المكتب ، قلت بصوت ساخر :

ــ انظر إذن ماذا تلقيت !

وناولت روبير رسالة روميو فتغير وجهه : لقد لمحت فيه ذلك الفرح الذي كان يجب ان يكون فرحي : « لكن هذا رائع ! لماذا لم تقولي لي شيئاً ؟ » .

فقلت :

ــ لن اذهب لأغيب ثلاثة أشهر .

ــ ولماذا ؟ » ونظر إليّ في دهشة : « ستكون رحلة مدهشة » .

فتمتمت : « لدي عمل كثير هنا » .

ــ ماذا بك ؟ من الآن حتى كانون الثـــاني تستطيعين ان ترتبي كل شيء . » وأضاف مبتسماً : « نادين كبيرة بما فيه الكفاية لتستغني عنك . وانا أيضاً . »

فقلت :

ــ انها بعيدة ، اميركا .

فقال :

ــ انني لا أكاد افهمك ! » وتفحصني في دقة : « سيفيدك كثيراً ان تتحركي قليلاً ... »

ــ سوف نتنزه على الدراجة هذا الصيف .

فقال روبير :

– كتغيير بلاد ، هذا لن يقودك بعيداً ! » وابتسم « انني مطمئن ! لو قيل لك ان هذه الرحلة في البحر ، لتعلقت بها » .

– هذا ممكن .

كان على حق : كنت اود كثيراً هذه الرحلة . وبالضبط ، كانت من الأشياء التي تقلقني تلك الذكريات كلها ، تلك الرغبات كلها التي تستيقظ ، يا للازدحام ! لماذا جاؤوا يزعجون حياتي الميتة الصغيرة ؟ في ذلك المساء ، كان روبير يستنكر مع هنري ضد لافوري ، وكانا يشجعان بعضهما البعض على الثبات : أصبح « الاشتراكي الثوري الحر » قوة حقيقية ، فإن الشيوعيين سيرغمون على التعاون معه ، وسيتوطد الاتحاد ثانية . كنت استمع ، واهتم جداً بما يقولونه : ومع ذلك كانت في دماغي فوضى من الصور البلهاء . ولم تتحسن الحال في اليوم التالي . فقد لبثت ساعة ، وانا جالسة امام طاولة عملي ، اتساءل : « أأقبل ؟ ألا أقبل ؟ » . واخيراً نهضت ورفعت سماعة التلفون : لا فائدة من الزعم بأنني اشتغل . كنت قد وعدت بول بأن أمر لرؤيتها ذات يوم ، والأفضل لي ان اذهب الآن، بالطبع، كانت في منزلها ، بمفردها ، وذهبت مشياً إليها . انني أحب بول كثيراً ، وفي الوقت نفسه هي تخيفني قليلاً . غالباً عند الصباح ، أشعر فوقي بالظل الخانق لجميع تلك التعاسات التي تستيقظ ، وتكون هي اول من فكر بها . انني أفتح عيني ، فتفتحها ، وسرعان ما يظلم قلبها . وقلت في نفسي : « مكانها ، ما كنت لأتحمل هذه الحياة » . انني أعرف جيداً ان هذا المكان ، هي التي تحتله . وهذا بالتأكيد اكثر قبولاً مما لو كنت انا . ان بول قادرة على ان تظل حبيسة طوال ساعات وأسابيع دون ان تفعل شيئاً ، دون ان ترى احداً ودون ان تمل . انها تنجح ايضاً في ألا تعترف لنفسها بأن هنري لم يعد يحبها مطلقاً . ولكن ذات يوم سوف تنفجر الحقيقة ، وعندئذ ، ماذا سيحدث ؟ بمَ يمكن ان انصحها ؟ ان تغني ؟ لكن هذا لن يكفي لتعزيتها .

واقتربت من منزلها وانقبض قلبي . كان يناسبها ان تسكن قرية القليلي الحظ تلك . انني لا اعرف اين اختبأوا أثناء الاحتلال ، لكن هذا الربيع قد بعث

اسمالهم ، وغددهم ، وجراحهم . وكان ثلاثة منهم يجلسون امام بوابات الشارع ، إلى جانب لافتة من رخام مزهو بباقة ذابلة . وكان رجل وامرأة ، احمر وجهاهما من الخمر والغضب ، يتنازعان حقيبة من قماش مشمع اسود . وكانا يدمدمان في عنف بشتائم ، لكن ايديهما المشنجة على الحقيبة كانت لا تكاد تتحرك : وكان الثالث ينظر إليهما في مرح . وسرت في شارع صغير . كانت ابواب خشبية عديمة اللون تسد المخازن التي يأتي جامعو الخرق عند الصباح ليرموا فيها بالأوراق والحدائد العتيقة . وكانت ابواب أخرى ، مزججة ، تنفتح على قاعات انتظار تجلس فيها نساء وعلى ركبهن كلاب . وكنت قد قرأت دعايات الأدوية انهم في هذه المستوصفات يداوون ويقتلون بدون ألم « الطيور والحيوانات الصغيرة » . وتوقفت أمام لافتة : « غرفة مؤثثة » ، وقرعت الجرس . كانت لا تزال هناك دوماً سلة مهملات كبيرة عند اسفل الدرج ، وما إن يصعد المرء الدرجات الأولى حتى يأخذ كلب اسود بالنباح بوحشية . وكانت بول ، التي تهوى الاخراج المسرحي ، تحصل بسهولة على صدمة مسرحية عندما تفتح لزائر جديد باب استديوها : انا نفسي كنت أدهش كل مرة بهذه العظمة المفاجئة ، وبلباسها الغريب ايضاً ، كانت تفضل احلامها على المسطرة ، وكانت تبدو دوماً متنكرة قليلاً ، وعندما فتحت لي ، كانت ترتدي ثوباً طويلاً من التفتا ، بنفسجياً فاتحاً متقلباً ، لا يلبس إلا داخل المنزل ، وحذاء مقطعاً ، عالي الكعب كثيراً ، تلتف سيوره حتى ساقيها : لا شك في ان مجموعتها من الأحذية سترسل الدم شاحباً في وجه هاوٍ من هواة جمع الأغراض. وقالت وهي تجرني نحو نار الحطب الكبيرة :

ــ تعالي لتتدفئي بسرعة .

ــ ليس الطقس بارداً .

فألقت نظرة نحو النوافذ المدهونة .

ــ لكأن الأمر كذلك . » وجلست ومالت نحوي في حنان وقور : « كيف حالك ؟ » .

ــ لا بأس . لكن عملي فوق رأسي . ان الناس ما عادوا يحصلون على وجبتهم

اليومية من الهول ، لهذا فقد بدأوا في تعذيب أنفسهم ثانية .

– وكتابك ؟

– انه يتقدم .

كنت أجيب كما تسألني، تأدباً . كنت أعرف جيداً انها لم تهتم مطلقاً بأعمالي. وسألت :

– أهو يستهويك حقاً ؟

– انه يحمسني .

فقالت بول :

– انت محظوظة !

– بالقيام بعمل يستهويني ؟

– بإمساكك مصيرك بين يديك .

لم يكن هذا ابداً الشعور الذي أحس به ، لكني لم أكن المقصودة . وقلت في حرارة :

– ألا تعرفين ماذا أفكر به منذ ان سمعتك في عيد الميلاد ؟ ان عليك ان تفعلي شيئاً ما بصوتك . جميل ان تنذري نفسك لهنري ، لكن اخيراً ، انت ايضاً لك حسابك . . .

فقالت في لامبالاة :

– عجيب ! لقد تناقشت مع هنري كثيراً منذ قليل في هـــذا الموضوع .» وهزت رأسها : « كلا ، لن أغني ثانية أمام الجمهور » .

– لماذا ؟ انا واثقة انك ستنجحين .

فقالت :

– بمَ سيعود عليّ هذا ؟ » وابتسمت : « اسمي على الاعلانات ، صورتي في الصحف : حقاً هذا لا يستهويني . كنت أستطيع ان أحصل على كل هذا منــذ زمن بعيد ، لكني لم أشأ » . وأضافت : « لقد أسأت فهمي . انني لا أتمنى أي مجد شخصي . ان حباً كبيراً يبدو شيئاً أهم بكثير من مهنة . كل ما آسف له، هو

ان نجاحه لا يتعلق بي » .

فقلت :

ـ ولكن لا شيء يجبرك على الاختيار . تستطيعين ان تتابعي حب هنري وان تغني .

فنظرت إليّ في خطورة : « ان حباً كبيراً لا يترك اي شيء ممكناً لدى امرأة . » وأضافت : « انني اعرف اي تفاهم قائم بينك وبين روبير ، ولكن ليس هذا ما أسميه حباً كبيراً » .

لم أكن أريد ان أناقش لا تعبيرها ولا حياتي : « جميع هذه الأيام ، التي تمضينها هنا ، بمفردك ، سيكون لك وقت لتعملي » .

ـ ليست مسألة وقت . » وابتسمت لي في تأنيب : « لماذا تعتقدين انني تخليت عن الغناء ، منذ عشر سنين ؟ لأنني فهمت ان هنري يريدني بأجمعي ... »

ـ تقولين انه قد نصحك بنفسه ان تعودي إلى العمل .

فقالت في مرح :

ـ لكن إذا ما صدقته حرفياً ، فسوف تسودّ الدنيا في عينيه ! انه لن يتحمل ألا تخصه ولو فكرة واحدة من أفكاري .

ـ يا للأنانية !

ـ ليس الحب أنانية . » وداعبت بحنان تنورتها الحريرية : « اواه ! انه لا يسألني شيئاً ابداً . لكني أعرف ان تضحيتي ضرورية ليس فقط لسعادته ، بل لعمله ، لإنجازه . والآن اكثر من اي وقت مضى » .

ـ لماذا يبدو لك نجاحه هاماً للغاية وليس نجاحك ؟

فقالت في حدة :

ـ اواه ! انني لا أبالي أكان مشهوراً او لم يكن . انني أقصد شيئاً آخر .

ـ ماذا إذن ؟

ونهضت فجأة : « لقد أعددت نبيذاً ساخناً : هل تريدين منه ؟ » .

ـ بسرور .

كنت اسمعها تتحرك في المطبخ ، وأتساءل في استياء : « بمَ تفكر ، حقاً؟» . كانت تؤكد انها تحتقر المجد . ومع ذلك فان بول لم ترجع إلى ثوب العاشقة ، إلا عندما أخذ اسم هنري يلمع ، وحيّا فيه النـــاس بطلاً من ابطال المقاومة وأمل الأدب الشاب . إنني أذكر كم كانت كئيبة ومتشككة ، قبل سنة . كيف تشعر على الضبط بهذا الحب ؟ لمَ ترفض ان تهرب منه بالعمل ؟ كيف ترى العـالم حولها ؟ كنت حبيسة معها بين هذه الجدران الحمر ، ننظر إلى النـــار ، ونتبادل كلمات : لكني لم أكن اعرف ما يجري في رأسها . ونهضت ، وسرت نحو النافذة ورفعت الستار . كان المساء يرخي سدوله ، وثمـــة رجل رث الثياب ينزه بطرف رسن كلباً داغركياً فاخراً . وتحت اللافتة الغامضة « اخصائي في الطيور النـادرة والسكسونية » ، كان قرد مربوط بقضيب نافـــذة يبدو عليه انه ، هو الآخر ، يسأل الغسق في حيرة . وتركت الستار يسقط ثانية . ماذا أمّلت ؟ ان أرى لحظة هذا الديكور المألوف بعيني بول ؟ ان التقط من على هـذا الديكور لون أيامها ؟ كلا . ابداً لن يرى القرد الصغير بعينين بشريتين . وابداً لن انساب في جلد آخر.

وعادت بول من المطبخ حاملة في أبهة صينية من الفضة عليها زبديتان تدخنان: « تحبينه كثير السكر ، أليس كذلك ؟ » .

واحتسيت السائل الأحمر الساخن ذا الرائحة الحارقة : « يبدو لي انه لذيذ » .

وشربت بضع جرعات في تأمل كأنهـــا سألت شراب الحقيقة وتمتمت : « يا للمسكين هنري ! » .

ـ مسكين لماذا ؟

ـ انه يجتاز ازمة صعبة واخاف ان يتألم كثيراً قبل ان يخرج منها .

ـ اية ازمة ؟ انه يبدو في أتم صحة ومقالاته من افضل ما كتبه حتى الآن .

ـ مقالات ! » ونظرت إليّ في نوع من الغضب : « في المـــاضي كان يحتقر الصحافة ، ولا يرى فيها إلا مصدراً للرزق . كان يتجنب السياسة ، ويريد ان يكون رجلاً وحيداً » .

ـ لكن الظروف تبدلت يا بول .

فقالت في حماسة :

– ماذا تهم الظروف ! يجب ألا يتبدل ، هو . أثنـاء الحرب ، كان يجازف بحياته ، وكان هذا شيئاً عظيماً . ولكن العظمة اليوم ان يرفض العصر .

فقلت :

– لماذا اذن ؟

فهزت كتفيها دون ان تجيب ، وأضفت في شيء من الغيظ : « لقـد شرح لك دون شك لماذا يهتم بالسياسة . وانا أوافقه ، إطلاقاً . ألا تعتقدين ان عليك ان تثقي به ؟ » .

فقالت بلهجة قاطعة :

– انه يسير في طرق ليست طرقه ، انا أعرف ذلك ، بل أستطيـع ان أقدم لك البرهان .

فقلت :

– هذا سيدهشني .

فقالت في انتفاح :

– البرهان ، انه أصبح عاجزاً عن الكتابة .

فقلت :

– لعله في هذا الوقت لا يكتب ، وهذا لا يعني انه لن يكتب ابداً .

فقالت بول :

– انا لا أزعم انني معصومة عن الخطأ . ولكن هنري ، ادركي ذلك ، انا التي صنعته : انني خلقته كما يخلق شخصيات كتبه ، وأعرفه كما يعرفها . انه في طريقـه إلى خيانة رسالته . وعليّ انا ان أقوده اليها ثانية . ولهذا لا أستطيـع ان أفكر بالاهتمام بنفسي .

– أتعرفين ، ليس للانسان من رسالة إلا التي يعطيها لنفسه .

– هنري ليس كاتباً كالآخرين .

– انهم جميعاً مختلفون .

وهزت رأسها : « لو لم يكن الا كاتباً ، لما استهواني الأمر : فهناك كثيرون منهم ! عندما أخذته ، في الخامسة والعشرين ، لم يكن يفكر إلا بالأدب . لكني عرفت فوراً انني استطيع ان أجعله يسمو اكثر بكثير . ان ما علمته اياه هو ان حياته وعمله يجب ان يكونا نجاحاً واحداً صافياً كل الصفاء ، مطلقاً كل الاطلاق، ليكون مثالاً للعالم » .

كنت أفكر في قلق بأنها إذا كانت تخاطب هنري بهذه اللغة ، فلا بد انه ضجر للغاية . فقلت :

– تقصدين ان على الانسان ان يعتني بحياته كما يعتني بكتبه ؟ لكن هذا لا يمنعه من ان يتبدل .

– بشرط ان يتبدل في انسجام مع نفسه . فأنا قد تطورت كثيراً ، لكنني إنما اتبعت طريقي الخاص .

فقلت :

– ليست طرقنا مرسومة مسبقاً » . ان العالم لم يعد نفسه ، وما من انسان يستطيع له شيئاً . يجب ان نحاول التلاؤم معه . وابتسمت لها : « انا ايضاً خلال بضعة أسابيع توهمت اننا تسنجد فترة ما قبل الحرب ثانية . لكن هذه كانت حماقة » .

كانت بول تتأمل النار في سيماء من عناد . وقالت : « ليس الزمن هو الحقيقي » . واستدارت نحوي فجأة : « اسمعي ! فكري برامبو ، ماذا ترين ؟» .

– ماذا أرى ؟

– نعم . اية صورة عنه ؟

– صورته وهو شاب .

– أترين ! هناك رامبو ، او بودلير ، او ستندال . لقد كانوا أصغر سناً ، او اكبر سناً ، لكن حياتهم كلها تتمثل في صورة واحدة . هناك هنري واحد ، وانا سأكون دوماً أنا ، والزمن لا يستطيع شيئاً ، فالخيانة لا تأتي منه بل منا .

فقلت :

– آه! انت تخلطين كل شيء. عندما ستبلغين السبعين، ستكونين دوماً انت، لكن ستكون لك علاقات اخرى بالناس ، وبالأشياء » وأضفت : « وبمرآتك ».

– انني لم أنظر إلى نفسي كثيراً في المرآة ابداً . » وتأملتني في شيء من الارتياب : « ماذا تريدين ان تثبتي ? » .

والتزمت الصمت لحظة . ان ننكر الزمن : إن الجميع يغرون بذلك دون شك . ولقد أغريت كثيراً . كنت احسد بول في إبهام على يقينها العنيد :

– كل ما اقوله ، هو اننا نعيش على الأرض ، وان علينا ان نوضخ لذلك . يجب ان تتركي هنري يفعل ما يحلو له ، وان تهتمي قليلاً بنفسك .

فقالت حالمة :

– تتكلمين كأنني وهنري كائنان متميزان . بمَ كان هنا نوع من التجربة التي لا يمكن إيصالها للآخرين .

كنت قد فقدت كل أمل في إقناعها. بمَ ، على كل حال ? انني لم اعد اعرف. إلا انني قلت لها :

– أنتما متميزان ، والدليل انك تنتقدينه .

فقالت :

– ثمة جانب سطحي فيه اناضل ضده ، ويفرقنا ، نعم . لكننا ، في الجوهر ، كائن واحد . لقد شعرت بذلك كثيراً في الماضي . بل اني أذكر في دقة إلهامي الأول : لقد اخافني تقريباً أتعرفين ، غريب كيف يضيع الانسان تماماً في انسان آخر . لكن ما أعظمها من مكافأة عندما يجد الآخر في ذاته ! » كانت تحدق إلى السقف بنظرة ملهمة : « كوني واثقة من شيء : ستأتي ساعتي . سيعاد إليّ هنري كما هو على حقيقته ، كما أعدته إلى ذاته » .

كان في صوتها عنف شبه يائس ، ورغبت عن المزيد من النقاش . وقلت في تراخٍ : « هذا لا يمنع . سيفيدك ان تري الناس ، وان تتحركي قليلاً . ألا تريدين ان ترافقيني إلى بيت كلودي ، في الخميس القادم ? » .

وهبطت نظرة بول إلى الأرض ثانية، وكأنها قد بلغت أعلى ذروة من الاستثارة

التناسلية ، فتخلصت ، وعادت خفيفة . وابتسمت لي ، وقالت :

ـ اواه ! كلا ، لا أريد . لقد جاءت لرؤيتي في الأسبوع الماضي ، إنني شبعانة من كلودي لمدة أشهر . أتعرفين انها اضافت سكرياسين عندها ؟

ـ انني لأتساءل كيف رضي بهذا .

ـ افترض انه لم يعد معه فلس !

فقالت بول :

ـ انت تتحدثين عن دار حريم !

وانفجرت في ضحكة عريضة جعلتها أصغر بعشر سنوات . هكذا كانت معي سابقاً . كانت ، في حضور هنري ، تتصنع ، واليوم يخيل للمرء انها تشعر بنظراته عليها دون توقف . لعلها كانت ستستعيد مرحها ، لو كانت لها الشجاعة على ان تعيش لحسابها . وقلت في نفسي وانا أغادرها : لم أعرف كيف أكلمها ، كنت خرقاء » . ان هذه الحياة التي تعيشها ليست طبيعية ، وأحياناً تفقد المنطق تماماً . ولكني ما كنت لأقدر اليوم على إفهامها ذلك جيداً . حياة طبيعية : أي شيء لا منطقي كهذا ؟ انــه لجنون عدد الأشياء التي نرغم على عدم التفكير فيها لنمضي دون ان ننحرف في طريقنا من اول النهار إلى آخره ، انه لجنون عدد الذكريات التي علينا ان نرفضها ، والحقائق التي علينا ان نتجنبها . وقلت في نفسي : « لهـذا انا اخاف من الرحيل . ففي باريس ، قرب روبير ، أتجنب دون مشقة كبيرة الافخاخ ، فقد عرفت مكانها ، وهناك أجراس إنذار تحذرني من الأخطار . لكن بمفردي ، تحت سماء مجهولة ، ماذا سيحدث لي ؟ ما الأنوار التي ستعميني فجأة ؟ ما الهوات التي ستنكشف ؟ ان الهوات ستلتئم ، والأنوار ستنطفيء ، هـذا موثوق ومؤكد . فقد رأيت غيرها . اننا لنساوي حقاً ديدان الأرض تلك التي نقطعهـا قطعتين دون جدوي او سراطين البحر التي تنمو أرجلها ثانيــة . ولكن عندما أفكر بلحظة الاحتضار الكاذب ، باللحظة التي نفضل فيها ان نموت على ان نلم اشلاءنا ثانية ، فإن قلبي لا يطاوعني . انني أحاول ان أتمسك بالمنطق : لمــاذا سيحدث لي شيء ما ؟ لكن لمـاذا لن يحدث لي شيء ما ؟ إننـا لا نربح ابداً من

الابتعاد عن الطريق المطروقة . إنني ، هنا ، اختنق قليلاً ، هذا صحيح . ولكننا نعتاد ايضاً على الاختناق . والعادة ليست سيئة ابداً ، مهما قيل عنها » .

بعد بضعة أيام سألتني نادين في شك :

– ما بك ؟

كانت في غرفتي ، ممددة على أريكتي ، متدثرة بقميصي . هكذا أجدها عادة عندما أعود إلى البيت . كانت ملابس الآخرين ، وأثاثهم ، وحياتهم ، وحدها التي لها قيمة في نظرها . وقلت :

– ماذا تريدين ان يكون بي ؟

لم أكن قد حدثتها عن رسالة روميو . لكنها على الرغم من انهـا لا تعرفني جيداً ، إلا انها كانت تلاحظ أبسط تقلباتي . وقالت لي :

– يبدو عليك كأنك تنامين واقفة .

صحيح انني عادة أسألها في جذل عن أيامها ، وانني في هذا المساء قد خلعت معطفي وأعدت تمشيط شعري في صمت . وقلت :

– لقد أمضيت بعد الظهر في سانت – آن . أعتقد انني منهكة قليلاً . وانت ماذا فعلت ؟

فسألتني في حقد :

– أهذا يهمك ؟

– بالتأكيد .

وأضاء وجه نادين . لقد كفّت عن كبت فرحها أطول من ذلك . وقالت بصوت فيه تحدٍ : « لقد التقيت برجل حياتي ! » .

فقلت مبتسمة :

– الحقيقي ؟

فقالت في جد :

– نعم ، الحقيقي . انه زميـل للاشوم ، شخص مدهش . ليس كويتباً كالآخرين . بل مناضل ، مناضل حقيقي . انه يدعى جولي .

كانت قد تخاصمت مع هنري قبل أيام قليلة : كانت ردود فعلها متوقعة للغاية إلى حد انني كنت أدهش من انخداعها بها نفسها . وقلت : « إذن في هذه المرة ستتسجلين في الحزب ? » .

ـ لقد صُدم من انني لم أفعل ذلك حتى الآن . آه ! أتعرفين ، انه ، هو ، لا يضيع وقته في الفوارق الطفيفة . انه يمشي طريقه . رجل حق .

ـ منذ زمن بعيد وانا أفكر بأنه يجب ان تفعلي تجربتك مرة واحدة نهائية .

فقالت بصوت حاد :

ـ لأن هذا بالطبع ، بالنسبة لك ، تجربة . انني أدخل إلى الحزب ، وسوف أخرج منه . يجب ان يمضي الشباب . أهذا ما تعنينه ?

ـ كلا . لم أقل شيئاً كهذا .

ـ أعرف ما تفكرين به . ان قوة جولي، لو تعلمين ، هي انه يؤمن بحقائق. انه لا يتلهى بتجارب : انه يعمل .

طوال ايام ، ابتلعت دون ان أحرك ساكناً الثناء العدائي الذي كانت تغدقه على جولي . وكانت قد فتحت « الرأسمال » على مكتبها ، إلى جانب موجز الكيمياء ، وكانت نظرتها تنتقل في كآبة من احد المجلدين إلى الآخر . كما أخذت تدرس حركاتي كلها على ضوء المادية التاريخية . وكان هناك كثير من المتسولين في الشوارع في مطلع الربيع البارد ، فإذا ما أعطيتهم بعض المال ، كانت تسخر : « لعلك تتصورين انك بتصدقك على هذا الفقير المسكين ستغيرين وجه العالم ! » .

ـ انا لا اطلب هذا القدر . إن هذا يسره ، وهذا يكفي .

ـ وتريحين ضميرك ، وكلاكما تربحان .

وكانت تتهمني دوماً بحسابات غامضة :

ـ انت تظنين انك برفضك القيام بالزيارات وبتجافيك تجاه الناس ، تفلتين من طبقتك : لكنك لست إلا بورجوازية غير متقنة ، هذا كل شيء .

والحقيقة أني ما كنت أسر بالذهاب إلى عند كلودي . فأثناء الحرب ، ارسلت

لي من قصرها البورغينيوني كميات من الطرود ، وهي الآن تدعوني بشكل آمر إلى استقبالاتها أيام الخميس . وكان لا بد بالطبع من ان ألبي دعوتها في النهاية ، ولكني رغماً عني امتطيت دراجتي ذات مساء مثلج من أماسي ايار . كان الشتاء قد انبعث على غير ما انتظار وسط الربيع . وكانت سماء صامتة بيضاء تتناثر على الأرض في بلورات ثلجية ضخمة دافئة على النظر ، باردة على الجلد . ولقد كنت احب لو انني انطلق في خط مستقيم امامي ، بعيداً جداً ، على احد تلك الطرق المبطنة بالقطن . كانت السخرات الاجتماعية تبدو لي مخيفة اكثر من الماضي ايضاً، ومهما كان روبير يحاول ان يختبيء في باطن الأرض ، وان يهرب من الصحفيين ، والأوسمة ، والأكاديميات ، والصالونات ، والجمعيات ، فإنهم كانوا في طريقهم لأن يجعلوا منه نصباً عمومياً: وكنت أصبح انا نفسي عمومية من وراء ذلك. وارتقيت في خطى بطيئة الدرج الفخم . انني أكره تلك اللحظة التي تستدير فيها الوجوه نحوي ، وبنظرة واحدة سريعة تتحقق من هويتي وتشرّحني. وعندئذ ، أعي ذاتي، وضميري دوماً غير مرتاح .

– اية معجزة جاءت بك ! » قالت ذلك لور مارفا . انت مشغولة للغاية ! اننا لم نعد نجرؤ حتى على دعوتك .

كنا قد رفضنا ثلاثاً من هذه الدعوات على الأقل . وبين الناس الذين كنت أتعرفهم في هذا الحفل ، كانوا قليلين اولئك الذين أشعر تجاههم بشيء من الذنب. كانوا يظنوننا مترفعين ، ننفر من المجتمع ، ونحاول ان نلفت الأنظار الينا . أما فكرة ان العالم لا يسلينا ، لا أكثر ولا اقل ، فأعتقد انها ما كانت تخطر لأي من الذين يأتون في طمع ليضجروا هنا . الضجر هو الكارثة التي أرهبتني منذ طفولتي ، ولكي أفلت منه على الأخص تمنيت ان أكبر ، وقد بنيت حياتي كلها حول هذا الرفض . ولكن ربما كان الذين أصافح ايديهم الآن قد اعتادوا عليه كثيراً حتى ما عادوا يشكون منه : لعلهم كانوا يجهلون انه يمكن للهواء ان يكون له طعم آخر . وقالت كلودي :

– روبير دوبروي لم يستطع ان يرافقك ؟ قولي له من طرفي ان مقاله في

« الطوارىء » رائع ! انني اعرفه عن ظهر قلب ، وأسمعه لنفسي على المائدة ، في الحمام ، في السرير : انني انام معه ، انه عشيقي الأخير .

– سأقول له .

كانت تنظر إليّ بإلحاح ، وكنت اشعر انني غير مرتاحة . طبيعي انني لا احب ان اسمع أحداً يتحدث بسوء عن روبير . لكن عندما يغدقون عليه المديح، فإنني أحرج . واشعر على شفتي بابتسامة بلهاء ، ويبدو لي الصمت وقفة وكل كلمة مبالغة .

وقال الرسام « برلين » الذي كان حقاً العشيق الأخير لكلودي :

– ان اصدار هذه المجلة حدث مرموق .

كانت « غيت فانتادور » قد اقتربت وكانت قد كتبت روايات حاذقة ، وتشعر بنفسها انها اكثر شخصية مرموقة في هذا الصالون . وكانت تسريحاتها وحركاتها تدل انها واعية انها لم تعد شابة ، ولكن على انها تذكر في الوقت نفسه اكثر مما ينبغي انها كانت جميلة . كانت تتحدث بصوت ملهم إلى حد ما ، وقالت : « المدهش عند دوبروي انه يعرف مع اهتمامه العميق بالفن الصافي كيف يهتم كل الاهتمام بعالم اليوم . وان يحب الانسان والكلمات والبشر في آن واحد ، فهذا شيء نادر جداً » .

وسألتني كلودي :

– هل تثابرين على كتابة يوميات عن حياته ؟ أية وثيقة ستستطيعين ان تقدميها للعالم !

فقلت :

– ليس عندي وقت . ثم انني لا اعتقد انه سيحب ذلك .

فقالت هوغيت فولانج :

– ما يدهشني هو انك ، مع حياتك بقرب رجل ذي شخصية ساحقة للغاية ، تحتفظين بمهنة لنفسك . فأنا ببساطة لن أستطيع . ان زوجي العزيز يلتهم وقتي كله . وانا أجد هذا طبيعياً على كل حال .

ورميت في حدة جميع الأجوبة التي جاءت على شفتي وقلت بأكثر ما أمكنني من برودة :

– انها مسألة تنظيم .

فقالت وكأنها لسعت :

– لكني منظمة جداً . كلا ، انها بالأحرى قضية بيئة أخلاقية ...

كانوا يخترقونني بنظراتهم ، ويتطلبون حسابات . هكذا الأمر دوماً . انهم يحيطون بي ، ويسألونني بسحن ماكرة وكأنني أرمل منذ الآن. لكن روبير حي تماماً ولن أساعدهم على تحنيطه . انهم يجمعون تواقيعه ، ويتنازعون مخطوطاته ، ويصفون أعماله الكاملة المزدانة بالاهداءات بين رفوف خشبية . في حين انني، انا، لا أكاد أملك كتابين او ثلاثة من كتبه : بلا شك لقد تقصدت ألا أطالب بجميع الكتب التي استعيرت مني . كما تقصدت ألا أصنف رسائله ، التي اضعت منها عدداً غير قليل : لم تكن موجهة إلا إلي ، انها ليست وديعة علي ذات يوم ان أعيدها . انني لست وريثة روبير ولا شاهده : انني زوجته .

لعل « غيت » قد ضمنت استيائي ، إذ وضعت على معصمي ، في ثقة من يعرف انه في بيته في كل مكان ، يدها الصغيرة المداعبة : « لكنهم لم يقدموا لك شيئاً ! دعيني أقودك إلى المائدة » . وابتسمت لي وهي تسحبني ، ابتسامة متواطئة : « أود كثيراً ذات يوم لو نثرثر ملياً ، كلتانا معاً : فمن النادر جداً ان يلتقي الانسان بامرأة ذكية » . كأنها قد اكتشفت الشخص الوحيد في الجمعية الذي يستطيع ان يفهمها . وتابعت : « أتعرفين ماذا سيكون لطيفاً ؟ ان تأتي ذات يوم مع دوبروي لتناول طعام العشاء في بيتي الصغير » .

ان هذه اللحظة لهي من أصعب لحظات الامتحان عندما يسألون بلامبالاة او تفوق ، موعداً . وفي الوقت الذي أجيب فيه بالكلمات المعتادة : « روبير مشغول جداً في هذه الأيام » ، أشعر بنظرتهم القاسية تضعني موضع اتهام . وفي النهاية اعترف امام نفسي انني مذنبة . انني زوجته ، نعم . لكن اولاً ، بأي حق ؟ ثم ليس هذا سبباً لأحتكره : فالنصيب العمومي يخص الجميع . وقالت

غيت :

– اواه ! اعرف ما معنى ان يشغل الانسان عمله . وانـــا ايضاً ، لا أخرج ابداً . إنما بطريق الصدفة ترينني هنا ! » وكانت ضحكتها تعني انني مخدوعـــة برضاي ، واما هي في الحقيقة فليست كذلك . « لكن هـــذا سيكون مختلفاً . مجرد عشاء صغير » . وأضافت في اعتراف : « ولن أدعو اليه إلا رجالاً . فأنا لا أحب صحبة النساء . انني اشعر انني تائهة تماماً بينهن . ألا تشعرين بذلك ؟ » .

– كلا . انني أتفاهم كل التفاهم مع النساء .

فنظرت إليّ في إنكار متجهم :

– هذا غريب ، غريب جداً . لا بد انني انا التي ليست طبيعية ..

كانت تعلن برضى في كتبها عن دونية جنسها . وكانت تظن انها تهرب منه ، برجولة موهبتها . وكانت تتفوق ايضاً على الرجال لأنها ، بالاضافة إلى تمتعها بصفاتهم نفسها ، كانت لها مزية فريدة وساحرة لكونها امرأة . وكانت هذه الحيلة تغيظني . وقلت في لهجة مهنية :

– انت لست غير طبيعية مطلقاً . فجميع الناس تقريباً يفضلن الرجال .

وتجمدت نظرتها تماماً ودون تصنع ، لكنها استدارت عن عمد نحو هوغيت فولانج . يا لغيت المسكينة ! كانت ممزقة بين الرغبة في التملص من كل تأنيب بالنرجسية وبين الرغبة في ان تعطي مزاياها قدرها . فكانت إذن تحاول ان تملي على الآخرين ما تتمنى ان يقال عنها . لكن اذا لم يقولوه ؟ هل يجب ان تقبل بأن تكون غير مفهومة ؟ كان هـــذا خياراً مؤلماً . وتبينت كلودي انني بمفردي ، وكربة بيت طيبة رمت بإحداهن بين ذراعي .

– آن لم تلتقي ابداً بلوسي بيلوم ؟ » وأضافت وهي تسرع نحو قادم جديد : « لقد عرفت في الماضي صديقتك بول جيداً » .

وقلت للمرأة الطويلة السمراء المرتدية ثوباً من نسيج عثماني أسود ومجوهرات ماسية ، والتي كانت تبتسم لي بطرف اسنانها :

– آه ! أتعرفين بول ؟

فقالت بصوت عابث :

– نعم ، لقـــد عرفتها جيداً . لقد ألبستها مجاناً ، من باب الأعلان ، عندما فتحت بيت « آماريليس » وكانت مبتدئة عند فالكور . كانت جميلة ، لكنها كانت لا تحسن لبس القبعـــات . » ورشقتني لوسي بيلوم بإحدى ابتساماتها . «يجب ان اقول إن ذوقها لم يكن موثوقاً جداً وانها لم تكن تقبل أية نصيحة. ذلك المسكين فالكور وانا ، قد تعذبنا كثيراً » .

فقلت :

– ان لبول اسلوبها الخاص .

– لم تكن قد وجدته في ذلك الحين . كانت معجبة بنفسها كثيراً إلى درجة لا تسمح لها بمعرفة ذاتها . وكان هذا يضرها ايضاً في مهنتها : كان لها صوت جميل، لكن لم تكن تعرف ما تفعـــل به . لم تكن تعرف مطلقاً كيف تستفيد مـــن نفسها : فهي لم تكن تتجاوز مقدمة المسرح ابداً .

– لم أسمعها ابداً ، لكن قيل لي انها كانت ناجحة جداً . لقـد وقـّعت عقداً للغناء في « ريو » .

فأخذت لوسي بيلوم تضحك : « لقد أصابت نجاحاً قصيراً مفاجئاً لأنها كانت جميلة . لكنها سرعان ما تدحرجت . فالغنـــاء ، كسائر المهن ، يتطلب عملاً ، والعمل لم يكن من طبعها . البرازيل : انني أذكر تلك القصة . كان عليّ ان اخيط لها أثوابها . لكن لم تكن جولتها الغنائية هي التي تهم الشاب ، ولقد فهمت ذلك جيداً . كانت اقل جنوناً مما تريد ان يظنه الناس . كانت تتظاهر بأنها تعتقد نفسها « ماليبران [1] » . لكن كل ما كانت تتمناه ، في الحقيقة ، هو ان تجد رجلاً جدياً يهتم بها ، وسرعان ما تخلت عن الباقي . كانت على حق ، فمـــا كانت ستنجح في مهنتها ابـــداً . إلامَ صارت اليه ؟ » سألت ذلك لوسي بصوت ودي فجأة : « قيل لي إن رجلها الكبير سيتخلى عنها ، أهذا صحيح ؟ » .

---

١ ـ ماريا غارسيا ماليبران : اشهر مغنية فرنسية في عصرها ، من اصل اسباني (١٨٠٨ - ١٨٣٦) « المترجم »

فقلت في حزم :
– مطلقاً لا ، إنهما يعبدان بعضهما البعض .
فقالت بصوت غير مصدق تماماً :
– آه ! هذا افضل . لقد انتظرته طويلاً بما فيه الكفاية ، الفتاة المسكينة .
ولبثت محتارة . كانت لوسي بيلوم تكره بول ، ولن اقبل هذه الصورة التي تقدمها لي عنها : عاهرة صغيرة صلفة كسلى تبحث عن حامٍ وهي تدندن . لكني تبينت ان بول في الحقيقة لم تحدثني ابداً عن سنواتها الأولى في باريس . ولا عن شبابها ولا عن طفولتها . لمَ إذن ؟
– اريد ان اقول لك صباح الخير ? ما عدت تكرهينني ؟
– كانت ماري آنج تبتسم لي في خجل مصطنع . وقلت وانا ابتسم لها ايضاً :
– تستحقين ذلك جيداً ! لقد جعلتني أمشي معك بشكل قذر !–
فقالت :
– كنت مرغمة .
– طمئنيني : أليس لك ستة اخوة واخوات ؟
فقالت بصوت صادق :
– صحيح انني البكر . لكن ليس لي إلا أخ واحـــد وهو في المغرب . »
وسألتني نظرتها في شره : « قولي إذن ، ماذا روت لك فانتادور ? » .
– لا شيء .
فقالت ماري – آنج :
– تستطيعين ان تقولي لي . يمكن ان يقال لي كل شيء . فهذا يدخل مـن هنا – واشارت إلى اذنيها – وهذا يخرج من هناك – واشارت إلى فمها .
فقلت وانا اشير إلى لوسي :
– هذا ما اخشاه . قولي لي بالأحرى ماذا تعرفين عن تلك المرأة الطويلة .
فقالت ماري – آنج :
– اواه ! انها امرأة رائعة !

– فيمَ ؟

– مع عمرها ، لا يزال لديها جميع الرجال الذين تريدهم ، وهي تتدبر أمرها بحيث تخلط النافعين منهم باللطفاء . وحالياً ، لديها ثلاثة يريدون ان يتزوجوها كلهم .

– وكل منهم يعتقد انه الوحيد ؟

– كلا . كل واحد يعتقد انه الوحيد الذي يعرف ان هناك اثنين آخرين .

– الا انها ليست على كل حال فينوس .

– يبدو انها كانت أقبح ايضاً في العشرين . لكنها تدبرت امرها بحيث لا تمكن معرفتها . » وأضافت ماري – آنج بلهجة الواسع الاطلاع : « يحدث كثيراً ان تتوصل النساء القبيحات عن طريق السيقان ، لكن لا بد لهن ان يقمن بعملية قذرة . كانت لولو في الأربعين ولا بد عندما فتحت بيت آماريليس بأموال الأب بروتو . وكانت قد بدأت تربح كثيراً عندما نشبت الحرب » . وقالت ماري – آنج بلهجة مشفقة : « والآن ، قد بدأت الأحوال تتحسن ثانية، لكنها سئمت منه . » وأضافت : « لهذا فهي رديئة جداً » .

– انني أرى . » وتفرست في وجه ماري – آنج : « عمّ جئت تبحثين هنا ؟ عن شائعات فاضحة ؟ »

– انني هنا للذتي الخاصة . انني أعبد الكوكتيلات ، أفلا تعبدينها ؟

– لا أرى ما المسلي فيها : اشرحي لي إذن ...

– حسناً ! اننا نرى كثيراً من الناس لا نرغب في رؤيتهم .

– هذا واضح .

– ثم يجب ان يظهر الانسان نفسه .

– لماذا ؟

– إذا كان يريد ان يُرى .

– وهل تريدين ان تُري ؟

– اواه ! نعم . ان ما أحبه خاصة هو ان أصوّر . وعضت على اصابعها :

« هذا ليس طبيعياً ؟ أتعتقدين ان عليّ ان أُحلل نفسي ؟ » .

ـ إنني افهم ! إنها تقرر في داخلك .

ـ ماذا ؟ العقد ؟

ـ شيء كهذا .

فقالت في شكوى :

ـ لكن ماذا سيبقى لي اذا نُزعت مني ؟

وقال كلودي :

ـ تعالي هنا . الآن وقد انصرف المضجرون ، فنستطيع ان نلهو قليلاً .

كان يأتي دوماً وقت عند كلودي تعلن فيه ان المضجرين قد انصرفوا . وان كان نظام الانصراف يختلف من مرة إلى أخرى . وقلت :

ـ آسفة ، ولكن يجب ان انصرف معهم .

فقالت كلودي :

ـ كيف ؟ ولكن ستبقين للعشاء . سنتناول الطعام على طاولات صغيرة ، فهذا ظريف جداً . وسوف يأتي اناس أريد ان اقدمك اليهم . » وجرتني جانباً ، وقالت في مرح : « لقد قررت ان أهتم بك . من السخافة ان تعيشي بدائية . فلا أحد يعرفك : اقصد في الأوساط التي فيها مال يجمع . دعيني أدفعك إلى الأمام . سآخذك إلى احد الخياطين ، وسأعرضك ، وفي سنة سيكون لك افخر زبائن باريس » .

ـ عندي الآن كثير من الزبائن .

ـ نصفهم لا يدفع ، والنصف الآخر يدفع بتقتير .

ـ ليست هذه هي المسألة .

ـ هذه هي المسألة . مع زبون يدفع كعشرة ، تشتغلين عشر مرات أقل . وسيكون لك وقت لتخرجي وتلبسي .

ـ سوف نتحدث عن ذلك مرة أخرى .

كنت مندهشة من انها لا تفهمني مطلقاً . ولكن في الحقيقة لم أكن افهمها

بشكل افضل كثيرا . كانت تعتقد ان العمل ليس بالنسبة لنا إلا وسيلة للوصول إلى النجاح والثروة . وكنت مقتنعة بشكل مبهم ان جميع هؤلاء المحذلقين على أتم استعداد ليبدلوا مركزهم الاجتماعي بمواهب ونجاحات فكرية . ففي طفولتي كانت المعلمة تبدو لي شخصية أكثر بكثير من دوقة او من مليونيرة ، ولم يتعدل نظام الرتب هذا مطلقاً . في حين ان كلودي تتصور ان المكافأة العظمى بالنسبة لانسان كآنشتاين هي ان يستقبل في صالونها . لم نكن نستطيع مطلقاً ان نتفاهم . وقالت كلودي :

ـ اجلسي هنا ، فسوف نلعب لعبة الحقيقة .

انني أكره هذه اللعبة . انني لا اقول ابداً إلا أكاذيب ، ومن الشاق عليّ ان أرى شريكاتي ، في شرههن إلى عرض السر الذي يسكنهن دون ان يسئن إلى أنفسهن ، يتساءلن في دقة وخداع . وسألت هوغيت « غيت » :

ـ ما هي زهرتك المفضلة ؟

كانت لهن جميعاً زهرة مفضلة ، والفصل المحبب ، وكتاب الوسادة ، والخياط الرسمي .

وأجابت غيت وسط صمت ديني :

ـ السوسن الأسود .

ونظرت هوغيت إلى كلودي :

ـ كم لديك من العشاق ؟

ـ لم أعد أعرف : خمسة وعشرون او ستة وعشرون . انتظري . سأرى القائمة في غرفة الحمام . » وعادت وهي تصيح بصوت منتصر : « سبعة وعشرون » .

وقالت لي هوغيت :

ـ بمَ تفكرين ، في هذه اللحظة بالضبط ؟

وبالنسبة لي ايضاً ، اصبحت الحقيقة فجأة لا تقاوم :

ـ بأني أود ان أكون في مكان آخر . » ونهضت وقلت لكلودي : « جدياً لدي عمل عاجل . كلا ، لا تزعجي نفسك خصوصاً » .

وخرجت من الصالون وخرجت ورائي ماري – آنج التي ظلت ممددة على أريكة .

– ليس صحيحاً ، أليس كذلك ، ان لديك عملًا مستعجلًا ؟

– دوماً عندي عمل .

فقالت وهي ترميني بنظرة ضارعة حافلة بالوعود ، سرعان ما اطفأتها : « اني ادعوك للعشاء » .

– كلا ، حقاً ، ليس عندي وقت .

– إذن في مرة أخرى . ألا نستطيع ان نتقابل من حين لآخر ؟

– انني مشغولة للغاية !

ومدت لي طرف أصابعها في سحنة مستاءة . وامتطيت دراجتي وانطلقت في استقامة امامي . كان يلهيني بالأحرى ان أتعشى معها ، لكن لم أكن اعرف كيف سينتهي الأمر : كانت تخاف من الرجال ، وتمثل دور الفتيات الصغيرات ، ولكانت قدمت بسرعة قلبها وجسدها الصغير النحيف . واذا كنت قد تهربت ، فليس لأن الموقف يخيفني ، ولكن لأنني كنت أتوقعه بشكل حتمي جداً بحيث انه ما كان ليسليني . كان هناك كثير من الحقيقة في التوبيخ الذي وجهته لي نادين ذات يوم: «انت لا تنخرطين في اللعبة ابداً» . كنت أنظر إلى الناس بعيني طبيبة، وكان هذا يجعل من الصعب عليّ ان تكون لي معهم علاقات انسانية. إنني نادراً ما أكون قادرة على الغضب او على الحقد . والعواطف الطيبة التي يشعرون بها نحوي لا تؤثر مطلقاً : فمهنتي هي ان أثيرها . عليّ ان اتعرض بلامبالاة إلى نتائج التحولات التي أجريها ، وان أصفيها في الوقت المطلوب . وإنني لأحتفظ بهذا الموقف ، حتى في حياتي الخاصة . فما ان ابلغ الموضوع ، حتى أحلل اضطراباته الطفولية ، وأرى نفسي كما أظهر في احلامه : أماً ، جدة ، أختاً ، طفلة ، معبودة . انني لا أحب كثيراً الخزعبلات التي يغدقونها على صورتي ، لكن لا بد ان اخضع لها . وأفترض انه لو حدث لشخص عادي ان دفعته نزواته للتعلق بي ، فإنني سرعان ما أتساءل : مـن يري فيّ ؟ اية رغبات مكبوتة يريد ان

يرويها ؟ ولن أكون قادرة على أي اندفاع .

لا بد انني خرجت من باريس . فأنا أجري على طول السين ، في درب ضيق محفوف من اليسار بسور ومن اليمين بمنازل صغيرة متعرجة يضيئها من بعيد إلى بعيد مصباح قديم جداً . كانت البلاطات موحلة ، ولكن كان ثمة ثلج ابيض على الرصيف . وابتسمت للسماء القاتمة . ان هذه الساعة ، قد ربحتها بالهرب من صالون كلودي ، وانا غير مدينة بها لأحد : لهذا بدون شك كان هناك كثير من الغبطة في الجو البارد . كنت أتذكر : غالباً في الماضي كان تنفسي يسكرني ، والفرح ينهمر عليّ ، وأقول في نفسي آنذاك انه لو لم توجد مثل هذه الأوقات ، لما كان هناك داعٍ لتحمل مشقة الحياة . ألن تولد ثانية ؟ انهم يعرضون عليّ ان أعبر المحيط ، ان أكتشف قارة . وكل ما اعرف ان أجيب به هو « انني خائفة » . ممّ انا خائفة ؟ لم أكن وجلة النفس في الماضي . كنت في غابات « بابوليف » او في غابة « غريزين » ، أضع حقيبتي تحت رأسي ، وأتدثر بغطاء ، وأنام بمفردي تحت النجوم بالهدوء نفسه الذي أنام به في فراشي . كان يبدو لي طبيعياً ان أتسلق دون دليل ، حسبما تقودني المغامرة ، جبالاً عالية منسابة ثلوجها . وكنت أحتقر جميع نصائح الاحتراس . كنت أجلس بمفردي في مقاهي الهافر او مارسيليا ، وأتنزه بمفردي عبر القرى الجزائرية القبائلية ... واستدرت على عقبي فجأة . لا فائدة من الزعم بأنني أجري إلى اقصى العالم : كنت أريد ان استعيد حريتي القديمة ، فالأفضل لي ان أعود إلى البيت وان أجيب روميو هذا المساء بالذات : نعم .

لكني لم أجب ، وبعد عدة ايام كنت لا أزال أسأل النصح ، قلقة ، وكأن القضية قضية بعثة إلى باطن الأرض .

— مكاني ، هل كنت تقبل ؟

فقال هنري في دهشة :

— بالتأكيد .

كان ذلك في الليلة التي كانت فيها احرف « الفاء »[1] الكبيرة المضيئة تشق عرض سماء باريس . وكانوا قد أتوا بشمبانيا ، واسطوانات . وقد أعددت عشاء ووضعت زهوراً في كل مكان . وقد ظلت نادين في غرفتها متذرعة بشغل عاجل : كانت حردة من عيد لم يكن في نظرها إلا ذكرى موت . وكان سكرياسين يقول : « عيد غريب . انه ليس نهاية ، بل بداية : بداية المأساة الحقيقية » .

كان يرى ان الحرب العالمية الثالثة قد نشبت . وقلت له في مرح :

– كفَّ إذن عن تمثيل « كاساندر[2] » . ففي سهرة الميلاد كنت تتنبأ لنا بكوارث : اعتقد حقاً انك خسرت رهانك .

فقال :

– لم نراهن . ولم يمض عام بعد .

– على كل حال ، ان الفرنسيين لم يأخذوا بالقرف من الأدب.» واخذت هنري شاهداً : « انها لأسطورية ايضاً كمية المخطوطات التي تتلقونها في « الطوارىء » ، أليس كذلك ؟

فقال سكرياسين :

– هذا يبرهن على ان فرنسا قد اختارت مصير الاسكندرية. كنت إفضل لو تلقى « الطوارىء » نجاحاً اقل وألا تهدد بالتصفية جريدة كـ « الأمل » .

فقال هنري في حدة :

– ماذا تروي ؟ ان « الأمل » في خير حال .

– قيل لي انكم ستضطرون للبحث عن إعانات فردية .

– من قال لك ذلك ؟

– آه ! لم أعد أعرف : انها شائعة منتشرة .

فقال هنري في جفاء :

---

١ ـ الحرف الاول من « كلمة نصر » الفرنسية .

٢ ـ كاساندر : في الاساطير اليونانية : عرافة منحها ابولون موهبة التنبؤ بالمستقبل . لكنه سرعان ما غضب عليها ، وقرر الا يصدق الناس ما تقوله . « المترجم »

ـ انها شائعة كاذبة .

لم يكن يبدو عليه انه حسن المزاج ، وهذا غريب لأن الجميع كانوا مرحين جداً ، حتى بول ، حتى سكرياسين الذي كان يأسه المزمن لا يريم . وكان روبير يروي قصصاً عن عالم آخر ، قصصاً عن السنوات العشرين. وكان لونوار وجوليان ينبشان معه تلك الأيام الغريبة . وكان ضابطان اميركيان لا يعرفهما احد ، يغنيان بصوت خافت اغنية من الغرب البعيد ، وكانت زجاجة وسكي ترقد على مؤخرة الأريكة . وعلى الرغم من الكوارث الماضية ، والمآسي القادمة ، كانت تلك الليلة ليلة عيد ، وكنت واثقة من ذلك ، ليس بسبب الأناشيد والأسهم النارية ، بل لأنني كنت ارغب في آن واحد في ان أضحك وأبكي . وقلت :

ـ هيا لنرى ماذا يجري في الخارج ! ثم نعود لتناول العشاء .

وقبل الجميع في حماسة . ودون مشقة كبيرة وصلنا إلى مدخل المترو الذي نقلنا إلى الكونكورد . ولكن الوصول إلى الساحة كان شيئاً آخر . كان الدرج غاصاً بالجمهور . وكي لا نفقد بعضنا ، عقدنا الأذرع بقوة ، ولكن في اللحظة التي وضعنا فيها أرجلنا على الدرجة الأخيرة، حدثت هزة عنيفة جداً حتى انني انفصلت عن ذراع روبير : ووجدت نفسي وحيدة مع هنري، وقد أصبح شارع الشانزيليزه وراءنا مع اننا كنا عازمين على الصعود نحوه . وكانت الموجة تقودنا نحو « التويلوري » . وقال هنري :

ـ لا تحاولي المقاومة . سنعود جميعاً إلى بيتكم مباشرة . ليس علينا إلا ان نتبع التيار .

وبين الأناشيد والضحكات انعطفنا حتى ساحة الاوبرا ، الدامية بالأنوار وبالزينة الحمراء . وكان الجو مخيفاً بعض الشيء ، لأنك لو تعثرت ، او وقعت ، لداستك الأقدام . ولكنه كان باعثاً للنشوة ايضاً . لم يكن أي شيء قد انتهى ، فالماضي لن يبعث ، والمستقبل غير أكيد : لكن الحاضر كان ينتصر ولم يكن عليّ إلا ان أتركه يحملني ، فارغة الرأس ، يابسة الفم ، خافقة القلب .

واقترح هنري :

ـ ألا تشربين كأساً ؟

ـ إذا كان هذا ممكناً .

وببطء ، وبجيـل كثيرة ، تمكنا من الخروج من قلب الجمهور وسط شارع يصعد نحو مونمارتر . ودخلنا إلى ملهى مليء بعسكريين أميركان يدندنون بأغان ، وطلب هنري شمبانيا . كنت يابسة الحلق من العطش ، والتعب ، والانفعال ، وأفرغت بجرعة واحدة كأسين . وقلت :

ـ انه عيد ، أليس كذلك ؟

ـ بالتأكيد .

ونظر احدنا إلى الآخر بمودة. من النادر ان أشعر انني مرتاحة تماماً مع هنري، فهناك كثير من الناس بيننا : روبير ، نادين ، بول . ولكنه في تلك الليلة ، كان يبدو لي قريباً جداً ، وكانت الشمبانيا تبعث في نفسي الجرأة :

ـ مع ذلك لا يبدو انك مرح ، هذا المساء .

ـ بلى . » وناولني سيجارة . وفي الحقيقة لم يكن مرحاً . « لكني أتساءل من الذي يشيع ان « الأمل » تواجه مصاعب . من الممكن جـداً أن يكون سامازيل » .

فقلت :

ـ ألا تحبه ؟ انا ايضاً . انهم لمضجرون اولئك النـاس الذين لا يخرجون ابداً دون شخصيتهم .

فقال هنري :

ـ لكن روبير يعظمه .

ـ روبير يجده مفيداً ، لكنه لا يشعر بالود نحوه .

فقال هنري :

ـ هل هناك فرق ؟

وبدا لي جرس صوته غريباً كغرابة سؤاله : « ماذا تعني ؟ » .

ـ ان دوبروي ، في الوقت الراهن ، خائض كلياً فيما يفعله ، بحيث ان مودته

للناس تقاس بمقدار نفعهم ، لا أكثر ولا أقل .

فقلت في استنكار :

– لكن هذا ليس صحيحاً مطلقاً .

فنظر إليّ في سخرية : « انني لأتساءل ما الصداقة التي كان سيشعر بها نحوي لو لم أفتح « الأمل » للاشتراكي الثوري الحر ؟ » .

فقلت :

– كان سيخيب أمله . بديهي . كان سيخيب أمله للأسباب نفسها بالضبط التي جعلتك تقبل .

فقال في حدة أكثر مما ينبغي :

– اوه ! على كل ، ان هذا النوع من الفرضيات سخيف .

كنت أتساءل ما إذا كان روبير قد جعله يشعر انه يخيّره بين الأمرين . إنه يستطيع ان يكون فظاً عندما يريد ان يصل بأي ثمن إلى غاياته . وسيؤسفني ان يكون قد جرح شعور هنري . فهو الآن وحيد بما فيه الكفاية ، ويجب على الأخص ألا يخسر هذه الصداقة . وقلت :

– كلما تعلق روبير بالناس، طلب منهم أكثر . مع نادين مثلاً ، لقد لاحظت ذلك جيداً : فمن اللحظة التي لم يعد فيها ينتظر منها كثيراً ، تناقص تعلقه بها قليلاً.

– آه ! ولكن ليس سواء ان يكون الانسان متطلباً لمصلحة الغير او لمصلحته هو . ففي الحالة الأولى ، نعم ، هذا دليل على الحب ...

فقلت :

– ولكن الشيئين بالنسبة لروبير يختلطان .

انني أنفر ، عادة ، من الحديث عن روبير . لكني كنت أريد كل الارادة ان أبدد ذلك النوع من الكراهية الذي كنت أستشعره عند هنري : « ان الارتباط بين « الأمل » و « الاشتراكي الثوري الحر » كان في نظره ضرورة ، فكان عليك إذن ان تتعرفها » . وسألت هنري بنظرتي : « أتظن انه تحكم بك بسهولة أكثر مما ينبغي ؟ ولكن كان هذا عن تقدير » .

فقال هنري مبتسماً :

– اعرف انه يضفي على الآخرين بديهياته الخاصة : اعترفي ان هذا النوع من التقدير أمبريالي بعض الشيء .

فقلت :

– بعد كل شيء ، انه لم يكن مخطئاً إلى هذا الحد ما دمتما متفقين . انني لا أرى جيداً ما تأخذه عليه .

– هل قلت انني آخذ عليه شيئاً ما ؟

– كلا ، لكن هذا محسوس .

فتردد هنري وقال وهو يهز كتفيه : « اواه ! انها مسألة فروق بسيطة . كنت سأحمد دوبروي لو وضع نفسه دقيقة من وجهة نظري » . وابتسم لي في لطف تام : « كنت ستفعلين ذلك » .

فقلت :

– انني لست امرأة عمل . » وأضفت : « نعم ، ان روبير يتعمد من حين لآخر ان يضع عصابة على عينيه . لكن هذا لا يمنع انه ، بشكل عام ، يهتم اهتماماً حقيقياً بالآخرين ، ويشعر نحوهم بعواطف متجردة : انت ظالم » .

فقال هنري في مرح :

– ربما . أتعرفين ، عندما يقبل الانسان رغماً عنه ان يفعل شيئاً ، فإنه يحقد قليلاً على الذي دفعه إلى ذلك : انا اوافق على ان هذا ليس شريفاً تماماً .

وتفرست في وجه هنري في نوع من التأنيب :

– أتثقل عليك كثيراً هذه العلاقات الجديدة بين « الأمل » و « الاشتراكي الثوري الحر » ؟

فقال :

– اواه ! الآن ، لم يعد هناك مجال لهذا . فأنا غاطس في الحمام .

– لكنك لم تكن تريد ان تغطس ؟

فابتسم : « ليس بشكل جنوني » .

كان قد ردد مراراً ان السياسة تسئمه، وكان غارقاً فيها حتى عنقه . وتنهدت :
« هناك على كل حال شيء حقيقي فيما يقوله سكرياسين . ان السياسة لم تكن ملتهمة للناس كما هي اليوم » .

فقال هنري في نوع من الحسد :

ـ ان ذلك الغول دوبروي لا يتركها تلتهمه . انه يكتب بقدر ما كان يكتب في الماضي .

فقلت :

ـ بقدر الماضي . » وترددت ، لكني كنت أشعر حقاً انني واثقة بهنري ، وقلت : « انه يكتب بقدر الماضي ، ولكن بجرية أقل . تلك المذكرات التي قرأت منها مقاطع، حسناً! لقد تخلى عن نشرها ، وهو يقول ان فيها أسلحة كثيرة ضده . انه لشيء محزن ، أليس كذلك ، ان يفكر الانسان بأنه اذا أصبح رجلاً عمومياً فلن يستطيع ان يظل صادقاً تماماً ككاتب ؟ » .

وصمت هنري ثانية ، وقال : « بديهي ان هناك نوعاً من مجانية الكتابة يختفي. ان كل ما ينشره دوبروى اليوم يقرأ من خلال سياق لا بد له ان يأخذه بعين الاعتبار . لكن لا أعتقد ان هذا ينقص من صدقه » .

ـ ان كون تلك المذكرات لم تظهر ، فهذا يحزنني ، انا !

فقال ودياً :

ـ انت مخطئة . ان مؤلفات انسان يعترف حرفياً ، لكن دون مسؤولية ، لن تكون أكثر حقيقية وكمالاً من مؤلفات انسان يتحمل مسؤولية كل ما يقوله.

فقلت :

ـ اتظن ؟ » وأضفت : « أأنت ايضاً ، قد انطرح عليك السؤال ؟ » .

فقال :

ـ كلا ، ليس هكذا مطلقاً .

ـ لكن ثمة اسئلة قد انطرحت ؟

فقال بلهجة متهربة :

ـ ان الأسئلة لا تكف عن الانهمار ، أليس كذلك ؟

فألحمت : « كيف تسير روايتك المرحة ؟ » .

ـ بالضبط ، ما عدت أكتبها .

ـ أأصبحت حزينة ؟ لقد قلت لك ذلك .

فقال هنري في ابتسامة اعتذار :

ـ لم أعد اكتب . مطلقاً .

ـ كيف ؟

ـ مقالات ، نعم : انها تستهلك في مكانها . ولكن ما عدت استطيع ان أكتب كتاباً حقيقياً .

لم يعد يستطيع : هناك إذن بعض الحقيقة في هذيان بول . هو الذي كان يحب الكتابة للغاية ، كيف حدث ذلك ؟ وقلت : « لكن لماذا ؟ » .

ـ شيء طبيعي ألا نكتب ، أتعرفين . ان العكس بالأحرى هو اللاطبيعي .

فقلت :

ـ ليس بالنسبة لك . انت لا تتصور الحياة دون كتابة .

كنت أنظر اليه باستياء . كنت قد قلت لبول : « الناس يتبدلون » . ولكن مهما عرفنا انهم يتبدلون ، فإننا نعاند بالنظر اليهم على انهم لا يتغيرون في نقاط عديدة : نجمة ثابتة أخرى قد اخذت ترقص في سمائي : « أتعتقد ان هـذا لا جدوى منه ، اليوم ؟ » .

فقال هنري :

ـ اواه ! كلا . اذا كان هناك أناس لا يزال للكتابة معنى في نظرهم ، فهذا أفضل لهم . لكني شخصياً ، لم أعد راغباً : هذا كل شيء » . وابتسم : « سأعترف لك بكل شيء : لم يعد لدي ما اقوله . او لنفترض ان ما لدي لأقوله ، يبدو لي لا شيء » .

فقلت :

ـ هذا عارض مزاج سوف يمر .

– لا أعتقد .

كان قلبي منقبضاً . لا بد ان هذا محزن له بشكل فظيع ، هذا الاستنكاف . وقلت في تأنيب موجهاً لي وله : « إننا نرى بعضنا البعض غالباً ، ولم تحدثنا عن ذلك ابداً » .

– لم يكن هناك مجال .

– صحيح انك مع روبير لم تعد تتحدث إلا عن السياسة ! » وجاءني إلهام مفاجىء : « ألا تعرف ماذا سيكون عظيماً ؟ سنقوم برحلة على الدراجة هذا الصيف ، انا وروبير . تعال معنا مدة أسبوع او اسبوعين » .

فقال بلهجة مترددة :

– قد يكون هذا مفيداً .

– سيكون كذلك حتماً ! » وترددت بدوري : « إلا ان بول لا تركب الدراجة » .

فقال في حدة :

– اواه ! على كل حال لن أمضي إجازتي كلها معها . ستذهب إلى « تور » عند أختها .

وساد صمت قصير . وسألت على حين غرة :

– لماذا لا تريد بول ان تحاول العودة إلى الغناء ؟

فقال بصوت خائب :

– لو كنت تستطيعين ان تقولي لي ذلك ! لا اعرف ما في رأسها ، هذه الأيام . » وهز كتفيه : « لعلها خائفة ، إذا كونت لها حياة خاصة بها ، ان استفيد منها لأعدل علاقاتنا » .

فقلت :

– وهذا ما تتمناه ؟

فقال في اندفاع .

– نعم . » وأضاف : « منذ زمن بعيد لم أعد احبها . وهي تدرك ذلك

جيداً على كل حال وان كانت تتشبث بالتأكيد على انه ما من شيء تغير » .

فقلت :

– اشعر انها تعيش على مستويين في آن واحد . انها مدركة تماماً ، وفي الوقت نفسه تقول لنفسها انك تحبها حباً جنوناً ، وانها كانت تستطيع ان تكون اعظم مغنية في العصر . وأعتقد ان إدراكها سيتغلب في النهاية : لكن إلامَ ستصير اليه آنذاك ؟

فقال هنري :

– آه ! لا أدري ! انني لا أريد ان أتصرف كنذل ، لكني لست مؤهلاً لتمثيل دور الشهيد . احياناً يبدو لي الموقف بسيطاً جداً : عندما لا نعود نحب ، فنحن ما عدنا نحب . وأحياناً اخرى ، يبدو لي ان من الظلم ان أكون قد كففت عن حبها : انها بول نفسها .

– اعتقد ان الحب ايضاً ظلم .

فقال :

– فإذن ؟ ماذا استطيع ان افعل ؟

كان يبدو معذباً حقاً . ومرة أخرى قلت في نفسي انني مسرورة تماماً لأنني امرأة : فعلاقتي إنما هي مع الرجال ، وهذا يطرح مشاكل اقل بكثير . وقلت :

– لا بد ان تضحي بول من جانبها ، إذا كنت متضايقاً إلى هذا الحد . إذ لا يمكننا ان نعيش في تأنيب ضمير ، لكن لا يمكننا ايضاً ان نعيش رغماً عنا .

فقال في طلاقة مصطنعة :

– ربما كان علينا ان نتعلم ان نعيش رغماً عنا .

فقلت :

– لا ! انا واثقة ان لا ! اذا لم نكن راضين عن حياتنا ، فلا أرى من أية وجهة نظر يمكن ان نبررها .

– أأنت راضية عن حياتك ؟

وأخذني السؤال على حين غرة . كنت قد تكلمت باسم قناعة قديمة . ولكن

إلى أي حد لا أزال انسجم معها ، انني لا اعرف . وقلت في حرج : « انني لست مستاءة » .

وبدوره ، تفحصني : « ويكفيك ألا تكوني مستاءة ? » ...

– ليس هذا سيئاً للغاية .

فقال بلطف :

– لقد تغيرت . في الماضي كنت راضية عن مصيرك بشكل وقح تقريباً .

فقلت :

– لماذا أكون الوحيدة التي لم تتغير ?

ولكنه ، هو ايضاً ، لم يتراجع :

– خيل إليّ احياناً ان مهنتك لا تستهويك كالماضي » .

فقلت :

– انها تستهويني ، لكن ألا أتعقد ان من التفاهة إلى حد ما ، اليوم ، ان أعالج حالات نفسية ?.

فقال :

– بالنسبة للذين تشفينهم ، هذا هام . هام اليوم كما كان في الماضي : اين الفرق?

فترددت : « المشكلة انني في الماضي كنت أؤمن بالسعادة ، اعني : كنت أعتقد ان الناس السعداء على صواب . وكان شفاء مريض يعني ان اجعل منه شخصاً حقيقياً ، قادراً على إعطاء حياته معنى » . وهززت كتفي : « لا بد من ثقة كبيرة بالمستقبل للايمان بأن كل حياة يمكن ان يكون لها معنى » .

وابتسم هنري . كانت عيناه تسألانني . وقال : « ليس المستقبل اسود إلى هذا الحد » .

فقلت :

– لا ادري . لعلي في الماضي كنت أراه وردياً جداً ، لهذا فأن الرمادي يخيفني . » وابتسمت : « انني في هذه النقطة تغيرت أكثر من أي انسان آخر ، انني أخاف من كل شيء » .

فقال :
ـ الآن ، انت تدهشينني !
ـ أؤكد لك . اليك ، ها قد مضت أسابيع على اقتراحهم علي الذهاب إلى اميركا ، في كانون الثاني ، لحضور مؤتمر للتحليل النفسي . ولم استطع بعد ان أقرر .
فقال بصوت مستنكر :
ـ لكن لماذا ؟
ـ لا أدري . هذا يغريني ، لكني ، في الوقت نفسه ، خائفة . اما كنت لتخاف ؟ اكنت تقبل ، مكاني ؟
فقال :
ـ بالتأكيد ! ماذا تريدين ان يحدث لك ؟
ـ لا شيء خاصاً . » وترددت : « لابد انه شيء غريب ان أرى نفسي وان أرى الناس الذين أتعلق بهم من اعماق عالم آخر ... » .
ـ لا بد انه شيء مفيد جداً . » وابتسم لي مشجعاً : « يقيناً سوف تكتشفين بعض الاكتشافات الصغيرة . لكن سيدهشني كثيراً ان تقلب حياتك . ان الأشياء التي تحدث لنا او التي نفعلها ، ليس لها أهمية كبيرة في النهاية ... » .
وأطرقت برأسي . وفكرت : « هذا صحيح . ان للأشياء أهمية اقل دوماً مما اظن . سأرحل ، سأعود ، كل شيء يمضي ، لا شيء يمضي » . ان هذه الخلوة بالذات قد مضت . كان يجب ان نعود إلى المنزل للعشاء . ان صميمية هذه الساعة ، ثقتها ، كنا نستطيع ان نطيلها حتى الفجر : ربما إلى ما بعد الفجر . ولكن لألف سبب كان يجب ألا نحاول . كان لا يجب ؟ على كل حال ، اننا لم نحاول . وقلت :
ـ يجب ان نعود لرؤية الآخرين .
فقال هنري :
ـ نعم . قد آن ذلك .
وسرنا في صمت حتى المترو ورأينا الآخرين من جديد .

كانت مقابلة روبير مع لافوري عاصفة ، لكن في مجاملة . فما من احد منهما كان يرفع صوته ، لكنهما تبادلا تهم مجرمي الحرب . واستنتج لافوري في النهاية في لهجة محزونة : « سنرغم على الانتقال إلى الهجوم » . ولم يمنع هذا روبير من اعداد المهرجان المتوقع اقامته في حزيران ، في حماسة . ولكن ذات مساء ، بعد جلسة طويلة مع سامازيل وهنري ، سألني على حين غرة :

ـ أأنا محق ام لا في تنظيم هذا المهرجان ؟

وتفرست في وجهه بذهول : « لماذا تسألني هذا ؟ » .

فابتسم : « كي تجيبيني ! » .

ـ انت تعرف افضل مني .

ـ ان المرء لا يعرف ابداً .

وتابعت تفحصه بنظرة محتارة : « التخلي عن المهرجان ، يعني التخلي عن « الاشتراكي الثوري الحر » .

ـ طبعاً .

ـ لقد شرحت لي طويلاً بعد مناقشتك مع لافوري لماذا لا ترى ان استسلامك مسألة واردة . ما الشيء الجديد الذي حدث ؟

فقال روبير :

ـ لم يحدث شيء .

ـ إذن ؟ لمَ غيّرت رأيك ؟ ألم تعد تعتقد انّ بالامكان ان يوضع الشيوعيون امام الأمر الواقع ؟

ـ بلى . فمن المرجح ، في حال النجاح ، الا يقطعوا الجسور . » وبقي صوت روبير معلقاً . وتردد : « انني أتساءل عن الكل بأجمعه » .

ـ عن مجموع الحركة ؟

ـ نعم . اوروبا الاشتراكية تلك ، انني لأتساءل احياناً ما إذا لم تكن طوبائية . ولكن كل فكرة لما تتحقق بعد تشبه بشكل غريب طوبائية . اننا ما كنا لنفعل شيئاً لو اعتبرنا ان ما من شيء ممكن ، باستثناء ما هو موجود أصلاً .

كان يبدو عليه انه يدافع عن نفسه ضد مخاطب لامرئي، وكنت أتساءل من اين أتته هذه الشكوك فجأة . وتنهد : « ليس سهلاً الانطلاق بين امكانية حقيقية وبين حلم » .

– ألم يكن لينين يقول : « يجب ان نحلم ؟ » .

– نعم . ولكن بشرط ان نؤمن جدياً بحلمنا . تلك هي المسألة : هل أؤمن به جدياً بما فيه الكفاية ؟

ونظرت اليه في دهشة : « ماذا تعني ؟ » .

– ترى ألا أعاند تحدياً ، او كبرياء ، او ارضاء لنفسي ؟

فقلت :

– غريب ان يتملكك هذا النوع من الوساوس . فأنت عادة لا ترتاب في نفسك .

فقال روبير :

– انني ارتاب عادة في عاداتي !

– إذن ، ارتب ايضاً في هذا الارتياب . لعل الاستسلام يغريك خوفاً من فشل ، او خوفاً من كمية من التعقيدات .

فقال روبير :

– ربما .

– افترض انك لست منشرحاً من فكرة ان الشيوعيين سيفتحون حملة ضدك؟

فقال روبير :

– كلا ، لست منشرحاً. كم ألقى من عناء لأجعلهم يفهمونني! وسوف يخلقون عن قصد اسوأ سوء تفاهم . » واضاف : « نعم ، ربما كان الكاتب فيّ هو الذي ينصح بجبن الرجل السياسي بأن ينجو بجلده » .

فقلت :

– أترى ! إذا بدأت تنتقد دوافعك ، فلن تخرج من المشكلة . إبق إذن على ارض موضوعية ، كما يقول سكرياسين .

فقال روبير :

– واأسفاه ! انهـا ارض متحركة للغاية ! خاصة عندما لا نملك إلا معلومات ناقصة . نعم ، نعم : انني أؤمن بفرص يسار اوروبي : لكن أليس ذلك لأنني مقتنع بضرورته ؟

كان يثبط عزيمتي ان يطرح روبير المسألة بهذا الشكل . لقد وبخ نفسه بعنف على انه آمن بسذاجة كبيرة بنية الشيوعيين الطيبة : لكن كان يجب ألا يكفي هذا ليشك في نفسه إلى هذا الحد. كانت المرة الأولى في حياتنا التي أراه فيها يغريه حل كسول . وقلت :

– منذ متى بدأت تفكر بالتخلي عن « الاشتراكي الثوري الحر » ؟

فقال روبير :

– اواه ! انني لا أفكر بذلك موضوعياً . انني اتساءل .

– منذ متى بدأت تفكر هكذا ؟

فقال روبير :

– منذ يومين او ثلاثة .

– ودون سبب خاص ؟

فابتسم : « دون سبب خاص » .

وتفرست في وجهه وقلت: « أليس هذا لأنك متعب فقط؟ انت تبدو متعباً» .

فقال :

– انا متعب قليلاً ، هذا صحيح .

لقد وثب هذا امام ناظري فجأة: انه يبدو متعباً جداً . كانت عيناه ورديتين، وجلده كالحاً ، ووجهـه منتفخاً. وفكرت في قلق : « هذا لأنه لم يعد شاباً . اواه ، انه لم يصبح شيخاً بعد . لكنه على كل حال لم يعد يستطيع ان يسمح لنفسه بتطرفات الماضي . وفي الواقع كان يسمح لنفسه بها ، بل يضاعفها : ربما ليثبت لنفسه انـه لا يزال شاباً . فبالاضافة إلى « الاشتراكي الثوري الحر » ، و « الطوارىء » ، وكتابـه ، كانت هناك الزيارات ، والرسائل والاتصالات

الهاتفية. كان لديهم جميعاً اشياء عاجلة يجب ان يبلغوه إياها: تشجيعات، انتقادات، اقتراحات ، مشاكل . وإذا لم يستقبلهم ، إذا لم يؤثر عليهم ، فإنه يجوعهم ، ويحكم عليهم بالبؤس ، بالجنون ، بالموت ، بالانتحار . وكان روبير يستقبلهم ، ويسرق وقته من لياليه ، ولا ينام تقريباً .

وقلت :

– انت تشتغل أكثر مما ينبغي بكثير ! اذا تابعت هكذا ، فسوف تغطس . ذات يوم سيصاب قلبك بالسكتة ، وانا ، سأكون رطبة !

فقال :

– شهر آخر من النصب ، لا أكثر .

– وتظن شهر إجازة يكفي لتستعيد قواك ؟ » . وفكرت ، وقلت : « يجب ان نحاول ان نجد بيتاً في الضواحي . سوف تذهب إلى باريس مرة او مرتين في الأسبوع وباقي الوقت لا زيارات ولا اتصالات هاتفية : راحة » .

فقال روبير بصوت هازىء :

– أأنت التي ستجدينه ، البيت ؟

لم يكن لي ميل ولا وقت مطلقاً لأتردد على الوكالات ، وازور الفيلات . ولكن كانت رؤية روبير يجهد نفسه تحطم قلبي . لقد قرر ان المهرجان سيعقد ، لكنه ظل قلقاً : فلن يتخوف الشيوعيون إلا إذا كان النجاح مدوياً . وفيما لو قطعوا الجسور ، فإلامَ سيصير اليه « الاشتراكي الثوري الحر » ? انا ايضاً ، كان نجاحه يشغل بالي . فأنا أعلق اهمية اكثر من روبير ايضاً على الأفراد ، واحداً واحداً . وعلى ثروات الحياة كلها : العواطف ، الثقافة ، السعادة . انني بحاجة إلى الاعتقاد بأن الانسانية في المجتمع اللاطبقي ستتم دون ان تنكر شيئاً من ذاتها .

كانت نادين ، بفضل السماء ، قد كفت عن ان تنقل لأبيها مآخذ رفاقها الشيوعيين . ولم تعد تصدع رأسنا بالشتائم ضد الامبريالية الأميركية ، وقد اطبقت نهائياً « الرأسمال » . ولم ادهش حين قالت على حين غرة :

– في الحقيقة ، ان الشيوعيين لا يختلفون عن البورجوازيين .
– كيف ذلك ؟

كنت اسرح شعري تسريحتي الليلية وكانت جالسة على حافة اريكتي . كانت غالباً في هذا الوقت ما تحدثني عن الأشياء التي تشغل بالها .

– انهم ليسوا ثوريين. انهم مع النظام ، والعمل والأسرة، والعقل. وعدالتهم، إنها في المستقبل . وبانتظار ذلك فإنهم يتدبرون امرهم مع الظلم كالآخرين . ثم ان مجتمعهم ، حسناً ! سيكون ايضاً مجتمعاً .

– بديهي.
– اذا كان يجب ان ننتظر خمسمئة عام كي لا يكون العالم حتى قد تغير ، فهذا لا يهمني .
– انت لا تتصورين اننا سنعيد صنع العالم ، في فصل واحد .
– هـذا ممل ، انت تتحدثين كجولي . انك تتكلمين وكأنني اعرفها ، سلطاتهم . لكني لا أرى إذن لمَ سأدخل إلى الحزب الشيوعي . انه حزب كأي حزب .

كنت أفكر في أسف وانا أنهي إزالة مكياجي : « ها هي قصة اخرى ساءت خاتمتها . كانت بحاجة شديدة إلى قصة ناجحة ! » .

وقالت :

– الأفضل ، ان يظل الانسان وحيداً مثل فانسان. انه نقي ، انـه ملاك.

ملاك . الكلمة التي كانت تستعملها بخصوص ديغو . لا شك في انها تجد ثانية عند فانسان ذلك الكرم وذلك الهوس اللذين لمسا قلبها في الماضي . كل ما هنالك ان ديغو كان يضع جنونه في كتاباته، ويمكنني ان اخشى ان يضع فانسان جنونه في حياته . هل كان ينام مع نادين ؟ لم اكن اعتقد ذلـك ، لكنهما يتقابلان كثيراً جـداً هـذه الأيام . وكنت أهنىء نفسي على ذلك بالأحرى ، لأن نادين كانت تبدو لي مضطربة ، ولكن مرحة . ولهذا سمعت ، دون ان اتوجس شراً ، دقـة الجرس تلك ، في الساعة الخامسة صباحاً . لم تكن نادين قـد عادت

وافترضت انها نسيت مفتاحها . ولكن عندما فتحت الباب ، رأيت فانسان . وقال لي :

ـ لا تقلقي !

مما اقلقني فوراً . وقلت : « حدث شيء لنادين ! » .

فقال :

ـ كلا ، كلا ، انها على ما يرام . كل شيء سيتدبر . » وسار في حزم نحو غرفة الجلوس ، وقال في اشمئزاز : « حتى نادين امرأة ! » . ومن جيب سترته الجلدية، اخرج خارطة بسطها على الطاولة . وقال وهو يشير الى نقطة تصالب طريقين صغيرين : « بكلمتين ، انها تنتظرك عند هذا المفرق ، شمالي غربي شانتيلي . يجب ان تحصلي على سيارة وان تذهبي فوراً للاتيان بها . سيعيرك بيرون بالتأكيد سيارة الجريدة . لكن لا تعطيه تفسيراً . اطلبي منه العربة ، لا أكثر . وعلى الأخص لا تذكري اسمي » .

كان قد تكلم دون ان يأخذ نفساً ، بصوت هادىء وقاسٍ لم يطمئني مطلقاً . وكنت واثقة أنه خائف : « ماذا تفعل هناك ؟ هل أصابها حادث ؟ » .

ـ اقول لك ان لا . لقد أتلفت قدميها ، هذا كل شيء، إنها لا تعرف كيف تمشي . لكن ستصلين في الوقت المناسب لأخذها . أترين المكان جيداً ؟ انني أؤشر بصليب . ليس عليك إلا ان تبوقي او تنادي ، فهي الغابة الصغيرة إلى يمين الطريق .

فقلت :

ـ ما هذه القصة ؟ ماذا حدث ؟ اريد ان اعرف .

فقال فانسان :

ـ سر مهني . » واضاف : « الأفضل ان تتلفني لبيرون فوراً » .

كرهت وجهه الشاحب ، وعينيه الداميتين ، وصورته الجانبية الجميلة ، لكنه كان حنقاً عاجزاً . وأدرت رقم هنري وسمعت صوته المندهش :

ـ آلو ! من على الهاتف ؟

– آن دوبروي ، نعم ، انا . لي خدمة عاجلة أسألك اياهـا . ومن فضلك لا تطرح اسئلة . انني بحاجة إلى سيارة فوراً . مع وقود لمئتي كيلومتر .

وساد صمت قصير جداً ، وقال بصوت طبيعي للغاية : « من حظك اننا ملأنا الخان امس . ستكون السيارة عند بابك خلال نصف ساعة ، اي مـــدة الذهاب والعودة » .

فقلت :

– ائت بها إلى ساحة سانت اندريه دي زار . شكراً .

وقال فانسان في ابتسامة عريضة :

– آه ! رائع ! كنت واثقاً من بيرون » . وأضاف : « كوني مطمئنة حقاً . نادين غير معرضة لأي خطر : خاصة إذا أسرعت قليلاً . لا كلمة لأي أحـــد ، أليس كذلك ! لقد اقسمت لي انه يمكن الاعتماد عليك » .

فقلت وأنا أتبعه نحو الباب :

– يمكن . لكن قل لي ما الأمر ؟

فقال :

– لا شيء خطير ، اقسم لك .

كنت اشتهي لو اصفق الباب وراءه في عنف ، لكنني اغلقته في لطف حتى لا اوقظ روبير . لحسن الحظ انه استغرق في النوم ، إذ لم تمض ساعتان بعـــد على سماعي اياه يرقد . وارتديت ثيابي في عجلة وتذكرت هاتين الليلتين اللتين كنت انتظر فيها نادين بينما كان روبير يبحث عنها في شوارع باريس : الانتظار المخيف . واليوم ، ان الحال اسوأ ايضاً . كنت واثقة انها فعلا شيئاً ما خطيراً : فقد كان فانسان خائفاً . لا بد ان المسألة مسألة سطو او اختطاف ، الله أدرى . وبعد هـــذا لم تستطع نادين ان تذهب على قدميها إلى المحطة ، ويجب ان أصل قبل ان يكتشف الأمر ، قبل ان تكتشف نادين ، نادين التي تنتظرني منذ ساعات بمفردهـــا في الليل ، والبرد ، والخوف . كان صباح صيف جميل يعبق برائحـــة القار وأوراق الشجر . وخلال بضع ساعات سيشتد الحر جداً . والآن في رطوبة الأرصفة المقفرة

وصمتها ، كانت عصافير تغرد . صباح مرح مثقل بالقلق ، كصباح الهجرة .

ووصل هنري إلى الساحة بعدي بعدة دقائق . وقال في مرح :

ــ هي ذي العربة» . وظل جالساً امام المقود : « ألا تريدين ان أرافقك ؟ » .

ــ شكراً ، كلا .

ــ أواثقة انت ؟

ــ انني واثقة .

ــ منذ زمن بعيد لم تقودي .

ــ اعرف انني سأعرف .

ونزل ، وجلست مكانه . وقال :

ــ الأمر يتعلق بنادين ؟

ــ نعم .

فقال بصوت ساخط :

ــ آه ! انهم يستخدمونها ليضعونا امام الأمر الواقع !

ــ أتعرف حقيقة الأمر ؟

ــ إلى حد ما .

ــ قل لي ...

فتردد : « انها ليست إلا افتراضات . إسمعي ، سأبقى في بيتي طوال الصباح ، فإذا كنت استطيع ان أساعدك في أي شيء كان ، فاتصلي بي بالهاتف » .

وقلت في نفسي وانا اسرع نحو باب « لا شبيل » : « يجب على الأخص ألا يقع لي حادث » . وارغمت نفسي على الحذر وحاولت ان أطمئن نفسي : « يبدو ان هنري يفترض ان فانسان قد كذب : لعلهم كثيرون الذين ينتظرونني . بل لعل نادين ليست معهم » . كم كنت أتمنى ذلك ! كنت افضل ألف مرة ان افترض انهم خدعوني على ان اتخيل نادين ترتعد فرائصها برداً ، وخوفاً ، وغضباً طوال ليلة طويلة .

كانت الطريق العريضة مقفرة . وانعطفت يميناً نحو طريق صغيرة ، ثم نحو

طريق أخرى . كان المفترق ايضاً مقفراً . وضربت البوق وتفحصت الخارطة . لم اكن قد اخطأت . لكن لو كان فانسان قد اخطأ ؟ كلا ، لقد كان دقيقاً جداً ، فلا مجال لأي خطأ . وضربت البوق ثانية . ثم اوقفت المحرك ، ونزلت ، ودخلت يميناً الى الغابة الصغيرة وناديت : « نادين » ، في خفوت أولاً ، ثم بصوت أعلى اكثر فأكثر . صمت . صمت موت : لقد فهمت معنى هذه الكلمات . نادين : لا جواب . تماماً كما لو انني ناديت : دييغو . هي ايضاً ، قد تبخرت . كان يجب ان تكون هنا ، هنا تماماً ، ولم تكن . وجلت ، وسحقت اغصاناً ميتة ، وعشباً رطباً ، ولم اعد انادي . كنت افكر في رهبة : « لقد اوقفوها ! » . وعدت نحو السيارة . لعلها قد تعبت من الانتظار ، فهي لم تكن صبوراً ، ووجدت الشجاعة للسير نحو محطة قريبة . يجب ان ألحق بها ، يجب ذلك ، فسوف يلاحظونها في مثل هذه الساعة على رصيف مقفر . في شانتيلي ، كانت ستسير لا مرئية ، لكن المدينة كانت بعيدة جداً وكنت صادفتها على الطريق ، فلا بد انها اختارت كليرمون . كنت انظر شاخصة الى الخارطة كأنني أستطيع ان انتزع منها جواباً . هناك طريقان ممكنان الى كليرمون ، وعلى الأرجح اخذت الطريق الأقصر . ووصلت التيار الكهربائي ، وفتحت البنزين واخذ قلبي يخفق في يأس : ما كان المحرك ليستيقظ . واخيراً قررت ، وانطلقت السيارة على الطريق ، في قفزات صغيرة . كانت يداي الراشحتان بالعرق تنزلقان على المقود المبلل . وكان الصمت ، حولي ، يعاند . ولكن النور قد اشتد . وعما قريب ستنفتح الأبواب في القرى : « سيوقفونها » . الصمت ، الغياب . كان هذا السلام يبدو لي فظيعاً . لم تكن نادين على الطريق ، ولا في شوارع كليرمون ، ولا في المحطة . لا شك في انه لم يكن معها خارطة ، ولا تعرف المنطقة ، وهي تتكسع في الريف دون هدى ، وسوف يجدونها قبلي . وانعطفت . كنت سأعود حتى المفترق من الطريق الأخرى . ثم سأجول على جميع تلك الطرق الى ان يفرغ الخزان . ثم ؟ عليّ ألا اسأل نفسي : بل اتبع جميع الطرق . وكانت هذه الطريق تصعد نحو هضبة ، بين الغلال المخضرة . وفجأة رأيت نادين قادمة للقائي ، مع ابتسامة على شفتيها ، كأننا

اتفقنا منذ زمن بعيد على هذا الموعد . واوقفت السيارة في عنف واقتربت دون عجلة . وبصوت طبيعي جداً سألت :

– اجئت لأخذي ؟

– كلا . انني اتنزه للذتي الخاصة . » وفتحت الباب : « إصعدي » .

وجلست الى جانبي . كانت مسرحة الشعر ، مخضبة الوجـــه ، وكانت تبدو مستريحة . وكانت قدمي تدوس على علبة السرعة ويداي تشدان على المقود بقـوة عظيمة . وسألت نادين بابتسامة نصف هادئة ، نصف متسامحة : « اانت حانقة؟» .

كانت تانك الدمعتان اللتان صعدتا الى عيني ، دموع غضب بالفعل . وانحرفت السيارة فجأة ، وافترض ان يديّ كانتا ترجفان . وابطأت ، وحاولت ان ابسط اصابعي وان اسيطر على صوتي :

– لماذا لم تبقي في الغابة ؟

سئمت . وخلعت حذاءها ودفعته تحت المقعد . واضافت : « لم اكن اعتقد انك ستأتين » .

– أأنت بلهاء إذن ؟ بديهي انني اتيت .

– لم اكن اعرف . كنت أريد ان آخذ القطار من كليرمون . وكنت سأصل اليها في النهاية . » كانت تدلك قدميها، وهي محنية إلى الأمام : « يا لقدمي المسكينتين ! » .

– ماذا فعلت ؟

فلم تجب ، فقلت :

– طيب ، احتفظي بأسرارك . سيكتب ذلك في الصحف هذا المساء .

– سيكتب في الصحف!» وانتصبت نادين ، وكان وجهها مهصوراً : «اتعتقدين ان البوابة لاحظت انني لم اعد هذه الليلة ؟ » .

– لن تستطيع ان تثبت ذلك . وعند الحاجة سأقسم على العكس . لكن أريد ان اعرف ماذا فعلت .

فقالت بصوت قاتم :

– ما دمت ستعرفين على كل حال ! توجد امرأة طيبة في « آزيكور » ، لقد وشت بشابين يهوديين قبضوا عليهما في مزرعة : ومات الشابان . جميع النـــاس يعرفون انها غلطتها ، لكنها رتبت امورها بحيث لا يقلقها احـد : نذالة اخرى . وقد قرر فانسان ورفاقه ان يعاقبوها . منذ زمن بعيد وانا على اطلاع على الأمر ، وكانوا يعرفون انني اريـد ان اساعدهم . وكانوا في هذه المرة بحاجة إلى امرأة ، فرافقتهم . وكانت المرأة مديرة حانـــة . وانتظرنا انصراف آخر الزبائن ، وفي اللحظة التي كانت تغلق فيها ، رجوتها ان تسمح لي بالدخول دقيقة لأشرب كأساً وأستريح. وبينما كانت تخدمني دخل الآخرون ووثبوا عليها. وقادوها إلى القبو».

وسكتت نادين . وسألت : « انهم لم ... » .

فقالت في حدة :

– كلا . » واضافت : « لقـــد قصوا شعرها ... » . وقالت بصوت مدّعٍ فجأة : « لم احتمل الأمر بصعوبة كبيرة . فقد اغلقت الباب ، واطفأت . لكن العملية بـدت لي طويلة ، فشربت كأساً من العرق وانا انتظر . بديهي ، انني لم أتدرب ، ولقد انهكني ذلك . ثم اننا قطعنا كيلومترات للمجيء إلى كليرمون ، وكانوا يريدون ان يعودوا من شانتيلي : لكنني ما عدت استطيع ان اتقدم . فسحبوني حتى الغـــابة الصغيرة ، وقالوا لي ان انتظرك . واتيح لي الوقت لأستعيد ... » .

فقاطعتها : « ستعدينني بمقاطعة تلك العصابة كلها ، او تغادرين باريس هـــذا المساء بالذات » .

فقالت في نوع من الحقد :

– على كل حال ، لن يرغبوا فيّ ثانية .

– هذا لا يكفيني :اريد ان تعديني وإلا اقسم لك انك غداً ستكونين بعيدة. منذ سنوات لم أكلمها بهذه اللهجة . فنظرت إليّ في خضوع وضراعة :

– عديني ايضاً بشيء : لا تقولي شيئاً لبابا .

لم يحدث لي إلا نادراً جداً ان اخفيت عن روبير حماقات نادين . ولكن هذه

المرة ، كنت اعتقد انه ليس بحاجة عن حق إلى هموم جديدة ، وقلت : « وعد مقابل وعد » .

فقالت في سيماء من حزن :

– أعدك بكل ما تريدين .

– إذن ، لن اقول شيئاً .» واضفت في قلق:« أواثقة انكم لم تتركوا أثراً؟».

– فانسان يؤكد انه اهتم بكل شيء . » وسألت في غم : « ماذا سيحدث إذا اخذوني ؟ » .

– لن يأخذوك . فأنت لست إلا شريكة . وانت صغيرة جداً . لكن فانسان يجازف مجازفة كبيرة . » واضفت في حنق : « إذا أنهى حياته في السجن، فهو يستحق ذلك . انها قذرة هذه القصة . قذرة وبلهاء » .

ولم تجب نادين . وقالت بعد صمت :

– هل أعارك هنري السيارة دون ان يسأل شيئاً ؟

– اعتقد انه يعرف اشياء كثيرة .

فقالت نادين :

– فانسان يتكلم كثيراً . هنري او انت ، هذا لا اهمية له . ولكن شخصاً مثل سيزوناك يمكن ان يكون خطراً .

– سيزوناك لا دخل له ؟ هذا جنون !

– لا دخل له ، ففانسان يعرف على كل حال ان مدمناً على المخدرات ، يجب الا يوثق به . لكنهما يحبان بعضهما البعض كثيراً ، وهما دوماً معاً .

– يجب ان اتحدث إلى فانسان ، يجب إقناعه بترك هذا ...

فقالت نادين :

– لن تقنعيه . لا انت ولا انا ولا أي شخص .

ذهبت نادين للرقاد ، وقلت لروبير انني خرجت للقيام بجولة للذتي الخاصة . كان مشغولاً جداً هذه الأيام حتى انه لم يرَ في هذا ما يشتبه به . وتلفنت لهنري ، وطمأنته ببضع عبارات مبهمة . أن أهتم بمرضاي ، كان هذا عملاً صعباً . كنت

اترقب صحف المساء : لم تتحدث عن شيء . ومع ذلك لم أنم مطلقاً تلك الليـلة . وقلت في نفسي : « لم يعد هناك مجال للرحيل إلى امـيركا » : كانت نادين في خطر. لقد وعدتني بألا تعاود. لكن الله يعرف ماذا ستخترع غير هذا! وفكرت في حزن انني مهما بقيت إلى جانبها ، فلن انجح في حمايتها . كان يكفي بدون شك ان تكون سعيدة ، ان تشعر انها محبوبة ، لتكفّ عن تدمير نفسها : لكن لم اكن استطيع ان امنحها لا الحب ولا السعادة . كم انا غير نافعة لها ! الآخرون، الغرباء ، انني اجعلهم يتكلمون ، انـني أفك خيوط ذكرياتهم ، أحل عقدهم ، أسلمهم عند الخروج مكبات صغيرة ملفوفة جيداً يصفـّونها في أدراجهم : هـذا يفيدهم ، احياناً . اما نادين ، فأنا أقرأ دون جهد فيها ، ولا أعرف مـا أفعله لأجلها . كنت أقول في نفسي في الماضي: « كيف يمكنني ان أتنفس في اطمئنان عندما أفكر بأن الناس الذين أحبهم يقامرون بحياتهم الأبدية ؟ » . لكن المؤمن يستطيع ان يصلي ، يستطيع ان يساوم مع الله . اما بالنسبة لي ، فلا يوجد اتحاد قديسين ، واقول في نفسي : « هذه الحياة هي فرصتها الوحيدة. لن تكون هناك حقيقة اخرى غير التي عرفتها ، ولا عالم آخر غير الذي آمنت به » . كانت نادين ذابلة العينين صباح الغد ، ولبثت على قلقي . لقد أمضت النهار جالسة أمام كتاب كيمياء وعند المساء ، بينما كنت امسح ماكياجي ، قالت لي في انهماك :

ـــ انها لكابوس هذه الكيمياء . يقيناً واكيداً انني سأرسب .

ـــ لقد نجحت في امتحاناتك دوماً . . .

ـــ ليس هذه المرة . على كل ، ان الرسوب والنجاح شيء واحد . ابـداً لن امارس الكيمياء في المستقبل » . وفكرت لحظـة : « انني لا استطيع ان امارس شيئاً . انني لست مثقفة، وفي العمل ، انني لا احسن شيئاً . انا غير صالحة للاستعمال » .

ـــ في « الطوارىء » أديت واجبك تماماً ، ومباشرة .

ـــ ليس في ذلك ما يدعو للفخر ، وبابا على حق تماماً .

ـــ عندما ستجدين شيئاً يستهويك، فأنا واثقة انك ستفعلينه على احسن وجه.

وسوف تجدين .

فهزت رأسها : « افترض انني في الصميم خلقت ليكون لي زوج وأطفال كسائر الناس . سأنظف آنيتي وسأبيض طفلاً كل عام » .

— إذا تزوجت لتتزوجي ، فلن تكوني مسرورة ايضاً .

— اواه ! كوني مطمئنة ! ما من رجل سيكون أحمق بما فيه الكفاية ليتزوجني . انهم يحبون كثيراً ان يناموا معي ولكن بعد ذلك : مساء الخير . انني لست مرغبة .

كنت اعرف جيداً هذه الطريقة التي تقول بها عن نفسها في لهجة طبيعية جداً اكره الأشياء ، كأنها بطلاقتها قد جردت الحقيقة المرة من سلاحها وتجاوزتها . ولسوء الحظ كانت الحقيقة تظل حقيقة . وقلت :

— انت لا تريدين ان تكوني كذلك . وإذا حاول أحدهم على كل حال ان يتعلق بك ، فأنت ترفضين تصديق ذلك .

— ستقولين لي مرة اخرى ان لامبير متعلق بي ...

— منذ سنة انت الفتاة الوحيدة التي خرج معها ، لقد قلت لي ذلك بنفسك .

— بديهي ، انه لوطي .

— انت مجنونة .

— ما دام لا يخرج إلا مع شبان . وهو يحب هنري ، هذا واضح جداً .

— انت تنسين روزا .

فقالت نادين في حنين :

— اواه ! كانت روزا جميلة جداً . حتى اللوطي يمكن ان يحب روزا » . واضافت في نفاد صبر : « انت لا تفهمين . لامبير يشعر نحوي بالصداقة، لكن، لكن كما يشعر بها تجاه رجل . على كل ، هذا رائع هكذا ، فأنا لا احب ان أكون سلعة تعويضية » . وتنهدت : « للشبان حظ كبير . سيقوم بريبورتاج عبر فرنسا كلها : انعاش المناطق المهدمة وكل شيء . لقد اشترى لنفسه دراجة نارية» . واضافت في شراسة : « يجب ان تريه : انه يظن نفسه الكولونيل لورنس عندما

ينتقل على قطعته الحديدية » .

كان في صوتها حسد كثير حتى انه اوحى لي بفكرة . ومررت على «الأمل» بعد ظهر اليوم التالي وطلبت ان ارى لامبير . وقال لي في لهجة مجاملة :

– تريدين ان تحدثيني ؟

– إذا كان لديك دقيقة ، نعم .

– هل تريدين ان نصعد إلى البار ؟

– لنصعد .

وما ان وضع النادل امامي عصير ليمون هندي حتى بادرت : « يبدو انك ستقوم بريبورتاج كبير غير فرنسا ؟ » .

– نعم . سأذهب في الأسبوع القادم . على الدراجة .

– ألن يكون ممكناً ان تصطحب نادين ؟

فنظر إلي في نوع من التأنيب :

– نادين راغبة في مرافقتي ؟

– انها تموت رغبة . لكنها ابداً لن تطلب منك ذلك أولاً .

فقال بصوت متصنع :

– لم اقترح عليها ذلك لأنني سأدهش كثيراً اذا قبلت . انها تقبل نادراً جداً بما اقترحه عليها . على كل ، لقد رأيتها قليلاً هذه الأيام ...

فقلت :

– اعرف انها تتسكع مع فانسان وسيزوناك . انها ليست عشرة طيبة بالنسبة لها» . وترددت بسرعة كبيرة: «بل انها عشرة خطرة ايضاً . ولهذا جئت لرؤيتك: ما دمت تشعر بالصداقة نحوها ، خذها بعيداً عن تلك العصابة كلها » .

وفجأة تغير وجه لامبير . وبدا على حين غرة صغيراً جداً ومجرداً من السلاح: « انت لا تعنين ان نادين تدمن على المخدرات ؟ » .

كان هذا الشك يناسبني تماماً . فقلت في لهجة متحفظة : « لست أدري . لا اعتقد . لكن مع نادين ، كل شيء يمكن ان يحدث . انها في ازمة هذه الأيام .

اقول لك بصراحة : « انني خائفة » .

والتزم لامبير الصمت لحظة . كان يبدو منفعلاً . وقال : سأكون سعيداً جداً اذا جاءت نادين معي » .

— إذن حاول . ولا تثبط شجاعتك : افترض انها ستقول لا في البـداية ، فهكذا هي . لكن ألح ، فلعلك ستنقذ حياتها » .

بعد ثلاثة ايام ، قالت لي نادين في لهجة لا مبالية :

— تصوري ، ذلك المسكين لامبير الذي يريد ان يصطحبني في السفر معه !

فقلت :

— ذلك الريبورتاج عبر فرنسا ؟ هذا سيكون متعباً جداً .

— اواه ! هذا ، انني لا أبالي . لكني اولاً لا استطيع ان اترك المجـلة مدة خمسة عشر يوماً .

— لك حق في إجازة ، ليست هذه هي المشكلة . لكن إذا لم تكن لـك رغبة ...

فقالت نادين :

— لاحظي ان هـذا سيكون شيقاً جداً . لكن ثلاثة اسابيع مع لامبير ، هذا ثمن غالٍ .

كان يجب على الأخص ألا يبدو علي انني ادفعها إلى القيام بهذه الرحلة . وسألت في لهجة ساذجة : « أهو حقاً ممل إلى هذا الحد ؟ » .

فقالت في غيظ :

— انه ليس مملاً مطلقاً . كل ما هنالك انه ورع جداً ، ومتصنع جداً ، وهو يُصدم من كل شيء . اذا دخلت الى حانة وجوربي مثقوب ، عنّفني ! ابن عائلة حقيقي ، في النهاية » . وتابعت : « أتعرفين انه تصالح مع ابيه ؟ يا للدناءة ! » .

فقلت :

— يا إلهي ! كم اسرعت في الحكم ! ماذا تعرفين بالضبط عن تلك القصة ؟ وعن والد لامبير ، وعن علاقاتها ؟

لقد تكلمت بحرارة كبيرة إلى حد ان نادين ظلت لحظة مشدوهة . عندما اكون مقتنعة حقاً ، اعرف كيف اقنعها . هكذا أثـّرت على طفولتها ، وعادة ، بعد ان تستسلم لي ، كانت تحتفظ نحوي بحقد كبير حتى انني استنكف عن استعمال نفوذي . لكني اليوم كنت ساخطة من رؤيتها تعاند في مناوأة نفسها .

وقالت في لهجة مترددة : « لامبير لا يستطيع ان يستغني عن باباه الصغير العزيز : انه مرض الطفولة . اذا كنت تريدين ان تعرفي ، فهذا ما يغيظني فيه : لن يكون رجلاً ابداً » .

– انه في الخامسة والعشرين ووراءه مراهقة غريبة . انت تعرفين جيداً من نفسك انه ليس من السهل ان يأخذ الانسان بالطيران بجناحيه الخاصين .

– آه ! ولكن بالنسبة لي ، هذا امر يختلف ، انني امرأة .

– وماذا ؟ ان تكوني رجلاً ، فهذا ليس أكثر راحة . اننا نطلب كثيراً من رجل اليوم : وانت الأولى . عليهم ان يلعبوا دور الأبطال ، ولا يزال اللبن ملء فمهم . هـذا مثبط للهمة . كلا . لا يحق لك ان تكوني قاسية جداً على لامبير . قولي انك لا تتفاهمين معه ، ان هذه الرحلة لا تستهويك ، فهذا شيء آخر .

– اواه ؟ بمعنى ما ، ان هذه الرحلات تستهويني دوماً .

وبعد يومين ، قالت لي نادين في سحنة نصف حانقة ، نصف مزهوة : « انـه غريب ، ذلك الانسان ! لقد لعب عليّ بالشانتاج ! يقول ان المراسل السلمي مهنة تسئمه ، وانني اذا لم اذهب معه فسوف يستنكف » .

– إذن ؟

فقالت في سيماء من براءة :

– إذن ماذا تريدين ؟

فهززت كتفي : « هل يعرف فقط ان يقود دراجة نارية ؟ انها خطرة هـذه الآلات » .

فقالت نادين :

– انها ليست خطرة مطلقاً ، بل رائعة جداً » وأضافت : « اذا قبلت ، فهذا

سيكون بسبب الدراجة » .

بخلاف كل ما كان متوقعاً ، فقد نجحت نادين في شهادة الكيمياء . وهــذا بالأحرى، بالنسبة للتحريري ، لكن في الشفهي كانت تخدع بسهولة فاحصيها بجرأتها في الكلام وطلاقتها . واحتفلنـــا ثلاثتنا بهذا النصر بعشاء كبير مع الشمبانيا في مطعم في الهواء الطلق ، ثم ذهبت مع لامبير . كانت هذه فرصة . ففي الأسبوع التالي ، انعقد مهرجان « الاشتراكي الثوري الحر » ، وكان المنزل غاصاً بالنـاس دوماً ، وكنت سعيدة جداً بأن استطيـع الافادة دون مشاركة احد من لحظـات الحرية النادرة التي كانت تتبقى لروبير . وكان هنري يعاونـه في إخلاص يزيـد في تأثيره على نفسي معرفتي بقلة حماسته لمثل هذا النوع من العمل . كان كلاهمـا يقولان ان المهرجان يبشر بخير . وكنت أفكر وانا أهبط شارع « وغرام » : « اذا كانا يقولان ذلك ، فلا بد ان يكون صحيحاً » لكنني كنت قلقة مع ذلك. فمنذ سنوات لم يتكلم روبير جماهيرياً . هل سيعرف كيف يؤثر على النـاس ، كما في السابق ؟ وتجاوزت سيارات البوليس المصفوفة على طول الرصيف وتابعت السير حتى ساحة « تيرن » . كنت سابقة للموعد . قبل عشر سنوات ، عشية مهرجان « بلايل » ، كنت وحيدة ايضاً، وكنت سابقة للموعد ، وقد تجولت طويلاً حول هذه الساحة ودخلت لتناول كأس خمر في « لا لورين » . لم ادخل . الماضي كان ماضياً : لا أدري لماذا أسفت عليه فجأة بمثل هـذا التمزق . اواه ! بلا شك لمجرد انه كان الماضي. وعدت على اعقابي ، وسرت على طول الممر الكئيب. وتذكرت استيائي عندما صعد روبير إلى المنصة : لقد خيل إلي انهم يسرقونه مني . هـذا المساء ايضاً ، انهـا لتخيفني فكرة ان اراه على منصة ، عن بعد . لم يكن هنـاك بعد كثير من النـاس في القاعة . وقال لي آل كانج : « ان الجمهور يأتي دوماً في الدقيقة الأخيرة » . وحاولت ان أحدثها في هدوء ، لكني كنت اراقب المدخل في قلق . سنعرف اخيراً إذا ما كان الناس ، نعم ام لا ، يتبعون روبير يقيناً ، إذا كانوا يتبعونه ، فلا شيء قد رُبح بعد. ولكن بالمقابل إذا ظلت القاعة فارغة ، فسيكون الفشل نهائياً . وكانت تمتلىء . كانت الأماكن كلهـا مشغولة

عندما جاء الخطباء إلى وسط المنصة بين التصفيق . كان محيراً ان أرى جميع هذه الوجوه الأليفة تنقلب إلى وجوه رسمية. كان لونوار ، بنوع من الانسجام المكاني، يختلط بالمقاعد والطاولات، ويتحول إلى قطعة من خشب جاف . وكان سامازيل، على العكس ، يحتل المنصة كلها ، فقد كان هنا مكانه الطبيعي . وعندما بدأ هنري الكلام ، حوّل صوته الصالة الضخمة إلى غرفة خاصة : لم يكن يرى امامه خمسة آلاف شخص ، ولكن شخصاً واحداً خمسة آلاف مرة ، وكان يتكلم بلهجة المحادثة تقريباً . وشيئاً فشيئاً انبعثت الحرارة فيّ . فوراء الكلمات التي كان ينطق بها ، كانت تلك الصداقة التي يقدمها لنا وحدها يقيناً : ان البشر ليسوا محكوماً عليهم بالحقد والحرب ، وكنا واثقين من ذلك ونحن نسمعه . وصُفق له طويلاً . وألقى ميريكو خطاباً قصيراً بارداً ، ثم جاء دور روبير . يا له من ترحيب ! فما إن نهض حتى أخذوا يضربون بأيديهم وأرجلهم صائحين . كان ينتظر ، في سماء من صبر ، وتساءلت ما إذا كان منفعلاً : فقد كنت منفعلة انا ايضاً . يوماً بعد يوم كنت أراه منحنياً على مكتبه ، وردي العينين ، محدودب الظهر ، وحيداً وشاكاً في نفسه : كان الرجل نفسه هذا الذي يهتف له خمسة آلاف شخص . من كان على الضبط بالنسبة لهم ؟ كاتباً كبيراً ورجل لجان « الطوارىء » والمؤتمرات المعادية للفاشية في آن واحد ومثقفاً نذر نفسه للثورة دون ان ينكر ذاته كمثقف. كان يمثل ، بالنسبة للشيوخ ، ما قبل الحرب ، وبالنسبة للشباب الحاضر ووعوده . كان يحقق وحدة الماضي والمستقبل . وبلا شك كان ألف شيء آخر أيضاً ، فكل يحبه على طريقته . كانوا يتابعون التصفيق وكان الدوي ينداح في داخلي، ويصبح لا محدوداً . الشهرة ، المجد ، هذا يتركني عادة باردة . اما هذا المساء ، فهذا يبدو لي مرغوباً . وكنت اقول في نفسي : « وسعيد من يستطيع ان ينظر إلى حقيقة حياته وجهاً لوجه ويتمتع بها . سعيد من يكتشفها على وجوه صديقة » . وأخيراً سكتوا . وما إن فتح روبير فاه ، حتى تبللت يداي وامتلأ جبيني بالعرق . فمهما علمت انه يتكلم بسهولة ، فقد كنت وجلة . ولحسن الحظ، سرعان ما أُخذت به . كان روبير يتكلم بدون فخامة : بمنطق ملح جداً حتى انه ليشبه العنف . لم يكن

يقترح برنامجاً : بل يملي علينا اعباء . وكانت عاجلة جداً ، إلى حد اننا لا نستطيع ان نتخلف عن انجازها . وكان النصر مضموناً بضرورته بالذات . كان الناس حولي يبتسمون ، وعيونهم تلتمع ، وكل منهم يتعرف في وجه جيرانه يقينه الخاص . كلا ، لن تكون هذه الحرب لامجدية . لقد فهم البشر ان الاستسلام والأنانية يكلفان ، وسوف يأخذون مصيرهم بأيديهم ، وسوف يحققون انتصار السلام ، ويوطدون على الأرض اجمع الحرية والسعادة . كان هذا واضحاً ، كان أكيداً ، كان نابعاً من مجرد الحس السليم : ان الانسانية لا تستطيع ان تريد شيئاً غير السلام ، والحرية ، والسعادة ، وما الذي يمنعها من ان تفعل ما تريد ؟ انها الوحيدة التي تسود على الأرض . من خلال كل ما كان روبير يقوله ، كانت هذه البداهة هي التي تبهرنا . وعندما صمت ، صفقنا طويلاً ، وكنا نصفق للحقيقة . ومسحت يدي بمنديلي . لقد تأكد السلم ، وضمن المستقبل ، القريب والبعيد ، فهما ليسا إلا واحداً . ولم أستمع إلى « ساليف » ، كان مملاً كميريكو ولكن لم يكن لهذا اهمية . لقد ربحنا الجولة ، ليس المهرجان فقط ، بل كل ما يعنيه .

وكان سامازيل آخر من تكلم . وفوراً ، أخذ يرعد ويقصف ، كصيّاح في معرض . ووجدت نفسي ثانية جالسة في مقعدي ، وسط جمهور عاجز مثلي ، ينتشي بالكلمات بشكل احمق . لم تكن وعوداً ، ولا تخمينات : بل مجرد كلمات . لقد رأيت في قاعة بلايل ، الضوء نفسه على الوجوه المنتبهة : وهذا لم يمنع وارسو ، وباشنوالد ، وستالينغراد ، واورادور . نعم ، اننا نعرف كم يكلف الاستسلام والانانية : لكننا نعرف ذلك منذ زمن طويل ، دون فائدة . اننا لم ننجح ابداً في ايقاف التعاسة ، ولن ننجح في وقت مبكر ، على كل حال ليس في حياتنا . اما ما سيجري فيما بعد ، عند نهاية فترة ما قبل التاريخ الطويلة هذه ، فيجب ان نعرف في انفسنا اننا لا نستطيع حتى ان نتخيله . ان المستقبل ليس موثوقاً ، لا القريب ، ولا البعيد . ونظرت إلى روبير . أهي حقيقته حقاً التي تنعكس في هذه العيون كلها ؟ انهم ينظرون اليه ايضاً من أمكنة اخرى : من اميركا ، ومن روسيا ، من اعماق العصور . من يرون ؟ لعلهم لا يرون الا حالماً

هرماً يفتقر حلمه إلى الجد . ولعله سيرى نفسه ، هو ايضاً ، هكذا ، في الغـد . سيفكر ان عمله لم يفد شيئاً ، او اسوأ من ذلك ، لم يفد إلا في خداع الناس. ليتني فقط استطيع ان أقرر : لا توجد حقيقة ! ولكن ستكون هناك حقيقة . ان حياتنا هنا ، ثقيلة كصخرة ، ولها قفا لا نعرفه : هذا مخيف . كنت واثقة هذه المرة انني لا أهذي ، فأنا لا اشرب شيئاً ، والليل لم يخيم بعد ، والخوف يخنقني .

سألتهم في لهجة متجردة :

ـ أأنتم مسرورون ؟

كان هنري مسروراً . ولقد قال لي في مرح : « لقد نجح » . وكان سامازيل يقول : « انه نصر » . لكن روبير دمدم : « انه لا يثبت شيئاً كبيراً ، انـه مهرجان » . قبل عشر سنوات ، وهو خارج من قاعة بلايل ، لم يقل شيئاً مماثلاً ، بل كان يشع . ومع ذلك كنا نفكر ان الحرب ربما نشبت : فمن اين كان يـأتي ذلك الاطمئنان ؟ آه ! كان لدينا وقت امامنا : كان روبير يتنبأ بانسحاق الفاشية ، إذا اندلعت الحرب . وكان قد تجاوز التضحيات التي سيكلفها ذلك . اما الآن ، فهو يشعر بعمره : انه بحاجة إلى يقين قصير الأجل . وظل مقطباً ، خلال الأيام التالية . وكان يجب ان يُسر عندما اعلن شارلييه له انتسابه إلى « الاشتراكـي الثوري الحر » ، وأبداً لم أره محتاراً كما رأيته بعد هذه المقابلة . وعلى كل حال انا افهمه . لم يكن ذلك بسبب مظهر شارلييه الجسدي : فشعره لم ينبت ثانيـة ، وجلده احمر متجلط ،لكنه اخيراً منذ آذار ازداد وزنه عشرة كيلووات وركبت له اسنان . ولم يكن ذلك بسبب القصص التي كان يرويها ، فما كان هناك شيء كبير نعرفه عن فظائع المعسكرات . إنما كانت لهجة حكاياه بالأحرى هي التي لا تحتمل . هو الذي كان اكثر المثاليين وداعة وعناداً ، كان يذكر الضربات ، والصفعات ، والعذابات ، والجوع ، والمغص ، والتبليد ، والاذلال ، في ضحكة لم تكن حتى ماجنة : لم نكن نعرف أهي طفوليـة ام شيخية ، ملائكية ام بلهاء . وكان يضحك ايضاً من فكرة أن الاشتراكيين ينتظرون ان ينضم إلى صفوفهم . ومع ذلك كان لا يزال يحتفظ تجاه الشيوعيين بنفوره القديم . ولقد جذبه « الاشتراكي

الثوري الحر » . ووعد بأن يأتيه بالجماعة الكبيرة التي تتجمع وراءه . وعندما غادرنا ، قال لي روبير :

– كنت مندهشة في اليوم الماضي من توددي . لكن أتفهمين ، ان المخيف اليوم عندما نتجمع للعمل، هو اننا نعرف كثيراً الثمن الذي يدفع عن الاخطاء.

كنت أعرف انه يعتبر جميع البشر الذين في سنه ونفسه مسؤولين عن الحرب . ومع ذلك فقد كان احد الذين ناضلوا ضدها بأذكى وأحس ما يكون. ولكنه ما دام قد فشل ، فقد كان يحكم على نفسه بأنه مذنب . وما كان يدهشني، هو ان لقاءه بشارلييه قد ايقظ توبيخ ضميره : ان ردود فعله تكون عادة تجاه كليات ، وليس تجاه احوال خاصة .

وقلت :

– على كل حال ، إذا كان « الاشتراكي الثوري الحر » غلطة ، فلن تتلوها كوارث كبيرة .

فقال روبير :

– الكوارث الصغيرة ايضاً لها حسابها » وتردد : « يجب ان اكون اصغر سناً مما انا لأؤمن بأن المستقبل سينقذ كل شيء . انني اشعر بمسؤولياتي محددة اكثر من الماضي ، ولكن ايضاً اثقل ونهائية اكثر .

– كيف ذلك ؟

– ذلك انني أفكر قليلاً مثلك : ان موت فرد ، او تعاسته ، هذا لا يمكن تجاوزه . » واضاف : « آه ! انني أسير في عكس التيار . ان الشباب أصلب بكثير مما كنا ، بل انهم ايضاً شديدو المجون : وأنا اصبح عاطفياً » .

– ألا يمكن ان نقول بالأحرى انك تصبح حسياً اكثر مما كنت ؟

فقال روبير :

– لست واثقاً من ذلك : اين هو الحسي ؟

نعم ، يقيناً ، انه على استعداد اكثر من الماضي للاصابة بالأذى . ولحسن الحظ ، كان المهرجان يأتي بثماره ، إذ كانوا يسجلون في كل يوم طلبات انتساب.

ونهائياً لم يعلن الشيوعيون الحرب على « الاشتراكي الثوري الحر ». كانوا يتحدثون عنه في عداء متحفظ ، لا اكثر . وكان هناك أمل بأن تتطور الحركة جدياً . والنقطة السوداء الوحيدة ، ان « الأمل » قد خسرت على كل حال كثيراً من القراء ، وسيضطرون قريباً إلى الاستعانة بأموال تراريو .

وسألت وأنا أتفحص نفسي في المرآة في عدم رضى :

ـ أواثق انت انه سيدفع ؟

فقال روبير :

ـ واثق تماماً .

ـ إذن لمَ انت ذاهب إلى العشاء هذا المساء ؟ لمَ تجرني اليه ؟

فقال روبير الذي كان يعقد في اسف ربطة عنق :

ـ من الأفضل على كل حال التفاهم معه وهو في مزاج حسن. ان شخصاً نستعد لننتزع منه ثمانية ملايين ، لا بد ان نرضي نزواته .

ـ ثمانية ملايين !

فقال روبير :

ـ أيْ نعم ! لقد وصلوا إلى هذا الحد ! انها غلطة لوك . يا له من عنيد ! وسيرغمون على كل حال على اخذ مال تراريو . ان سامازيل الذي قام بتحقيقه الصغير يقول انهم ما عادوا يستطيعون تحمل الأزمة .

فقلت :

ـ إذن ، انني أستسلم . ان « الأمل » تساوي عشاء في المدينة !

كنا كلنا ابتسامات عندما دخلنا إلى الصالون ـ المكتبة الرحب الذي كان سامازيل وزوجته قد سبقانا اليه . كان يرتدي طقماً من الفلانيل الرمادية الفاتحة يكشف عن بدانته. وكان تراريو كله ابتسامات ايضاً، ولم تكن له زوجة مرئية، بل فتاة طويلة غراء الشعر ذكرتني بزميلاتي الورعات في المعهد . وقدموا لنا ، في غرفة طعام أرضها مبلطة بالأسود والأبيض ، عشاء كله ذوق أنيق . وعند القهوة، قدم تراريو مشروبات لكن بدون سيجارات . وكان سامازيل يفضل بالتأكيد

سيجاراً ، وكان ينكت دون فكرة مسبقة وهو يحتسي كأس العرق . منذ زمن طويل لم أضع قدمي في بيت بورجوازيين حقيقيين ، وبدت لي هذه التجربة مقوية للعزيمة . احياناً ، أقول في نفسي ان المثقفين الذين أعرفهم فيهم شيء ما مشبوه . ولكن عندما أصادف بورجوازيين ، فإنني ألاحظ انه ليس لديهم ما نحسدهم عليه . بديهي ان نادين والحياة التي أتركها تعيشها وقحتان . لكن هذه العذراء الذاهب رونقها التي كانت تقدم القهوة في سحنة مضطهدة كانت تبدو لي أكثر فظاظة . وكنت واثقة انها ستروي لي أشياء واشياء ، لو مددتها على أريكتي . وتراريو ، إذن ! على الرغم من ابتذاله المدروس ، كنت اجده مريباً . كان غروره الذي لا يحسن إخفاءه ينسجم مع إعجابه المتحمس أكثر مما ينبغي بسامازيل . وخلال مدة طويلة تبادلا ذكريات عن المقاومة ، ثم هنأا نفسيهما على المهرجان وقال سامازيل : « من حسن الطالع الممتاز ، أننا بدأنا نكسب الأقاليم . من الآن إلى سنة سيكون لدينا مئتا ألف منتسب ، وإلا نكون قد خسرنا الجولة » .

فقال تراريو :

— لن نخسرها ! » والتفت نحو روبير الذي لبث حتى الآن صامتاً اكثر مما كان ينبغي : « ان الحظ الكبير لحركتنا، هو انها خلقت نفسها في الوقت المطلوب بالضبط . لقد بدأت البروليتاريا تفهم ان الحزب الشيوعي يخون مصالحها الحقيقية . وكثيرون من البورجوازيين الواعين يدركون مثلي ان عليهم اليوم ان يقبلوا بتصفية طبقتهم » .

فقال روبير في لهجة مستاءة :

— هذا لا يمنع انه لن يكون لدينا خلال عام مئتا ألف منتسب ، وان الجولة لن تكون قد خسرت بسبب ذلك . ليس لنا أية مصلحة في الكذب على انفسنا .

فقال تراريو :

— لقد علمتني تجربتي ان الانسان اذا اكتفى بالقليل ، لا يحصل على شيء كبير . ليس لنا مصلحة ايضاً في تضييق آمالنا !

فقال روبير :

– المهم هو اننا لا نضيق جهودنا .

فقال تراريو في حزم :

– آه ! إسمح لي بأن أقول لك اننا بعيدون عن استغلال كافة امكانياتنا تماماً ، من المؤسف ان تكون صحيفة « الاشتراكي الثوري الحر » دون مهمتها إلى هذا الحد ، ان إصدار « الأمل » قد انخفض بشكل يدعو إلى السخرية .

فقلت : « لقد انخفض بسبب ارتباطها « بالاشتراكي الثوري الحر » .

فنظر إليّ تراريو في استياء وكنت أفكر انه لو كانت له امرأة لكان عليها ألا تتكلم إلا عندما تُسأل . وقال في غلاظة تقريباً : « كلا ، بل بسبب نقص الديناميكية » .

فقال روبير في تصلب :

– الواقع انه كان « للأمل » جمهور كبير .

فقال سامازيل في هدوء : « لقد استفادت من حركة الحماسة التي تبعت التحرير » .

وقال تراريو :

– يجب ان ننظر إلى الأمور وجهاً لوجه . إننا نعجب جميعاً ببيرون بما فيه الكفاية كي يكون لنا حق بأن ندلي برأينا عنه في صراحة تامة . انه كاتب رائع ، لكنه ليس سياسياً ، ولا رجل أعمال . ووجود لوك إلى جانبه لا ينظم الأمور .

كنت اعلم جيداً ان روبير ليس بعيداً عن مشاركته في هذا الرأي ، لكنه هز رأسه : « لقد خسر بيرون ، بسيره مع « الاشتراكي الثوري الحر » ، اليمين والشيوعيين . وموارده المالية اضعف من ان تسمح له بمقاومة التيار » .

فقال تراريو وهو يفصل كل مقطع :

– انني مقتنع تماماً بأنه لو كان رجل مثل سامازيل على رأس « الأمل » ، لتضاعف الطبع في بضعة أسابيع .

وجالت نظرة روبير حول وجه سامازيل ، وقال مقتضباً : « لا مجال لهذا! » .

وانتظر تراريو قليلاً وأطلق :

– وإذا اقترحت على بيرون شراء « الأمل » لحساب سامازيل ؟ بدفع الثمن ؟

فهز روبير كتفيه : « حاول إذن » .

– أتعتقد انه لن يقبل ؟

– ضع نفسك مكانه .

– طيب ، واذا طلبت ان أشتري فقط أسهم لوك ؟ وإن لم يكن ، ثلث أسهمها كليهما ؟

فقال روبير :

– انها جريدتهما ، فهما اللذان خلقاها ، وهما حريصان على ان يكونا السيدين في بيتهما .

فقال تراريو :

– هذا مؤسف .

– ربما ، لكن ما من أحد يستطيع شيئاً .

وخطا تراريو عدة خطوات عبر الغرفة ، وقال بصوت لاه : « انني لست من الذين يستسلمون . عندما يؤكدون لي بأن شيئاً ما مستحيل ، أرغب فوراً في ان أثبت لنفسي العكس » وأضاف في رصانة : « وأضيف ان مصالح « الاشتراكي الثوري الحر » تبدو لي أهم من العواطف الفردية مهما كانت جديرة بالاحترام » .

وقال سامازيل في قلق : « إذا كنت تفكر في مشروعك الذي حدثتني عنه امس الأول ، فقد قلت لك انني شخصياً لا أستطيع ان اتبعك » .

فقال تراريو في ابتسامة مقتضبة :

– واجبتك انني أقدر وساوسك . » ونظر إلى روبير في شيء من التحدي : « انني أتكفل بكافة ديون « الأمل » وأساوم بيرون : إما ان يضم اليه سامازيل ، او أضطره إلى الافلاس » .

فقال روبير في لهجة محتقرة :

– بيرون سيختار الافلاس على ان يستسلم لشانتاج .

– ليكن . سيفلس وأصدر صحيفة أخرى يديرها سامازيل .

فأنّ سامازيل :

ـ كلا !

ـ انت تفهم جيداً ان « الاشتراكي الثوري الحر » لن تكون له علاقة بتلك الصحيفة . ان مثل هذه الطريقة ستؤدي إلى فصلك فوراً .

فتفرس تراريو في وجه روبير كأنه يريد ان يقيس عزيمة مقاومته، ولا بد انه فهم بسرعة لأنه سرعان ما اخذ يتراجع ، وقال في مرح :

ـ لم أفكر ابداً بوضع هذا المشروع موضع تنفيذ. كنت أفكر في استخدامه لإضافة بيرون . » وأضاف مؤنباً : « ان نجاح هذه الجريدة يجب ان يهمك مع ذلك : ضاعف الطبع ، فيتضاعف أنصارك ! » .

فقال روبير :

ـ اعرف . لكني أكرر عليك بأن خطأ بيرون ولوك الوحيد هو انهما اصرا على العمل بموارد مالية محدودة جداً. وفي اليوم الذي ستكون فيه وراءهما الأموال التي وضعتها في كرم عظيم تحت تصرفهما ، سترى الفرق .

فقال تراريو مبتسماً :

ـ بالتأكيد . لأنهما سيرغمان في الوقت نفسه الذي يقبلان فيه الأموال على قبول سامازيل .

فتصلب وجه روبير : « عفواً ! لقد قلت لي في نيسان انك على استعداد لدعم « الأمل » دون شرط » .

ولاحظت سامازيل من طرف عيني : لم يكن يبدو محرجاً مطلقاً . وكانت زوجته تبدو معذبة السحنة ، لكنها كانت تبدو هكذا دوماً . وقال تراريو :

ـ لم أقل هذا . لقد قلت ان ادارة الجريدة سياسياً تعود إلى المسؤولين عن « الاشتراكي الثوري الحر » ، وانني لن أتدخل فيها . ولم نبحث أي شيء آخر .

فقال روبير بصوت مستنكر :

ـ لأنه لم يكن هناك شيء آخر يبدو انه بحاجة إلى بحث. لقد وعدت بيرون باستقلاله التام ، وايماناً منه بهذا الوعد جازف تلك المجازفة الكبيرة بدمج «الأمل»

بـ « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال تراريو في ود :

ـ أقرّ بأنه يحق لي ألا اعتبر نفسي ملزماً بوعودك . على كل حال لا أرى لماذا سيرفض بيرون هذه العملية . ان سامازيل صديقه .

فقال روبير في حدة :

ـ ليست هذه هي المسألة . إذا تصور اننا تآمرنا خلف ظهره لنضعه امام الأمر الواقع ، فسوف يتعنت . وانا افهمه .

كان يبدو انه مغتاظ جداً ، وكذلك كنت انا . خاصة انني أعرف عواطف هنري تجاه سامازيل . وقال تراريو :

ـ انا ايضاً متعنت .

فقال روبير :

ـ ان وضع سامازيل سيكون دقيقاً جداً إذا دخل إلى « الأمل » رغم ارادة بيرون .

فقال سامازيل :

ـ انا موافق تماماً ! يقيناً ، انني اعتقد انه بامكاني تماماً ، في ظروف أخرى ، ان احاول اعطاء انطلاق جديد لصحيفة على وشك الأفول . لكن ابداً لن اقبل بأن أفرض على بيرون رغم إرادته .

فقال تراريو بصوت ساخر :

ـ اعذراني إذا كنت أنظر إلى هذه القضية على انها شخصية إلى حد ما . » ووجه كلامه لسامازيل : « انني لا اريد تحقيق ربح مالي . لكن ارفض كل الرفض ان أضحي بالملايين من اجل لا شيء : انني اريد نتائج . وسواء رفض بيرون التعاون معك او رفضت انت التعاون معه ، فانني انسحب . انني لا أسير ابداً في مشروع إذا كنت اعتقد ان مآله إلى الفشل » . وختم كلامه في جفاء : « هذه وجهة نظر تبدو لي سليمة . وعلى كل حال ما من شيء سيجعلني أغيّرها» .

فقال سامازيل :

– يبدو لي ان من العبث النقاش ما دمت لم تكلم بيرون . انني مقتنع انه سيعمل ما بوسعه . بعد كل شيء ، ان مصلحتنا جميعاً واحدة : نجاح الحركة .

وقال تراريو لروبير :

– نعم ، يقيناً سيفهم بيرون ضرورة القيام ببعض التنازلات ، خاصة إذا الححت لإفهامها إياه .

فهز روبير كتفيه وقال : « لا تعتمد علي » .

واستمرت المناقشة بعض الوقت بلا جدوى . وعندما وجدنا أنفسنا ثانية عند اسفل الدرج ، بعد نصف ساعة ، قلت :

– انها لكريهة الرائحة ، هذه القصة ! ماذا قال لك على الضبط ، تراريو ، في نيسان ؟

فقال روبير :

– لم نتكلم إلا عن المظهر السياسي من القضية .

– ووعدت هنري بالمزيد ؟ لقد تعجلت قليلاً !

فقال روبير :

– ربما . لو ترددت اقل تردد ، لما قرر . اننا مرغمون على التعجيل من حين لآخر ، وإلا ما فعلنا شيئاً ابداً .

فسألت :

– لماذا لم تضع تراريو امام الأمر الواقع ؟ اما ان يفي بوعوده دون شرط ، واما الشقاق ، فتفصله من « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال روبير :

– ثم ماذا ؟ افترض انه اختار الشقاق ؟ في اليوم الذي يحتاج فيه هنري إلى مال ، إلامَ سيصير اليه ! » وتابعنا السير في صمت وقال روبير فجأة : « إذا خسر هنري هذه الجريدة بسببي ، فلن أغفر ذلك لنفسي أبداً » .

كنت أرى ثانية ابتسامة هنري ، ليلة النصر . لقد سألته : « أنت لا تريد أن تغطس في الحمام – ليس بشكل جنوني » . لقد كلفه كثيراً ربط « الأمل »

بـ « الاشتراكي الثوري الحر » . كان يحبها . تلك الصحيفة ، كان يحب حريته ولا يحب سامازيل . ولقد كان مقرفاً ما يحدث له . لكن روبير كان يبدو كئيباً جداً إلى حد انني احتفظت بهذه الأفكار في نفسي. وقلت فقط : « لا أفهم ان تكون قد وثقت بتراريو ، انه لا يعجبني مطلقاً » .

فقال روبير في اختصار :

ـ لقد أخطأت ! » وكان يفكر : « سأطلب المال من موفان » .

ـ موفان لن يعطيكه .

ـ سأطلب من آخرين . أشخاص يملكون مالاً ، يوجد منهم الكثير . ولا بد أن يوجد بينهم من يقبل .

فقلت :

ـ يبدو لي انه ليقبل الانسان فلا بد ان يكون مليونيراً وعضواً في « الاشتراكي الثوري الحر » انهاهذه تركيبة فريدة بالاحرى .

فقال روبير :

ـ سأسعى . وفي الوقت نفسه سأؤثر على تراريو بواسطة سامازيل . ان سامازيل لا يستطيع ان يقبل بأن يُفرض فرضاً .

فقلت :

ـ هذا لا يبدو لي انه يحرجه كثيراً . » وهززت كتفي : « حاول على كل حال » .

وقابل روبير موفان في اليوم التالي : وقد اهتم موفان بالأمر لكنه لم يعد بشيء . وقابل روبير أناساً آخرين لم يهتموا مطلقاً . كنت قلقة جداً ، وكانت هذه القصة تقبض قلبي . ولم أكن أحدث روبير عنها لأنني اتجنب بقدر الامكان أن اكون من هاتيك النساء اللواتي يضاعفن هموم الرجل بمشاركتهن فيها ، لكني كنت أفكر فيها في كل لحظة . وكنت أقول في نفسي : « كان على روبير ان لا يفعل ذلك » . فكرة غريبة : ماذا تعني على الضبط ؟ كان يقول ان مسؤولياته تبدو له اثقل وحاسمة اكثر من الماضي لانه لم يعد يستطيع ان يستخدم المستقبل

كبديل : لهذا كان يستعجل الوصول اكثر من الماضي ، وكان هذا يجعله أقل وساوس . لم اكن أحب هذه الفكرة . فعندمـــا يعيش انسان بقرب آخر كما أعيش أنا بقرب روبير ، فإن الحكم عليه يعني خيانته .

وعاد لامبير ونادين بعد بضعة أيام . ولقد كانت هذه العودة بالنسبة لي تسلية سعيدة . كانا مسمرين ، ضاحكين ، محرجين كعريس وعروس جديدين . وكان لامبير يقول :

– ستكون نادين كاتبة ريبورتاج من الطراز الأول . اما بخصوص الدخول إلى أي مكان ودفع أي كان إلى الحديث ، فهي مخيفة .

فقالت نادين موافقة وهي تتغطرس :

– انها لمضجرة احياناً هذه المهنة .

لكن مصدر كبريائها الاول هو انها اكتشفت ، اثناء رحلتها ، على بعد ثلاثين كيلومتراً من باريس ، المنزل الريفي الذي كنت أحلم به بلا جدوى منذ عدة اسابيع .ولقد أحببت فوراً الواجهة الصفراء بمصاريعها الزرق والارض المعشوشبة، والجناح الصغير ، والورود البرية . وقد أغري به روبير هو الآخر ووقعنـا عقد الايجار . كان داخل المنزل خرباً ، والممرات مغزوة بالقراص . لكن نادين اعلنت انها ستتولى اعادة كل شيء الى حالته . وفجأة اخذت تمل من وظيفتها كسكرتيرة ، وتركتها بعد مدة لبديلتها ، وذهبت لتخيم مع لامبير في الجناح : كانا يوزعان وقتهما بين تحرير كتابهما ، والبستنة ، والتصوير الحائطي . وكان لامبير ، بجلده البرونزي ، ويديه المتعبتين من مقود دراجته ، وشعره الذي كانت نادين تشعثه دوماً ، يبدو أقل افراطاً في الاناقة من الماضي ، على كل حال لم يكن يشبه مطلقاً عاملاً يدوياً . لكنني كنت مرغمة على الوثوق بهما .

كانت نادين تعود من حين لآخر إلى باريس ، ولكن في عشية رحيلنـــا إلى مقاطعة « اوفيرني » فقط سمحت لنا بالمجيء إلى سان مارتان . وبواسطة الهاتف ، دعتنا في أبهة إلى العشاء :

– قولي لبابا انه ستكون هناك مايونيز ، انها اختصاص لامبير .

لكن روبير رفض الدعوة ، وقال في أسف : « عندما يراني لامبير ، يعتقد انه مرغم دوماً على مهاجمتي ، وأنا مضطر إلى اجابته ، وهذا يزعج الجميع وأنا أولهم » .

والواقع ان لامبير يبدو عدائياً دوماً عند حضوره .

كان الناس الذين لا يعتقدون انهم مرغمون على اتخاذ موقف لأنفسهم تجـاه روبير قليلين جداً . وفكرت : « في الحقيقة ، كم هو وحيد ! » . ما كانوا ليحدثوه هو نفسه ، بل شخصاً متصنعاً ، بعيداً ، بلا حقيقة ، لا يملك شيئاً مشتركاً مع ذاته إلا اسمه . وكان ، وهو الذي أحب كثيراً في الماضي الانغمار الغفل في الجمهور ، لا يستطيع ان يمنع ان يخلق اسمه حاجزاً بينه وبين الآخرين : كان الجميع يذكرونه به ، بدون شفقة . والانسان الذي من لحم وعظم الذي كان روبير حقاً ، بضحكاته ، وحنانه ، وغضبه ، وأرقه ، لم يكن أحد يبالي به . وفي لحظة ذهابي لركوب الاتوبيس ، ألححت على كل حال ان يأتي معي . فقال :

ــ أؤكد لك ان السهرة ستكون غير لطيفة اذا جئت . لاحظي انني ، أنا ، لا أشعر بنفور من لامبير .

فقلت :

ــ مع نادين ، يحسن التصرف . انها المرة الاولى التي تقبل فيها ان تعمل بالتعاون مع شخص ما .

فابتسم روبير : « هي التي تحتقر الأدب كثيراً ، ما أعظم فخرها بأن ترى اسمها مطبوعاً ! » .

فقلت :

ــ هـذا افضل ! فهـذا يشجعها على الاستمرار . انه تماماً نوع العمل الذي يوافقها .

وحطت يد روبير على كتفي : « ها أنت قد اطمأننت قليلاً على مصير ابنتك؟ » .

ــ نعم .

فقال روبير في حدة :

– إذن ، ماذا تنتظرين لتكتبي إلى روميو ؟ لم يعد لك أي حق بالتردد .

فقلت في سرعة :

– من الآن حتى كانون الثاني ، يمكن أن تحدث أشياء كثيرة .

كان روميو يطالب بهذا الجواب في إلحاح ، لكن كنت خائفة من أن أقول نعم او لا نهائياً . وقال روبير :

– إسمعي ، انت ترين جيداً ان نادين تتدبر أمرها على أحسن وجه بدونك . على كل حال ، لقد قلت لي ذلك غالباً ، ما من شيء يقيدها أكثر من ان تتعلم ان تستغني عنا .

فقال بدون اندفاع :

– هذا صحيح .

فتفرس روبير في وجهي في حيرة : « اخيراً ، أأنت راغبة في القيام بهذه الرحلة ، ام لا ؟ » .

فقلت :

– بالتأكيد !» وسرعان ما تملكني الذعر : « لكني لست راغبة في مغادرة باريس . لست راغبة في تركك » .

فقال في حنان :

– ما ابلهك ، يا بلهائي الصغيرة . عندما تتركينني ، تجدينني عند عودتك كما كنت . » وأضاف ضاحكاً : « بل لقد اعترفت لي بأنك لم تفتقري إليّ » .

فقلت :

– في الماضي . اما الآن ، مع تلك الهموم التي تحملها على ذراعيك ، فهذا يقلقني .

فنظر إليّ روبير نظرة جدية : « انت تقلقين كثيراً . البارحة بخصوص نادين ، واليوم بسببي . لقد أصبح هذا عادة ، كلا » .

فقلت :

– ربما .

– يقيناً! انت مصابة بعصاب السلم الصغير. لم تكوني هكذا في الماضي مطلقاً.

كانت ابتسامة روبير حنوناً . لكن فكرة ان غيابي يمكن ان يزعجه كانت تبدو له من اختراع عقل مريض . انه يستطيع ان يستغني عني تماماً مدة ثلاثة أشهر ، على الأقل مدة ثلاثة اشهر . ان هذه العزلة التي يحكم بها عليه إسمه ، وعمره، وموقف الناس ، لم اكن استطيع إلا ان أشاركها ، لا ان ألغيها . وهي لن تثقل عليه لا أكثر ولا اقل إذا لم أشارك فيها . وقال روبير :

– اطردي كافة وساوسك ! أسرعي بكتابة تلك الرسالة . وإلا فإن هذه السفرة ستفلت من يديك .

فقلت :

– سأكتبها عند عودتي من سان – مارتان ، إذا كان كل شيء على ما يرام حقاً .

فقال روبير بصوت آمر :

– حتى ولو لم يكن كل شيء على ما يرام .

– سنرى . » وترددت : « إلى اين وصلت مع موفان ؟ » .

– لقد قلت لك : إنه راحل في إجازة . سيعطيني جوابه النهائي في تشرين الأول . ولكنه وعدني عملياً بالمال . » وابتسم روبير : « هو ايضاً ، يود لو يبقى إلى جانب اليسار » .

– أوعد حقاً ؟

– نعم . وعندما يعد موفان ، يفي .

فقلت :

– هذا يزيح عن قلبي ثقلاً !

لم يكن موفان متقلباً . وشعرت بالاطمئنان حقاً . وسألت : « ألا زلت غير عازم على الحديث مع هنري عن الأمر ؟ » .

– ما الفائدة ؟ ماذا يستطيع ان يفعل ؟ انا الذي وضعته في هذا المأزق ، وعليّ ان أخرجه منه . » وهز روبير كتفيه : « ثم انني أخشى ان يتملكه الغضب

وان يترك كل شيء . كلا ، سأحدثه عندما احصل على المال » .

فقلت :

– حسناً .

ونهضت . ونهض روبير ايضاً وابتسم لي : « كفـّي عن القلق وامضي سهرة طيبة » .

– سأبذل جهدي .

كان روبير على حق بالتأكيد . ان هـذا القلق الذي لا يعرف على اي شيء ينصب ، يعود تاريخه إلى التحرير . كنت ، ككثيرين غيري ، أجد صعوبة في التلاؤم ثانية . ان سهرة سان – مارتان لن تأتيني بشيء جديد . لم أكن أتردد في اجابة روميو ، لا بسبب نادين ، ولا بسبب روبير . فقلقي لم يعد يتعلق بأحد غيري . وطوال رحلة الاوتوبيس كنت أتساءل ما إذا كنت سأغض النظر ام لا في النهاية . ودفعت بوابة الحديقة . كانت المائدة منصوبة تحت شجرة الزيزفون ، وكان ضجيج أصوات يأتي من البيت . ودخلت مباشرة إلى المطبخ . كانت نادين واقفة بجانب لامبير الذي كان يخفق حانقاً مرقة سائلة ، وقد عقد فوطة حول عنقه . وقال لي في مرح :

– لقد وصلت في ذروة المأساة ! لقد فشلت المايونيز !

وقال لامبير في سحنة متجهمة :

– صباح الخير . نعم ، لقد فشلت ، انا الذي لا يفشل فيها ابداً !

فقالت نادين :

– اقول لك انه يمكن ان تُصلح ، تابع .

– كلا ، لقد فسدت !

– انت تخفقها بقوة اكثر مما ينبغي .

فكرر لامبير غاضباً :

– أقول لك انها فسدت .

فقلت :

ـ آه ! سأريك كيف تصلح المايونيز .

ورميت إلى القمامة بالمرقة الفاسدة وناولت لامبير بيضتين جديدتين : « تدبّر أمرك » .

فابتسمت نادين . وقلت بلهجة لا محاباة فيها : « عندك احياناً افكار طيبة » . واخذت ذراعي : « كيف حال بابا ؟ » .

ـ اوه ! انه بحاجة ماسة إلى اجازة !

فقالت نادين :

ـ عندما ستعودان من جولتكما حول فرنسا ، يكون البيت قد انتهى . تعالي انظري كيف اشتغلنا جيداً .

كانت غرفة الجلوس المستقبلة ، وهي مزحومة بالسلالم ودلاء الدهان ، كئيبة كآبة الورشات . لكن جدران غرفتي كانت مطلية بملاط وردي رمادي، وغرفة روبير بلون احمر شاحب . وقد كان عملاً مناسباً جداً .

ـ هذا رائع . من فعله : هو ام انت ؟

فقالت لي في سيماء متألقة :

ـ كلانا . انا أعطي الأوامر ، وهو ينفذ . انه يكدّ في العمل . وهو مطيع جداً .

فضحكت : « هذا يناسبك تماماً » .

كانت نادين بحاجة إلى ان تأمر كي تشعر بالثقة : فعندما تهتم بأن تطاع أوامرها ، تكفّ عن التساؤل . وكان يستهويها ان تمثل دور ربة البيت . ووضع لامبير ، بين آنية السلطة وصحاف اللحم البارد ، زبدية كبيرة من المايونيز اللزجة والجامدة . وافرغنا ، تحت بصر نادين ، زجاجة نبيذ ابيض . وكانا يرويان لي في حماسةٍ مشاريعها : اولاً بلجيكا ، وهولاندا ، والدانمرك ، وكافة البلدان المحتلة ، ثم سائر اوروبا . وقال لامبير :

ـ تصوري انني كنت عازماً على التخلي عن الريبورتاج . بدون نادين ، كنت تخليت عنه بالتأكيد . على كل حال ، انها اكثر موهبة مني ، وعما قريب

لن تعود راغبة في ان ارافقها .

فزفرت :

ـ لهذا لا تريد أن تتركني اقود دراجتك القذرة . مع ان قيادتها ليست صعبة !

ـ ليس من الصعب ان تدقّي عنقك ، ايتها المجنونة .

كان يبتسم لها من اعماق روحه . لقد كانت تتمتع في نظره بمزية لا أدركها ، حتماً . فلم أكن اعرفها إلا تحت مظهر واحد : ابنتي . ان لها ، بالنسبة لي ، بُعدين فقط ، انها مسطحة . وفتح لامبير زجاجة ثانية من النبيذ الابيض . لم يكن يعرف كيف يشرب مطلقاً . كانت عيناه قد أخذتا تلتمعان ، وخدّاه قد احمرّا ، وقليل من العرق يتلألأ على جبينه . وقالت نادين :

ـ لا تشرب كثيراً .

ـ آه ! لا تمثلي دور أم العائلة . أتعرفين ماذا يحدث عندما تمثلين دور أم العائلة ؟

فتصلّب وجه نادين : « لا تفه بحماقات » .

فخلع لامبير سترته : « اشعر بحر شديد » .

ـ ستضر بصحتك .

ـ انني لا اضر بصحتي ابداً . » والتفت نحوي : « نادين لا تريد ان تصدق ذلك : انني لست شديد البأس : لكنني استطيع المقاومة كثيراً . وانا واثق انني استطيع في بعض الحالات ان أتحمل أكثر مما يستطيع مدرب من «جوانفيل[1]» .

فقالت نادين في مرح :

ـ سنرى هذا عندما سنعبر الصحراء على الدراجة النارية !

فقال لامبير :

ـ سنعبرها ! ان الدراجة تستطيع ان تمر في كل مكان ! » ونظر إليّ : « أتعتقدين اننا لا نستطيع ان نفعل ذلك ؟ » .

---

١ ـ مدينة فرنسية فيها مدرسة عليا للتربية البدنية . « المترجم »

فقلت :

ـ ليس عندي فكرة .

فقال في حزم :

ـ على كل حال ، سنحاول . يجب ان نحاول فعل أشياء ! ليس كوننا مثقفين سبباً لأن نعيش داخل بيوتنا .

فقالت نادين ضاحكة :

ـ اعدك. سنعبر الصحراء وهضاب التيبت، وسنذهب لاستكشاف ادغال الأمازون . » وأوقفت اليد التي كان لامبير يمدها نحو الزجاجة : « كلا ، لقد شربت بما فيه الكفاية » .

ـ مطلقاً . » ونهض ومشى خطوتين : هل أترنح ؟ توازن مدهش » .

فقالت نادين :

ـ حاول ان تشعبذ .

فقال لامبير :

ـ الشعبذة ، احد اختصاصاتي . » وامسك ثلاث برتقالات ، ورماها في الهواء ، وافلتت منه واحدة، وتسطّح بطوله كله على الأرض المعشوشبة .وأخذت نادين تضحك ضحكتها الغليظة الفظة . وقالت في حنان :

ـ يا له من احمق ! » وبطرف مئزرها ، مسحت الجبين الراشح للامبير الذي تركها تفعل في سياء من سعادة . وقالت : « صحيح انه يملك مواهب اجتماعية . انه يغني أغنيات ظريفة للغاية ! أتريدين ان يغني لك واحدة ؟ » .

فقال لامبير في حزم :

ـ سأغني لك « قلب الخنزير » .

كانت نادين تضحك حتى اغرورقت عيناها بالدموع بينما كان يغني . وكنت ، انا ، اجد في مرح لامبير غلاظة محزنة تقريباً . كان كأنه يحاول بانتفاضات خرقاء ان ينتزع نفسه من جلده ، لكنه كان لاصقاً بجسده . كانت تكشيرته ، وصوته المهرج ، والعرق الذي يسيل على خديه ، وحمى عينيه القلقة ، تشعرني بالحرج .

ولقد سررت عندما انهـــار على قدمي نادين التي كانت تداعب رأسه في امتلاك وسعادة . وكانت تقول :

– انت صبي صغير طيب . إهدأ الآن . استرح !

كانت تحب ان تمثل دور الممرضة، وكان هو يسرّ بالملاطفة . وكان لديهما اشياء كثيرة مشتركة : ماضيهما ، شبابهما ، كراهيتهما للأفكار والكلمات ، احلامهما المغامرة ، آمالهما المبهمة. لعلهما سيعرفان كيف يتبادلان الثقة ، ويخترعان لنفسيهما مشاريـع ، نجاحات ، سعادة . تسعة عشر عاماً ، وخمسة وعشرون عاماً : انـ المستقبل لفي عنفوان الشباب ! وهما ليسا ممن بقوا على قيد الحياة. وكنت أفكر: « وانا ؟ هل دفنت حقاً حية في الماضي ؟ » . وأجبت في حماسة : « كلا ، كلا !». ان نادين ، وروبير ، يستطيعان ان يستغنيا عني . لم يكونا إلا ذريعة ، وكنت ضحية جبني وحده ، وفجأة بدأت اشعر بالخجل بسببه . طائرة تحملني ، مدينـــة ماردة ، وطوال ثلاثة أشهر لا شعار إلا ان أتثقف وألهو : هذا القدر الكبير من الحرية ، هذا القدر الكبير من التجديد ، كم كنت أتمناهما ! كان بـلا شك تهوراً جنونياً ان أذهب لأتيه في عالم الأحيـاء ، انا التي صنعت لنفسي عشاً تحت اغصان الآس : ليكن ! وكففت عن حماية نفسي ضد ذلك الفرح الذى كانـ يصعد . نعم : هذا المساء بالذات سأجيب نعم . ان البقاء على قيد الحياة يعني ، بعـد كل شيء ، معاودة الحياة دون انقطاع . وكنت آمل انني لا أزال قادرة على ذلك .

الفصل الخامس

تغلب هنري على لوحه الخشبي . كانت الريح تهب من خلال الجدران المبنية من الحصى . وعلى الرغم من غطائه و كنزاته ، كان يشعر ببرد شديد يمنعه من النوم . كان رأسه وحده دافئاً يطن، و كأنه مصاب بالحمى: لعله مصاب بها. حمى لذيذة سببها الشمس ، والتعب ، والنبيذ الأحمر . اين هو على الضبط ؟ على كل حال في مكان لا يفكر اي انسان بأن يكون فيه: هذا مريح جداً، لا تأسفات، لا أسئلة : ان هذا الأرق هادىء كنوم بلا احلام . كان قد تخلى عن كثير من الأشياء، ولم يعد يكتب ، ولم يعد يلهو يومياً ، لكن ما ربحه بالمقابل ، هو ان شعوره اصبح خاصاً به ، و كان هذا شيئاً عظيماً ، بعيداً عن الأرض ومشاكلها ، بعيداً عن البرد ، والريح ، وجسده المتعب ، كان يعوم في حمام من البراءة : انها يمكن ان تكون مسكرة كاللذة ، البراءة . ورفع للحظة جفنيه . وإذ رأى الطاولة القائمة ، والشمعة ، وذلك الرجل الذي يكتب ، فكر في رضى: «لكأنني في العصر الوسيط ! » واطبق الليل على هذا الوهم الفرح .

– ألم أحلم ؟ أرأيتك حقاً هذه الليلة وانت تكتب ؟

فقال دوبروي :

– لقد اشتغلت قليلاً .

– حسبتك الدكتور فاوست .

كانا جالسين على عتبة الملجأ ، متدثرين بأغطيتهما التي كانت الريح تضربها .

كانت الشمس قد أشرقت اثناء نومها وكانت السماء زرقاء تماماً ، لكن تحت اقدامها كانت تمتد هضبة من الغيوم . وكانت الريح ، من لحظـة لأخرى ، تمزقها ، فتبين قطعة من السهل .

وقالت آن :

ـ انه يشتغل يومياً . اما الديكور فهو لا يبالي به : قد يكون في اصطبل ، تحت المطر ، في ساحة عامة ، لكن لا بد له من ساعاته الكتابية الأربع . وبعد ذلك ، يفعل كل ما يطلب منه .

فقال دوبروّي :

ـ وماذا تطلبان الآن ؟

ـ اعتقد اننا نفعل حسناً إذا نزلنا . اننا نستطيع ان نجـد مشهداً افضل من هذا .

وهبطوا عبر منابت الخلنج حتى القرية السوداء حيث كانت عجائز ، جالسات على عتبات بيوتهن ، وعلى ركبهن وسادات شائكة بالدبابيس ، قد أخذن يحركن مغازلهن . وشربوا شراباً اسود في الحانة ـ دكان العطارة حيث كانوا قد تركوا دراجاتهن ، ثم امتطوها . كانت عبارة عن آلات قديمة اتعبتها الحرب ، لا تتظاهر بما ليس فيها . كان الدهان متقشراً ، ومانعات الوحل متشققة والدواليب منتفخة بأورام غريبة . وكانت دراجة هنري تعاند في الجري كثيراً حتى انه تساءل في قلق ما إذا كانت ستقاوم حتى المساء . ورأى في اطمئنان الزوجـين دوبروي يتوقفان عند ضفة ساقية كانت هي نهر اللوار بعينه . كان الماء أبرد من ان يمكن الاغتسال فيه ، لكنه رش به نفسه من رأسه إلى قدميه ، وعندما امتطى دراجته ثانية ، تبين بعد كل شيء ان دولابيها يدوران : في الحقيقـة كان جسده هو الصديء اكثر من اي شيء آخر . وإعادته إلى حالته الطبيعية تتطلب شغـلاً حقيقياً . ولكن بعد ان تغلب هنري على التشنجات الأولى ، شعر انه سعيد تماماً لأنه أراح هذه الأداة الطيبة للغاية . كان قد نسي كم يمكن أن يكون نافعاً ، الجسد . وكانت السلسلة والدولابان تضاعف جهـده ، ولكن اخيراً كان المحرك

الوحيد في هذا الجهاز الآلي كله عضلاته ، لهاثه ، قلبه : وكانت الآلة تلتهم وجبة محترمة من الكيلومترات ، وتتسلق التلال ببسالة .

وقالت آن :

– لكأن هذا بعض .

كانت تبدو ، بشعرها الذي تلعب به الريح ، وجلدها الذي لفحته الشمس ، وذراعيها العاريتين ، أصغر سناً بكثير مما كانت عليه في باريس . وكان دوبروي ايضاً قد اسمر ، ونحف . وكان يبدو ، ببنطلونه القصير ، وساقيه الباردة عضلاتها ، والغضون المحفورة في وجهه الملوح ، أشبه بتلميذ من تلامذة غاندي . وقال هنري:

– اليوم أفضل من البارحة !

وابطأ دوبروي واخذ يسير بجانب هنري وقال في مرح :

– يجب ان نقول ان البارحـــة لم تكن على ما يرام . لم تروِ لنـــا شيئاً . ماذا حدث في باريس منذ رحيلنا ؟

فقال هنري :

– لا شيء خاصاً . كان الحر شديداً . يا إلهي ! ما كان اشد الحر !

– وفي الجريدة ؟ ألم ترَ تراريو بعد ؟

كان في صوت دوبروي فضول شره للغاية حتى انه كان يشبه القلق .

– كلا . لقد وضع لوك في رأسه فكرة وهي أننا اذا قاومنا شهرين او ثلاثة ، فسوف نخرج من المشكلة بفردنا .

– هذا يستحق المحاولة . لكن يجب ألا تستقرضوا المزيد .

– اعرف ، إننا لم نعد نستقرض . ان لوك يفكر بالاعتماد على الاعلان .

فقال دوبروي :

– اعترف بأنني ما كنت أتوقع ان ينخفض توزيـع « الأمل » إلى هذا الحد .

فقال هنري مبتسماً :

– اواه ! اتعرف ، إذا لم يكن هناك مفر من قبول رؤوس أموال تراريو في النهاية، فإنني لن اجعل من ذلك مرضاً. ليس هذا ثمناً غالياً لنجاح « الاشتراكي

الثوري الحر » .

فقال دوبروي :

ـ الواقع ان مقدار ما حققه من نجاح ، يعود الفضل فيه اليك .

كان صوته أكثر تحفظاً ايضاً من عباراته . لم يكن راضياً عن « الاشتراكي الثوري الحر » : ذلك لأنه كان كثير الطموح . ولم يكن من الممكن ان تخرج من التراب ، بين عشية وضحاها ، حركة كبيرة كالحزب الاشتراكي القديم . وكان هنري على العكس قد فوجيء على سعادة منه بنجاح المهرجان . انه لا يثبت شيئاً كبيراً ، المهرجان : هذا لا يمنع انه لا ينسى بسرعة تلك الوجوه الخمسة الآلاف المرفوعة نحوه . وابتسم لآن :

ـ إن للدراجة سحرها . انها ، بمعنى ما ، افضل حتى من السيارة .

كانت سرعتهم قــد تضاءلت . لكن روائح العشب ، والخلنج ، والصنوبر ، وعذوبة الهواء أو رطوبته كانت تتغلغل حتى عظامك . وكان المشهد أكثر بكثير من مجرد ديكور : كانوا يقتحمونــه قطعة قطعة ، بحيوية عظيمة . ففي تعب الصعود ، وغبطة الهبوط ، كانوا يعانقون جميع عوارضه ، ويعيشونه بدل ان يتأملوه كمشهد . وما اكتشفه هنري في رضى في ذلك اليوم الأول ، هو ان هذه الحياة تكفي للملئك : يا له من صمت في رأسه ! كانت الجبال ، والمروج ، والغابات تتولى الحيـاة مكانه . وكان يقول في نفسه : « ما أندره هذا الهدوء الذي يختلط بالنوم ! » .

وعند المساء قال لآن :

ـ لقد اخترت زاوية طيبة ، انه لمشهد جميل .

ـ غداً ايضاً ، سيكون يوماً طيباً . هل تريد ان ترى على الخارطة مرحلة الغد؟

كانوا يشربون ، في النزل الذي جاؤوا إليــه للعشاء ، خمراً ابيض ، حريف الطعم . وكان دوبروي قد وضع أمتعته على زاوية طاولة مغطاة بقماش مشمع .

وقال هنري :

ـ أرني .

وتبع بعينيه في وداعة طرف القلم على طول الخطوط الحمر، والصفر، والبيض:
ـ كيف تستطيعين ان تختاري بين هذه الطرق الصغيرة كلها ؟
ـ هذا ما يسلي .

وفكر هنري في اليوم التالي : ما يسلي هو ان ترى كيف ينطبق المستقبل تماماً على مشاريعك : كل منعطف ، كل صعود ، كل نزول ، كل قرية ، كانت في المكان المتوقع . يا له من أمان ! ان المرء ليشعر انه يرشح من ذاته بقصته ، ومع ذلك ، فإن تحول الاشارات المرسومة إلى طرق حقيقية، إلى منازل حقيقية، يعطيك ما لا يعطيكه أي خلق : الواقع . فهذا الشلال ، كان معلناً عنه على الخارطة بعلامة زرقاء : لم يكن هذا أقل مدعاة للذهول من رؤية هذا الشلال المزبد الضخم في أعماق مضيق ملتوٍ . وقال هنري :
ـ كم يسر الانسان بالنظر .

فقال دوبروي في أسف :
ـ نعم ، كل ما هنالك اننا لا نشبع . ان لمحة العين تعطي كل شيء ولا شيء في آن واحد .

لم يكن ينظر إلى شيء . لكن عندما كان يؤخذ بشيء ما ، كان لا يشبع منه في الواقع . واضطر هنري وآن إلى الهبوط وراءه ، من صخرة إلى صخرة عند سفح الجرف المائع . وتقدم حافي القدمين في الحوض الفائر إلى ان بلغ الماء أسفل بنطالة القصير . وعندما عاد ليجلس على حافة الحوض ، قال في حزم :
ـ انه أجمل شلال رأيناه على الاطلاق .

فقالت آن ضاحكة :
ـ انت تفضل دوماً ما هو تحت عينيك .

فقال دوبروي :
ـ انه اسود وابيض كله ، هذا ما هو جميل . لقد بحثت عن اللون : لا أثر للون . وللمرة الأولى في حياتي رأيت ان الأسود والابيض شيء واحد بالضبط . »
وقال لهنري : « عليك ان تدخل في الماء وان تذهب حتى تلك الصخرة الكبيرة .

ستتبين ذلك جيداً : سواد الابيض ، وبياض الأسود ، ستراهما . » .

فقال هنري :

— إني أصدقك تماماً .

كانت نزهة ما على الأرصفة تصبح في فم دوبروي مقامرة حقيقية كبعثة إلى القطب الشمالي ، وكان هنري وآن يضحكان لذلك معاً ، أغلب الأحيان : ذلك انه لم يكن يميز بين الادراك والكشف ، فما من عين قبله قد تأملت شلالاً ، وما من أحد يعرف ما الماء ، ما السواد ، ما البياض ، ولو ترك هنري لنفسه لما لاحظ يقيناً هذه التفاصيل كلها عن ألعاب البخار والزبد ، هذه التحولات ، هذه التلاشيات ، هذه الدوامات الصغيرة التي كان دوبروي يتفحصها وكأنه يريد ان يعرف مصير كل قطرة ماء . وكان هنري يفكر وهو ينظر اليه في حب : « يمكن ان أغضب منه ، لكن لا يمكن ان أستغني عنه » . كان كل شيء ، إلى جانبه يصبح هاماً ، وكانت الحياة تبدو امتيازاً عظيماً ، وكانت حياة مضاعفة. ان هذه الرحلة عبر الريف الفرنسي ، كان يحولها إلى رحلة استكشاف .

وقال هنري وهو يبتسم لدوبروي الذي كان يتأمل في استغراق آخر تعرجات مغيب الشمس :

— ستدهش كثيراً قراءك .

فقال دوبروي بذلك الصوت المستنكر الذي يتكلم به عندما يحدثونه عن نفسه :

— ولماذا ؟

— يخيل لمن يقرأ كتبك انه لا يهمك غير الناس ، وان الطبيعة لا قيمة لها .

— ان الناس يعيشون في الطبيعة ، أليس كذلك ؟

ان منظراً ما ، او صخرة ، او لوناً هي ، بالنسبة لدوبروي ، حقيقة انسانية معينة . لم تكن الأشياء لتؤثر عليه ابداً من خلال الذكريات والأحلام ، والاعجاب بالذات ، ولا بالانفعالات التي يمكن ان تثيرها فيه ، إنما بذلك المعنى الذي يستشفه فيها . وبالطبع ، انه ليفضل ان يقف امام فلاحين يقطعون الأعشاب

النابتة بعد الحصاد على ان يقف امام مرج عارٍ . وعندما كان يجتاز قرية كان فضوله يصبح غير قابل للشبع . كان يود لو يعرف كل شيء : ماذا يأكل اولئك القروبون ، كيف ينتخبون ، تفاصيل أعمالهم ، لون أفكارهم . وكان يجد اي ذريعة ليدخل إلى مزرعة : كأن يشتري بيضاً ، او يسأل قدح ماء . وعندما يستطيع ، يخوض في محادثات طويلة .

وفي مساء اليوم الخامس ، انبعج اطار دراجة آن وسط منحدر . وبعد ساعة من المسير ، صادفوا منزلاً منعزلاً تسكنه ثلاث نساء صبايا متساقطات الأسنان . وكانت كل منهن تحمل بين ذراعيها طفلاً متفاوت العمر ، قذراً جداً . وجلس دوبروي وسط الباحة المغطاة بالزبل ليصلح الاطار ، وبينما كان يلصق المطاط ، كان ينظر حوله في شراهة :

– ثلاث نساء ولا رجل ، هذا غريب ، أليس كذلك ؟

فقالت آن :

– الرجال في الحقول .

– في مثل هذه الساعة ؟

وغطس في الوعاء الاطار الضخم الذي بلون الصدأ ، وتصاعدت فقاعات هواء إلى سطح الماء : « ثقب آخر ! قولي إذن ، ألا تعتقدين انهن سيتركننا ننام في مخزن الحبوب ؟ » .

– سأذهب لسؤالهن .

واختفت آن داخل المنزل وعادت فوراً تقريباً : « يغضبهن ان ننام على التبن ، لكنهن لا يعارضن . كل ما هنالك انهن مصرات كل الاصرار على ان نشرب شيئاً دافئاً أولاً » .

فقال هنري :

– يعجبني ان أنام هنا ! فما دمت اريد أن أكون بعيداً عن كل شيء ، فانني بعيد عن كل شيء .

وعلى بصيص مصباح مدخن ، شربوا قهوة الشعير وهم يحاولون الحديث .

كانت النساء متزوجات من ثلاثة اخوة يملكون معاً هذه المزرعة القليلة الخصب. وقد نزل رجالهن منذ عشرة ايام إلى « باس – آرديش » حيث يعملون بالاجرة لقطف الخزامى ، وهن يمضين نهارات طويلة صامتة يطعمن الحيوانات والأطفال . كن يعرفن تقريباً الابتسام ، لكنهن نسين تقريباً الكلام . وكانت تنبت هنا أشجار كستناء ، وكانت الليالي رطبة . وهناك كانت تنبت باقات من الخزامى ، وكان جني عدة فرنكات يكلف الكثير من العرق : كان هناك تقريباً كل ما يعرفنه عن هذا العالم . نعم ، انهم بعيدون جداً عن كل شيء ، بعيدون إلى حد ان هنري عندما اندس بين التبن، وقد دوخته هذه الروائح كلها وكل هذه الشمس المخزونة في العشب اليابس ، كان يحلم انه لم تعد توجد لا طرق ، ولا مدن : لا عودة .

كانت هناك طريق تزحف بين أشجار الكستناء وتهبط نحو السهل في تعرجات سريعة . ودخلوا مرحين إلى المدينة الصغيرة التي كانت أشجار الدلب فيها تعلن عن الطقس الحار وعن لعبات الكرة في الجنوب . وجلس آن وهنري على الرصيف المقفر لأكبر مقهى، وطلبا فطائر بينما ذهب دوبروي لشراء صحف . وشاهداه يتبادل بضع كلمات مع البائع واجتاز الساحة في خطى بطيئة، وهو يقرأ. ووضع الصحف على الطاولة ورأى هنري العنوان الكبير : « الأميركان يلقون قنبلة ذرية على هيروشيما » . وقرأوا المقال في صمت . وقالت آن بصوت مضطرب :

– مئة ألف قتيل ! لماذا ؟

ان اليابان ستسلم حتماً ، انها نهاية الحرب . كانت الصحيفتان المحليتان منتشيتين ، لكن ثلاثتهم ما كانوا يشعرون معاً إلا بشعور واحد : الفظاعة . كانت آن تقول :

– أما كانوا يستطيعون قبل ذلك ان يهددوا ، ان يخوّفوا : ان يقوموا بتظاهرة في زاوية مقفرة ، لست أدري . . . أكانوا حقاً مرغمين على القائها ، هذه القنبلة ؟

فقال دوبروي :

– يقيناً انهم كانوا يستطيعون أولاً ان يحاولوا الضغط على الحكومة. » وهز كتفيه : « على مدينة المانية ، على بيض ، انني لأتساءل ما إذا كانوا سيجرؤون ! ولكن على صُفر ! انهم يكرهون الصّفر » .

فقال هنري :

– مدينة اختفت بأكملها ، هذا سيحرجهم على كل حال !

فقال دوبروي :

– اعتقد ان هناك سبباً آخر . انهم مسرورون كل السرور ان يظهروا للعالم مدى قدرتهم : فهكذا يستطيعون ان ينفذوا سياستهم دون ان يجرؤ احد على التململ .

فقالت آن :

– وقتلوا مئة ألف شخص من أجل هذا !

كان الذهول يخيم عليهم أمام قهوة القشدة ، وكان نظرهم مثبتاً بالكلمات الرهيبة ، وهم يرددون الواحد تلو الآخر العبارات اللامجدية ذاتها . وقالت آن :

– يا إلهي ! لو كان الألمان نجحوا في صنع هذه القنبلة ! لقد نجونا منها بجلدنا !

فقال دوبروي :

– لا يعجبني اكثر ان اعلم انها في أيدي الأميركان .

فقالت آن :

– انهم يقولون في هذه الصحف انه يمكنهم نسف الأرض بأكملها .

فقال هنري :

– ما شرحه لي « لارغي » هو ان الطاقة الذرية ، إذا ما حررها حادث مؤسف ، لن تنسف الأرض ، بل ستبيد جوها : سوف تصبح الأرض آنذاك أشبه بالقمر .

فقالت آن :

– هذا ليس مفرحاً اكثر .

كلا ، لم يكن هذا مفرحاً . كل ما هنالك أنهم عندما عاودوا السير على

الطريق المشمس ، فرغ كلامهم المكرر الرهيب من كل معنى . ان مدينة من أربعمئة ألف نسمة تبخرت ، وطبيعة انحلت : هذا لا يوقظ اي صدى . كان ذلك النهار كما يجب ان يكون – السماء زرقاء ، وأوراق الشجر خضراء، والأرض العطشى صفراء – وكانت الساعات تتساب الواحدة تلو الأخرى من الفجر الرطب إلى لظى الظهيرة . وكانت الأرض تدور حول الشمس المربوطة بها ، لا مبالية بحمولتها من المسافرين الذين ليست لهم وجهة معينة : كيف يصدق المرء، تحت هذه السماء الهادئة كالأبدية ، ان هؤلاء المسافرين يمكنهم اليوم ان يحولوها إلى قبر قديم ! لا شك في ان المرء بعد ان يتنزه اياماً في الطبيعة، يتبين انها مجنونة قليلاً . فقد كانت هناك مبالغة في مواكب الغيوم الجامحة ، في تمرد الجبال ومعاركها الساكنة ، في أزيز الحشرات ونمو النباتات العصبي . لكنه كان جنوناً هادئاً وثابتاً . غريب ان يفكر المرء بأن هذا الجنون عندما يجتاز العقل البشري يتحول إلى هذيان قاتل .

وقال هنري عندما جلسوا على ضفة نهر ورأى دوبروي يخرج أوراقه من عدله:

– ولا تزال لك الشجاعة لتكتب !

فقالت آن :

– انه وحش . انه سيشتغل حتى بين أنقاض هيروشيما .

– انه يشتغل بين أنقاض هيروشيما .

فقال دوبروي :

لمَ لا ؟ لقد كانت هناك دوماً انقاض في مكان ما .

وأمسك قلم الحبر ولبث مدة طويلة تائه النظرة في الفراغ. بلا شك ، لم يكن من السهل ان يكتب بين هذه الأنقاض الحديثة تماماً . وبدلاً من ان ينحني على ورقه ، قال على حين غرة : « آه ! ليتهم فقط لا يرغموننا على ألا نكون شيوعيين ! » .

فقالت آن :

– من ؟

ـ الشيوعيون . أتدركان : هذه القنبلة ، يا لها من وسيلة رائعة للضغط ! لا اعتقد ان الأميركان سيذهبون غداً لإلقاء واحدة على موسكو ، لكنهم اخيراً ، يملكون امكانية فعل ذلك ، ولن يتركوا العالم ينسى هذا . انهم لن يتعرفوا بعضهم البعض بعد الآن ! انه الوقت الذي يجب فيه ان نتكاتف ، وبدلاً من هذا نحن نكرر اليوم جميع اخطاء ما قبل الحرب !

فقال هنري :

ـ انت تقول : نحن . ولكننا لسنا نحن الذين بدأنا .

فقال دوبروي :

ـ نعم ، ان ضميرنا مرتاح . وبعدُ ؟ إن هذا يجعل مظهرنا أنيقاً ! إذا حدث الانقسام ، فسنكون مسؤولين عنه قدر مسؤولية الشيوعيين : بل اكثر لأنهم الأقوى .

فقال هنري :

ـ انني لا اتبعك .

ـ انهم مقيتون ، انا موافق . لكن فيما يتعلق بنا ، فهذا لا يوجد اي فرق . عندما سيجعلون منا اعداء ، سنكون اعداء . لا فائدة من القول : انها غلطتهم . فسواء كانت غلطة ام لا ، فسنكون اعداء الحزب البروليتاري الكبير في فرنسا. وليس هذا حتماً ما نريده .

ـ إذن ، يجب الاستسلام لشانتاجهم ؟

فقال دوبروي :

ـ لم أرهم ابداً خبثاء ، اولئك الناس الذين يغرقون بعضهم البعض كيلا يستسلموا . سواء كان « شانتاج » ام لا ، فلا بد من الابقاء على الاتحاد .

ـ ان الاتحاد الوحيد الذي يفكرون به في اخلاص ، هو حل « الاشتراكي الثوري الحر » وانضمام جميع أعضائه إلى « الحزب الشيوعي » .

ـ يمكن ان نصل إلى هذا الحد .

فسأل هنري مفاجئاً :

– أتستطيع ان تتسجل في الحزب الشيوعي؟ لكن هناك أشياء كثيرة تفصلك عن الشيوعيين !

فقال دوبروي :

– أواه ! سنتدبر امرنا . عند الحاجة سأعرف كيف أصمت .

وامسك أوراقه واخذ يخط كلمات . ونثر هنري على العشب الكتب التي اخرجها من عدله . منذ ان كفّ عن القراءة ، قرأ كمية من الكتب نزّهته حول العالم كله . انه في هذه الأيام يكتشف الهند والصين : ليس فيهما ما يبعث المرح . كثير من الأشياء تصبح باطلة عندما يفكر المرء بتلك المئات من الألوف من الجائعين . لعل تحفظاته تجاه الحزب الشيوعي باطلة هي الأخرى . كان ما يأخذه عليه أكثر من أي شيء آخر ، هو معاملته للناس كأشياء . إذا لم نكن نثق بحريتهم ، بأحكامهم ، بإرادتهم الطيبة، فلا داعي لتحمل مشقة الاهتمام بهم . ونحن نسيء الاهتمام بهم . لكن هذا كان ملامة لا معنى لها إلا في فرنسا ، في اوروبا ، حيث بلغ الناس مستوى معيناً من الحياة ، حداً أدنى من الاستقلال الذاتي والتبصر . اما عندما تصبح المسألة مسألة جماهير بلّدها البؤس والخرافات ، فما معنى معاملتهم كبشر ؟ يجب ان يقدم لهم ما يأكلونه ، هذا كل شيء . ان السيطرة الأميركية تعني نقص التغذية ، والاضطهاد المؤبد لجميع بلدان الشرق . ان حظها الوحيد هو الاتحادالسوفياتي: ان الحظ الوحيد لبشرية محررة من الحاجة، من العبودية ومن البلادة هو الاتحاد السوفياتي. إذن يجب فعل كل شيء لمساعدته. عندما لا يكون ملايين البشر إلا حيوانات أضاعتها الحاجات ، فإن الانسانية لتبعث على السخرية ، والفردية ليست إلا نذالة . فكيف يجرؤ المرء على المطالبة لنفسه بهذه الحقوق العليا : الحكم ، والتقرير ، والمناقشة بحرية ؟ (وقطف هنري سنبلة ومضغها في بطء . ما دام الانسان لا يستطيع على كل حال ان يعيش كما يريد ، فلماذا لا يتخلى تماماً ؟ ان يضيع في قلب حزب كبير ، ان يوحد إرادته بإرادة جماعة ضخمة : يا له من سلام ، يا لها من قوة ! ما ان يفتح المرء فاه حتى يتكلم باسم الأرض كافة ، ويصبح المستقبل من صنعه الشخصي : هذا يستحق ان

يتحمل اشياء كثيرة . » وقطف هنري سنبلة أخرى وقال لنفسه : « هـذا لا يمنع انني سأسيء الاحتمال ، كل يوم بيومه . من المستحيل ان تفكر بما لا تفكر به ، ان تريد ما لا تريده . كي تكون مناضلاً طيباً ، فلا بد ان يكون لك إيمـان السذج ، وانا لا املكه » . وقال في نفسه ايضاً في غيظ : « ثم ان المسألة غـير مطروحة على هـذا النحو » . يقيناً ، انه لمثالي . ماذا سيفيد انتسابي ، هي ذي المشكلة الحسية الوحيدة. بديهي انه لن يحمل حبة ارز واحدة إلى هندوكي واحد».

كان دوبروي قـد كفّ عن التساؤل : كان يكتب . وتابع الكتابة يومياً . ما من شيء يمكن ان يعيقه في هذا المجال . وبعد ظهر احد الأيام ، وبينما كانوا يتناولون الغداء في قرية عند سفح « الايغوال » ، هبت عاصفة عنيفة للغاية حتى ان الدراجات انقلبت ، وتطاير عدلان ، وانطلق مخطوط دوبروي زائغاً نحو سيل من الوحل . وعندما التقطه ، كانت الكلمات تقطر خيوطاً طويلة سوداء على الأوراق المنقوعة بماء اصفر . وجفف أوراقه في هدوء ، واعاد نسخ المقاطع المتضررة أكثر من غيرها ، وخيل اليها انه على استعداد عند الحاجة لمعاودة كتابه كله باللامبالاة ذاتها . كان على حق في العناد دون أدنى شك ، ما دام يجد اسباباً ، وأحياناً عندما كان هنري ينظر إلى يده تنساب على الورق ، كان يشعر بنوع من الحنين في قبضته الخاصة .

وسأل هنري بعـد ظهر ذلك اليوم ، حيث كانوا جالسين في ظل مقهى في « فالانس » ينتظرون ان يتعب الحر :

– ألا يمكن ان نقرأ بضع صفحات من مخطوطك؟ إلى اين وصلت على الضبط؟

فقال دوبروي :

– انني أكتب فصلاً حول فكرة الثقافة . ما معنى كون الانسان لا يكف عن الحديث عن نفسه ؟ ولمـاذا يقرر بعض البشر ان يتكلموا باسم الآخرين : وبتعبير آخر ما المثقف ؟ ألا يشكل هذا القرار نوعاً قائماً بذاته ؟ وإلى أي حـد يمكن للانسانية ان تتعرف نفسها في الصورة التي تقدمها عن ذاتها ؟

فقال هنري :

ـ وماذا تستنتج ؟ ان الأدب يحتفظ بمعنى ؟

ـ بالتأكيد .

فقال هنري ضاحكاً :

ـ أن نكتب لنظهر أننا على حق ! هذا رائع .

فنظر اليه دوبروي في فضول : « كيف ، سوف تعاود الكتـــابة ذات يوم ولا شك ؟ » .

فقال هنري :

ـ اواه ! على على كل حال ليس اليوم .

ـ اليوم او غداً ، أي فرق !

ـ حسناً ، لن يكون هذا غداً أيضاً .

فقال دوبروي :

ـ لكن لماذا ؟

ـ انت تكتب دراسة ، ليكن . لكن تخيل رواية في هذا الوقت ، اعترف ان هذا غير مشجع .

ـ انني لا اعترف ! ولم افهم ابداً لماذا تخليت عن روايتك .

فقال هنري مبتسماً :

ـ انها غلطتك .

ـ كيف غلطتي ! » واستدار دوبروي في استنكار نحو آن : « أتسمعينه؟ » .

ـ لقـــد وعظتني بالعمل : والعمل أقرفني من الأدب . » واشار هنري إلى النادل الذي كان يتناوم واقفاً امام الصندوق : « أريد نصفاً آخر . وانتما ؟ » .

فقالت آن :

ـ كلا ، أشعر بحر شديد .

وأشار دوبروي برأسه ان نعم واستأنف : « اشرح لي » .

فقال هنري :

ـ ماذا يهم الناس ما أفكر به ، انا ، او ما احسه ؟ ان قصصي الصغيرة لا تهم

احداً والقصة الكبيرة ليست موضوعاً لرواية .

فقال دوبروي :

ــ ولكن لدينا جميعاً قصصنا الصغيرة التي لا تهم احداً . ولهذا نرى أنفسنا في قصص الجار ، وإذا كان يعرف كيف يرويها ، فهي تهم جميع الناس في النهاية .

فقال هنري :

ــ هذا ما كنت أعتقده وانا ابدأ كتابي ، وشرب جرعة من البيرة . لم يكن يرغب في تفسير أحاسيسه . ونظر إلى الشيخين اللذين كانا يلعبان بالنرد على طرف الخوان الأحمر . أي سلام في قاعـــة المقهى هذه : انها لكذبة أخرى ! » وبذل جهـــداً ليتكلم : « الممل ، ما هو شخصي في تجربة ما ، أي ما هو أخطاء ، وسرابات . عندما نفهم هذا ، لا نعود نرغب في روايته » .

فقال دوبروي :

ــ لا افهم ما تقصد اليه .

فتردد هنري : « لنفترض انك ترى الانوار ، ليلاً ، عند ضفة المـــاء . هذا جميل . لكن عندما تعلم انها تضيء ضواحي يموت فيها الناس جوعاً ، تفقد كل شاعريتها ، ولا تعود إلا صورة خادعة للعين . ستقول لي انه يمكننا الحديث عن شيء آخر : مثلاً عن اولئك الناس الذين يموتون جوعاً . لكني عندئذ افضل ان اتكلم عنهم في مقالات او في مؤتمر » .

فقال دوبروي في حدة :

ــ لن اقول لك هذا مطلقاً . تلك الانوار ، انها تلمع من أجل جميع الناس . بديهي ، يجب اولاً ان يأكل الناس. لكن لا يفيد شيئاً ان تأكل اذا منعت عنك جميع الأشياء الصغيرة التي تسبب مسرات الحياة . لماذا نسافر ? لأننا نعتقد ان المناظر ليست صوراً خادعة للعين .

فقال هنري :

ــ لنفترض ان هذا كله سيجد له معنى ثانياً ذات يوم . امـــا الآن ، فهناك اشياء كثيرة أهم !

فقال دوبروي :

– ولكن لهذا معنى اليوم . هذا له حسابه في حيواتنا ، إذن يجب أن يكون له حسابه في كتبنا . » واضاف في غضب مفاجىء : « لكأن اليسار محكوم عليه بأدب دعاوي كل كلمة فيه يجب أن تكون قدوة صالحة للقارىء ! » .

فقال هنري :

– أواه ! انني لا أميل إلى مثل هذا النوع من الأدب .

– اعرف ، لكنك لا تحاول شيئاً آخر . مع ان هناك ما يمكن أن تهتم به !»
ونظر دوبروي إلى هنري في إلحاح : « يقيناً اذا فغرت فمك دهشة أمـــام تلك الأنوار الصغيرة متناسياً ما تعنيه : فأنت نذل . لكن بالضبط : جد لك طريقة في الحديث عنها لا تكون طريقة الاسلوبيين اليمينيين . أظهر في آن واحد جمالها ، وبؤس الضواحي » . وتابع بصوت متحمس : « هذا ما يجب ان يكون عليه أدب يساري : ان يرينا الأشياء من خلال منظور جديد بوضعها في مكانها الحقيقي. لكن علينا ألا نفقر العالم . ان التجارب الشخصية ، اي مـــا تدعوه سرابات ، موجودة » .

فقال هنري دون اقتناع :

– انها موجودة .

ربما كان دوبروي على حق . ربما كانت هناك وسيلة لاستعادة كل شيء ، ربما كان الأدب يحتفظ بمعنى . ولكن كان يبدو لهنري ، في اللحظـة الراهنة ، ان الأهم هو ان يفهم هذا العالم بدل ان يعيد خلقه بكلمات . كان يفضل أن يسحب من عدله كتاباً منتهياً على ان يسحب ورقاً أبيض .

وتابـع دوبروي في احتداد :

– أتعرف ماذا سيحدث ؟ ان كتب الاشخاص اليمينيين ستصبح في النهاية اكثر قيمة من كتبنا ، وسوف تذهب الشبيبة الى امثـال فولانج لتستمدّ منهم الغذاء .

فقال هنري :

– اوه ! ان فولانج لن يجد الشبيبة أبداً إلى جـــانبه ! ان الشبيبة لا تحب المقهورين .

فقال دوبروي :

– انما نحن الذين نجازف بأن نبدو مقهورين في القريب العاجل . » ونظر إلى هنري في اصرار : « يؤسفني ان تتوقف عن الكتابة » .

فقال هنري :

– ربما عدت اليها .

كان الجو حاراً جـــداً على النقاش . لكنه كان يعرف انه لن يعود اليـها عاجلاً . والفائدة ، انه وجد الوقت اخيراً ليتثقف . ففي أربعة أشهر ، ردم عدداً لا بأس به من الفجوات . وما ان يعود إلى باريس ، بعد ثلاثة أيام، حتى يكون عليه ان يضع مخططاً لدراسات جدية وربما سيتوصل من الآن حتى سنة او سنتين إلى ان يحصل على جنين من الثقافة السياسية على الأقل .

وكان يقول في نفسه في صباح اليوم التالي ، وهو يجري برخاوة عبر غـابة لا يكاد ظلها الخفيف يخفف من لظى السماء : « المهم ألا تكون بول قد عادت ! » . كان قد ترك دوبروي وآن يجريان أمامه وكان بمفرده عندما دخـــل إلى البقعة الجرداء في الغابة . كانت دوائر من الشمس ترتعد على العشب الأخضر ، ولم يفهم لماذا أحس بأن قلبه انقبض . لم يكن ذلك بسبب الكوخ المحترق ، فهو يشبـــه الكثير من الخرائب الأخرى التي قوضها الزمن واللامبالاة. ربما كان ذلك بسبب الصمت : لا طير ، لا حشرة ، وما من صوت إلا صوت الحصى الذي يصر تحت الاطارين ، صوت مترف. كان آن ودوبري قد ترجلا عن دراجتيهما وكانا ينظران إلى شيء ما . وانضم اليهما هنري ورأى انها صلبان : صلبان بيض ، بلا أسماء ، بلا زهور . « الفيركور [1] » . ان تلك الكلمة التي بلون الذهب المحترق ، لون الكلس والرماد ، القاسية والجافة كأرض بور ، لكن الساحبة وراءها رائحة عفنة من رطوبة جبلية ، لم تعد اسم اسطورة . « الفيركور » . انه بلد الجبال هـذه

[1] – منطقة جبلية فرنسية قامت فيها مقاومة بطولية ضد النازيين عام ١٩٤٤ «المترجم»

ذات الشعر الندي والأصهب ، والغابات الشفافة ، حيث ترفع الشمس القاسية صلباناً .

وابتعدوا في صمت . كان الدرب يشتد وعورة حتى انهم اضطروا إلى المشي وهم يدفعون دراجاتهم . وكانت الحرارة تتغلغل من خلال الظل الشاحب . وكان هنري يحس على وجهه بالعرق الذي كان يرشح على جبين آن وعلى خدي دوبروي اللذين أصبحا بلون النحاس . ولا شك في انه كان الهذيان نفسه في جميع القلوب . مرج شديد الخضرة لتنصب فيه الخيمة . كان واحداً من تلك الأمكنة البريئة والسرية التي كان الناس يفكرون في الماضي : هنا على الأقل لن تنجح الحرب ، لن ينجح الحقد في التسرب اليه . ولكنهم الآن يعرفون انه لا يوجد ملجأ في اي مكان . سبعة صلبان .

وهتفت آن :

– هو ذا الفج !

كان هنري يحب تلك اللحظات التي تحلق فيها النظرة ، بعد صعود يعمي ، فوق قطعة كبيرة من الأرض المأهولة ، بحقولها ، واشجارها ، وطرقها ، وقراها . ان النور يبلل حجر الأردواز او يزحف على القرميد الوردي . وتبين اولاً سد الجبال التي تتساند مع السماء ، ثم اكتشف الهضبة الكبيرة التي تتلظى عارية تحت الشمس . وكما في سائر هضاب فرنسا ، كانت هناك مزارع ، وقرى ، وضيعات : ولكن لا قرميد ، ولا اردواز ، ولا سطح واحد . إنما جدران . جدران متفاوتة الارتفاع ، متقطعة بلا تصميم ، لا تحمي شيئاً . وقالت آن :

– مهما عرفنا ، مهما اعتقدنا اننا نعرف ...

ولبثوا لحظة ساكنين . وعاودوا الهبوط في حذر على الدرب الكثير الحصى الذي كانت الشمس تلسعه بقسوة . كانوا ، منذ ثمانية أيام ، يتحدثون عن هيروشيما ، ويتكلمون بالأرقام ، ويتبادلون عبارات رهيبة المعنى ، ولم يكن شيء يتحرك فيهم . وفجأة ، كانت تكفي لمحة عين ، كان الهول هناك ، وانقبضت قلوبهم .

واوقف دوبروي دراجته فجأة : « ماذا يجري ? » .

عبر الضباب الذي كان يرتعد فوق القرية ، كان بوق يدوي . وتوقف هنري ، ولمح عند قدميه ، على طول الطريق الرئيسية ، شاحنات عسكرية ، ومصفحات ، وسيارات صغيرة ، وعربات . وقال :

– انه العيد ! لم اعر ذلك انتباهاً ، ولكني سمعت الناس في الفندق يتحدثون عن عيد في مكان ما .

فقال دوبروي :

– عيد عسكري ! ماذا سنفعل ?

فقالت آن :

– لا نستطيع أن نعـــاود الصعود . أليس كذلك ? ولا ان نتوقف تحت هذه الشمس .

فقال دوبروي في لهجة متجهمة :

– لا نستطيع .

وتابعوا الهبوط . إلى يسار القرية المحترقة ، كانت هنـاك بقعة من الصلبان البيض المزهرة ببـــاقات حمر . وكان جنود سنغاليون يمشون مشية استعراضية ، وشواشيهم تلمع . ومن جديد غطى صوت الأبواق صمت الحفر . وقال هنري :

– لكأنها النهاية ، اننا لمحظوظون أيضاً .

فقال دوبروي :

– انمض يميناً .

وأغار الجنود على الشاحنات وتفرق الجمهور. كان الجميـع رجالاً ونساء واطفالاً وشيوخاً ، يرتدون السواد ويكتوون في ثياب حدادهم الجميـــلة . لقد جاءوا من جميـع القرى والضيـع ، في السيارات، والعربات ، والدراجات، والموتوسيكلات، وعلى الأقدام . كانوا خمسة آلاف ، وربمـــا عشرة آلاف ، يتنازعون على ظل الاشجار الميتة والجدران المحترقـة . وكانوا متربعين في الحفر ، نصف راقدين على السيارات ، يخرجون قطعاً من الخبز وزجاجـــات من النبيذ الاحمر . الآن وقد

شبع الأموات بالخطابات والزهور والموسيقى العسكرية ، بشكل مناسب ، فان الاحياء يأكلون .

وقالت آن :

– انني لأتساءل أين سنستطيع الاستراحة .

كانوا يشتهون ، بعد مرحلة الصباح الشاقة ، ان يتمددوا في الظل الرطب ، وان يشربوا ماء بارداً . ودفعوا في كآبة دراجاتهم على طول الطريق الرابلة بالارامل والايتام . لم يكن ثمة نسمة هواء . وكانت الشاحنات التي تهبط نحو الوادي من جديد تثير غباراً كثيفاً ابيض . وقالت آن : « اين نجد ظلاً ؟ اين ؟ » .

فقال دوبروي :

– ان هذه الطاولات هناك لفي الظل .

كان يشير إلى طاولات طويلة منصوبة أمام كوخ من الخشب،لكن الاماكن كلها كانت تبدو مشغولة . وكانت نسوة يدرن وهن ينقلن آنية من الحساء يوزعنه بالمغارف . وسألت آن :

– أهي مأدبة أم مطعم ؟

فقال دوبروي :

– هيا لنرى . سآكل عن طواعية شيئاً آخر غير البيض المسلوق .

كان مطعماً ، وتدافع الناس قليلاً عن مقاعدهم ليفسحوا مكاناً . وجلس هنري تجاه دوبروي إلى جانب امرأة تضع برقعاً ثقيلاً من الكريب وعيناها محفوفتان بغدد حمر . وانسكب مرق ابيض في صحنه والقى رجل من طرف شوكة بقطعة لحم دامية فيه . كانت سلال الخبز ، وزجاجات النبيذ تنتقل من يد إلى يد . وكان الناس يأكلون في صمت ، وكان نهمهم المتكلف يذكر هنري بجنازات الفلاحين التي حضرها في طفولته . كل ما هنالك انهم كانوا هنا مئات من الارامل،والايتام، والاهل المرتدين الحداد ، يمزجون بالشمس أحزانهم ورائحة عرقهم . وناول هنري الشيخ الجالس قربه زجاجة نبيذ احمر ، وقال وهو يشير الى المرأة ذات الغدد العينية : « صبّ لها لتشرب ، انها ارمل المشنوقين في سان – دينيس » .

وعبر الطاولة سألت امرأة : « أهو زوجها الذي شنقوه من قدميه ؟ » .

– كلا ، ليس زوجها الذي فقئت عيناه .

وصب هنري كأس نبيذ للأرمل ، ولم يكن يجرؤ على النظر اليها ، وفجأة أحس انه يعرق هو الآخر تحت قميصه الخفيف . واستدار نحو الشيخ : « أهم مظليون الذين أحرقوا « فاسيو » ؟ » .

– نعم كان عددهم أربعمئة ، ولهذا ، كما ترى ، لم يلقوا عناء . ان « فاسيو » هي التي سقط فيها أكبر عدد من القتلى ، لهذا فإنهم يستحقون المقبرة الكبرى .

فقالت المرأة الجالسة تجاهه في كبرياء :

– المقبرة الكبرى للفيركور اجمع . » وأضافت : « انت عم رينيه الكبير ؟ ذلك الذي وجدوه في المغارة مع ابن فيفيريه ؟ » .

فقال الشيخ :

– نعم ، إنني العم .

– كانت الألسن قد انطلقت ، حول المائدة ، وبينما كانوا يجرعون الخمر ، كانوا يبعثون ذكريات فظيعة: ففي سان – روش ، سجن الألمان الرجال والنساء في الكنيسة ، وبعد ان أشعلوا فيها النار ، سمحوا للنساء بالخروج . وهنالك اثنتان لم تخرجا . وقالت آن وهي تنهض فجأة :

– سأعود . انني . .

وخطت بضع خطوات وانهارت بكل طولها على جدار الكوخ . وأسرع دوبروي وتبعه هنري . كانت قد اطبقت عينيها ، وكانت بيضاء ، وقد تغطى جبينها بالعرق . وتمتمت وهي تختنق فواقاً في منديلها : « وجع في القلب » . وبعد لحظة فتحت عينيها : « لقد انتهى ، انه ذلك النبيذ الأحمر » .

فقال دوبروي :

– النبيذ ، الشمس ، التعب .

كان يساعدها على اختراع ذرائع ، لكنه كان يعلم يقيناً انها كانت قوية كحصان .

وقال هنري :

– كان يجب ان تتمددي في الظل وتستريحي . سنفتش عن ركن هادىء . أتستطيعين الركوب خمس دقائق ؟

– نعم ، نعم ، إنني على ما يرام الآن ، إنني أعتذر .

الاغماء ، والبكاء والتقيؤ : ان النساء لقادرات على هذه الحيلة . ولكن هذا ايضاً لا يفيد . اننا بلا عون أمام الموتى . وامتطوا دراجاتهم . كان الهواء يحرق وكأن القرية قد التهبت للمرة الثانية . تحت كل رحى ، تحت كل شجيرة ، كان الناس يتمرغون . كان الرجال قد ألقوا بستراتهم الاحتفالية ، والنساء يشمرن عن سواعدهن ، ويفككن أزرار قمصانهن . وكانت تتعالى أغان ، وضحكات ، وصيحات صغيرة مدغدغة . ماذا كانوا يستطيعون ان يفعلوا ، غير ان يشربوا ، ويضحكوا ، ويتدغدغوا ؟ ما داموا الآن احياء ، فلا بد ان يعيشوا .

وقطعوا خمسة كيلومترات قبل ان يكتشفوا ظلًا ناحلًا تجاه جذع شجرة نصف ميتة . وبسطت آن على التراب ، الشائك بالحصى وسنابل القمح المحصود ، معطفها الواقي من المطر ورقدت منكمشة على نفسها . واخرج دوبروي من عدله أوراقاً تفوح منها رائحة الوحل ، وتبدو كأنها مغرقة بالدموع . وجلس هنري إلى جانبها وأسند رأسه إلى قشر الشجرة . لم يكن يستطيع نوماً ولا عملًا . وفجأة بدا له ان من البلاهة ان يتثقف . كل شيء كان قد اصبح من الماضي : الأحزاب السياسية في فرنسا ، اقتصاد الهبة ، بترول إيران ، مشاكل الاتحاد السوفياتي الراهنة . لم يكن هذا العصر الجديد الذي يبدأ متوقعاً في الكتب . وما وزن ثقافة سياسية متينة امام الطاقة الذرية ؟ « الاشتراكي الثوري الحر » ، « الأمل » ، العمل ، أي مزاح مأتمي ! ان الناس الذين يقال انهم من ذوي الارادة الطيبة يستطيعون في اطمئنان ان يعودوا إلى الاضراب . لكن العلماء والتكنيكيين كانوا يصنعون قنابل ، وقنابل مضادة ، وقنابل متفوقة ، وكانوا هم الذين يمسكون بالمستقبل بين ايديهم . مستقبل سعيد ! وأطبق هنري عينيه . فاسيو ، هيروشيما . لقد قطعت الانسانية في سنة واحدة طريقاً طويلة . إن هذا سيؤدي إلى الحرب القادمة . وما

بعد الحرب إذن : سوف يعتني بها أكثر مما اعتني بما بعد الحرب هذه . اللهم إن لم يعد هناك ما بعد الحرب . اللهم إن يتله المغلوب بنسف الكرة الأرضية . هذا ممكن جداً . انها لن تتحطم إلى قطع ، لنقبل بهذا ، وسوف تتابع الدوران حول نفسها ، باردة ، قاحلة : ان تخيل هذا لا يبعث متعة أكبر. لم تكن فكرة الموت قد أزعجت هنري مطلقاً . ولكن فجأة اخذ هذا الصمت القمري يخيفه : لن يبقى هناك بشر ! امام هذه الأبدية الصماء البكماء، ما الفائدة من صف كلمات ، وعقد مؤتمرات ؟ ليس علينا إلا ان ننتظر هذا الصمت ، الكارثة الكونية ، او موتنا الشخصي الصغير . ما من شيء كان شيئاً .

وفتح عينيه . كانت الأرض حارة ، والسماء تلتمع ، وآن نائمة ، ودوبري يكتب ان الانسان محق بالكتابة . وكان فلاحان في ثياب الحداد ، وفي احذية بيض من الغبار ، يسرعان نحو القرية ، وأذرعها مثقلة بورود حمر . وتبعها هنري بعينيه . ترى هل تزرع نساء سان – روش رماد أزواجهن زهوراً ؟ هذا محتمل . كان عليهن ان يصبحن أرامل محترمات . أم هل يشار اليهن بالأصابع ؟ وفي داخلهن ، كيف يتدبرن امرهن ؟ هل نسين قليلاً ، ام كثيراً ، ام لم ينسين مطلقاً ؟ ان العام لمدة قصيرة، طويلة . لقد نُسي الرفاق الموتى ، نُسي هذا المستقبل الذي تعد به نهارات آب : لحسن الحظ ان التشبث بالماضي شيء غير صحي . ومع ذلك ، فاننا لا نفخر بأنفسنا كثيراً عندما نلاحظ اننا أنكرناه إن قليلاً وإن كثيراً ، إنما لهذا اخترعوا هذا الحل الوسط : الاحتفال بالذكرى . البارحة بالدم ، واليوم بالنبيذ الأحمر المملح بالدموع خلسة . هناك كثير من الناس يطمئنهم هذا ، وان كان يظهر لغيرهم مقيتاً . لنفترض ان احدى هذه النسوة قد أحبت زوجاً حباً عظيماً : فماذا تعني بالنسبة لها موسيقى الأبواق والخطابات ؟ ونظر هنري محدقاً إلى الجبال الصهباء . كان يراها ، واقفة امام الخزانة ، تعدل من وضع برقع الكريب ، والأبواق تدوي ، وكانت تصرخ : « لا استطيع . لا استطيع » . وكانوا يجيبونها : « يجب ذلك » . وكانوا يضعون لها وروداً حمراً بين ذراعيها ، ويرجونها باسم القرية ، باسم فرنسا ، باسم الموتى .

وفي الخارج ، كان العيد قد بدأ . وراحت تنزع برقعها . وعندئذ ؟ لقد تشوشت الرؤية . وقال هنري : « هيا ، لقد قررت ان أكف عن الكتابة » . لكنه لم يتحرك ، وظلت نظرته شاخصة . كان بحاجة ملحة إلى ان يقرر إلامَ ستصير اليه هذه المرأة .

عاد هنري إلى باريس قبل بول . واستأجر غرفة تجاه الجريدة ، ولما كانت « الأمل » تعيش في بطء في هذا الصيف القارّي ، فقد كان يمضي ساعات امام طاولة عمله . كان يقول في نفسه : « إنه لمسلٍ ان أكتب مسرحية ! » . كان بعد ظهر ذلك اليوم الثقيل الأحمر بالنبيذ ، بالزهور ، بالحر ، وبالدم ، قد أصبح مسرحية ، مسرحيته الأولى . نعم ، هناك دوماً أنقاض ، وهناك دوماً أسباب لعدم الكتابة ، لكن لا يعود لها وزن ثقيل عندما تعود اليك الرغبة في الكتابة .

وقبلت بول دون احتجاج فكرة ان يوزع هنري بعد الآن لياليه بين الاستديو الأحمر والفندق ، ولكن عندما نام للمرة الأولى خارجاً ، رأى في اليوم التالي تحت عينيها دوائر عميقة إلى حد انه اضطر إلى الوعد في نفسه بألا يعاود ذلك . لا يهم ، سيلتجيء ، من حين لآخر ، إلى غرفته وسيجعله ذلك يشعر بأنه قد تحرر قليلاً . وكان يقول في نفسه : « يجب ألا أطلب كثيراً » . كان يكفيه ان يكون متواضعاً فيحصل على عدد كبير من المسرات الصغيرة .

لكن وضع « الأمل » كان لا يزال غير ثابت . وشعر هنري بقلق جدي عندما اكتشف ذات خميس ان الصندوق فارغ : إلا ان لوك سخر منه . كان يتهم هنري بأن عقليته تجاه المسائل المالية عقلية صاحب دكان صغيرة . وربما كان هذا صحيحاً . على كل حال ، كان من المتفق عليه ان القضايا المالية من اختصاص لوك ، وكان هنري يطلق يده عن طواعية . وبالفعل ، وجد لوك وسيلة لدفع رواتب الموظفين ، يوم السبت . وشرح : « سلفة على عقد اعلانات » . ولم يقع انذار جديد . لم يكن اصدار « الأمل » يرتفع ، لكنهم كانوا مستمرين ، ولو

بشكل عجائبي . ومن جهة أخرى ، لم يصبح « الاشتراكي الثوري الحر » حركة جماهيرية كبيرة ، لكنه كان يتوطد في الأقاليم . والمريح حقاً هو ان الشيوعيين ما عادوا يهاجمونه : كان الأمل باتحاد دائم يستيقظ . ولقد قررت اللجنة بالإجماع في تشرين الثاني ان تؤيد « توريز » ضد ديغول . وكان هنري يفكر وهو يتبادل حديثاً متقطعاً مع سامازيل الذي جاءه يحمل مقالاً عن الأزمة : « ان الحياة لتصبح سهلة عندما يشعر المرء بأنه على اتفاق مع اصدقائه ، مع حلفائه ، مع نفسه » . وكانت الآلات الطابعة تموء ، وفي الخارج كان مساء خريفي جميل . وفي مكان ما كان فانسان يغني بصوت شاذ ومرح . حتى سامازيل كانت له جوانبه الطيبة ، بعد كل شيء . وكانوا يتنبأون بنجاح كبير لكتابه عن المقاومة الذي كانت « الطواريء » تنشر فصولاً منه، وكان فرحاً جداً إلى حد السذاجة بهذا النصر القادم حتى ان مودته كانت تكاد تبدو صادقة . وقال :

– سأطرح عليك سؤالاً فضولياً . » كان يبتسم في رحابة : « لقد قال أحدهم ان الأسئلة لا تكون فضولية ابداً ، بل الأجوبة فقط . وانت غير مرغم على اجابتي » . وتابع : « ثمة شيء يثير فضولي : كيف تنجح «الأمل» في الاستمرار مع مبيعها المحدود جداً ؟ » .

فقال هنري في مرح :

– ليس عندنا اموال سرية . السبب، هو اننا ننشر اعلانات اكثر بكثير من الماضي . ان الاعلانات الصغيرة ، على الأخص ، لمورد كبير .

فقال سامازيل :

– اعتقد ان عندي فكرة مضبوطة جداً عن ميزانيتكم الاعلانية . حسناً ! بموجب حساباتي : كان يجب ان تعانوا من عجز واضح .

– علينا مبلغ لا بأس به من الديون الكبيرة .

– اعرف ، لكني اعرف ايضاً ان هذه الديون لم تزدد منذ تموز. هذا ما يبدو لي معجزاً .

فقال هنري في لهجة خفيفة :

– لا بد ان هناك خطأ في حساباتك .

فقال سامازيل :

– لا بد ان افترض ذلك .

لم يكن يبدو عليه انه قد اقتنع كثيراً ، وثار هنري على نفسه بسبب ذلك عندما وجد نفسه بمفرده ثانية . كان يجب عليه ان يستطيع تقديم أرقام دقيقة . « معجز » : انها على الضبط الكلمة التي جاءت على شفتيه عندما سحب لوك من صندوق فارغ مال الرواتب . « سلفة على عقد اعلانات » . لقد كان هنري خفيفاً عندما اكتفى بهذا التفسير . أي عقد ؟ كم كانت السلفة ؟ وهل قال لوك الحقيقة ؟ وشعر هنري من جديد بالقلق . لم يكن سامازيل يملك بين يديه كافة المعطيات ، لكنه كان يعرف كيف يحسب . كيف يتدبر لوك امره على وجه الدقة ؟ من يدري إن لم يكن يستقرض بشكل سري على اسمه الشخصي ؟ من المستحيل ان يرضى بتركيبات غير شريفة ، لكن لا بد من معرفة مصدر المال على كل حال . وعندما اصبحت المكاتب فارغة ، حوالي الساعة الثانية صباحاً ، دخل هنري إلى قاعة التحرير . كان لوك يجري حسابات . مهما كان هنري يتأخر في مغادرة الجريدة، كان لوك يبقى دوماً بعده ويجري حسابات .

وقال هنري :

– قل إذن . إذا كانت لديك دقيقة ، فسننظر معاً إلى السجلات . انني اود على كل حال ان افهم شيئاً ما عن وضعنا المالي .

فقال لوك :

– انني منهمك في العمل .

فقال هنري وهو يجلس على حافة الطاولة :

– أستطيع الانتظار ، سأنتظر .

كان لوك مشمراً عن ساعديه ، وكان يرتدي حمالات حدق إليها هنري مدة طويلة : حمالات صفراء ، ورفع رأسه وقال : « لماذا تريد ان تزعج نفسك بقصص المال هذه ؟ ثق بي إذن » .

فقال هنري :

– لماذا تطلب ثقتي في حين ان من السهل جداً ان تريني الدفاتر ؟

– لن تفهم شيئاً فيها . ان المحاسبة عالم كامل .

– في مرات سابقة شرحت لي وفهمت . ليس هذا سحراً على كل حال .

– سنضيع وقتاً كثيراً .

– لن يكون وقتاً ضائعاً . يحرجني ألا اعرف كيف تتدبر امرك . هيا ، أرني هذه الدفاتر . لماذا لا تريد ؟

وحرك لوك ساقيـــه تحت الطاولة . كانت وسادة جلدية كبيرة تسند قدميه الموجعتين . وقال في غيظ :

– ليس كل شيء مسجلاً في الدفاتر .

فقال هنري في حدة :

– هذا بالضبط ما يهمني : ما هو غير مسجل . » وابتسم : « ماذا تخفي عني ؟ هل استقرضت ؟ » .

فقال لوك بصوت نزق :

– لقد منعتني من ذلك .

فقال هنري بصوت نصف مازح :

– إذن ماذا ؟ أتبتز من احد ؟

– أأنا سأجعل من « الأمل » جريدة ابتزاز ! » وهز لوك رأسه : « انت لا تنام بما فيه الكفاية » .

فقال هنري :

– اسمع ، ان الاحجيات لا تستهويني . لا أريد ان تعيش «الأمل» بالتحايل . احتفظ بأسرارك ، لكني سأتلفن لتراريو غداً صباحاً .

فقال لوك :

– هذا شانتاج .

– كلا ، هذا احتراس . انني اعرف لون نقوده ، تراريو ذاك . في حين ان

ذلك المال الذي سقط في الصندوق ، يوم السبت الماضي ، لا اعرف مصدره .

وتردد لوك : « كان ... مساهمة من قبيل التطوع » .

وتفرس هنري في وجه لوك في تخوف . امرأة قبيحة، ثلاثة اطفال ، كرش، حمالات ، التقرس ، وجه ضخم متناوم : انه يبدو في أتم راحة . لكنه كان قد تبين في عام ١٩٤١ ان ريحاً جنونية يمكن ان تعصف عند المناسبة بهذه الكتلة من اللحم : بل إنما بفضل هذا ولدت « الأمل » . ترى هل هبت هذه الريح العاصفة من جديد ؟

– هل اغتصبت مالاً من احد ؟

فقال لوك متنهداً :

– ما كنت لأقدر على هذا . كلا ، إنما كانت هبة ، مجرد هبة .

– ان الناس لا يهبون على هذا النحو مبالغ مماثلة . هبة ممن ؟

فقال لوك :

– لقد وعدت بالكتمان .

فقال هنري مبتسماً :

– لمن ؟ هيا ، انت تسخر مني . ان الواهب الكريم حيلة لا تنطلي على احد .

فقال لوك :

- اقسم لك انه موجود .

– أليس هو لامبير من قبيل الصدفة ؟

– لامبير ! انه لا يبالي بالجريدة . لو لم يكن يريد ان يراك ، لما وضع فيها قدمه . لامبير !

فقال هنري في نفاد صبر :

– إذن من ؟ هيا انطق . وإلا تلفنت .

فقال لوك بصوت أبح :

– لن تقول انني اخبرتك ؟ أتعدني ؟

– اقسم لك على رأسك .

– حسناً ! انه فانسان .

ونظر هنري في ذهول إلى لوك الذي كان ينظر إلى قدميه :

– ألست مجنوناً ؟ ألا تشك في كيفية حصول فانسان على ماله ؟ ما عمرك ؟

فقال لوك مستاء :

– اربعون عاماً . واعرف ان فانسان قد ابتز ذهباً من عند أطباء اسنان متعاونين : لا أرى في هذا شراً . إذا كنت تخاف من ان تتهم بالاشتراك ، فاطمئن ، لقد اتخذت احتياطاتي .

– وفانسان ؟ افترض انه محتاط جداً ، هو الآخر ! انه يغامر بجلده في هذه الألعاب السخيفة ، ألا تفهم ذلك ؟ أفي مخك ماء ام ماذا ؟ في اليوم الذي سيقبض فيه على هذا المجنون ، هل ستشعر بالفخر ؟

فقال لوك :

– لم أطلب منه شيئاً . لو رفضت ماله لأعطاه إلى مستوصف للكلاب .

– لكن ألم تفهم انك بقبوله تشجعه على المعاودة ؟ كم مرة أنقذنا من الغرق ؟

– ثلاث مرات .

– وكنت آخذاً في حسابك ان هذا سيستمر ؟ انت لا تقل عنه جنوناً !

ونهض هنري وسار نحو النافذة . في شهر أيار ، عندما علم بأن فانسان قد أدخل نادين إلى عصابته ، وجه اليه تحذيراً جدياً . وأرسله مدة شهر إلى افريقيا . وقد أكد فانسان عند عودته انه سيحسّن سلوكه : وهذا ما يفعله الآن !

وقال هنري :

– يجب ان اجد وسيلة لإخافته .

فقال لوك :

– لقد وعدتني بالكتمان . لقد جعلني أقسم بأنك لن تطّلع على الأمر ، على الأخص انت .

– حسناً ! » وعاد هنري إلى الطاولة : « على كل الأحوال ، لا فائدة ، سواء قلت له ام لم اقل » .

فقال لوك :

ـ هناك سند يجب دفعه بعد يومين . لن نستطيع دفعه .

فقال هنري :

ـ سأذهب لأكلم تراريو منذ الغد .

ـ لو نستطيع فقط ان نكسب شهراً او شهرين : فنحن على وشك العوم .

فقال هنري :

ـ على وشك : هذا لا يكفي . ما الفائدة من العناد ؟ ان الاحدار لا يرتفع، ونحن نجازف بأن يغير تراريو رأيه مع الزمن . » ووضع هنري يده على كتف لوك : « ما دمنا سنكون احراراً كالماضي ، فما الضرر في هذا ؟ » .

فقال لوك :

ـ لن يعود الأمر كما كان .

ـ سيعود كما كان تماماً باستثناء اننا سننتهي من المشاكل المالية .

فقال لوك متنهداً :

ـ لكن هذا كان أسلى ما في الامر .

كان هنري على العكس شبه مطمئن إلى فكرة ان مسألة المال سوف تسوّى نهائياً . وهكذا دخل بقلب هادىء بعد يومين إلى مكتب تراريو : مكتب مليء بالكتب يدل على مثقف أكثر مما يدل على رجل أعمال . لكن تراريو نفسه ، النحيف ، الأنيق ، نصف الأصلع، كانت تبدو عليه سحنة صناعي غني تماماً . وقال وهو يشد بقوة على يد هنري :

ـ تصور اننا أثناء الاحتلال اشتغلنا جنباً إلى جنب تقريباً ولم نلتقِ مطلقاً ! انت تعرف جيداً فيردولان ، أليس كذلك ؟

ـ يقيناً . أكنت في شبكته ؟

فقال تراريو في لهجة جنائزية خفية :

ـ نعم ، كان رجلاً يستحق التقدير . » وابتسم ابتسامة كبرياء دورت وجهه بشكل صبياني : « بفضله التقيت بسامازيل » . وأشار الى هنري ان يجلس

وجلس : « في تلك الأيام ، كانت الأهمية للقيم الانسانية ، لا للمال » .

فقال هنري كي يقول شيئاً ما :

– تلك أيام بعيدة .

فقال تراريو يحثه على الكلام :

– اخيراً ، انه لعزاء ان نستطيع استخدام المال للدفاع عن بعض القيم .

فقال هنري :

– هل أطلعك دوبروي على الوضع ؟

– بشكل عام ، نعم .

كان في نظرة تراريو تساؤل آمر : كان يعرف الوقائع بدقة ، لكنه كان يريد الوقت لدراسة هنري ، وكان لا بد من السير معه في لعبته . واخذ هنري يتكلم دونما اقتناع . ومن جهته أيضاً ، كان يراقب تراريو . كان هذا الأخير يصغي اليه في بشاشة متنازلة قليلاً . كان يشعر ، وهو الواثق من امتيازاته ، الراضي بتخليه عنها شكلياً ، بالتفوق على الذين لا يملكون شيئاً وعلى الذين لم يقبلوا داخلياً ان تنتزع املاكهم منهم ، في آن واحد . لم يكن هنري قد تخيله على هذا النحو تماماً حسب اوصاف دوبري . لم يكن هناك أي اثر لضعف او قلق في وجهه . ولا لكرم ايضاً . واذا كان من اليسار ، فهذا لا يمكن ان يكون إلا من قبيل الانتهازية .

وقال فجأة :

– هنا اوقفك ! انت تقول ان هذا الانخفاض في الاصدار كان محتوماً . »
ونظر إلى هنري في عينيه وكأنه سينطق بحقيقة خطرة : « انني لا أؤمن بالحتمية، بل ان هذا سبب من الأسباب التي تمنعني من الانتساب إلى الديالكتيكية الماركسية . ان تجربتي ليست تجربتك نفسها . انها تجربة رجل أعمال ، رجل عملي. لقد علمتني ان مجرى الأحداث يمكن دوماً ان ينحرف بتدخل عامل مناسب في الوقت المناسب » .

فقال هنري في صوت متصلب قليلاً :

ـ هل تقصد انه كان يمكننا تجنب هذا الانخفاض ؟

فانتظر تراريو لحظة ، وقال :

ـ على كل حال ، انا واثق ان من الممكن اليوم اعادة رفع الاصدار . »

وأضاف في حركة عنيفة : « انني لا أزعم ان المشكلة مشكلة بالية . ولكن باعتبار ما تمثله « الأمل » ، يبدو لي ان من المهم ان تكون لها طبقة عريضة من القراء » .

وتعرف هنري في حبور على مفردات سامازيل في تلك العبارة . وقال : « أتمنى ذلك مثلك . انه نقص المال الذي أحرجنا . انني أتكفل ، إذا توفرت رؤوس الأموال ، بتوفير ريبورتاجات وتحقيقات تكسب لنا جمهوراً كبيراً » .

فقال تراريو بصوت بعيد :

ـ ريبورتاجات ، تحقيقات ، نعم ، موافق . لكن ليس هذا هو الأساسي .

فقال هنري :

ـ ما الأساسي ؟

فقال تراريو :

ـ سأكلمك بصراحة . انت شخص معروف جداً ، بل شعبي جداً . لكن اسمح لي بأن أقول لك ان صديقك لوك ليس شخصية ، وليس له اي اسم . وبالإضافة إلى ذلك ، قرأت له مقالات كانت غير ماهرة مطلقاً .

فقاطعه هنري في جفاء : « لوك صحفي ممتاز ، والجريدة تخصه بقدر ما تخصني .. إذا كنت تفكر في إبعاده ، فكفّ عن هذا التفكير » .

ـ ألا يمكن دفعه إلى الانسحاب؟ بشراء حصته بسعر مناسب وبتأمين مركز طيب له ؟

فقال هنري :

ـ لا مجال لهذا ! لن يقبل ابداً ، وعلى كل حال ، لن أطلب منه ذلك . ان « الأمل » هي انا ولوك . اما ان تمولنا ، وأما ألا تمولنا ، لا حل وسط .

فقال تراريو بصوت عابث :

– بديهي ، ان بعض الانفعالات أصعب على المنخرط في مشروع ما من صعوبتها على مراقب خارجي .

– انني لا أتبعك .

فقال تراريو :

– ما من قانون ينص على تحديد اللجنة الادارية لجريدة بعضوين . » وابتسم: « باعتبار الصداقة التي تربطكما ، انا واثق أنكما لن تقيا أي صعوبة امام انضمام سامازيل اليكما » .

والتزم هنري جانب الصمت . لهذا إذن كان سامازيل يهتمّ كثيراً بمصير « الأمل » ! وقال أخيراً في برود : « لا أرى ضرورة ذلك . سامازيل يستطيع ان يكتب عندما يحلو له : هذا يجب ان يكفيه ... » .

فقال تراريو في ترفع :

– ليس هو ، بل انا الذي يتمنى هذا التعاون . » وتصلب صوته : « أقدر انه إلى جانب اسمك ، يجب ان يكون هناك اسم آخر يوازيه شعبية . ان اسهم سامازيل ترتفع : وغداً سيتحدث جميع الناس عنه : هنري بيرون وجان – بيير سامازيل ، ان هذا لسبب اجتماعي . ثم يجب زرق جريدتكم بديناميكية جديدة. ان سامازيل لقوة طبيعية . هوذا ما أقترحه عليك . انني اصفي ديونكم ، واشتري نصف حصص « الأمل » بشروط سنتناقش فيها ، وستتقاسمون ، لوك وسامازيل وانت ، النصف الباقي . والقرارات تتخذ بأغلبية الأصوات » .

فقال هنري :

– انني اقدر سامازيل كثيراً . لكني سأكلمك بصراحة : ان شخصية سامازيل أقوى من ان اشعر انني لا ازال في بيتي حيث يكون هو . وانا حريص على ان اشعر انني في بيتي في الجريدة .

– هذا اعتراض شخصي جداً .

– ممكن . لكن الأمر متعلق بعد كل شيء بجريدة تخصني شخصياً .

– انها جريدة « الاشتراكي الثوري الحر » .

- هذا لا يمنع ذاك .

فقال تراريو :

- هذا بالضبط ما نناقشه . انني اموّل جريدة « الاشتراكي الثوري الحر » ، وأريد ان اؤمن لها أكبر قدر ممكن من الفرص » . وبدرت عنه حركة قاطعة : « إن « الأمل » مشروع فائق للعـادة ، وثق انني اقدرها حق قدرها . لكننا نواجه صعوبات جديدة وهدفنا ان ننجح على صعيد أرحب ايضاً : ان قوى رجل واحد لن تكفي لذلك بعد الآن » .

فقال هنري :

- أكرر عليك بأنني لست وحيداً . فأنا اشعر ان بإمكاني ان اواجه مع لوك هذا الموقف الجديد .

فهز تراريو برأسه : « انني لأزهو بأنني عرفت دوماً بما فيه الكفاية من الدقة كيف أقدر إمكانيات انسان . هناك تيار صعب تجب مواجهته وانت بحاجـة لشخص مثل سامازيل ليساعدك على ذلك » .

- ليس هذا رأيي .

فقال تراريو بصوت اختفت منه المجاملة فجأة :

- لكنه رأيي ، ولن يجعلني أي انسان اعدل عنه .

فقال هنري :

- تقصد انني اذا رفضت اقتراحك ، فلن تموّل « الامل » ؟

فقال تراريو وقد عاد وجهه لطيفاً :

- ليس لك أي سبب لرفضه .

فقال هنري :

- لقد التزمت بمساعدتي دون شرط . وإيماناً مني بهـذا الالتزام جعلت مـن « الامل » جريدة « الاشتراكي الثوري الحر » .

- كيف ؟ انني لا افرض عليك أي شرط ، فمن المتفق عليـه ألا يتغير الخط السياسي للجريدة مطلقاً . انني أطلب منك فقط اتخاذ التدابير الضرورية لانطلاقة

جديدة لا بد ان تتمناها مثلي .

فنهض هنري : « سأذهب للتفاهم مع سامازيل ! » .

فقال تراريو :

– يقيناً لن يقبل سامازيل بالدخول إلى « الامل » رغم إرادتك . لهذا من المفضل ان تبقى هذه المحادثة بيننا . سواء جاء الرفض منه او منك ، فلا يهم : لن امول الجريدة إلا إذا ساهم في إدارتها .

فقال هنري :

– سأطلعه على كل حال على الامر . » كان يجهد في السيطرة على صوته : « لأنني صدقت كلمتك ، عرضت « الامل » للخطر وقدتها إلى حافة الافلاس . وانت تستفيد من ذلك لتقوم بهذا الشانتاج . ان رجلاً قادراً على مثل هذه الطريقة الغادرة ، افضّل على كل الاحوال ان استغني عن خدماته ! » .

فقال تراريو وهو ينهض بدوره :

– ليس لك الحق في اتهامي بالشانتاج ! ان جميع القضايا التي أعالجها ، أعالجها بشرف كغيرها . ابداً لم أخفِ ان بعض التبديلات تبدو لي لازمة لإرادة « الأمل » على الوجه المرام .

فقال هنري :

– ليس هذا ما قاله لي دوبروي .

فقال تراريو الذي كان صوته يعلو :

– لست مسؤولاً عما قاله لك . انني اعرف ما قلته له انا . وإذا كان هناك سوء تفاهم ، فهذا مؤسف ، لكني عبرت عن رأيي بوضوح .

– هل أطلعته على اقتراحك ؟

– كلياً . بل اننا تناقشنا طويلاً !

كان في صوته صدق مقنع جداً إلى حد ان هنري ظل لحظة صامتاً . وأخيراً قال : « انه لم يفهم على كل حال ان هذا شرط لازم ، وإلا فلا » .

فقال تراريو في شيء من الاحتداد :

– افترض انه فهم ما كان يريد ان يفهمه . » وقال في لهجة مصالحة : « اسمع، لماذا يبدو لك اقتراحي غير معقول إلى هـذا الحد ؟ لقد غضبت لأنك اعتقدت انك ضحية مناورة غير شريفة . تكفيك محادثة مع دوبروي لتقتنع بنيتي الطيبة . عندئذ ستفهم بالتأكيد اي فرصة يمثلها عرضي بالنسبة لك . لأنه ما من احـــد ، وكن واثقاً من هذا ، سيجازف بشراء « الأمل » ، بديونها البالغة ستة ملايين : لا بد للانسان ان يكون مخلصاً لـ « الاشتراكي الثوري الحر » مثلي ليقبل . او انهم سيفرضون عليك عندئذ شروطاً مختلفة جداً عن شروطي : شروطاً سياسية» .

فقال هنري :

– انني غير يائس من ايجاد سند نزيه .

فقال ترابريو :

– لكنك وجدته ! » وابتسم : « اني اعتبر هذه المحادثة مجرد تبادل أولي في وجهات النظر . وفيما يتعلق بي ، فان المفاوضات لا تزال مفتوحة . فكـّر » .

فقال هنري :

– شكراً على النصيحة !

كان قد أجاب في استياء ، لكنه لم يكن غاضباً من ترابريو. تفاؤل دوبروي! تفاؤله الذي لا دواء له ! كلا ، ليست المشكلة مشكلة تفاؤل هنا، فدوبروي ليس ساذجاً إلى هذا الحد : فجأة قفزت الحقيقة في وجه هنري . « لقد لعب عليّ ! » . وانهار على مقعد في شارع « مـــارسو » : كان في رأسه ، في جسده ، ضجيج عنيف جداً ، إلى حد انه ظن انه سيغمى عليه . « لقد كذب عليّ عن قصد لأنه كان يريد « الأمل » ، وقد وقعت في الفخ ». لقد قرع الباب في منتصف الليل، كان يبتسم ، رؤوس اموال بدون شروط ، تعال إذن لنقوم بجولة ، الليل جميل جداً ، ومن بين ابتساماته كان ينصب شباكاً . ونهض هنري وانطلق في خطى عريضة ، ولو كان بسرعة أقل ، لترنح .

« بمَ سيستطيع ان يجيب ؟ لن يستطيع ان يجيب ؟ لن يستطيع ان يجيب بشيء » . كان قد اجتـــاز باريس تقريباً دون ان ينتبه ، ووصل إلى منزل

دوبروي . وتوقف لحظة عند الدرج ليهدىء من خفقان قلبه . لم يكن واثقاً مطلقاً من ان صوتاً واضحاً يمكن ان يخرج من فمه . وسأل هنري :

- أأستطيع ان أكلم السيد دوبروي ؟

ودهش من سماع صوته ، كان صوتاً عادياً . فقالت ايفيت :

- انه ليس هنا . ليس ثمة احد .

- متى سيعود ؟

- لا اعرف مطلقاً .

فقال هنري :

- سأنتظره .

وتركته ايفيت يدخل إلى المكتب . لعل دوبروي لن يعود قبل الليل وكان لدى هنري عمل . ولكن لم يعد أي شيء موجوداً بالنسبة له ، لا « الأمل » ، ولا « الاشتراكي الثوري الحر » ، ولا ترواريو ، ولا لوك ، ولا أي شيء باستثناء دوبروي . لم يكن قد تطلب ، منذ ذلك الربيع القديم الذي وقع فيه في حب بول ، حضوراً بمثل هذا الهوس . وجلس على الأريكة التي يجلس عليها عادة . لكن الأثاث والكتب تثير ، اليوم، أعصابه : كلها متواطئة ! على العربة الصغيرة الدائرة ، كانت آن تأتي بلحم الخنزير، والسلطة ، وكانوا يتناولون العشاء في مرح، بين أصدقاء : يا للمهزلة ! كان لدوبروي حلفاء ، تلاميذ ، ادوات . ولكن لا صديق . كم كان يصغي جيداً ! وبأي غزارة كان يتكلم ! وكان على استعداد ليسير فوق بطنك عند اول مناسبة . كانت مودته الحارة ، وتلك الابتسامة ، وتلك النظرة ، التي يغتر بها الناس ، تعكس فقط المصلحة الآمرة التي يعلقها على العالم أجمع . « كان يعرف ما اشد حرصي على هذه الجريدة ! وسرقها مني ! » . ربما كان هو الذي اقترح إحلال سامازيل مكان لوك . وكان ينصح : اذهب لرؤية تراريو . وكان امره مكشوفاً هكذا ، لكنه أعطى تعليمات لتراريو . « مؤامرة ، خدعة . وحين اسقط في الفخ ، كيف أخرج منه ؟ بين سامازيل والافلاس ، يجب ان افضل سامازيل : ولكن عند هذه النقطة سوف يدهش كثيراً » . كان هنري

يبحث عن كلمات عنيفة ليلقي بقراره في وجهه . ولكن لم تكن هناك أي قوة في غضبه . على العكس ، كان يشعر أنه منهمك ، بل خائف بشكل مبهم ، ومذل بشكل مبهم ، وكأنه انتُزع ، بعد ساعات من النضال ، من رمال متحركة . وانصفق باب المدخل وغرز أظفاره في مرفقي الأريكة : كان يتمنى بشكل يائس ان يجعل دوبروي يشاطره الفظاعة التي يوحي بها اليه .

وقال دوبروي وهو يمد له يده :

– أمنذ زمن طويل تنتظرني ؟

وشد عليها هنري بشكل آلي : يد الأمس نفسها ، وجه الامس نفسه . ان المرء لا يستطيع ان ينظر من خلال القناع ، حتى عندما يكون عارفاً . وتمتم :

– ليس من مدة طويلة جداً . يجب ان أكلمك ، فوراً .

فقال دوبروي بصوت يقلد باتقان كثرة الاهتمام :

– ما الذي لا يسير على ما يرام ؟

– انني قادم من عند تراريو .

وتغير وجه دوبروي ، وقال بصوت قلق : « آه ! لقد تمت المقابلة إذن ؟ لم تعد تستطيع المقاومة ؟ وتراريو يقيم صعوبات ؟ » .

– إنني فاهم ! لقد اكدت لي انه على استعداد لدعم « الأمل » ، دونما شرط . وهو يطلب ان أضم إليّ سامازيل . » ونظر هنري في ثبات إلى دوبروي : «يبدو انك كنت مطلعاً » .

فقال دوبروي :

– انني مطلع منذ تموز . وقد اخذت فوراً في البحث عن المـــال من مصدر آخر . ظننت ان موفان سيعطيني ، ولقد وعدني تقريباً . ثم جئت لرؤيته ، كان عائداً من السفر ، ولم يكن يبدو عليه انه مزمع مطلقاً . » ونظر دوبروي إلى هنري في قلق : « هل تستطيع ان تستمر شهراً آخر ؟ » .

فهز هنري رأسه وقال في غضب : « هذا مستبعد . لماذا لم تخطرني ؟ » .

فقال دوبروي :

– كنت اعتمد على موفان . » وهز كتفيه : « ربما كان عليّ ان أخطرك . لكنك تعلم انني لا احب ان اعترف بأنني قُهرت . انها غلطتي إذا كنت في هذا المأزق ، ولقد آليت ان أخرجك منه » .

فقال هنري :

– انت تتكلم عن تموز . لكن تراريو يزعم انه لم يلتزم في وقت بأن يقدم لنا دعمه غير المشروط .

فقال دوبروي في حدة :

– في نيسان لم نتباحث إلا في الخط الأساسي للجريدة، وكان راضياً به كما هو.

فقال هنري :

– لقد ضمنت لي أكثر من ذلك . قلت ان تراريو لن يتدخل في اي شيء في اي مجال .

فقال دوبروي :

– آه ! اسمع ! بخصوص نيسان ، ليس ثمة ما ألوم نفسي عليه ! لقد نصحتك مباشرة بأن تذهب للتفاهم شخصياً مع تراريو .

– لقد كلمتني في ثقة جعلت هذا التفاهم غير مجدٍ .

فقال دوبروي :

– لقد قلت ما كنت اعتقده ، كما كنت اعتقده . يمكن ان أكون قد أخطأت : ما من انسان معصوم . لكني لم أرغمك على تصديق كلامي .

فقال هنري :

– انت غير معتاد على الوقوع في خطأ فاحش كهذا .

فابتسم دوبروي فجأة : « ماذا تقصد ؟ انني كذبت عليك ، عن عمد ؟ » .

لقد لفظ الكلمة بنفسه . كان يكفي ان يجيب : « نعم » . كان هذا سهلاً . لكن لا ، هذا مستحيل : ليس امام هذه الابتسامة ، وليس في هذا المكتب ، وليس على هذا النحو . وقال هنري في صوت متحفظ : « اعتقد انك حسبت رغباتك وقائع دون ان تقلق لمصالحي انا . كان تراريو على استعداد للدفع : بأي

شروط ، هذا كان عندك سواء في الحقيقة » .

فقال دوبروي :

– لعلي حسبت رغباتي وقائع. لكني اقسم لك انني لو شككت لحظة واحدة فيما كان تراريو يطبخه ، لصفقت الباب في وجهه مع ملايينه كلها .

كان في صوته حرارة مقنعة ، لكن هنري لم يشعر انه اقتنع . وقال دوبروي :

– سأكلم تراريو هذا المساء . وكذلك سامازيل .

فقال هنري :

– هذا لن يفيد شيئاً .

آه ! ان المحادثة لم تنطلق كما كان يجب . فالانتقال من الكلمات التي يقولها الانسان في نفسه إلى الكلمات التي يلفظها بصوت عالٍ ، ليس سهلاً. «مؤامرة!». لقد أخذت هذه الكلمة تبدو فجأة كبيرة ، تبدو شبه جنونية . بالطبع ، ان دوبروي لم يقل ابداً في نفسه وهو يفرك يديه: « انني احبك مؤامرة » . ولو كان هنري جرؤ على القاء هذه الكلمة في وجهه ، لابتسم دوبروي بسمة اكبر . وقال دوبروي :

– ان تراريو عنيد ، ولكن سامازيل يمكن اقناعه .

فهز هنري رأسه : « لن تقنعه . كلا . ليس هناك إلا حل واحد : أن أتخلّى » .

فهز دوبروي كتفيه : « انت تعلم جيداً انك لا تستطيع » .

فقال هنري :

– في هذه النقطة ستفاجأ . سوف افعل ذلك . .

– وتغرق « الاشتراكي الثوري الحر » ؟ اتدرك كم سيهلل خصومه ؟ «الامل» افلست ، و « الاشتراكي الثوري الحر » صُفّي ! سيكون هذا جميلاً !

فقال هنري في مرارة :

– أستطيع ان اترك « الأمل » لسامازيل وان أشتري لنفسي مزرعة في

« آرديش » . لن تكون حالة « الاشتراكي الثوري الحر » اسوأ .

فنظر اليه دوبروي نظرة عصبية: « افهم ان تكون غاضباً. انني ارافع معترفاً بالذنب . لقد اخطأت اذا وثقت بمثل هذه السهولة بتراريو وكان عليّ ان اكلمك منذ شهر تموز . لكن سأفعل كل شيء لأصلح هـــذا . » وأصبح صوته لجوجاً : « ارجوك ، لا تتعنت . سنفتش معاً عن وسيلة للخروج من المأزق » .

وتفرس هنري في وجهه في صمت : الاعتراف بالأخطاء عملية بارعة ، افضل طريقة للتخفيف من شأنها. لكن افدح الأخطاء ، كان دوبروي يجهد في السكوت عنها . في الحقيقة ، لقد أعلن انه مذنب في استغلاله الفظيع للثقة . كان يتظاهر ، مقابل التضحيات التي يطلبها من صداقتك ، ان يعطيك صداقته ، ولم يكن يعطي شيئاً مطلقاً . كان يجب ان يقول له : انت تسخر مني ومن جميع النـاس . انت على استعداد للتضحية بأي انسان حباً بالحقيقة والخير . لكن الحقيقة التي تعتقدها ، والخير الذي تريده . انت تعتبر الكون كله من عملك وليس هنـــاك أي حدود بينك وبين المخلوقات البشرية . وحتى عندما تمثل دور الكريم . فهـــذا في سبيل مجدك الخاص ايضاً » . كان يمكن ان يقول له ألف شيء آخر ايضاً : لكن لا بد عندئذ من صفق هذا الباب وراءه دون ان يفتحه ثانية البتة . وكان هنري يفكر : « هذا ما يجب ان افعله » . مهما كان قراره يمس الجريدة ، فعليه ان يقطع صلاته بدوبروي ، فوراً . ونهض . ونظر إلى العربة الدائرة ، إلى الكتب ، إلى صورة آن ، وشعر انه جبان . طوال خمسة عشر عاماً كان هذا المكتب بالنسبة له مركز العالم وبيته . هنا كانت الحقيقة تبدو أكيدة ، والسعادة هامة ، وكان يبدو انـه امتياز كبير ان يكون ذاته. لم يكن يستطيع ان يتصور نفسه سائراً في الشوارع وعلى ظهره هذا الباب الذي أغلق إلى الابد . وقال بصوت حيادي :

ـــ هذا لا فائدة منه . لا خيار لنا . انني لا أتعنت . ولكن في مثل هـــذه الشروط لم يعد يستهويني ان اهتم بـ « الامل » . ويقيناً نستطيع ان نرتب الامور بحيث لا يضر ذهابي لا بالجريدة ولا بـ « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال دوبروي :

— اسمع ، اترك لي يومين . إذا لم استطع خلال يومين ان أحصل على شيء ، فسترى ما ستقرره .

فقال هنري :

— ليكن . لكن كل شيء واضح سلفاً.

عندما وجد هنري نفسه في الخارج ثانيـــة ، كان رأسه يدور . وخطا عدة خطوات في اتجاه الجريدة ، لكن كان هذا آخر مكان يتمنى ان يذهب اليه : ان يواجه لوك، لوك الذي سيندب نفسه او الذي سيقترح غارة أخرى على طبيب اسنان، كان هذا فوق قواه. ولا بول ايضاً ، بتكهناتها ، وتضرعاتها . إلا انه كان بحاجة إلى الكلام . كان يشعر انــه مخدوع وكأنه خارج من إحدى تلك الجلسات التي يكشف لك فيها مشعوذ محتال زوراً عن ألاعيبه . كان دوبروي يغش ، وكان سيضبطه في الجرم المشهود: ثم لا، فاللعبة قد نجحت، والبطاقة المغشوشة لم تعد بين يديه، ولا في جيوبه. إلى اي مدى كذب، هل كذب على نفسه؟ بين المجون والنية السيئة ، اين تقع خيانته ؟ انها موجودة ، هذا بعيد عن الشك ، لكن يستحيل ان يدل عليها بالاصبع. «لقد تركته يلعب عليّ ثانية». ومن جديد بهرته البداهة: انها مؤامرة متعمدة ، وقد شد دوبروي جميـع خيوطها وهو يقهقه . وتوقف هنري وسط الجسر وأسند يديه إلى الافريز . هل كان يبني هذياناً ؟ ام كان على العكس يغوص في الحماقة عندما كان يشك في ميكيافيلية دوبروي ؟ على كل حـال ، إذا استمر في التأرجح من بداهة إلى أخرى بمفرده ، فإن رأسه سينفجر كان يجب حتماً ان يناقش الأمر مع شخص ما . وفكر بلامبير ، وقـــال في نفسه : « لو تبعت نصائحه ، لما وصلت إلى هنا » . لم يكن لامبير يحب دوبروي ، لكنه كان يدعي التجرد . وكان الوحيد الذي يستطيـع هنري ان يفاتحـــه بحديث جدي . وانتهى من عبور الجسر ودخل إلى غرفة الهاتف في مقهى « بيار » :

— آلو ! انا بيرون . أأستطيـع الصعود لأقول لك صباح الخير ؟

— بالتأكيد . بل انها لفكرة طيبة جداً ! كان هناك بعض الدهشة في صوت لامبير الحار : « كيف الحال ? » .

فقال هنري :

– على ما يرام . اني قادم فوراً .

لقد أعادت حرارة هذا الصوت القلقة الهدوء إلى نفسه . كانت عاطفة لامبير الودية خرقاء قليلاً ، لكن هنري بالنسبة له على الأقل لم يكن بيدقاً على رقعة شطرنج . وارتقى الدرج بخطى سريعة : نهار غريب يقضيه في ارتقاء الأدراج وكأنه مرشح للأكاديمية .

وقال لامبير في غبطة :

– مرحباً . ادخل من هنا . ستعذرني على هذا الماخور : لم يتح لي الوقت لترتيبه .

فقال هنري :

– قل إذن ، انت تسكن في شقة أنيقة للغاية !

غرفة كبيرة مضيئة ، فوضى معتنى بها ، بيك – آب ، مكتبة اسطوانات ، كتب مجلدة ومصفوفة حسب اسماء المؤلفين . وكان لامبير يرتدي كنزة سوداء ، مع منديل من الحرير الأصفر : كان هنري يشعر بالغربة قليلاً بين هذا المجموع كله .

وسأل لامبير وهو يفتح خزانة في أسفل مكتبة الاسطوانات :

– عرق ، وسكي ، مياه معدنية ، عصير فواكه ؟

– قدح وسكي ممتلىء .

وذهب لامبير ليأتي بالماء من غرفة الحمام الخضراء الشاحبة . ولمح هنري ثوب حمام كبيراً من القماش النافش ، ومجموعة كاملة من الفراشي والصابون . وسأل لامبير :

– كيف حدث انك لست في الجريدة في مثل هذه الساعة ؟

– هناك متاعب مع الجريدة .

– اية متاعب ؟

لم يكن صحيحاً ان لامبير لا يبالي بالجريدة . بل كان بينه وبين لوك

بالأحرى نفور قوي يمكن فهمه بسهولة عندما يشاهدان جنباً إلى جنب . لكنه استمع إلى قصة هنري في انتباه مستنكر . وقال :

– يقيناً انها مناورة ! » وفكر : « ألا تعتقد ان دوبروي سيتدبر أمره ليدخل إلى الجريدة مع سامازيل ؟ او مكان سامازيل ؟ » .

فقال هنري :

– كلا ، لا اعتقد ان الصحافة لا تستهويه . وعلى كل الأحوال ، انه يشرف على « الأمل » باسم « الاشتراكي الثوري الحر » . لكن هذا لا يبدل شيئاً ، فقد نصب لي على كل حال فخاً قذراً . » وتفرس في وجه لامبير : « ماذا كنت تفعل مكاني ؟ » .

فقال لامبير :

– اترك كل شيء إذا شئت ، لإزعاجهم . لكن ما يجب ألا تفعله بأي ثمن ، هو ان تترك لهم الجريدة بكل لطف . انهم لا يطلبون إلا ذلك .

فقال هنري :

– لا أريد فضيحة . لكني سأترك كل شيء بهدوء .

فقال لامبير :

– هذا يعني انك اعترفت بأنك قُهرت .

– انت الذي ينصحني دوما بعدم الشغل في السياسة ، هي ذي فرصة للخروج منها .

فقال لامبير :

– « الأمل » ليست قضية سياسية . لقد خلقتها ، انها مغامرتك.» وقال في حرارة : « كلا ، دافع عن نفسك . لو كنت أملك مالاً حقاً ! ولكن ليس لدي منه ما فيه الكفاية كيلا اعرف ماذا افعل به .

– ولن اجد مالاً في أي مكان آخر ، انهم يعلمون ذلك جيداً .

– أقبل بسامازيل وتدبّر أمرك مع لوك حتى لا يكون له تأثير .

– إذا ما تضامن مع تراريو ، فستكون لهما قوتنا نفسها .

فقال لامبير :

– من أنّى له المال ليشتري حصصاً ؟

– سلفة على كتابه . او سيساعده ترابو .

– لماذا هو حريص إلى هذا الحد على سامازيل ؟

– هل أعرف ؟ إنني لا اعرف حتى لماذا نجد هذا الشخص في « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال لامبير :

– يجب ان نجد رداً . » كان يذرع غرفته في سحنة متألمة ، عندما سمعا دقتين قويتين على البـاب . واحمر لامبير حتى جذور شعره : « ابي ، لم أكن أنتظره في هذا الوقت الباكر ! » .

فقال هنري :

– انني منسحب .

فنظر اليه لامبير في سيماء من حرج ورجاء :

– ألا تريد ان تقول له صباح الخير ؟

فقال هنري في حدة :

– بلى ، بالتأكيد .

ان يقول صباح الخير، هذا لا يلزمه بشيء . ومع ذلك فلم ينجح هنري إلا في اغتصاب ابتسامة متشنجة عندما رأى هذا الرجل الذي اوشك ان يرسل روزا إلى الموت ، والذي بذل ما بوسعه دون شك لخدمة الالمان ، يتقدم نحوه . تحت الشعر الشائب ، كان الوجه الأصفر والمنتفخ تضيئه عينان زرقاوان بلون البورسولين ، لون ازرق حنون لا يمكن استعماله ، يدهش في هذا الوجه المهترىء . وانتظر السيد لامبير ان يمد هنري له يده ، لكنه كان اول من تكلم ، وقال :

– كنت اشعر بفضول للقائك . لقــد حدثني جيرار كثيراً عنك ! » ورسم ابتسامة سرعان ما حذفها : « ما أصغر سنك ! » .

كان لامبير ، بالنسبة له ، يدعى جيرار، ولم يكن إلا طفلاً . كان هذا طبيعياً

وغريباً ، في ان واحد. ما كانا يتشابهان، لكن المرء ما كان ليدهش ، لهذا السبب او ذاك ، من انهما اب وابن . وقال هنري في طلاقة :
— لامبير هو الصغير ، وليس انا .
— انت صغير بالنسبة لرجل جعل الناس يتحدثون عنه كثيراً . » وجلس السيد لامبير ، وقال وهو يلتفت نحو ابنه : « كنتما تتحادثان » . لا أريد ان ازعجك . لكني انهيت اعمالي أبكر مما كنت اظن ، ولا اعرف إلى اين اذهب . وهكذا صعدت ... » .
— لقد فعلت حسناً ! هل تريد أن تشرب شيئاً ما ؟ عصير فواكه ؟ مياهاً معدنية ؟ » كان في استعجال لامبير اضطراب يزيد في استياء هنري . وقال الاب وهو ينظر حوله في ارتياح :
— شكراً ، لا . ان هذه الطوابق الأربعة صعبة قليلاً على عظامي الهرمة . لكن هنا مريح .
فقال هنري :
— نعم ، ان مسكن لامبير حسن .
— انه تقليد في العائلة .» واضاف السيد لامبير : « اعترف بأن تقديري لنزواته في الملابس أقل . »
وكان صوته خجلاً ، لكنه كان يحدج الكنزة السوداء بنظرة قاسية . وتمتم لامبير دونما ثقة :
— لكل ذوقه .
وساد صمت قصير انتهزه هنري لينهض : « انني آسف : عندما قرعت كنت ذاهباً . لدي عمل مستعجل » .
فقال السيد لامبير :
— انا الآسف . لقد قرأت كل ما كتبته بعناية كبيرة ، وثمة أشياء وددت لو اناقشك فيها . » واضاف وهو يختنق ابتسامة اخرى : « لكني افترض ان هذه المناقشة لن يكون منها فائدة إلا لي » . كان في صوته المستوي ، في ابتساماته

المتحفظة ، في حركاته ، سحرٌ تعب . لكن كان يبدو عليه انه يرفض استخدامه وكان هذا التحفظ يظهره مترفعاً ومتهرباً في آن واحد .

وقال هنري :

– ستتاح لنا الفرصة بالتأكيد لنتقابل ثانية مدة اطول .

فقال الرجل الشيخ :

– ليس هذا اكيداً جداً .

بعد بضعة اشهر دون شك ، سيكون في السجن ، وربما لن يخرج منه حياً . لا بد انه كان ، في زمنه نذلاً رائعاً ، هذا السيد الكبير المتعاون ، الا انه كان قد عبر الخط ، كان من جانب المحكومين وليس من جانب المذنبين . وفي هذه المرة ، ابتسم له هنري دون جهد وهو يشد على يده .

وقال لامبير وهو يرافق هنري إلى الغرفة الملاصقة :

– أأستطيع أن أراك غداً ؟ لقد جاءتني فكرة .

– فكرة طيبة ؟

– ستحكم . لكن انتظر أن أحدثك عنها لتقرر . اذا مررت حوالي الساعة العاشرة مساء ، فهذا حسن ؟

– حسناً . لكن ليس فيما بعد لأنني سأخرج مع سكرياسين .

فقال لامبير :

– اتفقنا . لقد وعدت نادين ببعد الظهر ، لكن اعتمد عليّ قبل العاشرة بقليل .

على كل حال ، لم يكن هنري يفكر بأخذ قراره اليوم . لم يعد يريد حتى ان يتساءل عما سيفعله ، ولا ان يناقش في ذلك . كان لا بد من ذهابه إلى الجريدة ، في النهاية ، لكنه صرح في برود للوك ان مقابلته مع تراريو قد تأجلت ، واستغرق في تحرير بريده . كذلك بول ، لن يطلعها على الأمر . وما كان يتمناه ، وهو يدير المفتاح في قفل الاستديو ، ان تكون قد نامت : لكنها كانت لا تنام ابداً ، في أي ساعة يعود فيها . ومدت له فمها الذي لامسه بسرعة ، وهي جالسة على

الأريكة ، في ثوبها الحريري المتقلب اللون ، وما كياجها لا يزال طرياً . وسألت :

– نهار طيب ؟

– طيب جداً ، وأنت ؟

وابتسمت دون ان تجيب : « ماذا قال تراريو ؟ » .

– انه موافق .

فقالت وهي تنظر اليه نظرة عميقة :

– ألا يزعجك هذا حقاً ؟

– ماذا ؟

– ان تقبل رؤوس أمواله ؟

فقال في جفاء :

– كلا . انها مسألة سوّيت منذ زمن بعيد .

وترددت ولم تقل شيئاً . كانت تتردد منذ يومين . وكان هنري يعرف ما تفكر به ، لكنه لم يكن يريد ان يساعدها على التصريح عما في نفسها . وكان هذا الاحتراس يغيظه . وكان يفكر في عداء : « انها تداريني ، لقد قررت ألا تصدمني ، انها تنتظر ساعتها » . وقال في نفسه وهو يجهد في ان يكون متجرداً : « منذ ستة اشهر ، عندما كانت مرحة وعدائية ، كنت ألومها على ذلك » . وفكر : « في الحقيقة ما يغضبني ، هو انها تتصنع في السلوك » . كانت تعلم انها في خطر ، وكانت تحاول ان تدافع عن نفسها ، وكان هذا طبيعياً : إلا انه لا يمنع ان حيلها الكئيبة كانت تجعل منها عدوة . كان قد كف عن محادثتها عن الغناء. كانت قد تبينت الهدف من لعبته ، ورفضت رفضاً قاطعاً كافة المواعيد التي اخذها لها . لكنها أخطأت في حسابها هذا . كان يلومها على عنادها وقد قرر الآن ان يستغني عن مؤازرتها من اجل تصفيتها . وقالت وهي تناوله مغلفاً :

– هذه رسالة من بونسوليه .

فقال هنري :

– افترض انه يرفض . » وتصفح الرسالة وناولها لبول : « نعم ، بالطبع ، انه

يرفض » .

لقد اعادوا له مخطوطته مرتين مع تقريظ مذعور : عمل كبير جداً ، لكنه مثير للفضيحة ، غير مناسب ، ومن المستحيل ركوب مثل هذه المخاطرة . هـذا ممكن فيما بعد عندما تهدأ الأحقاد . بديهي ان المسرحية كانت لا تعجب جميع اولئك الذين يريدون ان ينسوا الماضي ، وأيضاً الذين يزعمون انهم يقومونه حسب رغبتهم . ومع ذلك ، كان يود كثيراً لو انها تمثل . كان يشعر بميل نحوها أكثر من أي كتاب من كتبه . ان المرء لا يستطيع ان يعيد قراءة رواية، فالكلمات تلصق بعينيه . لكن هذا الحوار ، الذي سيحدث ذات يوم في أصوات حية ، كان يسمعه عن بعد ، في تجرد الرسام الراضي الذي يلقي على لوحته لمحة عين متواطئة ، وقالت بول بصوت ملهم :

– يجب ان تُمثل .

– انني لا اطلب غير هذا .

فتابعت :

– انني لا أعلق على النجاح أهمية أكبر من التي تعلقها انت . لكني اشعر انك لن تعود إلى روايتك قبل ان تتحرر من هذه المسرحية .

فقال هنري متفاجئاً :

– يا لها من فكرة !

– ألم تعد إلى روايتك ؟

– كلا . لكن المسرحية لا دخل لها في هذا .

فسألت وهي تتفحص هنري بنظرة من يعرف أشياء كثيرة :

– إذن ، لماذا ؟

فابتسم : « لنقل انه الكسل » .

فقالت في رصانة : « انت لا تعرف ابـداً ما الكسل » . وهزت رأسها : « من الواضح انها مقاومة داخلية » .

فقال هنري :

– لقد كانت بداية تلك الرواية سيئة . انني ارغب في كتابتها من جديد، لكني اعرف ان هذا سيكون عملاً ضخماً . إذن ، فإني لست مستعجلاً ، هذا كل شيء .

فهزت رأسها : « لم أرك ابداً تتراجع امام عقبة » .

– حسناً ! انني أتراجع ، هذه المرة .

فقالت بول :

– لماذا لم تريني مخطوطك ؟ ربما كان بإمكاني ان أعطيك نصيحة .

– قلت لك مئة مرة ان مسوداتي مشوهة .

فقالت في تأمل :

– هذا ما قلته لي .

– لقد أريتك مسرحيتي .

– بالفعل . كانت المسودات الأولى مشوهة وأريتنيها .

ولم يجب . كان في ذلك المخطط الأول ، قد عبر بصراحة كبيرة عنه ، وعنها . وستكون الرواية التي سيحاول ان يستخرجها منه ، ذات يوم ، اكثر كتماناً . ولم يكن على بول إلا ان تصبر قليلاً . وتثاءب :

– انني اترنح نعاساً . غداً لن أبيت هنا ، سأنام في الفندق . لأنني أتوقع ان سكرياسين لن يطلق سراحي قبل الفجر .

– انني لا أفهم مزية الفندق ، سواء كان الفجر ام الغسق . لكن ستفعل ما تشاء .

ونهض ونهضت ايضاً . كانت لحظة خطرة . كان يضع قبلة سريعة على صدغها ويستدير نحو الجدار متظاهراً بالاستغراق في النوم حالاً . لكنها كانت تتشبث به بعض الأحيان ، وتأخذ بالارتعاد او الهمس ، وكانت الطريقة الوحيدة لتهدئتها ان ينام معها . لم يكن ينجح في ذلك دوماً ، وابداً بدون مشقة . لم تكن تستطيع ان تتجاهل ذلك . وللتعويض عن هذا البرود ، كانت تستنفد نفسها في تهيج يبعث الشك في حقيقة لذتها . وكان هنري يكره ، اكثر ايضاً

من عدم حيائها التائـــه ، مداهنتها وعلى الأخص مذلتها . ولحسن الحظ ، ظلت هادئة ، تلك الليلة : لا بد انها شعرت ان هناك شيئاً ما لا يسير على ما يرام. كان هنري محتفظاً بعينيه مفتوحتين ، وقد أسند خده إلى رطوبة الوسادة ، وبينما كان يفكر في ذلك النهار ، لم يعد يشعر بالغضب ، بل بالضيق . لم يكن هو المخطىء ، إنما دوبروي : كانت تلك الغلطة التي لم يكن يستطيع اخمادها لا بالتبكيت ولا بالوعود تثقل على قلبه كما لو انها كانت غلطته .

ان يترك كل شيء : كانت هذه اول فكرة خطرت لهنري عند اليقظة . ولم يتلفن لدوبروي . وطوال النهار ، ردد في نفسه هذه الكلمات كأغنية مهدئة . ان يناقش ، وان يتساهل ، وان يتحالف ، في حين ان هذه الجريدة ملكه الذي لا ينازع عليه ، كلا ، ان هذه الصورة لتبعث فيه الاشمئزاز . كان يفضل اكثر بكثير ان ينزوي في الريف ، وان يعود إلى روايته ، إلى مهنته ككاتب: سوف يقرأ « الأمل » عند ركن ناره ، بعين لاهية . كان هذا مشروعاً جذاباً جداً إلى حد انه عندما رأى باب مكتبه يفتح ، في الساعة العاشرة مساء ، تمنى لو ان الفكرة التي جاء لامبير يعرضها عليه ليست طيبة .

وقال لامبير ، بصوت يعتذر اكثر مما يشكر :

– لقد كنت لبقاً امس إذ بقيت لحظة ! لقد سر والدي للغاية !

فقال هنري :

– كان يستهويني ان اعرفه . انه يبدو متعباً ، لكني شعرت انه كان له سحر كثير في الماضي ، ولا يزال يحتفظ بشيء منه .

فقال لامبير مندهشاً :

– سحر ، كان على الأخص مستبداً . مستبداً ومحتقراً . على كل حال ، انه لا يزال كذلك في اعماقه .

– اواه ! انني اتصور بسهولة انه لا يستطيع ان يكون دمثاً !

فقال لامبير :

– كلا ، ليس دمثاً بالمرة . » وبدرت منه حركة كأنه يريد أن يطرد

ذكرياته : « هل هناك شيء جديد بشأن الجريدة ؟ » .

– لا شيء .

فقال لامبير :

– إذن اسمع ما سأقترحه عليك . » وفقد سيطرته على نفسه فجأة : « لعلك لن تريد » .

– قل على كل حال .

– انت ولوك ، تجاه سامازيل وتراريو ، تجازفان بأن تُبتلعا : لكن افترض انني دخلت معكم ؟

– انت ؟

– عندي ما يكفي من المال لشراء قدر ما سيشتريه سامازيل . عندئذ ، اذا كان من المتفق عليه ان القرارات ستتخذ بأغلبية الاصوات ، فنحن ثلاثة ضد اثنين ، وسنربح .

– كنت تتردد في البقاء في الصحافة ؟

فقال لامبير بصوت متكلف السخرية :

– انها مهنة تعدل غيرها . ثم إن «الأمل» كانت ملحمتي الصغيرة الخاصة بي.

فابتسم هنري : « نحن لسنا متفقين سياسياً دوماً » .

فقال لامبير :

– لا أبالي بالسياسة . اريد ان تحتفظ بالجريدة على كل حال ، سيكون لك صوتي . » وأضاف في مرح : « على كل ، انني غير يائس من رؤيتك تتطور . كلا ، ان المسألة الوحيدة هي ان نعرف ما إذا كان تراريو سيقبل » .

فقال لامبير :

– لا بد أن يسر بأن ينضم اليه كاتب ريبورتاجات بارع .» وأضاف :«لحسن الحظ انك لم تقرف من الريبورتاجات ، فمقالاتك عن هولندا جيدة جداً » .

فقال لامبير :

– هذا بفضل نادين ، هذا يستهويها كثيراً إلى حد انه يستهويني ايضاً . »

ونظر إلى هنري نظرة قلقة : « هل تعتقد ان تراديو سيقبل ? » .

– افترض انه يزعجها ان أستقيل . إذا قبلت بسامازيل ، فسوف يقبلان بالتنازل لي عن مطلب واحد .

فقال لامبير في سحنة خائبة قليلاً :

– انت لا تبدو متحمساً ?

فقال هنري :

– آه ! هذه القصة كلها تقرفني ! لا اعرف ما اريد ان افعل . » وسأل وهو يقطع الحديث عمداً : « أمعك دراجتك البخارية ? » .

– نعم . أتريد ان اوصلك إلى مكان ما ?

– اوصلني إلى شارع دي ليل . ان سكرياسين يسكن عند الأم بلزونس .

– أينام معها ?

– لست ادري. ان كلودي تؤوي عندها دوماً مجموعة من الكتّاب والفنانين، ولست ادري مع أيهم تنام .

فسأل لامبير وهما يهبطان الدرج :

– أتراه غالباً ، سكرياسين ?

فقال هنري :

– كلا . من حين لحين يدعوني بشكل لا يمكن الرفض معه : وبعد ان أتهرب عشر مرات أقبل في النهاية .

وامتطيا الدراجة التي تبعت أرصفة السين في ضجة . كان هنري ينظر في شيء من التبكيت إلى رقبة لامبير . لقــد كان اقتراحه لطيفاً . لم يكن حريصاً على الدخول إلى الجريدة ، وما كان يفعله إنما يفعله فقط لتأدية خدمة لهنري . وقــال هنري في نفسه : « ولم أشكره كما يجب » . لكنه ، في الحقيقة ، لم يكن يشعر بالجميل تجاهه البتة . كان يكرر في نفسه : « أفضل شيء ان اترك . انني افضل كثيراً ان أترك » . الاحتفاظ بالجريدة ، والبقاء في « الاشتراكي الثوري الحر » ، هذا يعني الاستمرار في العمل يداً في يد مع دوبروي . ان المرء لا يعمل يــداً في

يد ، عندما يكون قلبه مليئاً بمثل هذا الحقد . لم يكن قد وجد القوة ليقطع صلته به نهائياً . لكنه لم يمثل لعبة الصداقة . وقال في نفسه بينما كانت الدراجة تتوقف امام فندق بلزونس : « كلا ، لقد انتهى الأمر » .

قال لامبير بصوت خائب :

— حسناً . انني تاركك .

وتردد هنري . كان يضجره ان يترك لامبير بمثل هذه الساعة ، بعد ان استقبل ببرود كثير عرضه الذي وضع فيه قلبه كله . وسأل :

— أيسليك ان تأتي معي ؟

وأضاء وجه لامبير . كان يعبد عبادة ان يرى أناساً معروفين : « هذا يسليني كثيراً . لكن هذا سيكون من عدم الرصانة ، كلا ؟ » .

— أوه ! مطلقاً . سنذهب لشرب الفودكا في حانــة غجرية ، وإذا حلا له ، فإن سكرياسين سيدعو جميع الموسيقيين . ولا مجال للحرج معه .

— اشعر انه لا يحبني كثيراً .

فقال هنري في ود : « لكنه يحب كثيراً صحبة الناس الذين لا يحبهم . تعالَ إذن » .

ودار حول البناية الكبيرة التي كانت جميع نوافذها مضاءة . وكانا يسمعان موسيقى جاز . وقرع هنري باباً صغيراً جانبياً وفتـــح سكرياسين . وابتسم في حرارة دون ان يبدو ان حضور لامبير قد أدهشه أدنى دهشة .

— كلودي تقيم كوكتيلاً ، هـــذا فظيع ، ان المنزل مليء بعشاق العجائز المتصابيات ، إنني لا أشعر أنني في بيتي . تعال من هنا ثم سنهرب خلسة .

كان جيب قميصه مفتوحاً على رحب،وكانت نظرته شاخصة شخوصاً ضبابياً .

وارتقيا بضع درجات . في آخر الممشى، كان باب ينفتح على غرفة مضاءة ، يسمع منها همس . وقال هنري :

— أعندك أناس ؟

فقال سكرياسين في حبور : « انها مفاجئة » .

وتبعه هنري في شيء من التخوف. وعندما رآهما ، تراجع إلى الوراء في حركة لا إرادية : فولانج وهوغيت . وببشاشة ، مد لويس يده . لم يكن قد تغير تقريباً . كانت غضون الجبين أكثر عمقاً من الماضي ، والذقن أكثر صلابة : وجه جميل فصلته الأجيال القادمة بعناية . وبلمح البرق ، تذكر هنري انه وعد نفسه غالباً عندما كان يقرأ المقالات المجاملةالتي كان لويس يكتبها من المنطقة الحرة، ان يسحق قبضته ذات يوم على فكه . ومدّ هو أيضاً يده . وقال لويس :

– إنني مسرور جداً برؤيتك، يا صديق . ما كنت لأجرؤ ابداً على إزعاجك. انا أعلم انك مشغول جداً . لكني كثيراً ما رغبت في الثرثرة معك .

وقالت هوغيت :

– لم تتغير مطلقاً .

لم تكن قد تغيرت هي الأخرى. كانت شقراء ، شافـّة ، أنيقة كما في الماضي، وكانت تبتسم البسمة المعطرة نفسها . إنها لن تتغير ابداً : لكن ذات يوم سيمسها احدهم بطرف اصبعه وستتفتت غباراً . وقال هنري :

– الحقيقة انني لا أرى احداً . انني اشتغل كبهيمة .

فقال لويس في مودة :

– نعم ، لا بد انك تعيش حياة قذرة . لكنك ايضاً خلقت لنفسك مركزاً أدبياً من الدرجة الأولى . وهذا لا يدهشني على كل حال ، فقد كنت مقتنعاً دوماً بأنك ستفرض نفسك في النهاية . أتعرف ان كتابك يبلغ ثمنه ثلاثة آلاف في السوق السوداء ؟

فقال هنري :

– ان جميع الكتب ، في الوقت الراهن ، تباع كالمقانق .

فقال لويس في لهجة مشجعة :

– هذا صحيح . لكنك نلت نقداً مدهشاً . » وابتسم : « يجب القول انك وقعت على موضوع ذهبي . لهذا انت تلمع . عندما تحصل على مثل هذا الموضوع ، فان الكتاب يُكتب من نفسه » .

كان لويس قد احتفظ بابتسامته المتراخية . لكن كان في صوته إلحاح يتناقض مع طرقه القاطعة فيما سبق . وقال هنري :

– وأنت ، إلامَ صرت اليه ؟

كان يشعر بخجل مبهم ، دون ان يعرف ما إذا كان هذا لحساب لويس ، او لحسابه الخاص . وقال لويس وهو ينظر إلى أصابعه :

– آمل ان احصل على زاوية النقد الأدبي في صحيفة اسبوعية ستصدر قريباً .

وقال سكرياسين في نفاد صبر :

– لنهرب من هنا . ان هذه الموسيقى لا تحتمل . هيا لنشرب بعض الشمبانيا في « العزبة » .

فقال هنري :

– كنت أظن انك لن تضع قدمك ثانية في ذلك الماخور منذ ان سرقوا محفظتك .

فابتسم سكرياسين ابتسامة محتالة : « ان السرقة مهنتهم . إنما على الزبون ان يدافع عن نفسه » .

وتردد هنري . سوف يكون خشناً ، لكن لماذا يحاولون ان يضعوه أمام الأمر الواقع ؟ لم يكن يرغب البتة في تمضية السهرة مع لويس . وقال :

– على كل حال ، لن استطيع مرافقتكم . لقد جئت راكضاً لأنني قلت لك انني سآتي لكن يتوجب عليّ ان أعود إلى الجريدة .

فقال لويس :

– انني أكره الحانات الليلية . لنبق إذن هنا في هدوء .

فقال سكرياسين :

– كما تشاء ! » ونظر هنري في سيماء من تعاسة : « لديك وقت على كل حال لشرب قدح ؟ » .

فقال هنري :

– أجل ، بالتأكيد .

وفتح سكرياسين خزانة واخرج منها زجاجة وسكي : « لم يبق منها كثير» .

فقال لويس :

– انني لا أشرب وكذلك هوغيت .

وظهرت كلودي على عتبة الباب ، وقالت وهي تشير إلى سكرياسين : « هذا شيء ساحر ! » . انه يأتي نصف سكران إلى كوكتيلي، ويهين مدعويّ، والناس المهمين ، يسرقهم مني خلسة ! لن أستقبل روسياً عندي ... » .

فقال سكرياسين :

– لا تعوي هكذا . » واضاف متنهداً : « ان الجدجد سيأتي . الجدجد هو البوق » .

وأغلقت كلودي الباب ، وقالت في حزم : « انني باقية معكم . ستقوم ابنتي بدور ربة البيت » .

وساد صمت محرج . وقدم لويس سجاير اميركية للجميع . وسأل هنري في طيب نية :

– وماذا تفعل في الوقت الراهن ؟

فقال هنري :-

– افكر برواية اخرى .

فقالت كلودي :

– آن قالت لي انك كتبت رواية جميلة جداً .

فقال هنري في مرح :

– لقد كتبت مسرحية . وقد رفضها حتى الآن ثلاثة مديرين .

فقالت كلودي :

– يجب ان أهيء لك لقاء بلوسي بيلوم .

– لوسي بيلوم ! من هذه !

– انت عجيب . جميع الناس يعرفونك ، ولا تعرف أحداً . انها هي التي تدير بيت آماريليس ، بيت الخياطة الكبير الذي يتحدث عنه الجميع .

ـ لست افهم .

ـ ان لولو هي عشيقة ريشوتير الذي طلقته زوجته لتتزوج فيرنون . وفيرنون هو مدير الاستديو ٤٦ .

ـ ما زلت غير فاهم .

فأخذت كلودي تضحك : « فيرنون يطيع زوجته طاعة عمياء حتى تسامحه على صداقاته الذكورية . انه يمارس اللوطية اكثر من اي انسان آخر . وقد ظلت جوليت على صداقة متينة مع زوجها السابق الذي يطيع اولو طاعة عمياء. أتفهم ؟

فقال هنري :

ـ هذا واضح . لكن ما دخل لولو في هذه القصة ؟

ـ عندها ابنة رائعة تحاول ان تجعل منها ممثلة . هنـــاك دور لأمرأة في مسرحيتك ، ولا شك ؟

ـ نعم . ولكن ...

ـ مع لكن لا يمكن الوصول إلى شيء . اقول لك ان الصغيرة رائعة . في اليوم الذي ستأتي فيه إلى عندي ، سأقدمها لك . » وقالت كلودي في نزق : « أنت تقاطع دوماً استقبالاتي ايام الخميس ، لكنني سأسألك خدمـــة لن تستطيع ان ترفضها لي . انني اهتم بدار الاطفال المنفيين ، وهذا يكلف غالياً ، غالياً جداً على امرأة بمفردها مثلي . لهذا فقد نظمت سلسلة محاضرات لمحاضرين متطوعين. وسوف يأتي جمهور كبير ، أنا واثقة ، من أولئك المحبين للظهور الذين على استعداد لدفع ألفي فرنك لرؤيتك لحماً وعظماً . انني سأسجلك لجلسة من الجلسات الأولى .

فقال هنري :

ـ انني اكره هذا النوع من الاجتماعات .

ـ من اجل اطفال المنفيين ، لا تستطيع ان ترفض . حتى دوبروي سيقبل .

ـ ألا يستطيعون ان يبصقوا ألفي فرنك دون أن يزعجوا احـــداً ، محبّو المجتمع أولئك ؟

ـ انهم سيبصقون مرة واحدة ، لا عشر مرات . ان الاحسان شيء جميل

جداً ، لكن يجب ان تكون منه فائدة . هذا مبدأ الحفلات الخيرية . » وأخذت كلودي تضحك: « انظر يا سكرياسين كم يبدو حانقاً : انه يعتقد انني احتكرك!»

فقال سكرياسين :

– إنني أعتذر . لكن بالفعل ، كنت اود ان أقول كلمة لبيرون .

فقالت كلودي :

– قل !

وذهبت لتجلس على الأريكة ، إلى جانب هوغيت ، وأخذتا في الثرثرة بصوت خافت .

وانتصب سكرياسين امام هنري: « كنت تقول في اليوم السابق ان «الأمل» باتحادها مع « الاشتراكي الثوري الحر » لم تتخلّ عن قول الحقيقة » .

فقال هنري :

– نعم . وبعد ؟

– وبعد ، فقد كنت أريد ان أراك فوراً . ان جئتك بوقائع تدين النظام السوفياتي ولا تستطيع ان تضعها موضع شك ، فهل تكشفها ؟

فقال هنري ضاحكاً :

– أواه ! يقيناً ان « الفيغارو » ستكشفها قبلي .

فقال سكرياسين :

– لي صديق عائد من برلين . وقد أعطاني معلومات دقيقة عن الطريقة التي خنق بها الروس الثورة الالمانية وهي لا تزال جنيناً . يجب ان تنشرها جريدة يسارية . فهل انت على استعداد لفعل ذلك ؟

فقال هنري :

– ماذا يروي ، صديقك ؟

وأدار سكرياسين نظرته حول الجميع : بشكل موجز ، اليك . هناك بعض الضواحي في برلين ظلت متعصبة للشيوعية ، حتى تحت هتلر . وأثناء معركة برلين احتل عمال كوبينيك ، وعمال ويدنغ لاروج ، المصانع ، ورفعوا العلم الأحمر

ونظموا لجاناً . كان يمكن لهذا ان يكون بداية ثورة شعبية كبرى . كان تحرير العمال لأنفسهم يتقدم . وكانت اللجان على كامل الأهبة لتقديم ملاكات للنظام الجديد . » وصمت سكرياسين لحظة : « وبدلاً من هذا ، ماذا حدث ؟ لقد جاء البيروقراطيون من موسكو ، وحلوا اللجان ، وصفوا القاعدة ، واقاموا جهاز دولة : جهاز احتلال في الحقيقة » . وتوقفت نظرة سكرياسين على هنري : « هذا لا يعني شيئاً ؟ احتقار البشر ، الاضطهاد البيروقراطي : القضية واضحة ! » .

فقال هنري :

– انت لا تعلمني بشيء . كل ما هنالك انك نسيت ان تقول ان هؤلاء البيروقراطيين ، كانوا شيوعيين المانا لاجئين إلى الاتحاد السوفياتي ، وقد أسسوا منذ زمن بعيد في موسكو لجنة المانيا الحرة : كانوا على كل حال رسميين أكثر من الذين تمردوا أثناء سقوط برلين . نعم ، كان هناك بالتأكيد شيوعيون مخلصون بين العمال : لكن كيف ستعرفهم بينما يدعي ستون مليون نازي في جوقة واحدة انهم كانوا دوماً ضد النظام ! إنني افهم ألا يثق الروس بهم . هذا لا يثبت انهم يحتقرون القاعدة بشكل عام .

فقال سكرياسين في حنق :

– كنت واثقاً من ذلك ! انت دوماً على استعداد لمهاجمة أميركا . ولكن ليس هناك انسان واحد ليفتح فمه ضد الاتحاد السوفياتي .

فقال هنري :

– من الواضح وضوح الشمس لكل ذي عينين انهم كانوا على حق في ان يتصرفوا كما فعلوا !

فقال سكرياسين :

– لا افهم ! هل انت حقاً أعمى ؟ ام انت خائف ؟ ان دوبروي مباع ، جميع الناس يعرفون ذلك . لكن انت !

فقال هنري :

– دوبروي مباع ! انت نفسك لا تصدق ذلك !

فقال سكرياسين :

- اوه ! ليس بالمال يشتريك الحزب الشيوعي . ان دوبروي مسنّ ، وهو مشهور . وقد حصل على الجمهور البورجوازي : انه يريد الجماهير .

فقال هنري :

- اذهب إذن لتقول لاعضاء « الاشتراكي الثوري الحر » ان دوبروي شيوعي !

فقال سكرياسين :

- « الاشتراكي الثوري الحر » ! خدعة جميلة !

وأسند رأسه إلى ظهر مقعده في سحنة منهكة . وقال لويس وهو يبتسم لهنري :

- ألا تجد ان المحزن ألا نستطيع تمضية سهرة بين اصدقاء دون ان نتخاصم بشأن السياسة ؟ العمل في السياسة ، ليكن ، لكن لمَ الحديث عنها في مناسبة او غير مناسبة ؟

من فوق رأس سكرياسين، كان يحاول ان يستعيد من هنري شبابهما المشترك. واغتاظ هنري ، وكان اغتياظه اكثر إذ كان من رأيه . وقال في خشونة :

- انا موافق تماماً .

فقال لويس :

- ان الأمر لينتهي بنا إلى ان ننسى ان هناك اشياء اخرى موجودة على الارض . » ونظر إلى أظافره في حياء : « أشياء تدعى الجمال ، الشعر ، الحقيقة . لم يعد اي انسان يهتم بها » .

فقال هنري :

- لا يزال هناك أناس يستهويهم هذا . » وفكر : « يجب أن أتكلم ، يجب ان اقول له انه لم يعد هناك شيء نفعله معاً » . لكن ليس من السهل أن يهين الإنسان ، دون داعٍ ، اقدم اصدقائه . ووضع كأسه ، وهمّ بالنهوض ، لكن لامبير أخذ بالكلام . وقال في حرارة :

ـ من اذن ؟ على كل حال ، ليست « الطواريء » . كي تقبلوا نصاً ، فلا بد ان يكون محشواً بالسياسة : اذا كان جميلاً أو شعرياً فقط ، فلن تنشروه أبداً .

فقال لويس :

ـ هذا بالفعل مأخذي على « الطواريء ». وأضاف بصوت مهذب : « بالطبع يمكن أن تكتب كتب جميلة جداً عن قضايا سياسية ، وروايتك مثال على ذلك. لكني أتمنى حقاً أن تعاد للأدب الصافي حقوقه » .

فقال هنري :

ـ بالنسبة لي ، هذه كلمة لا معنى لها . » وأضاف بصوت عدائي : « وهي كلمة خطرة . اننا نعرف إلى أين يؤدي هذا عندما نزعم اننا نعزل الأدب عن كل ما عداه » .

فقال لويس :

ـ هذا يتعلق بالعصور . يقيناً لقد أخطأت عام ١٩٤٠ عندما اعتقدت انني استطيع ان اتحفظ من السياسة . » وأضاف في لهجة متأثرة : « صدّق انني فهمت مدى غلطتي كله . لكن اليوم ، يبدو لي ان لنا الحق من جديد في الكتابة مجانياً ، للذتنا الخاصة » .

كان ينظر إلى هنري نظرة متسائلة ومجاملة ، كأنه قد طلب حقاً اذناً. وأغاظ هذا الاعتبار الظاهري هنري . لكن لم تكن هناك فائدة من اثارة خصومة .

وقال في جفاء :

ـ كل انسان حر .

فقال لامبير :

ـ ليس حراً جداً إلى هذا الحد ! انت لا تدرك ذلك : من الصعب معاكسة التيار .

وهز لويس رأسه في ودّ : « بل هذا أكثر صعوبة اليوم حيث يشترك كل شيء في إقناع الفرد بأنه لا شيء . وإذا كان يجد نفسه ثانية ، فانه سيجد أشياء كثيرة ثانية ، لكن هنا المشكلة بالضبط ، انها حلقة مفرغة : انهم لا يعطونه

الوسائل لذلك » .

فقال لامبير بقوة :

– كلا ، لا يعطونه إياها . » ونظر إلى هنري نظرة منتعشة : « أتذكر ، ذات مرة ، في « السكريب » ، تناقشنا حول هذه المسألة . كنت اقول لك ان كل انسان يجب ان يهتم بذاته : لا زلت أؤمن بذلك. إذا فكرت بأني لا شيء، وأني لا استطيع شيئاً ، وانه لا حق لي في شيء ، فماذا تريد ان أصبح ؟ انظر : شانسيل طلب الموت عمـــداً ، وسيزوناك يدمن المخدرات ، وفانسان يسكر ، ولاشوم باع نفسه للحزب الشيوعي ... » .

فقال هنري :

– انت تخلط كل شيء ! إنني لا أرى ما سيأتي به الأدب الصافي إلى فانسان او سيزوناك . » وقـال وهو يلتفت نحو لويس : « اما قصصك عن الفرد الضائع والذي وجد نفسه ، فهي خلط في خلط . هناك أفراد هم شيء ما وغيرهم لا شيء: هذا يتوقف على ما يفعلونه بحياتهم. عندما يكون الانسان شاباً ، لا يكون عارفاً بعد ما سيفعله بها ، لهذا سيكون سئماً : لكن ما ان يهتم بشيء ما – شيء غير ذاته – حتى لا تعود هناك مشكلة » .

كان قد تكلم في غضب . كان يغيظه ان يعلق لامبير أهمية على لفظية لويس . ونهض : « يجب أن اذهب » .

وانتصب سكرياسين ثانية : « أأنت مقرر حقاً ألا تهتم بمعلوماتي ؟ » .

فقال هنري :

– لم تقدم لي أي معلومات .

فصب سكرياسين لنفسه كأس وسكي وجرعه دفعة واحدة. وأمسك الزجاجة من جديد . واقترب من كلودي في حدة ووضعت يدها على ذراعه :

– اعتقد ان الأب فيكتور الصغير قد شرب بما فيه الكفاية !

فصرخ سكرياسين بصوت عنيف :

– هل تعتقدين انني اشرب للذتي ؟

فابتسم هنري : « سيكون هذا سبباً طيباً » .
فقال سكرياسين وهو يملأ كأسه :
ـ ليس هناك طريقة اخرى لأستطيع النسيان !
فسألت هوغيت في ذعر :
ـ نسيان ماذا ؟
فقال سكرياسين :
ـ خلال سنتين سيحتل الروس فرنسا ، وستستقبلونهم راكعين .
فقالت هوغيت :
ـ سنتان !
فقال هنري :
ـ كلا .
فقال سكرياسين :
ـ انتم في طريقكم إلى تسليمهم اوروبا ، انتم جميعاً متواطئون ! انتم خائفون ، هذه هي الحقيقة : تخونون لأنكم خائفون .
فقال هنري :
ـ الحقيقة ان حقدك على الاتحاد السوفياتي يتركك بلا منطق . انت تحرف الوقائع ، وتنشر أي شائعات كانت . انه عمل قذر . من خلال الاتحاد السوفياتي، انما تهاجم الاشتراكية بشكل عام .
فقال سكرياسين بصوت كان يزداد تهتهة :
ـ انت تعرف جيداً ان الاتحاد السوفياتي لم تعد له علاقة بالاشتراكية .
فقال هنري :
ـ لا تقل لي ان اميركا اكثر قرباً اليها !
فنظر سكرياسين إلى هنري بعينين احمرّتا غضباً : « تزعم انك صديقي !وتدافع عن نظام حكم عليّ بالموت ! في اليوم الذي يتمكنون فيه من اعدامي ، ستفسر في « الأمل » انه كانت له اسباب طيبة !

فقال هنري :

– يا إلهي ! كان المناضلون القدامى مضجرين بما فيه الكفاية ! وها أنت الآن تصدع رأسنا بالمعدمين المستقبلين !

ونظر سكرياسين إلى هنري في حقد . وأخذ كأسه نصف الممتلئة ورماها بكل قواه . وحاد هنري وانسحقت الكأس على الجدار . وقال هنري وهو يسير نحو الباب :

– يجب أن تذهب لتنام . » وأشار بيده إشارة صغيرة : « وداعاً » .

فقالت كلودي :

– يجب ألا تؤاخذه . انه سكران .

– هذا واضح .

كان سكرياسين قد ترك نفسه ينهار ثانية على مقعده ، ورأسه بين يديه . وقال هنري عندما وجد نفسه ثانية مع لامبير في باحة الفندق :

– يا لها من جلسة !

– نعم . انني من رأي فولانج : المناقشات السياسية ، يجب أن تمنع .

– سكرياسين لا يناقش : بل يتكهن .

فقال لامبير :

– اوه ! على كل حال ، هكذا يجري الأمر دوماً . يرمون الكؤوس على رؤوس بعضهم البعض ، ولا يعودون يعرفون حتى عمّ يتحدثون . انتما الاثنين تجهلان ما يجري في المانيا الشرقية . انه متحيز ضد الاتحاد السوفياتي، لكنك انت متحيز معه .

– لست متحيزاً . انني اشك جيداً في ان كل شيء ليس كاملاً في الاتحاد السوفياتي ، والعكس هو الذي سيدهش . لكنهم أخيراً ، هم الذين يسيرون في الطريق المستقيم .

ومط لامبير شفتيه استياء ولم يجب بشيء . وقال هنري :

– انني لأتساءل عما كان سكرياسين ينتظره من هذه المقابلة . لا بد انه لويس

الذي اقترحها : انه يأمل في ان اساعده على استعادة اعتباره .

فقال لامبير :

– ربما كان يريد ان يعود صديقاً لك .

– لويس ؟ أتتصور !

فتفرس لامبير في وجه هنري في حيرة: « كان افضل صديق لك في الماضي؟».

فقال هنري :

– صداقة غريبة . عندما جاء إلى تجهيز « تول » ، كان قادماً من باريس ، وصوّرها لي أروع تصوير . وقد وجدني أقل فلاّحية من غيري . لكننا لم نتحابّ ابداً.

فقال لامبير :

– انني أجده ظريفاً .

– انت تجده ظريفاً لأن السياسة تضجرك ولأنه يدافع عن الأدب الصافي . لكن ألا تفهم لماذا يفعل ذلك ؟

فتردّد لامبير : « سواء لهذا السبب او ذاك ، فان ما قاله صحيح . هناك مشاكل فردية ، وليس من السهل حلها عندما يكرر عليك جميع الناس انك مخطيء في طرحها على نفسك » .

فقال هنري :

– لم أزعم هذا . يجب ان تطرحها على نفسك ، موافق . ان ما أقوله هو انه لا يمكن عزلها عن المشاكل الأخرى . لتعرف من انت وماذا تريد ان تفعل ، يجب ان تقرر ما هو وضعك في العالم .

وامتطى لامبير دراجته وركب هنري خلفه . وفكر : « سنة واحدة كانت كافية ، وها هم يعودون في صلف الخاطيء المطمئن إلى انه يساوي تسعة وتسعين عادلاً . ولما كانوا يقولون شيئاً آخر غير الذي نقوله ، فان لامبير والذين في سنّه ، سيعتقدون انهم يأتونهم بجديد » . وقال هنري في نفسه : « سوف يفرّون . لا يجب ذلك . يجب معارضتهم ، بكافة الوسائل » . وما إن توقفت

الدراجة ، حتى قال بصوت حار :

– أتعرف ، انني أقبل عرضك مع اعتراف بالجميل . انها لفكرة رائعة هذه : سنبقى السادة في بيتنا !

فقال لامبير في سيماء من سعادة :

– أتقبل ؟

– بالتأكيد . هذه القصة كلها عكرت مزاجي ، لهذا لم أقفز فرحاً . لكنك تتصور سروري إذا استطعت ان احتفظ بالجريدة !

فقال لامبير :

– هل سيقبل تراديو ؟

فقال هنري :

– سيرغم على ذلك . » وشدّ على يد لامبير في حرارة : « شكراً . إلى الغد » .

وفكر وهو يدخل إلى غرفته « كلا ، ليس هذا أوان الهرب » . لن يموت حقده على دوبروي بمثل هذه السرعة . لكن هذا لا يمنع عملاً مشتركاً معه ، فمسائل العاطفة ثانوية جداً . المهم هو ان تمنع عودة امثال فولانج ، ان تربح الجولة . واشعل سيجارة . سيكون شيئاً مفيداً للامبير ، ان يكون من لجنة « الأمل » . وسيتدبّر هنري أمره ليشركه اكثر فأكثر في حياة الجريدة . وسيتكوّن لامبير سياسياً ، وسيشعر بأنه أقل ضياعاً في العالم ، وما إن يغرق في العمل تماماً ، حتى لا يعود يتساءل عما يفعل بجلده .

وقال هنري في نفسه : « صحيح انه ليس من المناسب ان يكون الانسان شاباً في هذا الوقت » . وقرر ان يجري محادثة جدية مع لامبير ، ذات يوم . « وماذا سأقول له على الضبط ؟ » . وبدأ يخلع ثيابه . وقال في نفسه : « لو كنت شيوعياً او مسيحياً ، لكنت أقل حرجاً . ان المرء ليستطيع ان يحاول فرض اخلاق كونية . لكن المصل الذي يعطيه لحياته شيء آخر . من المستحيل التفاهم في اربع جمل : يجب ان ادفع لامبير إلى رؤية العالم بعيني » . وتنهد هنري . هذا ما يفيده الأدب : ان تظهر العالم للآخرين كما تراه . كل ما هنالك هو انه حاول

وفشل . وسأل نفسه : « هل حاولت حقاً ؟ » . واشعل سيجارة أخرى وجلس على حافة سريره . كان قد اراد ان يكتب كتاباً مجانياً: مجانياً ، بلا ضرورة ، بلا سبب ، فلا غرو إذن إذا اشمأز منه بمثل هذه السرعة . وكان قد وعد نفسه بأن يكون صادقاً ، ولكنه لم يكن إلا مجاملاً : لقد زعم انه يتحدث عن نفسه دون ان يموضع نفسه لا في الماضي ولا في الحاضر : في حين ان حقيقـــة حياته كانت خارجاً عنه ، في الأحداث ، في الناس . في الأشياء ليتحدث الانسان عن نفسه ، لا بد ان يتحدث عن كل ما يتبقى . ونهض وجرع قدح ماء . لقد ناسبه ، في ذلك الحين ، ان يزعم ان الأدب لم يعد له معنى ، لكن هـــذا لم يمنعه من كتابة مسرحية ، هو راضٍ عنهـا . مسرحية مؤرخة ، مموضعة ، وتعني شيئاً ما : وهو لهذا راضٍ عنها . لماذا لا يباشر رواية مؤرخة ، مموضعة ، ستعني شيئاً ما ؟ ان يروي قصة من قصص اليوم يستطيع القراء ان يجدوا فيها همومهم ، مشاكلهم ، كلا ، لا ان يثبت ولا ان يعظ ، بل ان يشهد . ولم ينم قبل مدة طويلة .

لم ينجح دوبروي في إقناع تراريو ولا سامازيل . لكنهما فهما بدون شك أي ضمانة يمثلها بالنسبة لهنري وجود لامبير في لجنة الجريدة ، واما انهما خشيا انفجاراً يسيء إلى « الاشتراكي الثوري الحر » إساءة بالغة ، او ربما كانا ، بعد كل شيء ، لا ينطويان على أي مقصد مكيافيلي : فقد قبلا بدون صعوبة الفكرة التي اقترحها هنري عليهما . وفي الجريدة ، لم ينفعل احد كثيراً بتغير كان يبدو ذا صفة إدارية صرف باستثناء فانسان . فقد جاء إلى قاعة التحرير في وقت كان هنري فيه بمفرده مع لوك ، وبادر بصوت شرس : « لا أفهم شيئاً مما يجري » .

فقال هنري :

– مع ان ذلك بسيط للغاية !

– إنني لا اعرف تراريو هذا ، لكن رجلاً يملك مالاً كثيراً هو حتماً خطر . وقد كان من المستحسن الاستغناء عنه .

فقال هنري :

– لم نكن نستطيع .

فقال فانسان :

– ولماذا أدخلت لامبير إلى اللجنة ؟ ستفاجأ بمفاجآت سيئة . عندما أفكر بأنه تصالح مع والده مع علمه بما يعلم !

فقال هنري :

– ليس هناك أي دليل على ان الشيخ قد وشى بروزا . كفّ إذن عن الحكم على الناس بلا تمييز . انني أعرف لامبير وأثق به مطلق الثقة .

فهز فانسان كتفيه : « هذه القضية كلها تحزنني ! » .

فقال لوك متنهداً : « يجب الاعتراف بأننا فشلنا في ضربتنا » .

فقال هنري :

– أي ضربة ؟

فقال لوك :

– المجموع كله . كان يمكننا ان نأمل ان الأشياء ستتغير قليلاً : ومن جديد لم يعد من أهمية إلا للمال .

فقال هنري :

– ما كانت الحال لتتغير بمثل هذه السرعة .

فقال فانسان :

– لا شيء يتغير ابداً !

ودار فجأة على عقبيه وسار نحو الباب . وسأل لوك في قلق :

– ألا يعرف انني أطلعك على الأمر ؟

فقال هنري :

– كلا . لم أقل له شيئاً ولن اقول له . ما الفائدة ؟

وفي اليوم المحدد لتوقيع العقد ، أشعلت بول في المدفأة نار حطب كبيرة ، رغم عذوبة سماء تشرين الثاني ، وبينما كانت تحرّك النار ساهمة ، سألت :

– أأنت عازم نهائياً على التوقيع ؟

– نهائياً .

ــ لماذا ؟

ــ لا خيار لي .

فقالت :

ــ ان لنا الخيار دوماً .

ــ ليس في هذه القضية .

ــ بلى . » وانتصبت وواجهت هنري : « تستطيع ان تذهب ! » .

اخيراً ، لقد انتزعت من نفسها هذه الكلمات التي كانت تمسك بها منذ ايام في عدم مهارة . كانت تبدو ، وهي بلا حراك، ويداها متشنجتان على اطراف شالها، شهيدة تقدم جسدها للوحوش . وشددت صوتها : « أرى ان من اللباقة أكثر ان تذهب » .

ــ لو كنت تعرفين إلى أي حد لا أبالي باللباقة .

فقالت :

ــ قبل خمس سنوات ، ما كنت لتتردد . كنت ذهبت .

فهز كتفيه : « تعلمت أشياء واشياء خلال خمس سنوات ، وانت لا ؟ » .

فقالت بصوت مسرحي :

ــ ماذا تعلمت ؟ ان تتنازل ، ان تتساهل .

ــ لقد شرحت لك الأسباب التي اقبل من اجلها .

ــ أوه ! هناك دوماً أسباب ، فالانسان لا يشوه نفسه دون سبب . لكن بالضبط ، يجب ان نعرف كيف نرفض الأسباب .» وانقبض وجه بول ، وكان في عينيها رجاء تائه : « كنت تعرف . لقد اخترت اصعب الطرق ، الوحـدة ، الطهارة : القديس الصغير جورج دي بيزانللو ، الأبيض الثياب والذهبيها ، كنا نقول إنه انت ... » .

ــ كنت تقولين ذلك ..

فصرخت :

ــ آه ! لا تتكر ماضينا .

فقال في استياء : « إنني لا أنكر شيئاً » .

– انت تنكر نفسك ، انت في طريقك إلى خيانـة وجهك . » واضافت في غضب : « وانا اعرف من هو المسؤول . لا بد ذات يوم ان أتفاهم معه » .

– دوبروي ؟ لكن اخيراً ، هـــذه حماقة . انت تعرفينني بما فيه الكفاية لتعلمي انهم لا يستطيعون ان يجعلوني أفعل ما لا أريده .

فقالت وهي تنظر إلى هنري في يأس :

– احياناً ، اشعر انني لم اعد أعرفك مطلقاً . » وأضافت في ضياع : « هـل انت نفسك حقاً ؟ » .

فقال وهو يهز كتفيه :

– يخيل إليّ .

– لكنك لست واثقاً من ذلك انت نفسك . انني أراك ثانية ...

فقاطعها في فظاظة : لا تبحثي إذن عني دوماً في المـاضي . إنني حقيقي اليوم كالأمس » .

فقالت بصوت ملهم :

– كلا . إني اعرف اين هي حقيقتنا . وسأحافظ عليها ، رغم كل شيء .

– إذن لم ننته من الخصام ! لقد تغيرت ، ضعي هذا في رأسك . اننا نتغير ، يا بول . والأفكار تتغير وكذلك العواطف . لا بد ان تنتهي إلى قبول ذلك .

فقالت :

– ابداً . » كانت دموع تصعد إلى عيني بول : « صدّق جيـــداً انني أتألم أكثر منك من هذه الخصومات . ما كنت لأناضل ضدك لو لم اكن مرغمة على ذلك .

وقالت في لهجة شرسة :

– إن لي رسالتي ، انا الأخرى ، وسأقوم بها . لن أسمح بأن يحولوك عني .

لم يكن يستطيع شيئاً ضد هـــذه الكلمات الكبيرة . وتمتم بصوت متجهم : « أتعرفين ما سيحدث ؟ سينتهي بنا الأمر إلى كره بعضنا البعض » .

– أتستطيع ان تكرهني ؟ » واخفت وجههـا بين يديها ، ثم رفعت رأسها ،

وقالت : « إذا لم يكن هناك بد ، فإنني سأتحمل حتى كراهيتك . حباً بك » .

فهز كتفيه دون ان يجيب وسار نحو غرفته . وقال في هوس : « يجب ان أنتهي من الأمر . يجب ان أنتهي منه » .

في تشرين الثاني أيّد « الاشتراكي الثوري الحر » مطالب توريز . وبالمقابل ، أظهر له الشيوعيون من جديد بعض الملاطفة ، وعادت « الأمل » تُقرأ من جديد في المصانع . لكن الملاطفة لم تدم . فقد رد الشيوعيون في شراسة على المقال الذي يلومهم هنري فيه على انهم صوّتوا على المئـة والأربعين مليار فرنك للاعتمادات العسكرية ؛ وعلى المقال الذي يذكر فيه سامازيل الخلافات التي تفصلهم عن الاشتراكيين فيما يخص سياسة الدول الكبرى الثلاث . وكان رد فعلهم ان شددوا الخناق على « الاشتراكي الثوري الحر » وعارضوه بجميع الطرق الممكنة . وكان سامازيل يريد الانفصال عنهم بصراحة ، إذ كان يعتقد ان « الاشتراكي الثوري الحر » كان يجب ان يتشكل كحزب ويقدم مرشحين لانتخابات حزيران . ورُفض اقتراحه ، لكن اللجنة قررت ان تستفيد من الانتخابات لتتبنى تجاه الحزب الشيوعي سياسة اقل سلبية : سوف تفتح حملة .

واستنتج دوبروي :

ـ نحن لا نريد إضعاف الحزب الشيوعي ، لكننا نتمنى ان يعدّل خطه . حسناً ! هي ذي مناسبة لدفعه إلى ذلك . ان ما نقوله باسمنا الخاص وحده لا يؤثر عليه البتة . لكنه مضطر إلى اخذ القاعدة بعين الاعتبار . سوف نحث الناس على التصويت إلى جانب احزاب اليسار : لكن مع وضع شروطهم . ان للبروليتاريا في الوقت الراهن مآخذ كثيرة على الشيوعيين ، فإذا بلورنا هذا الاستياء ، إذا توصلنا إلى التعبير عنه في مطالب محددة ، فستتاح لنا فرصة لدفع المسؤولين إلى تبديل موقفهم .

عندما كان دوبروي يتخذ قراراً ، كان يخيل لمخاطبه ان حياته السابقة كلها قد

تعدلت بوجبه : وقد لاحظ هنري هذا مرة أخرى عندما ذهبا، بعد نهاية الجلسة، لتناول العشاء ، كما في كل يوم سبت ، في مطعم صغير على الأرصفة . وعرض دوبروي لهنري المقال الذي سيكتبه هذه الليلة بالذات ، وخيل لهنري انه قد فكر دوماً مسبقاً في نشره في الموعد المحدد الذي يجب ان ينشر فيه . كان يأخذ بالدرجة الأولى على الشيوعيين انهم أيدوا القرض الانكلو-ساكسوني : نعم ، هذا سيسرع في عودة الازدهار ، لكن العمال لن يستخلصوا منه اي ربح . وسأل هنري:

– وهل تعتقد ان هذه الحملة سيكون لها تأثيرها حقاً ؟

فهز دوبروي كتفيه : « سنرى ذلك . كنت تقول اثناء المقاومة ان علينا ان نتصرف وكأن فعالية العمل الذي قررناه مضمونة : كان هذا مبدأ طيباً ، واني أتمسك به » .

فتفرس هنري في وجه دوبروي . وفكر : « ليس هذا نوع الجواب الذي كان سيجيب به في السنة الماضية » كان من الواضح ان دوبروي مهموم هذه الأيام . وقال :

– بتعبير آخر ، انت لا تأمل شيئاً كبيراً ؟

فقال دوبروي :

– اواه ! اسمع : الامل ، او عدم الامل : هذا شيء ذاتي للغاية . إذا ما أرخى الانسان العنان لمزاجه ، لم ينته ابداً ، بل يصبح مثل سكرياسين . عندما يكون علينا ان نتخذ قراراً ، فليس في ذاتنا يجب ان ننظر .

كان في صوته ، في ابتسامته ، نوع من الاستسلام كان ممكناً ان يؤثر على هنري ، في الماضي . لكنه منذ أزمة تشرين الثاني ، فقد تجاه دوبروي كل حرارة قلبية . وقال في نفسه : « إذا كان يحدثني بهذه الثقة الكبيرة ، فلأن آن غير موجودة هنا . انه بحاجة ليجرب فكره على شخص ما » . وفي الوقت نفسه، كان يلوم نفسه قليلاً على سوء نيته .

ونشر دوبروي في « الأمل » سلسلة من المقالات متطرفة في القسوة ردت عليها الصحافة الشيوعية في استياء . كانوا يشبهون موقف « الاشتراكي الثوري

الحر » بموقف التروتسكيين الذين رفضوا الاشتراك في المقاومة بحجة انها تخدم الامبريالية الانكليزية . ورغم كل شيء ، فان هذه الخصومة التي كان الحزب الشيوعي و « الاشتراكي الثوري الحر » يتبادلان فيها التهم بأنهما يسيئان فهم المصالح الحقيقية للطبقة العاملة احتفظت بلهجة مجاملة نسبياً . وإنما بذهول قرأ هنري ذات خميس في « السندان » مقالاً كان فيه هجوم عنيف متطرف على دوبروي ، ينتقد الدراسة التي كان ينشرها في « الطوارىء » وعلى الأخص الفصل الذي تحدث عنه إلى هنري قبل عدة اشهر والذي لا يمس القضايا السياسية إلا بطريقة غير مباشرة للغاية . وبدءاً من هنا ، ودون سبب ظاهري ، كانوا يرفعون ضده قرار اتهام حقيقي : فهو كلب حارس للرأسمالية ، وعدو للطبقة العاملة . وقال هنري :

– ماذا بهم ؟ كيف ترك لاشوم هذا المقال يمر ؟ انه مقرف .

فقال لامبير :

– أهذا يدهشك منه ؟

– نعم . ولهجة المقال تدهشني ايضاً . ان التسامح هو الذي يسود الجو الآن بالأحرى .

فقال سامازيل :

– انا لست مندهشاً كثيراً . انهم ، قبل ثلاثة اشهر من الانتخابات ، لن يرغبوا في الوحل جريدة مثل « الأمل » يقرأها آلاف من العمال وحتى شيوعيون . وبالنسبة لـ « الاشتراكي الثوري الحر » بالذات ، الأمر مماثل ، ان لهم مصلحة في مداراته . ولكن دوبروي ، هناك كسب كبير في اغراقه في نظر مثقفي اليسار الشباب .

وأغاظ سرور سامازيل ولامبير الظاهر هنري . وأحس انه يتشنج قليلاً عندما قال له لامبير بعد يومين ، في لهجة مرحة ، شبه نكدة : « لقد تلهيت في كتابة رد على مقال « السندان » . إلا انني أتساءل ما إذا كنت ستنشره ؟ » .

– لماذا ؟

– لأنني لا أحكم لأحد منهما ، أعني لاشوم ودوبروي ، بالحق . انه يستحق ما حصل له . هذا سيعلمه ان يراهن على اللوحتين . إذا كان مثقفاً ، فعليه ألا يضحي بفضائل المثقف لحساب السياسة . وإذا كان يعتبرها ترفاً لاجدياً ، فليعلن عن ذلك ، واما بخصوص الفكر الحر ، فسوف نتوجه إلى مصدر آخر .

فقال هنري :

– انني أشك بالفعل إذا كنت أستطيع ان أنشر هذا في « الأمل » . ثم انك غير عادل . أرني على كل حال .

كان المقال حاذقاً ، لاذعاً ، وأحياناً سديداً ، رغم سوء نيته . كان يهاجم الشيوعيين في غير اعتدال ، وكان مكدراً للغاية بالنسبة لدوبروي .

وقال هنري :

– انت موهوب في الهجاء . ان مقالك للامع . » وابتسم : « بديهي ، انه غير قابل للنشر » .

فسأل لامبير :

– أليس صحيحاً ما اقوله ؟

– صحيح ان دوبروي منقسم . لكني ادهش من لومك له على ذلك . انني مثله ، لو تعرف .

فقال لامبير :

– انت ؟ إنما تقول هذا عن إخلاص له . وأعاد اوراقه إلى جيبه : « لاحظ ، اني لا اقول هذا لأني متمسك بمقالي ، لكن هذا مضجر على كل حال : إذا كنت اريد ان انشره ، فلن تكون هناك وسيلة لذلك . إنني ضد الشيوعية أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى « الأمل » او « الطوارىء » ، ويساري اكثر مما ينبغي بالنسبة للأشخاص اليمينيين » .

فقال هنري :

– هذا اول مقال ارفضه لك .

– اواه ! ان الريبورتاجات ، والملاحظات النقدية . يمكن نشرها في كل مكان .

لكن اذا اردت ذات مرة ان اقول ما أفكر به حول مسألة هامة إلى حد ما ، فأنت غير قادر على ان تقدم لي تأسفاتك .

فقال هنري في مودة :

– ليس عليك إلا ان تجرب مرة .

فابتسم لامبير : « لحسن الحظ ، ليس عندي شيء هام اقوله » .

فسأل هنري :

– ألم تحاول كتابة قصص اخرى ؟

– كلا .

– لقد قرفت بسرعة كبيرة .

فقال لامبير في عدائية مفاجئة :

– ألا تعرف ما يثبط عزيمتي ؟ هو ان أرى قصة ذلك الصغير « بولوفي » في « الطوارىء » . إذا كنت تحب هذا النوع من الأدب فإنني ما عدت أفهم .

فقال هنري متفاجئاً :

– ألا تجد انها شيقة ؟ انك لتحس بالهند الصينية ، تحس ما هو المعمر ، وفي الوقت نفسه تحس بطفولة .

فقال لامبير :

– قل بصراحة ان « الطوارىء » لا تنشر لا روايات ولا قصصاً ، بل ريبورتاجات فقط . يكفي ان يكون الشخص قد أمضى طفولته في المستعمرات وان يكون ضدها ، لتصدروا حكمكم بأنه موهوب .

فقال هنري :

– بولوفي موهوب . » وأضاف : « الحقيقة ان من الشيق اكثر ان يروي الانسان شيئاً من ان لا يروي شيئاً . لو تحدثت عن تجاربك كما يتحدث هذا الشاب عن تجاربه ، لربما كتبت شيئاً ممتازاً » .

فهز لامبير كتفيه : « لقد فكرت انا ايضاً بقصة عن طفولتي . ثم عدلت . ان تجاربي الخاصة بي لا تضع العالم موضع سؤال . انها ذاتية صرف ، وبالتالي ،

من وجهة نظرك ، لا معنى لها تماماً » .

فقال هنري :

– لا شيء لا معنى له . لطفولتك ايضاً معنى : عليك انت ان تجده وان تجعلنا نشعر به .

فقال لامبير بصوت ساخر :

– اعرف . يمكننا ان نصنع بأي شيء كان وثيقة انسانية . » وهز رأسه : « ليس هذا ما يهمني . إذا كنت سأكتب ، فكي اقول الأشياء في لامعناها : لن أحاول ان انقذها إلا بطريقتي في قولها » وهز كتفيه : « اطمئن ، لن افعل ذلك : لن يكون ضميري مرتاحاً . كل ما هنالك انني لا احب الأدب الذي تحبونه . إذن لن أكتب شيئاً البتة : سيكون هذا ابسط » .

فقال هنري :

– اسمع ، في المرة القادمة التي سنخرج فيها معاً ، سنتحدث ثانية عن هذا كله جدياً . اذا كنت انا الذي يقرفك من الكتابة ، فانني آسف .

فقال لامبير :

– لا تأسف ، فالأمر لا يستحق الأسف » . وخرج من المكتب دون ان يبتسم ، يكاد يصفق الباب خلفه . كان قد جُرح حقاً .

وقال هنري في نفسه : « سوف ينسى ! » . كان قد قرر ألا يصدع رأسه ، فالأمور تجري دوماً أقل سوءاً مما هو منتظر . كذلك سامازيل لم يكن ثقيل الظل الى الدرجة التي خاف منها هنري . ولقد اكتسب إلى جانبه بوده جميع الجهاز باستثناء لوك . ولم يكن تراريو يضع قدمه في الجريدة . وقد ارتفع الاصدار ثانية كثيراً ، وكان هنري حراً حريته في الماضي . لكن إنما كانت روايته الجديدة على الاخص هي التي تجعله متفائلاً . وكان قد خشي من صعوبات ضخمة : لكن الكتاب كان ينتظم من نفسه . وكان هنري واثقاً تقريباً ، هذه المرة ، انه أحسن البداية ، وكان يكتب في مرح . والشيء المزعج الوحيد هو ان بول كانت تطلب ان يشتغل قربها . وكانت تريد ان ترى مسوداته . وكان يرفض

فتغضب . ومن جديد ، في هذا الصباح ، وبينما كانا يتناولان طعام الإفطـار ، بادرته :

– هل يسير عملك ؟

– على قدر .

– متى ستريني شيئاً ما ؟

– قلت لك عشرين مرة انه ليس هناك ما يقرأ بعد ، انها لم تأخذ شكلاً .

– بالضبط . منذ ان قلت لي ذلك ، كان يمكن لها ان تأخذ شكلاً .

– لقد بدأت كل شيء ثانية .

فاسندت بول مرفقيها إلى الطاولة ووطعت ذقنها في بطن يديها : « لم تعد لك ثقة كبيرة بي ، أليس كذلك ؟ » .

– بالتأكيد بلى !

– كلا ، لم تعد لك ثقة . » وقالت في لهجة متأملة : « هذا منذ تلك الرحلة على الدراجة » .

فتفرس هنري في وجهها في دهشة : « ماذا يمكن لتلك الرحلة ان تغيّر بيننا؟» . فقالت :

– الحقيقة هنا .

– اي حقيقة ؟

– حسناً ! لم تعد تصدق ما اقوله لك . » فهز كتفيه ، وأضافت في حدة : « أستطيـع أن استشهد لك بعشرين حالة لم تصدقني فيها » .

– مثلاً ؟

– مثلاً قلت لك في ايلول انك تستطيـع ان تنام في فندقك عندما تشاء . وفي كل مرة تطلب مني الاذن في سحنة مذنبة . انك لا تريـد ان تصدق انني افضل حريتك على سعادتي .

– اسمعي ، بول ، في المرة الاولى التي نمت فيها في الفندق ، كانت عينـــاك منتفختين صباح اليوم التالي .

فقالت بصوت عدائي :
– لي الحق في البكاء ، أليس كذلك ؟
– لكني لا ارغب في ان أجعلك تبكين .
– وتظن أنني لن ابكي عندما ترفض لي ثقتك ، عندما أرى انك تغلق على مخطوطك بالمفتاح ...
فقال في غضب :
– ليس هناك حقاً داعٍ للبكاء .
فقالت :
– هـــذا مهين . » ونظرت إلى هنري في ذعر شبه صبياني : « انني اتساءل أحياناً ما إذا لم تكن سادياً » .
فصب لنفسه فنجاناً ثانياً من القهوة دون ان يجيب، وقالت في غضب: « أتخاف ان أنقب في اوراقك ؟ » .
فقال هنري بصوت يجاهد ان يكون مرحاً : « هذا ما كنت افعله مكانك».
فنهضت ودفعت كرسيها : « انت تعترف ! انت تغلق ادراجك بسببي . لقد وصلنا إلى هذا الحد ! » .
فقال :
– هذا لأجنبك التجارب .
في هذه المرة كان مرح صوته واضح الزيف . وكررت :
– وصلنا إلى هذا الحد ! » ونظرت إلى هنري في عينيه : « اذا اقسمت لـك انني لن امس هذه الأوراق ، هل تصدقني ؟ هل تترك الدرج مفتوحاً ؟
– انت مهتمة للغاية بهذا المخطوط التعس إلى حد انك لا تستطيعين ان تجيبي بنفسك على ما ستفعلينه . يقيناً انني أؤمن بصدقك ، لكني سأغلق الدرج .
وساد صمت ، وقالت بول في بطء : « ابداً لم تجرحني كما فعلت الآن » .
فقال هنري وهو يدفع كرسيه في عنف :
– اذا كنت لا تستطيعين تحمل الحقيقة ، فلا ترغميني على مصارحتك بها .

وارتقى الدرج ، وجلس امام طاولته . كانت تستحق ان يريهـا إياه ، ذاك المخطوط ، فهكذا يكون قد تخلص منها . بديهي انه ، لحظة نشره ، سيضطر إلى تعديل هذه الصفحات : اللهم إن لم تمت قبل ذلك . وبانتظار ذلك ، عندما كان يعيد قراءتها ، كان يشعر انـه انتقم ! وقال في نفسه : « بمعنى ما ، ان الأدب اصدق من الحياة . لقد سخر دوبروي مني ، ولويس نذل ، وبول تسمم حيـاتي : وانا أواجههم بالابتسام . لكن المرء على الورق يذهب إلى أقصى ما يشعر به » . وجالت عيناه مرة أخرى في فصل القطيعة : كم يقاطع الانسان بسهولة على الورق! انه يكره ، ويصرخ ، ويقتل ، ويقتتل . يذهب حتى الحد الأقصى : لهذا فهذا كذب » وقال في نفسه : « لكن هذا مرض للغاية . انك في الحياة لتنكر نفسك بلا انقطاع والناس الآخرون يكذبونك . ان بول تثير سخطي : مع ذلـك فإني سرعان ما أشفق عليها وتظن انني احبهـا في الحقيقة . لكني على الورق ، اوقف الزمن ، وافرض على العالم أجمع يقيني : فيصبح الواقع الوحيد » وفتل غطاء قلمه. لن تقرأ بول ابداً هذه الصفحات . مع ذلك ، فقد كان ينتصر وكأنه أرغمها على تعرف نفسها في الصورة التي رسمها عنها: عاشقة كاذبة لا تحب إلا تمثيلياتها واحلامها. امرأة تمثل العظمة ، السخاء ، نكران الذات ، في حين انها بلا كبرياء ولا شجاعة، عنيدة في أنانية عواطفها المصطنعة . هكذا كان يراها ، وكانت على الورق تتوافق بدقة مع هذه الرؤية .

وبذل هنري ما بوسعه في الأيام التالية لتجنب ثورات غضب جديدة . كانت بول قد وجدت سبباً لتسخط : المحاضرة التي قبل بأن يلقيها عند كلودي . وحاول في البدء ان يبرر نفسه : حتى دوبروي تحدث عند كلودي ، فالهدف هو جمع مال لدار اطفال ، ولا يمكن الرفض . ولما لم ترضخ ، قرر ان يصمت . وكان ظاهراً ان هذا التكتيك لا يزيد إلا في سخط بول . كانت تصمت هي الأخرى ، لكنها تبدو انها تقلب في رأسها قرارات هامة . وفي يوم المحاضرة ، كانت تنظر اليه نظرة قاسية جداً بينا كان يعقد ربطة عنقه امام مرآة غرفتهما إلى حد انه فكر في امل: « انها هي التي ستقترح علي ان نقطع صلتنا » . وسأل بصوت لطيف :

ـ أنهائياً لن تصحبيني ؟

فضحكت بشكل مفاجيء جداً إلى حد انه كان سيظن انها مجنونة لو لم يكن يعرفها : « المهزلة الجيدة ! أصحبك إلى هذا الكرنفال ؟ » !

ـ كما تشائين .

فقالت بصوت يستدعي سؤالاً :

ـ لدي عمل أهم .

فسأل في وداعة :

ـ ما العمل الذي لديك ؟

فقالت في ترفع :

ـ هذا شأني !

وفي هذه المرة لم يلح ، ولكنه بينما كان يسرح شعره للمرة الأخيرة ، قالت في لهجة متحدية :

ـ سأذهب إلى « الطواريء » لأرى دوبروي .

فاستدار هنري في حدة . انها لم تخطىء في ضربتها : « لماذا تريدين رؤية دوبروي ؟ » .

ـ أنبأتك انني ذات يوم سأذهب للتفاهم معه .

ـ علامَ ؟

ـ لدي اشياء كثيرة أقولها له من جهتي ، وكذلك من جهته .

فقال هنري :

ـ ارجوك ألا تتدخلي في علاقاتي الخاصة مع دوبروي . ليس لديك ما تقولينه له ولن تذهبي لرؤيته .

فقالت :

ـ اسألك عفواً . فقد تأخرت اكثر من اللازم . ان هذا الرجل عفريتك الشرير ، ولا يوجد احد غيري يمكنه ان يخلصك منه .

وأحس هنري ان الدم يصعد إلى وجهه . ماذا ستروي لدوبروي . كان هنري

قد عبر عن نفسه بصراحة امام بول في لحظات الغضب او القلق : من المستحيل ان يتحمل ان تتكرر بعض تلك العبارات . لكن كيف السبيل إلى دفعها إلى العدول ؟ انهم ينتظرونه عند كلودي ، ولن يجد خلال خمس دقائق الوسيلة لإقناعها ، لا بد ان يربطها ، او يسجنها . وتمتم : « انت تهذين » .

فقالت بول :

– أترى ، عندما يعيش الانسان لوحده كثيراً مثلي ، يتاح له وقت كثير للتفكير . انني أفكر بك وبكل ما يتعلق بك ، واحياناً ، ارى . ولقد رأيت دوبروي ، منذ بضعة ايام ، في دقة غير عادية : وفهمت انه سيفعل كل شيء لينهي هدمك .

فقال :

– آه ! اذا بدأت ترين رؤى ! » كان يبحث عن وسيلة لإخافة بول . ولم يكن يجد إلا وسيلة واحدة : تهديدها بالقطيعة .

وقالت بول بصوت ارادته غامضاً :

– انني لا أثق فقط برؤاك !

– وبمَ ايضاً ؟

فقالت :

– لقد استعلمت . » كانت تحدق إلى هنري بنظرة مداعبة. وتفرس في وجهها في حيرة :

– آن لم تقل لك بالتأكيد ان دوبروي يريد هدمي .

فقالت :

– من يحدثك عن آن ؟ آن ! انها اكثر عمى منك ايضاً .

فسأل :

– إذن ، من الفائق الذكاء الذي استشرته ؟

كان يشعر بقلق مبهم . وعادت نظرة بول خطيرة: « لقد تحدثت مع لامبير» .

فقال هنري :

ـ لامبير ؟ اين رأيته ؟

كان الغضب يجفف حلقه . وقالت بول في اطمئنان :

ـ هنا . أهذه جريمة ؟ لقد تلفنت له ان يأتي .

ـ متى هذا ؟

فقالت في رضى :

ـ البارحة . هو ايضاً لا يحب دوبروي .

فقال هنري :

ـ هذا استغلال للثقة !

كان التفكير بأنها تحدثت الى لامبير مع مفرداته السخيفة وحدّته المثيرة للضحك ، يجعله يتمنى صفعها . وتابع بصوت حانق :

ـ انت تتكلمين دوماً عن الطهارة، لكن امرأة تشاطر حياة رجل، وفكره، واسراره ، ثم تستغل ذلك من وراء ظهره ، دون ان تخطره ، لهي امرأة تتصرف بطريقة قذرة . » وقال وهو يمسكها من معصمها : « أتسمعين : قذرة » .

فهزت رأسها : « حياتك حياتي لأنني ضحيت بها من أجلها . ان لي حقوقاً عليها » .

فقال :

ـ لم اسألك ابداً اي تضحية . لقد حاولت ان اساعدك في السنة الماضية على ايجاد حياة خاصة بك : فلم تريدي . هذا يخصك ، لكن ليس لك اي حق عليّ .

فقالت :

ـ لم أرد بسببك ، لأنك بحاجة اليّ .

ـ أتعتقدين انني بحاجة الى هذه الفصول المؤبدة ؟ انت تخطئين تماماً ! ثمة لحظات تجعلينني أتمنى فيها ألا اضع قدمي هنا ثانية ابداً . وسأقول لك شيئاً : اذا ذهبت لرؤية دوبروي ، فلن اغفر لك هذا . لن تريني ثانية .

فقالت في حماسة :

ـ لكني اريد ان انقذك ! انت لا تفهم انك في سبيلك الى هلاك نفسك !

انت تقبل بجميع الحلول الوسط ، وستذهب لتتحدث في الصالونات ... وانـا اعرف لماذا لم تعد تجرؤ على ان تريني ما تكتبه : ان افلاسك ينعكس في عملك ، وانت تشعر بذلك. انت خجل. انت خجل للغاية إلى حد انك تغلق على مخطوطك بالمفتاح : لا بد انه شيء دنيء جداً .

فنظر اليها هنري في حقد : « اذا اريتك هذا المخطوط ، فهل تعدينني بـألا تذهبي لرؤية دوبروي ؟ » .

وفجأة ارتخى وجه بول : « هل سترينني اياه ؟ » .

— هل تعدينني ؟

وفكرت : « اعدك بألا اذهب اليه اليوم » .

فقال هنري : « هذا يكفيني » . وفتح الدرج ، وسحب منه الدفتر الضخم الأخضر الرمادي ، ورماه على السرير .

وقالت بول بصوت متردد :

— أأستطيع ان اقرأه ؟ أهذا صحيح ؟

كانت ثقتها كممثلة تراجيدية قد غادرتها ، وكانت سحنتها تدعو الى الاشفاق بالأحرى ، فجأة .

— تستطيعين .

فقالت :

— اواه ! انني مسرورة جداً . » وابتسمت في خجل : « هذا المساء ، سنتناقش فيها ، كما في الماضي » .

ولم يجب . كان ينظر إلى ذاك الدفتر الذي كانت بول تداعبه براحة يدها . انه ليس إلا ورقاً ، وحبراً ، وكان يبدو غير مؤذ كتلك المساحيق المغلق عليهـا بالمفتاح في صيدلية والده . والحقيقة انه كان اجبن من واضع سم .

وصاحت من فوق الدرابزون بينما كان يهرب عبر الاستديو :

— إلى اللقاء .

— إلى اللقاء .

وعلى الدرج كان يتابع الهروب ، كان يحاول عبثاً ان يقيم الفراغ في رأسه . هذا المساء ، عندما سيرى بول ثانيـــة ، ستكون قد قرأت . ستقرأ كل جملة ، ستعيد قراءة كل كلمة : انه اغتيال . وتوقف . وارتقى من جديد بضع درجات ويده مستندة إلى الافريز ، ببطء ، وارتمى الكلب الأسود الضخم عليه نابحاً . كان يكره هذه الكلب، هذا الدرج ، حب بول المتعصب، لحظات صمتها ، وانفجارها، وشقائها . وعاود النزول اربع اربع حتى الشارع .

كان يوماً جميلاً من ايام شتاء قليل الضباب ، صميمي ، الجو فيه وردي ، ومن خلال فتحة النافذه المزججة ، كان هنري يلمح قطعة من السماء الحريرية . وأعاد نظرته نحو مستمعيه ، لكن كان من الصعب عليه اكثر ان يتحدث وهو يراهم . قبعات صغيرة ، مجوهرات ، فراء ، كان هناك على الأخص نساء ، من اللواتي لهن رفات جميل ويظنن انهن يعرفن كيف يصلحنه . ما الذي كان يهمهن من تاريخ الصحافة الفرنسية ؟ كان الجو خانقاً ، والهواء يعبق بالعطر . والتقت نظرة هنري بابتسامة ماري - آنج الرقيقة ، وأشار له فانسان بتكشيرة ضاحكة . وفي مكان ما ، بين مليونيرة ارجنتينية ونصيرة للفن حدباء ، كان لامبير جالساً ، وكان هنري يخشى ان يجد نفسه وجهاً إلى وجه معه : كان خجلاً . ومن جديد خفض عينيه وترك الكلمات تنسال من فمه .

- رائع !

كانت كلودي قد اعطت إشارة التصفيق ، وكانوا يصفقون بأيديهم ، ويطلقون العنـــان لأصواتهم ، ويسرعون نحو المنصة . وفتحت هوغيت فولانج باباً صغيراً خلف ظهر هنري : « تعال من هنا . ان كلودي ستصرف السيدات . ولم تحتفظ إلا بأصدقائك وبعض الحميمين » . وأضافت وهي تسحب هنري نحو المأدبة حيث كان جوليان ، بمفرده تجاه خادمين ، يفرغ كأس شمبانيا : « لا بد انـك ميت عطشاً » .

وقال جوليان بصوت صاخب :

- ستعذرني ، لم اسمع شيئاً . واذا كنت قد جئت ، فكي اسكر مجاناً.

فقال هنري :

– انت معذور تماماً. ان المحاضرات مسئمة ، سواء استمعت اليها ام ألقيتها.

فقال فانسان :

– عفواً ! انني لست سئماً البتة . بل لقد كانت محاضرة تثقيفية. » وضحك : « سأشرب على كل حال كأساً ، انا الآخر » .

فقال هنري :

– اشرب ! » ورسم على وجهه في حدة ابتسامة مؤنسة . كانت امرأة بيضاء الشعر ، على صدرها وسام جوقة الشرف ، تندفع نحوه :

– شكراً على مساعدتك ! كانت رائعة ! هل تعلم انك حققت ايراداً اضخم من ديهاميل ؟

فقال هنري :

– انا مسرور لذلك .

كان يبحث بعينيه عن لامبير . ماذا قالت له بول ؟ ابداً لم يطلع هنري لامبير على مجرى حياته الخاصة . بديهي انه كان يعرف اشياء صميمة عنه ، عن طريق نادين ، لكن هنري لم يكن يبالي بهذا ، فالقصة مع نادين لم تكن إلا ماء زلالاً . اما مع بول ، فقد كان الأمر مختلفاً . وابتسم للامبير :

– أيزعجك ان تعيدني على الدراجة عندما ينتهي هذا الكرنفال ؟

فقال لامبير في لهجة طبيعية تماماً :

– هذا سيسرني .

– شكراً ! سنستطيع أن نثرثر قليلاً .

وتوقف لأن كلودي كانت تدخل في أبهة إلى الصالون وتسرع نحوه . «ستكون لطيفاً جداً ، وستهدي بعض الكتب : ان هاته السيدات معجبات متحمسات » .

فقال :

– بسرور . » وأضاف بصوت خافت « لكنني لا استطيع البقاء ، انهم ينتظرونني في الجريدة » .

— يجب ان ترى آل بيلوم ، انهما قادمتان خصيصاً من اجلك : ستصلان بين دقيقة واخرى .

فقال هنري :

— بعد نصف ساعة سأذهب . » وتناول الكتاب الذي كانت تمده اليه شقراء طويلة : « ما الاسم ؟ » .

فقالت الشقراء في ابتسامة صغيرة مترفعة :

— ألا تعرفه ، لكنك ستعرفه : كوليت ماسون .

وشكرت بابتسامة غامضة ثانية ، وعلى كتاب آخر سجل اسماً آخر . يا لها من مهزلة ! كان يوقع ، ويبتسم ، ويبتسم ، ويوقع . كان الصالون الصغير قد امتلأ ، ولقد كانوا كثيرين ، اصدقاء كلودي الحميمون . هم ايضاً كانوا يبتسمون ، ويصافحون يد هنري ، وعيونهم تلتمع بفضول يشبه الوقاحة ، ويقولون الكلمات التي قالوها في المرة الاخيرة لديهاميل ، والتي سيكررونها في المرة القادمة بلا تمييز على مورياك او اراغون . ومن حين الى حين ، كان قارىء متحمس يعتقد انه مرغم على اظهار اعجابه الشديد : فهذا قد أقلقه وصف ليلة أرق ، وذاك قد اقلقته جملة عن المقابر : كان الأمر يتعلق دوماً بمقطع تافه ، كتب في لامبالاة . وسألت غيت فانتادور هنري في تأنيب لماذا يختار كأبطال سادة كئيبين جداً : وكانت توزع ابتساماتها على كمية من الناس اكثر كآبة بما لا يقاس . وكان هنري يفكر : « ما اقسى الناس على شخصيات الرواية ! انهم لا يغفرون لهم ضعفاً . وكيف يقرأون جميعاً بشكل غريب ! افترض انهم بدلاً من السير في الدروب التي ترسم لهم ، فان معظمهم يجتازون الصفحات عمياناً . ومن حين لآخر ، ترن كلمة فيهم ، فتوقظ ذكرى او حنيناً . او انهم يظنون انهم يلمحون في صورةٍ ما انعكاساً عن ذاتهم » . وفكر : « من الافضل ألا يرى الكاتب قرّاءه أمامه ابداً » .

واقترب من ماري — آنج التي كانت تحدجه بنظرة ساخرة :

— لماذا تسخرين ؟

— انني لا اسخر ، بل اراقب . » وقالت متهكمة : « انت على حق في ان

تعيش متخفياً . انت لست لامعاً » .

– ماذا يجب عمله لأصبح لامعاً ؟

– انظر الى صديقك فولانج وخذ دروساً .

فقال هنري :

– لست نجيباً .

لم يكن يسليه ان يبهرهم . وكان من العبث ايضاً ان يزعم انه يصدمهم . كان جوليان يصخب وهو يفرغ في تباهٍ كأساً اثر كأس ، وكانوا يضحكون في تغاضٍ حوله . كان يصيح: « لو كان لي انا اسم مماثل ، لتخلصت منه بسرعة. بلزونس، بولينياك ، لاروشفوكو ، لقد تمرغت هذه الاسماء في جميع صفحات تاريخ فرنسا، وهي مليئة بالغبار » . كان يستطيع ان يشتمهم ويلفظ اسوأ الألفاظ الجارحة ، مع ذلك كانوا سيسرون . فاذا لم يكرس الشاعر بالألقاب ، بالجوائز ، بالأوسمة، فمن المستطاب ان يكون مهرجاً . وكان جوليان يعتقد انه يسيطر عليهم ، وكان المثقفون الادعياء الذين يتكأكأون على كلودى اكثر انحطاطاً أيضاً . لم يكن يسليهم ان يكتبوا . لم يكن يهمهم ان يفكروا ، وكان السأم كله الذي يتكبدونه ينعكس على وجوههم . كان همهم الوحيد الشخصيـــة التي يختلقونها لأنفسهم ونجاحهم في مهنتهم ، ومـــا كانوا يترددون على بعضهم البعض ، إلا ليتحاسدوا عن قرب اقرب . ذرية فظيعـــة ! وابتسم هنري في ود وهو يرى سكرياسين : كان متعصباً ، مقلقاً ، لا يحتمل ، لكنه كان حياً ، وعندما كان يستخدم الكلمات كان يستخدمها عن حماسة ، لا ليثمنها بالمـــال ، والتقريظ ، والتبجيل . ان الغرور كان في المحل الثاني عنده ، ولم يكن إلا جانباً سطحياً منه. وقال سكرياسين :

– آمل انك غير حاقد عليّ .

– يقيناً لا ، فقد كنت شارباً . كيف الحال ؟ ألا زلت تقيم هنا ؟

– نعم . لقد نزلت خصيصاً لأسلم عليك . كنت آمل ان يكون الناس الأنيقون قد انصرفوا . أأمام هؤلاء تكلمت وتريدني كلودي أن أتكلم ؟

فقال فولانج الذي كان قد اقترب في خطي مترنحة :

– انه ليس جمهوراً سيئاً . » ووزع ابتسامة صغيرة مترفعة على الجميع بالدور وتوقفت نظرته عند لامبير : « ان الناس الذين يملكون الكثير من المـــال ، يتصنعون التفاهة ، لكن لديهم ، في الواقع، اغلب الاحيان ، حس القيم الحقيقية. ان ترف كلودي مثلاً ذكي جداً » .

فقال سكرياسين :

– ان الترف يسقمني .

فانفجرت ماري – آنج ضاحكة ونظر اليها لويس في قسوة .

وقالت هوغيت في تغاضٍ :

– تقصد الترف المقلد .

– المقلد ، الحقيقي : انني لا أحب الترف .

فقالت هوغيت :

– كيف يمكنك ألا تحب الترف ؟

فقال سكرياسين :

– لا أحب الناس الذين يحبون الترف . » وأضاف فجأة : « في فيينا ، كنا نعيش ثلاثة في كوخ حقير ولم يكن عندنا إلا معطف واحد . كنا ميتين جوعاً ولقد كانت هذه اجمل ايام حياتي » .

فقال فولانج بصوت عابث :

– هذا ما يشهد على عقدة إثم غريبة .

فقال سكرياسين في جفاء :

– انني اعرف عقدي ، ليس لها أي دخل في هذا .

فقال فولانج وهو يستدير نحو هنري :

– بالتأكيد بلى ! انتما الاثنان طهرانيان ، كسائر الاشخاص اليساريين . ان الترف يصدمكما ، لأنكما لا تتحملان ان ضميركما غير مرتاح . انه لمخيف هـــذا التزمت . انتم ترفضون الترف : وبالتالي ترفضون الشعر والفن .

فلم يجب هنري . لم يكن يغلق اهمية على كلمات فولانج . ما كان يهمه هو ان يلاحظ كم تغير منذ لقائها الأخير : لم يكن هناك اثر من تذلل في صوته ولا في ابتساماته . كان صلفه القديم كله قد عاد اليه .

وقال لامبير بصوت خجول :

ــ الترف ليس شيئاً واحداً .

فقال لويس :

ــ كلا . ولكن اذا لم يعد هناك انسان غير مرتاح الضمير ، اذا اختفى الشر من العالم ، فان الفن سيختفي ايضاً . ان الفن محاولة لتقويم الشر . ان التقدميين المنظمين يريدون ان يحذفوا الشر : انهم يحكمون على الفن بالموت . » وتنهد : « سيكون العالم الذي يعدوننا به اكثر كآبة » .

فهز هنري كتفيه : « انتم ايضاً ، اعداء التقدميين المنظمين ، مضجرون . احياناً تتنبأون اننا لن نتوصل ابداً الى حذف الظلم . وأحياناً تعلنون ان الحياة ستصبح تافهة مثل زربية . يمكننا ان نقلب حججكم عليكم ! » .

فقال لامبير وهو يسأل لويس بالنظر :

ــ انها لتبدو لي شيقة جداً فكرة ان الشر ضروري للفن هذه .

ووضعت كلودي يدها على ذراع هنري ، وقالت :

ــ هذه ذي لوسي بيلوم ، تلك السمراء الطويلة الأنيقة جداً . تعال لأقدمك اليها .

كانت تشير إلى امرأة طويلة يابسة العود ، مرتدية السواد . هل كانت انيقة ؟ ان هنري لم يفهم ابداً معنى هذه الكلمة : كانت هناك بالنسبة له ، نساء مرغوبات ونساء غير مرغوبات . وهذه لم تكن مرغوبة . وقالت كلودي :

ــ وهي ذي الآنسة جوزيت بيلوم .

كانت الصغيرة جميلة ، بلا نقاش . ولكن هذا الوجه الدنيوي لم يكن يصلح البتة لتمثيل شخصية « حنه » . فرو ، عطر ، كعب عالٍ ، اظافر حمر : لقد كانت تحت خمائل شعرها العنبرية دمية للزينة بين دمى اخرى .

وقالت لوسي بيلوم بصوت موضوعي :

ـ لقد قرأت مسرحيتك ، انها عظيمة . وانا واثقة انها يمكن ان تغل مالاً كثيراً ، ان لي بصيرتي في مثل هذه الأشياء . لقد حدثت عنها فيرون ، مدير الاستديو ٤٦ الذي هو صديق كبير لي . انه مهتم جداً .

فقال هنري :

ـ ألا يجدها فاضحة ؟

ـ ان الفضيحة يمكن ان تفيد المسرحية او تغرقها. هذا يتوقف على كثير من الأشياء . اعتقد انني استطيع ان اقنع فيرون بركوب المجازفة . » وساد صمت ، ثم تابعت ، بدون انتقال ، في شبه وقاحة : « فيرنون سيكون على استعـــداد لإتاحة الفرصة امام جوزيت . انها لم تمثل حتى الآن إلا ادواراً صغيرة ، وهي لم تتجاوز الواحدة والعشرين بعد . لكنها موهوبة وتحسّ الشخصية بطريقة مدهشة. أودّ لو تسمعها في المشهد الثنائي الكبير » .

فقال هنري :

ـ بسرور .

والتفتت لوسي نحو كلودي : « أليس لديك ركن هادىء يمكن للصغيرة ان تمثل فيه المشهد ؟ » .

فقالت جوزيت :

ـ اوه ! ليس الآن .

كانت تنظر الى امها والى هنري في ذعر . لم تكن لها رباطة الجأش المعتادة عند عارضات الأزياء المترفات . بل كان يبدو عليها انها متخوفة من جمالها بالذات. كانت حقاً جميلة بعينيها الكبيرتين الكئيبتين ، وفمها الأثقل مما ينبغي قليلاً ، وكان جلدها تحت شعرها الاصهب صافياً وحليبياً . وقالت لوسي :

ـ انها مسألة عشر دقائق .

فقالت جوزيت :

ـ لكني لا استطيع هكذا ، بدون استعداد .

فقال هنري :

ــ لا داعي للعجلة . اذا كان فيرنون يقبل المسرحية حقــاً ، فسوف نأخذ موعداً .

فابتسمت لوسي ابتسامة صغيرة : « استطيع ان اؤكد لك انـه سيقبل اذا اتفق ان تأخذ جوزيت الدور » .

واضطرم جلد الشقراء اللدن ، من العنق حتى جذور الشعر . وابتسم هنري في لطف لجوزيت :

ــ هل تريدين ان نحدد يوماً ؟ الثلاثاء ، حوالي الساعة الرابعة ، هل يناسبك ؟

فحنت رأسها ، وقالت لوسي :

ــ ليس عليك إلا أن تأتي لعندي . ستكون مرتاحاً جداً للعمل .

فسأل في لهجة اصطلاحية :

ــ هل يعجبك الدور ؟

ــ بالتأكيد .

فقال في مرح :

ــ اعترف انني لم اتصور حنه في مثل هذا الجمال .

وطافت ابتسامة مهذبة حول الفم المأساوي دون أن تنجح في التموضع عليه . كانت جوزيت قد تعلمت جميع حركات الوجه الضرورية للنجاح ، لكنها كانت تسيء تنفيذها . كان ذاك الوجه الجميل ذو العينين اللتين لا نهاية لهما ينسف الاقنعة كافة . وقالت لوسي وهي تصلح فجأة من وضع تنورة جوزيت كاشفة عن ساقين طويلتين حريريتين حتى منتصفهما :

ــ ان الممثلة ليست ابداً اجمل مما ينبغي . عندما تظهر امرأتك الطيبــة على المسرح نصف عارية ، فان ما يريد الجمهور ان يراه ، هو هذا .

ــ ماما !

ولمس صوت جوزيت المذعور قلب هنري . ألم تكن حقاً إلا دميــة للزينة شبيهة بالأخريات تماماً ؟ وقال هنري في نفسه : « انها بالتأكيد ليست ذكية .

لكن من الصعب التصديق ان هذا الوجه المؤثر لا يستطيع ان يعني شيئاً » .

وقالت لوسي بيلوم بصوت جاف :

– لا تمثلي دور الساذجة » . وأضافت : ألا تسجلين الموعد ? » .

وبوداعة فتحت جوزيت حقيبتها وأخرجت منها مفكرة . ولمح هنري منديلاً مطرزاً وعلبة مسحوق ذهبية صغيرة: كان داخل حقيبة نسوية يبدو له مليئاً بالسر، فيما مضى . واحتفظ في يده للحظة بالأصابع الطويلة المنحوتة من معجون السكر بماء الشعير :

– إلى الثلاثاء .

– إلى الثلاثاء .

وقالت كلودي في ابتسامة صغيرة خبيثة عندما ابتعدت المرأتان :

– أتعجبك ? اذا كان قلبك يغريك ، تستطيع ان تمضي : انها ليست مدققة جداً ، الصبية المسكينة .

– لماذا مسكينة ?

– ان لوسي ليست دمثة المعشر . انت تعرف ، ان النساء اللواتي سال لعابهن للحياة مدى طويلة جداً قبل ان ينجحن ، لسن دمثات .

كان هنري ، في مثل هذا الوقت ، على استعداد ليستمع في التهاء إلى ثرثرة كلودي . لكن كان هناك فولانج ولامبير اللذان كانا يتحادثان في حماسة . كان فولانج يسهب في الوعظ ، في حركات متطرفة ، وكان لامبير يهز رأسه مبتسماً . وكان يود لو يتدخل . وشعر بالاطمئنان عندما رأى فانسان يبتعد عن المأدبة . وصاح بصوت صاخب :

– أريد ان اطرح عليك سؤالاً ، سؤالاً واحداً : ماذا يفعل شخص مثلك هنا؟

فقال لويس في هدوء :

– كما ترى ، إنني أتحادث مع لامبير . اما انت ، فتسكر ، وليس هذا اقل وضوحاً .

فقال فانسان :

ـ لعلهم لم يخطروك : هذه جلسة لمنفعة اطفال المنفيين . ان مكانك ليس هنا.

فقال لويس :

ـ من يعرف مكانه المضبوط في هذا العالم ؟ إذا كنت تظن انك تعرف مكانك ، فهناك بلا شك نعمة خاصة للسكارى .

فقال لامبير بصوت لاسع :

ـ اواه ! هذا لأن فانسان شخصية ! انه يعرف كل شيء ، ويحكم على جميع الناس ، ولا يخطيء ابداً ، ولست بحاجة لتدفع له كي يعطيك دروساً .

لم يكن فانسان شاحباً البتة كما كان في هذه اللحظة . لكأن الدم كان سينهال من عينيه . وتمتم :

ـ انني اعلم كيف أتعرّف نذلاً ...

فقال لويس :

ـ اعتقد ان هذا الشاب بحاجة إلى عناية طبية . ان غلاماً في هذا العمر ، تفوح منه رائحة الكحول ، لمشهد منحط .

فاقترب هنري في سرعة : « انت الذي يبرر الشر ، بحماسة ، ها قد انقلبت طهرانياً فجأة ! ان فانسان يعطي للشيطان نصيبه على طريقته . لماذا لا يحق لنا ان نسكر ؟ » .

وتمتم فانسان في ابتسامة دامية :

ـ نذل ، وابن نذل ، لا بد ان يتفقا معاً .

فقال لامبير :

ـ ماذا قلت ؟ كرّر !

فأكد فانسان صوته : « اقول انه لا بد ان تكون نذلاً جميلاً لتتصالح مع الشخص الذي وشى بروزا . هل تذكر روزا ؟ » .

فقال لامبير :

ـ انزل إلى الباحة معي ، سوف نتفاهم .

ـ لا حاجة للنزول .

وأمسك هنري فانسان ، بينما كان لويس يضع يده على كتف لامبير قائلاً :
— دعك منه .
— أريد ان أحطم فكه .
فقال هنري :
— في يوم آخر . لقد وعدتني ان تعيدني على الدراجة وانا مستعجل . » وقال في ود لفانسان الذي كان يدمدم بألفاظ غير مفهومة : « وانت ، دعنا في سلام » .
وترك لامبير هنري يسحبه ، ولكنه قال بينما كانا يجتازان البـــاحة في لهجة كئيبة : « كان يجب ألا تمنعني ، كنت سألقنه درساً قذراً . إنني أعرف كيف اضرب ، اتعرف » .
— لا اقول لا ، لكن ضربات القبضات شيء سخيف .
فقال لامبير :
— كان يجب ان أضربه فوراً بدلاً من الكلام . إنني لا أحسن الرد . عندما يكون من الواجب ان أضرب ، اتكلم .
فقال هنري :
— لقد شرب فانسان ، وانت تعرف جيداً انه مخاوع قليلاً . لا تهتم إذن بما يرويه .
فقال لامبير في غضب :
— هذا سهل أكثر مما ينبغي ! لو كان مجنوناً كما تقول لما كنت صديقاً له إلى هذا الحد . » وامتطى دراجته : « إلى اين انت ذاهب ؟ » .
فقال هنري :
— إلى بيتي . سأمر على الجريدة في ساعة متأخرة قليلاً .
كان قد تمثّل بول فجأة . كانت جالسة وسط الاستديو ، ساكنة ، شاخصة النظر : لقد قرأت . مشهد القطيعة ، لقد قرأته ، جملة جملة ، كلمة كلمة . انهـــا تعرف الآن كل ما يعتقده هنري عنها . كانت بحاجـــة لأن يراها ثانية ، فوراً . وكان لامبير ينقض بحذاء الأرصفة في شراسة . وعندمـا توقف امام النور الأحمر

الأخير ، سأل هنري :

– أنشرب كأساً ؟

كان يجب ان يرى بول فوراً، لكن عندما فكر بأنه سيجد نفسه ثانية تجاهها، لم يطاوعه قلبه . وقال لامبير في لهجة متجهمة :

– إذا اردت .

ودخلا إلى المقهى – التبغ عند زاوية الرصيف ، وطلبا نبيذاً ابيض على البار . وقال هنري في لطف :

– لن تغضب مني على كل حال لأنني منعتك من القتال مع فانسان ؟

فقال لامبير في حنق :

– إنني لا أفهم كيف تستطيع ان تتحمل هذا الشخص . سكراته ، قمصانه القذرة ، قصصه الماخورية ، ومع كل هذا تباهيه بفدائيته ، ان هذا كله يقرفني . لقد قتل أشخاصاً أثناء المقاومة ، لقد حدث هذا لكثيرين غيره ، فليس هذا سبباً ليتنزه في الحياة كما تقوده نزواته . ونادين التي تدعوه ملاكاً، بحجة انه نصف عنين!» وكرر لامبير : « كلا ، إنني لا افهم . إذا كان مخبولاً ، فليصدم بضع صدمات كهربائية طيبة ، وليكفّ عن صدع رأسنا » .

فقال هنري :

– انت ظالم جداً !

– أعتقد بالأحرى انك انت المتحيّز !

فقال هنري في شيء من الجفاء :

– إنني أحبـــه كثيراً . » وأضاف : « ليس عن فانسان كنت أريد ان احدثك . لقد قالت لي بول شيئاً غريباً : إنها دعتك امس لتطرح عليك أسئلة عن دوبروي . ولقد وجدت هذا في غير محله تماماً . لا بد ان الموقف كان محرجاً لك بالأحرى » .

فقال لامبير في حميا :

– كلا . لم أفهم جيداً ما كانت تريده مني على الضبط ، لكنها كانت لطيفة

للغـــاية .

وتفرس هنري في وجه لامبير . كان يبدو صادقاً حقاً . لعل بول قد تحفظت امامه : « انها ، حالياً ، تكره دوبروي، انها امرأة متطرفة للغاية ، ولعلـــك تبينت ذلك » .

فقال لامبير :

– نعم ، لكن لما كنت انا الآخر لا أحب دوبروي ، فإن ذلك لم يحرجني .

– إذن هذا افضل ! كنت اخشى من ان هذه المقابلة كانت مزعجة .

– مطلقاً .

فكرر هنري :

– هذا افضل ! إلى اللقاء . شكراً على اعادتك إياي .

وسار هنري في خطى بطيئة في الزقاق . لم يكن هناك أي تأجيل ممكن : بعد دقيقتين ، سيواجه بول ، وسيحس بنظرتها على وجهه، ولا بد ان يجد كلمات . « سأنكر . سأقول لها ان ايفيت لا علاقة لها بها ، وانني استعرت منهـــا كلمات، وحركات ، لكني شوهت كل شيء » . وبـدأ يرتقي الدرج ، وفكـر : « لن تصدقني مطلقاً ! » . لعلها لن تترك له سبيلاً حتى للكلام . لعل ... وحث خطاه . كان حلقه قد ضاق وارتقى الدرجات الأخيرة راكضاً . لا صوت ، لا نباح ، لا رنة جرس . لا موسيقى من الراديو . وقـــال في نفسه : « صمت موت » . وفكر في هلع : « لقد انتحرت ! » . وتوقف امام الباب . كان يسمع همس أصوات .

– ادخل .

كانت بول تبتسم ، كانت حية . ونهضت البوابة الجالسة على حافة الأريكة : « ها قد أضعت وقتك بقصصي » .

فقالت بول :

– مطلقاً . لقد أثرت اهتمامي كثيراً .

فقالت البوابة :

ـ كوني مطمئنة ، غداً سأكلم المالك عنه .

وقالت بول في مرح بينما كانت البوابة تغلق الباب :

ـ السقف على وشك الانهيار . » وأضافت : « انها لطيفة ، هذه المرأة . لقد روت لي قصصاً مدهشة عن متشردي الحي ، قصصاً تستحق ان يكتب عنها كتاب » .

فقال هنري :

ـ أتصور .

كان ينظر إلى بول في مزيج من الخيبة والاطمئنان . لقد ثرثرت طوال بعد الظهر مع البوابة ، ولم يتح لها الوقت لقراءة المخطوط . عليه ان يعاود كل شيء من جديد : وكان يعلم جيداً انه لن يملك الشجاعة لذلك .

وقال بصوت حيادي :

ـ هل منعتك من قراءة روايتي ؟ » وأرغم نفسه على الابتسام : « كان هذا يستحق الجهد ! »

فنظرت اليه بول في استنكار : « لكني قرأتها بالتأكيد ! » .

ـ آه ! ما رأيك فيها ؟

فقالت في بساطة :

ـ انها محكمة .

وتناول الدفتر ، وتصفّحه في لامبالاة ظاهرية .

ـ كيف تجدين شخصية شارفال ؟ أيبدو لك لطيفاً ؟

فقالت بول :

ـ ليس تماماً . لكنه يتمتع بعظمة حقيقية . افترض ان هذا ما أردته ؟

فأشار هنري برأسه أن نعم : « أأحبت مشهد ١٤ تموز ؟ » .

وفكرت بول :

ـ ليس هو المقطع الذي أفضله .

وفتح الدفتر على الصفحة المشؤومة : « والقطيعة مع ايفيت، ما رأيك فيها ؟» .

– انها مؤثرة .

– أترين ذلك ؟

فنظرت اليه في شيء من الشك : « لمـــاذا يدهشك هذا ؟ » . وضحكت ضحكة صغيرة : « أكنت تفكر بنا عندما كتبت ذلك ؟ » .

فرمى الدفتر على الطاولة : « انت حمقاء » .

فقالت بول بصوت حازم : « ستكون اجمل كتبك » . ومرّرت في حنان يدها بين شعر هنري : « انني لا افهم حقاً لماذا كنت كتوماً ، إلى ذلك الحد » .

فقال :

– لم اعد اعرف انا نفسي .

أحس هنري أنه شبه خائف من كثافة الصمت. سجاد ، ستائر ، بسط تغطي الغرفة الكبيرة الغنية . لم يكن يسمع ، من خلال الأبواب المغلقة ، اي صوت حي : إلى حد ان هنري تساءل عما اذا كان لن يقلب قطع الأثاث لإيقـــاظ شخص ما .

– أجعلتك تنتظر ؟

فقال في أدب :

قليلاً جداً .

ولبثت جوزيت منتصبة امامه ، وابتسامة خائفة على شفتيها . كانت ترتدي ثوباً عنبري اللون ، هشاً ، فاضحاً للغاية . كانت كلودي قد قالت : « انهـا ليست مدققة » . هذه الابتسامة ، هذا الصمت ، الأرائك المكسوة بالفرو ، كانت تدعو في وضوح إلى جميع الجسارات . في وضوح كثير . ولو استفاد هنري من هذه التواطؤات ، لشعر انه يرتكب تحت نظر قوادة مقهقهة اغتصاب فتاة قاصر . وقال في شيء من الجفاء : « اذا شئت ، فسنبدأ فوراً في العمل . انني مستعجل قليلاً . هل لديك نص ؟ » .

فقالت جوزيت :

ـ اعرف المونولوج عن ظهر قلب .

ـ هيا إذن .

ووضع نسخته على طاولة وتوسد مقعداً عريضاً . كان هذا المونولوج اصعب ما في المسرحية ، ولم تكن جوزيت تفهم منه شيئاً . وكانت خائفة . وكان هنري حرجاً من رؤيتها تستنفد نفسها بلا تبصر مع الأمل المجنون بأن تعجبه . يقيناً ، انه كان يبدو كغني مهووس يشهد في ماخور رفيع المستوى عرضاً خاصاً . وقال :

ـ لنجرب المشهد الثالث من الفصل الثاني . سأجاوبك أنا .

فقالت جوزيت :

ـ من الصعب عليّ التمثيل وانا اقرأ .

ـ لنجرب .

كان مشهد حب ، وكانت تؤديه بشكل افضل قليلاً . كان إلقاؤها جيداً . وكان وجهها وصوتها مؤثرين حقاً : من يدري ماذا يستطيع مخرج ماهر ان يستخلصه منها ؟ وقال هنري في مرح :

ـ انت لا تتقنين الدور مطلقاً . لكن هناك أمل .

ـ أتعتقد ؟

ـ أنا واثق . اجلسي هنا . لأشرح لك الشخصية قليلاً .

وجلست الى جانبه . منذ زمن بعيد لم يجد نفسه جالساً الى جانب فتاة في مثل هذا الجمال . وبينما كان يتكلم ، كان يتنشق شعرها . كان عطرها يعبق بالعطور ، كسائر العطور . ولكنه كان يبدو عندها رائحة شبه طبيعية . وكان هذا يجعل هنري يشتهي بقوة لو يتنشق تلك الرائحة الأخرى ، الرطبة والعذبة التي كان يحزرها تحت الثوب . أن ينقب في هذا الشعر ، ان يدس لسانه في هذا الفم الأحمر : كان هذا سهلاً ، بل كان اسهل مما ينبغي . كان يشعر ان جوزيت تنتظر لذتها الطيبة في استسلام مثبط الهمة حقاً . وسأل :

ـ أفهمت ؟

– نعم .
– إذن ، هيا : لنعاود .
وأعادا المشهد ، كانت تحاول ان تضع عاطفة في كل جواب وكان ذلك أسوأ بكثير من المرة الأولى . وقال :
– انت تبالغين كثيراً . كوني أكثر بساطة .
– فقالت بصوت حزين :
– آه ! لن أنجح ابداً !
– بالاجتهاد ستنجحين .
واطلقت جوزيت تنهدة طويلة . يا للصبية المسكينة ! بالإضافة إلى هـــذا ، ستلومها أمها على انهـــا لم تعرف كيف تغريه . ونهض هنري . كان نادماً على وساوس ضميره : كم كان هذا الفم مشتهى ! ان ينام مع امرأة مشتهاة حقاً ، كان يذكر اي فرح يمكن ان يكونه هذا . وقال :
– ستأخذ موعداً آخر .
– انني أضيع وقتك !
فقال هنري :
– بالنسبة لي ، ليس هذا وقتاً ضائعاً . وابتسم : « إذا كنت لا تخشين ان تضيعي وقتك ، فربما استطعنا في المرة القادمة بعد العمل إن نخرج معاً ? » .
– سنستطيع .
– اتحبين الرقص .
– بالطبع .
– حسناً ! سآخذك للرقص .

وفي يوم السبت التالي وجد هنري جوزيت ثانية في بيتها ، شارع غابريل ، في صالون اثاثه مبطن بالوردي والأبيض . واصابته صدمة صغيرة عندما رآها ثانية . ان الجمال الحقيقي ، ما إن تغادره عيناك ، حتى تخونه : كان جلد جوزيت اكثر شحوباً ، وشعرها اكثر قتامة ممـــا كان يذكر ، وكان في عينيها تبر بارق ،

وكأنها قاع نهر . وبينما كان هنري يعطيها الأجوبة في غفلة ، كان يجيل بصره في الجسد الفتي المتشح بالمخمل الأسود ، وكان يقول في نفسه ان هذا الجسد وهـــذا الصوت يكفيان للتغاضي عن كثير من عدم المهارة . على كل حال ، اذا ما توفر لجوزيت توجيه طيب ، فلا داعي هناك لأن يشك بأنها ستكون اخرق من غيرها. بل كانت تجد ، بين الحين والحين ، نبرات مؤثرة . كان قـد قرر ان يجازف . وقال في حرارة :

– سيسير الأمر . يقيناً ، لا بد ان تشتغلي بإجهاد ، لكن الأمر سيسير .

فقالت :

– اود كثيراً !

فقال هنري :

– والآن ، لنذهب للرقص . كنت أفكر بأنه يمكننا ان ننزل إلى سان جرمان دي بري . ما رأيك ؟

– كما تشاء .

وذهبا للجلوس في كهف في شارع سان – بونوا ، تحت لوحة امرأة ملتحية . كانت جوزيت ترتدي ثوباً للمفاجآت : فقد خلعت البوليرو وكشفت عن كتفين مستديرتين ناضجتين تتناقضان مع وجهها الطفولي . وقال هنري في نفسه في مرح : « هذا ما كان ينقصني كي يلهيني هذا حقاً : غانية جميلة الى جانبي » .

– هل نرقص ؟

– لنرقص .

كان يتملكه بعض الدوار اذ كان يمسك بين ذراعيه بهـذا الجسد الدافيء الهش . كم كان يحب هذا النوع من الدوار ! وهو لا يزال يحبه . واخذ يحب من جديد الجاز ، والدخان ، والأصوات الشابة ، ومرح الآخرين. كان على استعداد لأن يحب هذين النهدين ، هذا البطن . كل ما هنالك انه كان يود ، قبل ان يقوم ببادرة ، ان يشعر ان جوزيت تحس بنوع من المودة نحوه على كل حال .

– أيعجبك هذا المكان ؟

– نعم . » وترددت : « إنه خاص ، أليس كذلك ؟ » .

– افترض أن نعم . اي نوع من الأمكنة تفضلين ؟

فقالت في حميا :

– اواه ! هنا جميل جداً .

كان ما ان يحاول ان يجعلها تتكلم ، حتى تذعر . لا بد ان أمها قد علمتها بعناية ان تصمت . وصمتا حتى الساعة الثانية صباحاً وهما يشربان الشمبانيا ويرقصان . لم تكن جوزيت تبدو لا مرحة ولا كئيبة . وفي الساعة الثانية ، طلبت ان تعود دون ان يستطيع ان يعرف ما إذا كانت طلبت ذلك سأماً ، او تعباً ، او حذراً . ورافقها إلى بيتها . وفي السيارة، سألت في تهذيب مدروس: « احب حقاً لو اقرأ كتاباً لك ؟ » .

– هذا سهل . » وابتسم لها : « أتحبين القراءة ؟ » .

– عندما يتاح لي الوقت .

– لكن الوقت لا يتاح لك كثيراً ؟

فتنهدت :

– كلا حتماً .

هل كانت بلهاء تماماً ؟ أو معتوهة قليلاً ؟ او مشلولة خجلاً ؟ كان من الصعب تقرير ذلك . كانت جميلة جداً الى حد انه كان لا بد ان تكون غبية كما هي العادة . لكن جمالها في الوقت نفسه كان يجعلها تبدو غامضة .

وقررت لوسي بيلوم ان يوقع العقد في بيتها بعد عشاء ودي . وتلفن هنري لجوزيت لتحتفل معه بهذا النبأ الطيب . وبصوت دنيوي ، شكرته على كتابه ، الذي ارسله اليها مع اهداء لطيف ، واعطته موعداً في بار صغير في مونمارتر في المساء نفسه . وسأل وهو يحتفظ لحظة بيد جوزيت :

– اذن ، أأنت مسرورة ؟

فقالت جوزيت :

– مم ؟

كانت تبدو اكبر سناً مما هي عليه عادة ، وغير مسرورة قط .

ـ العقد . سنوقعه ، لقد تقرر ذلك . ألا يسرك هذا ؟

وحملت الى شفتيها كأساً من مياه فيشي ، وقالت بصوت خافت :

ـ هذا يخيفني .

ـ فيرنون ليس مجنوناً ، ولا أنا . لا تخافي : ستحسنين اداء الدور .

ـ لكن ليس هكذا مطلقاً كنت ترى الشخصية ؟

ـ لم اعد استطيع ان اراها بشكل آخر .

ـ أهذا صحيح ؟

ـ صحيح .

كان هذا صحيحاً . ستؤدي الدور كما تستطيع . لكنه لم يكن يريد ان يتصور انه يمكن ان يكون لـ « حنة » عينان أخريان ، صوت آخر .

وقالت جوزيت :

ـ انت لطيف جداً !

كانت تنظر اليه في عرفان بالجميل حقيقي . لكن أن تقدم نفسها عرفاناً بالجميل ، او عن خطة ، فليس في هذا فرق ، وليس هذا ما كان هنري يريده . ولم يتحرك . وتحدثا : من خلال لحظات الصمت العذبة الواهنة ، عن المخرجين الممكنين ، وعن التوزيع وعن الديكور الذي يتمناه هنري . وظلت جوزيت على قلقها . ورافقها حتى بابها . واحتفظت بيده ، وقالت بصوت مخنوق :

ـ اذن ، الى الاثنين .

فقال :

ـ أما عدت خائفة ؟ ستنامين في تعقل ؟

فقالت :

ـ بلى ، اني خائفة .

فابتسم : « أتقدمين لي كأس وسكي اخيرة ؟ » .

فنظرت اليه في غبطة : « ما كنت لأجرؤ ! » .

وارتقت الدرج بسرعة ، ورمت معطف الفرو ، كاشفة عن صدرها المبطن بحرير أسود . وناولت هنري كأساً كبيرة كان الثلج يرن فيها في مرح . وقال :

ــ نخب نجاحك !

فلمست بسرعة خشب الطاولة : « لا تقل لي هذا ! يا إلهي ! سيكون شيئاً فظيعاً جداً اذا كنت رديئة ! »

فكرر : « ستحسنين اداء الدور » .

فهزت كتفيها : « انني افشل في كل شيء ! » .

فابتسم : هذا يدهشني » .

ــ هكذا الأمر . » وترددت : « يجب الا اقول لك ذلك : انت الذي لن تعود لك ثقة . لقد ذهبت لرؤية بصارة بعد ظهر اليوم . لقد اعلنت لي انني أسير نحو خيبة خطيرة » .

فقال هنري في حزم :

ــ ان البصارات يبالغن دوماً . ألم توصي على ثوب جديد من قبيل الصدفة ؟

ــ نعم ، ليوم الاثنين .

ــ حسناً ! لن ينجح . هي ذي خيبتك .

فقالت جوزيت :

ــ اواه ! لكن هذا سيكون مؤسفاً . ماذا سألبس لذاك العشاء ؟

فقال ضاحكاً :

ــ ان الخيبة لا بد ان تكون مخيبة . » وأضاف : « هيا ، ستكونين أجمل النساء على كل حال يوم الاثنين ، كما انت دوماً . وهــذا اقل خطورة من اساءة التمثيل ، كلا ؟ » .

فقالت جوزيت :

ــ لك طريقة لطيفة جداً في تسوية الأمور ! من المؤسف ألا تستطيع ان تسرق من الرحمن مكانه .

كانت قريبة منه كل القرب . هل كان عرفان الجميل هو الذي ينفخ عينيها

فحسب ، ويحجب عينيها ؟ وقال وهو يأخذها بين ذراعيه :

— لكني لن أتخلى له عن مكاني !

عندما فتح هنري عينيه ، لمح في العتمة جداراً مبطناً بلون أخضر شاحب ، ووثب مرح هذا اليوم التالي إلى قلبه . كانت تطلب لذات عنيفة ومفرطة : الماء البارد ، وقفاز الليف ، وتسلل خارج السرير دون ان يوقظ جوزيت وعندما خرج من غرفة الحمام ، وقد اغتسل ، ولبس ، وجاع ، كانت لا تزال نائمة . وعبر الغرفة على أصابع قدميه ومال عليها . كانت ترقد ملتحفة بعرقها ، برائحتها ، بشعرها الساطع الذي كان ينساب على عينيها ، وشعر شعوراً مدهشاً بأنه سعيد لأن هذه المرأة له ، ولأنه رجل . وفتحت عيناً ، عيناً واحدة كأنها حاولت ان تحتفظ في الأخرى بالنوم .

— أنهضت من الآن ؟

— نعم . سأذهب لشرب قهوة في المقهى المجاور وأعود .

فقالت :

— كلا ! كلا ! سأصنع لك شاياً .

كانت تفرك عينيها الخدرتين ، وتخرج من تحت اغطيتها ، دافئة الدفء كله في قميصها الراغي . واخذها بين ذراعيه :

— تبدين كمعبود صغير .

— معبودة .

— معبود صغير .

ومدت اليه فمها مسحورة . اميرة فارسية ، هندية صغيرة ، ثعلب ، لبلاب ارجواني ، عنقود جميل من الحلوة ، انهن يفرحن دوماً عندما يقال لهن انهن يشبهن شيئاً ما : شيئاً آخر . وكرر وهو يقبلها في خفة : « معبودي الصغير » . وضمت قميص البيت ، ونعليها ، وتبعها الى المطبخ . كانت السماء تلمع ، والزجاج الأبيض يقدح شرراً ، وجوزيت تنهمك في حركات مترددة .

— لبناً ام ليموناً ؟

— قليلاً من اللبن .

كانت قد وضعت صينية الشاي في مخدع النوم الذي بلون الجلد ، وكانت تنظر في فضول الى الطاولات الصغيرة ، والى المقاعد العريضة ذات الجناحين. لماذا كانت جوزيت التي ترتدي ثيابها في أناقة ، والتي كان صوتها وحركاتها متناسقة للغاية تسكن بين هذا الديكور السينمائي الرديء ؟

— أأنت التي أثثت هذه الشقة ؟

— ماما وانا .

ونظرت اليه في قلق فقال بسرعة :

— انها جميلة جداً .

متى كفت عن السكن لدى امها ؟ لماذا ؟ لمن ؟ كان يود ان يطرح عليها كمية من الأسئلة ، فجأة . كانت وراءها حياة كاملة ، عاشت كل يوم فيها ، كل ساعة ، على حدة : كل ليلة . وكان يجهل كل شيء . ولم يكن هذا الوقت المناسب ليعرضها الى استجواب ، لكنه كان لا يشعر بالراحة بين هذه التحف كلها التي أسيء اختيارها ، بين هذه الذكريات اللامرئية .

— ألا تعرفين ماذا يجب ان نفعل ؟ ان نذهب للتنزه معاً : انه صباح جميل جداً .

— ان نتنزه ؟ اين ؟

— في الشوارع .

— تعني ، على الأقدام ؟

— كانت تبدو عليها الخيبة : « اذن ، يجب ان ألبس ؟ » .

فضحك : « سيكون هذا افضل . لكنك لست بحاجة لأن تتنكري في ثياب سيدة » .

— ماذا ألبس ؟

كيف يلبس الانسان ليتنزه على قدميه في الشوارع في الساعة التاسعة صباحاً ؟ كانت تفتح خزائنها ، وادراجها ، وكانت تجس مناديل وقمصاناً . وضمت جورباً

حريرياً طويلاً وشعر هنري ثانية في باطن يده بذكرى ذلك الحرير المنتفخ باللحم والذي كان يحترق .

– أمناسب هكذا ؟

– انت رائعة .

كانت ترتدي سترة قصيرة قاتمة اللون ، ومنديلاً اخضر ، وكانت قد رفعت شعرها : كانت رائعة .

– ألا تجد ان هذه السترة تسمنني ؟

– كلا .

كانت تنظر الى نفسها في المرآة في سيماء من هم : مـاذا كانت ترى ؟ ان تكون امرأة ، ان تكون جميـلة ، كيف تشعر بهذا في داخلهـا ؟ كيف تشعر بداعبة الحرير تلـك على طول ساقيها ، وبداعبة الساتان المصقول على دفء بطنها ؟ وتساءل : « كيف تتذكر ليلتنا ؟ هل قالت أسماء اخرى بذلك الصوت الليلي ؟ أي اسماء ! بيير ، فيكتور ، جاك ؟ وماذا يعني بالنسبة لها اسم هنري؟».
وأشار إلى روايته الموضوعة في جلاء على طاولة صغيرة :

– أقرأتها ؟

– لقد نظرتِ اليها . » وترددت : « هذا سخيف ، إنني لا اعرف القراءة » .

– أتضجرك ؟

– كلا . لكني اجد نفسي فوراً احلم بشيء آخر . إنني انطلق من كلمة .

– واين تـذهبين ؟ اقصد : بمَ تحلمين ؟

– اواه ! هذا مبهم . عندما نحلم ، يكون حلمنا مبهماً .

– أتفكرين بأمكنة ، بأناس ؟

– بلا شيء : انني احلم .

واخذها بين ذراعيه وسأل مبتسماً :

– هل كنت عاشقة غالباً ؟

– انا ؟ » وهزت كتفيها : « لمن ؟ » .

— لكثير من الأشخاص الذين احبوك : انت جميلة جداً .

فقالت وهي تشيح برأسها :

— انه لاذلال ان تكون المرأة جميلة .

وأرخى عناقه . لم يكن يعرف لماذا توحي اليه بهذه الشفقة كلها . كانت تعيش في ترف، ولا تعمل ، وكانت لها يدا آنسة: وأمامها ، كان يذوب إشفاقاً.

وقالت جوزيت وهي ترفع نحو السماء وجهاً مخضباً بالمساحيق :

— ظريف ان أكون في الشوارع في مثل هذه الساعة المبكرة .

فقال وهو يشد على ذراعها :

— ظريف ان اكون هنا ، معك .

كان يتنشق في فرح هواء الفضاء . كل شيء كان يبدو جديداً ، هذا الصباح . كان الربيع جديداً ، كان لا يكاد يرتسم ، لكن الانسان كان يتذوق من الآن في الهواء مشاركة دافئة . وكانت ساحة « آبيس » تعبق برائحة الملفوف والسمك، وكانت نساء في قمصان البيت يتفحصن بنظرة متشككة السَلَطات الأولى. وكانت لشعورهن اللزجة بالنعاس ألوان غير مطبوعة لا توجد لا في الطبيعة ولا في الفن . وقال وهو يشير إلى عجوز رافلة في المساحيق والمجوهرات وواضعة على رأسها قبعة كبيرة قذرة :

— إنظري الى هذه الجنية العجوز .

فقالت جوزيت :

— اواه ! انني اعرفها . » لم تكن تبتسم : « ربما سأصبح مثلها ذات يوم » .

— هذا سيدهشني . ونزلا بضع درجات في صمت . كانت جوزيت تترنح على كعبيها العاليين جداً . وسأل : « ما عمرك ؟ » .

— إحدى وعشرون .

— اعني : على حق ؟

وترددت : « ست وعشرون » وأضافت في خوف : « لكن لا تقل لماماً إنني قلت لك » .

فقال :

– لقد نسيت من الآن . انت تبدين صغيرة جداً !

فتنهدت : « لأنني أراقب نفسي . هذا متعب » .

فقال في حنان :

– لا تتعبي نفسك إذن ! » وشد على ذراعها أكثر: « أمنذ زمن طويل ترغبين في التمثيل ? » .

فقالت من بين اسنانها :

– لم أرغب ابداً في ان أكون عارضة ازياء . ولا أحب السادة الشيوخ .

كان من البديهي ان أمها هي التي اختارت لها عشاقها . وربما كان صحيحاً انها لم تحب ابداً . ست وعشرون سنة ، وهاتان العينـان ، وهذا الفم ، وتجهل الحب : انها تستحق ان يرثى لهـا ! وتساءل : « وانا ، من اكون بالنسبة لها ? ماذا سأكون ? » . لقد كانت لذتها على كل حال صادقة هذه الليلة ، وكان صادقاً ذلك النور المطمئن في عينيها. كانا يقتربان من شارع « كليشي » حيث كانت تتناوم أكواخ معرض وكان طفلان يدوران حول نفسيهما في ميدان صغير . وكانت الجبال الروسية [1] ترقد تحت خيمة .

– هل تعرفين اللعب بالبليارد الياباني ?

– كلا .

ووقفت في وداعة إلى جانبـه امام إحدى البلاتوهات المثقوبة وسأل : « ألا تحبين المعارض ? » .

– لم اذهب ابداً إلى المعرض .

– ألم تصعدي ابداً على جبال روسية ! او في قطار وهمي ?

– كلا . عندما كنت صغيرة ، كنـا فقراء . ثم وضعتني ماما في مدرسة داخلية . وعندما خرجت منها ، كنت شخصاً كبيراً .

– كم كان عمرك ?

---

١ ـ الجبال الروسية : سلسلة من الصواعد والنوازل للتزحلق في المعارض . «المترجم»

– ست عشرة .

كانت تطلق في اجتهاد كرات الخشب نحو البيوت المستديرة: «هذا صعب».

– كلا ، إنظري : كدت تربحين . » واخـــذ ذراعها ثانية : « سنركب على الأحصنة الخشبية في مساء يوم من الأيام » .

فقالت غير مصدقة :

– انت ، أتركب على احصنة خشبية ؟

– ليس عندما اكون بفردي بالطبع .

ومن جديد راحت تتعثر على المرتفع العمودي الانحدار .

– أأنت متعبة ؟

– حذائي يوجعني .

فقال هنري وهو يدفع باب مقهى من دون تعيين :

– لندخل إلى هنا » . كان عبارة عن مقهى صغير فيه طاولات مغطاة بقماش مشمع : « ماذا تشربين ؟ » .

– زجاجة فيشي .

– لماذا فيشي دوماً ؟

فشرحت في حزن :

– بسبب الكبد .

وطلب هنري :

– زجاجة فيشي ، وكأس نبيذ احمر . » واشار إلى لافتة معلقة على الجدار : « انظري ! » .

وقرأت جوزيت بصوتها البطيء العميق : « حاربوا ادمان الكحول بشرب النبيذ » . واخذت تضحك في سلامة طوية :

– هذا ظريف ! انت تعرف أمكنة ظريفة .

– لم آتِ إلى هنا ابداً . لكن اتعرفين، ان الانسان ليكتشف اشياء كثيرة، عندما يتنزه . ألا تتنزهين ابداً ؟

ـ ليس لدي وقت .

ـ ماذا تفعلين اذن ؟

ـ هناك دوماً عمل كثير . دروس الالقاء ، السباقات ، الحلاق : انت لا تتصور كم يأخذ وقتاً ، الحلاق . ثم حفلات الشاي ، والكوكتيل .

ـ أيسليك هذا كله ؟

ـ أتعرف اناساً يتسلون ؟

ـ اعرف اناساً مسرورين من حياتهم . انا مثلاً .

ولم تقل شيئاً وعانقها في عذوبة :

ـ ماذا يجب كي تكوني مسرورة ؟

فقالت دفعة واحدة :

ـ ألاّ احتاج الى ماما ، وان اكون واثقة من انني لن اصبح فقيرة ثانية .

ـ هذا سيتحقق لك . ماذا ستفعلين عندئذ ؟

ـ سأكون مسرورة .

ـ لكن ماذا ستفعلين ؟ ستسافرين ؟ ستخرجين ؟

فهزت كتفيها : « لم افكر بذلك » .

واخرجت من حقيبتها علبة مساحيق ذهبية وصلحت خضاب فمها : « يجب ان اذهب . عندي تجربة ثوب ، في محل امي » . ونظرت الى هنري في قلق : « هل تعتقد حقاً ان ثوبي لن ينجح ؟ » .

فقال ضاحكاً :

ـ كلا ، اعتقد ان البصارة قد اخطأت تماماً . هذا يحدث لهن ، أتعرفين. أهو ثوب جميل ؟

ـ ستراه يوم الاثنين » . وتنهدت جوزيت : « سيتوجب عليّ ان اظهر نفسي قليلاً ، من قبيل الدعاية لي . اذن يجب ان ألبس » .

ـ ألا يضجرك ان تلبسي ؟

ـ لو تعرف ما اتعبها ، هذه التجريبات ! انني لأصاب بالصداع بعدهـــا

طوال النهار .

ونهض وصعدا نحو محطة التاكسي :

– سأرافقك .

– لا تزعج نفسك .

فقال في حنان :

– هذا للذتي الخاصة .

– انت لطيف .

كان كلامها يمس صميم القلب عندما تقول : « انت لطيف » بهـــذا الصوت، بهاتين العينين . وفي التاكسي ، وضع رأس جوزيت على كتفه وتساءل : « ماذا استطيع ان افعل لها ؟ » . ان يساعدها على ان تصبح ممثلة ، نعم ، لكنها لا تحب المسرح بشكل خاص ، وهذا لن يملأ الفراغ الذي يشعر به في داخلها . واذا لم تنجح ؟ لم تكن راضية عن تفاهة حياتها المتزمتة ، لكن بمَ يثير اهتمامها ؟ ان يحاول الكلام معها ، ان يفتح ذهنها ... انه لن يأخذها على كل حال لينزهها في المتاحف ، ويسحبها الى الحفلات الموسيقية . ويعيرها كتباً ، ويعرض لها العالم . وقبّل في وداعة شعرها . كان يجب ان يحبها : هذا ما ينتهي اليه المرء مع النساء دوماً . كان يجب ان يحصلن جميعاً على حب لا يتسع لغيرهن . وقالت :

– الى هذا المساء .

– نعم سأذهب لانتظارك في بارنا الصغير .

وضغطت في لطف على يده وعلم انهما كانا يفكران معاً : الى هذه الليـلة في سريرنا . وعندما اختفت في البناية الفخمة ، عاد على قدميـــه هبوطاً نحو السين . الساعة الحادية عشرة والنصف . وقال في نفسه : « سأصل قبل الأوان الى عنــد بول ، هذا سيسرها » . كان راغباً هذا الصباح في ان يسر جميع الناس . وفكر في شيء من القلق : مع ذلك ، لا بد ان أتحدث معها » . كان لم يعد يستطيع بعد ان اخذ جوزيت بين ذراعيه ، ان يتحمل فكرة تمضية ليالٍ مع بول . وقال في نفسه في امل : « ربما سيكون هذا سواء عندها : انها تعرف جيداً انني لم اعد

اشتهيها » . كانت بول قد تجنبت ان تتعرف نفسها في بطل روايته الكئيبة . ومع ذلك فقد تغيرت منذ تلك القراءة . لم تعد تخاصمه ، ولم تحتجّ وهي ترى هنري ينقل شيئاً فشيئاً اوراقه وملابسه إلى غرفته في الفندق . وكان ينام فيها أغلب الأحيان . من يدري ما إذا كانت لا تقبل في نوع من الاطمئنان بأن يعيشا في صداقة هادئة؟ كانت سماء الربيع هذه شديدة الفرح إلى حد كان يخيل اليه معه ان من الممكن ان يعيش في صدق دون ان يسبب ألماً لأحد . وعند زاوية الشارع ، توقف هنري متردداً امام بائعة زهور : كان يميل إلى ان يحمل إلى بول ، كما في الماضي ، باقة كبيرة من البنفسج الشاحب . لكنه خاف من مفاجآتها . وقرر وهو يدخل إلى دكان العطارة المجاورة : « زجاجة من النبيذ الجيد ستكون اقل توريطاً» . وكان فرحاً بينما كان يرتقي الدرج . كان عطشاناً، كان جائعاً ، وكان يحس في فمه من الآن بالطعم الحاد لنبيذ البوردو القديم، وكان يشعر بالزجاجة على قلبه وكأنها تلخص الصداقة كلها التي يريد ان يقدمها لبول .

وبدون ان يقرع ، وبهدوء تام ، كما في الماضي ، وضع المفتاح في القفل ودفع الباب . لم تسمع شيئاً . كانت راكعة على السجادة التي تتبعثر عليها اوراق قديمة : وتعرّف رسائله فيها . كانت تمسك بين يديها بصورة له وكانت تنظر اليه بوجه لم يره لها مطلقاً . لم تكن تبكي وكان من الواضح امام عينيها الجافيتين ان ثمة أملاً يتأخر بين الدموع كافة . كانت تتأمل وجهاً لوجه في قدرها ، انها ما عادت تنتظر منه شيئاً ، وكانت لا تزال قابلة به . كانت وحيدة للغاية امام الصورة الجامدة إلى حد ان هنري احس ان ملكية نفسه تُنتزع منه وأغلق الباب دون ان يستطيع ان يمنع نفسه من غضب كان يشل شفقته . وعندما قرع ، سمع صوتاً قلقاً لحرير مدعوك ولورق ، ثم قالت بصوت غير واثق : «ادخل» .

— ماذا تصنعين إذن ؟

— كنت اعيد قراءة رسائل قديمة . لم أكن انتظرك في مثل هذه الساعة المبكرة .

كانت قد ألقت الاوراق على الكرسي وأخفت الصورة . وكان وجهها هادئاً،

لكن قاتماً . كان عليه أن يتذكر انها لم تعد مرحة البتة . ووضع الزجاجة على الطاولة في سخط . وقال :

— تفعلين احسن اذا لم تدفني نفسك في الماضي وعشت قليلاً في الحاضر .

— اواه ! أتعرف ، الحاضر ! » وألقت على الطاولة نظرة عمياء : لم أضع المائدة » .

— هل تريدين ان آخذك إلى المطعم ؟

— كلا ! كلا ! لن يستغرق وضع المائدة دقيقة .

وسارت نحو المطبخ ومد يده نحو الرسائل . فقالت في عنف : « دعها » . وأمسكت بها وألقتها في خزانة . وهز كتفيه . لقد كانت على حق ، بمعنى ما ، فهذه الكلمات القديمة الثابتة قد تحولت كلها إلى أكاذيب . ونظر إلى بول ، في صمت ، وهي تذهب وتجيء حول الطاولة : لن يكون من السهل ان يحدثها عن الصداقة .

وجلسا وجهاً لوجه أمام المقبلات المؤلفة من الفجل ، وفتح هنري الزجاجة . وقال بصوت مجامل :

— تحبين البوردو الاحمر ، أليس كذلك ؟

فقالت في لامبالاة :

— بلى .

يقينا . لم يكن هذا اليوم بالنسبة لها يوم عيد . وان يزعم انه يحتفل مع بول بمغامرته الجديدة ، فهذا فيض من التعامي والأنانية . ولكن هنري كان يشعر ، وهو يلوم نفسه ، بكراهية خفية على سطح جلده . وقال :

— يتوجب عليك ان تخرجي قليلاً على كل حال .

فقالت في لهجة من فوجيء :

— اخرج ؟

— نعم . ان تضعي انفك خارجاً ، أن تري أناساً .

— لمَ ذلك ؟

ـ وان تظلي مدفونة في هذا الجحر طوال النهار ، ماذا سيفيدك هذا ؟

فقالت في ابتسامة حزينة :

ـ انني احبه كثيراً ، جحري . انني لا أملّ .

ـ لا تستطيعين ان تتابعي حياتك على هـذا النحو . لا تريدين ان تغني ، طيب ، هذه قضية مفهومة . لكن حاولي اذن ان تجدي شيئاً آخر لتفعليه .

ـ ماذا ؟

ـ سنبحث عن ذلك .

فهزت رأسها : « انني في السابعة والثلاثين ولا أعرف أي مهنة . استطيع ان اصبح جامعة خرق وغير ذلك ! »

ـ ان المهنة شيء يمكن تعلمه . لا شيء يمنعك من التعلم .

فنظرت إلى هنري في قلق : « اتريد ان اكسب حياتي ؟ » .

فقال في حدة :

ـ ليست المسألة مسألة مال . اريد ان تهتمّي بأشياء ، ان تشغلي نفسك .

فقالت :

ـ انني اهتم بنا .

ـ هذا لا يكفي .

ـ هذا يكفيني منذ عشر سنوات .

ـ اسمعي يا بول ، تعلمين جيداً ان الاشياء تبدلت بيننا ، ولا يفيد شيئاً أن نكذب على انفسنا . لقد عشنا حباً كبيراً ورائعاً . فلنعترف بأنه يتحول الآن إلى صداقة . » وأضاف في عجلة : « هذا لا يعني اننا سنرى بعضنا البعض أقل من الماضي ، كلا ، لكن يجب ان تجدي لك استقلالاً ثانية » .

كانت تنظر اليه في ثبات : « لن اشعر ابداً بصداقـــة نحوك » . ولامست شفتيها ابتسامة صغيرة : « ولا أنت نحوي » .

ـ بلى ، بول ...

فقاطعته : « انظر ، هذا الصباح لم تستطع ان تنتظر الساعـــة المعينة . لقد

جئت قبل الاوان بعشرين دقيقة . وقرعت الباب بعصبية شديدة ! أتسمي هذا صداقة ؟

– انت مخطئة .

كان الغضب يسيطر عليه ثانية أمام عنادها . لكنه كان يذكر اي حزن فاجأه في هذا الوجه ، وكانت الكلمات العدائية تموت في حلقه . وأنهيا الطعام في صمت . كان وجه بول يمنع كل هذر .

وسألت بصوت حيادي عندما قاما عن الطاولة :

– ستعود إلى هنا هذا المساء ؟

– كلا .

فقالت : « ما عدت تأتي اغلب الاحيان » . وابتسمت ابتسامة صغيرة : « أهذا جزء من مشروعك الجديد عن الصداقة ؟ » .

فتردد : « لقد حدث ذلك هكذا » .

فتفرست في وجهه ملياً في إلحاح وقالت ببطء : « قلت لك انني احبك حالياً في كرم تام ، في احترام مطلق لحريتك . هذا يعني انني لن اطلب منك اي حساب . تستطيع ان تنام مع نساء غيري ، وان تخفي عني ذلك دون ان تشعر بالإثم نحوي . انني لا أبالي اكثر فاكثر بما هو يومي ومبتذل في حياتك » .

فقال في انزعاج :

– لكن ليس لدي ما اخفيه عنك .

فقالت في رصانة :

– ما أعنيه ، هو انه لا حاجة بك لأن يوسوسك ضميرك . مهما حدث ، تستطيع ان تعود لتنام هنا . دون ان تحكم على نفسك بأنك غير جدير بنا . سأنتظرك هذه الليلة .

وفكر هنري : « ليكن ! ستكون قد أرادت ذلك ! » . وقال بصوت عالٍ : « اسمعي بول ، سأكلمك بصراحة : أرى انه يجب بعد الآن ألا نمضي ليالي معاً . انت الحريصة جداً على ماضينا ، تعرفين تماماً أي ليالٍ جميلة عشناها

سابقاً . فلا نشوة ذكراها . لم يعد ما فيه الكفاية من الرغبة بيننا ، الآن » .

فقالت بول بصوت غير مصدّق :

– ألم تعد لك رغبة فيّ ؟

فقال :

– ليس بما فيه الكفاية . » وأضـــاف : « ولا أنت نحوي . لا تقولي لي العكس . أنا أيضاً عندي ذاكرة » .

فقالت بول :

– لكنك مخطيء ! أنت مخطيء خطأ فادحاً ! انه سوء تفاهم فظيـع ! انني لم أتغير !

كان يعرف انها تكذب . لكن على نفسها قدر ما عليه بلا شك.

وقال في هدوء :

– على كل حال ، لقد تغيرت أنا . ان المرأة ، ربما كان هـــذا شيئاً مختلفاً ، لكن الرجل ، من المستحيل ان يشتهي إلى ما لا نهاية جسداً واحـداً . انت لا تقلين جمالاً عن الماضي ، ولكنك أصبحت مألوفة عندي كثيراً .

وبحث في قلق عن وجه بول وحاول ان يبتسم لها . لم تكن تبكي . كان يبدو عليها ان الاشمئزاز يشلها . وتمتمت في جهد :

– لن تنام هنا ثانية ؟ هذا ما تحاول ان تقوله لي ؟

– نعم . لكن هذا لن يؤدي إلى كبير خلاف ...

فأوقفته بحركة . لم تكن تقبل إلا الاكاذيب التي تختلقها بنفسها . كان تلطيف الحقيقة بالنسبة لها في صعوبة فرضها عليها . وقالت بلا غضب :

– اذهب . » وكررت : « اذهب ، انني بحاجة لأن أكون بمفردي » .

– دعيني اشرح لك ...

فقالت :

– من فضلك ! اذهب ...

ونهض . وقال : « كما تريدين . لكني سأعود غداً ونتحادث » . ولم تجب .

وأغلق الباب وراءه ولبث لحظة على الدرج ، مترصداً صوت نحيب ، او سقوط ، او حركة . لكنه كان الصمت . وبينما كان هنري يهبط الدرج ، كان يفكر بتلك الكلاب التي تُقطع حبالها الصوتية قبل ان تعرض لعذابات التشريح وهي حية : لا أثر من ألمها في العالم . هذا أقل وطأة من سماعها تعوي ! .

ولم يتحادثا في الغد ، ولا في الايام التالية . كانت بول تتظاهر بأنها قد نسيت محادثتها . ولم يكن هنري حريصاً على العودة إلى ذلك الموضوع . وكان يقول في نفسه : « لا بد ان انتهي يوماً إلى الحديث مع جوزيت عن ذلك : لكن ليس فوراً » . كان يمضي لياليه كافة في الغرفة الخضراء الشاحبة ، وكانت ليالي والهة للغاية ، لكنه عندما كان ينهض صباحاً ، كانت جوزيت لا تحاول ان تبقيه . وفي يوم توقيع العقد، اتفقا ان يظلا معاً إلى ساعة متأخرة بعد الظهر : وكانت هي التي تركته في الساعة الثامنة لتذهب عند حلاقها . هل كان هذا من قبيل الاحتراس ؟ من قبيل اللامبالاة ؟ ليس من المريح ان يقيس عواطف امرأة سخية بجسدها وليس عندها شيء آخر تعطيه . وتساءل وهو ينظر غافلاً إلى واجهات ضواحي سانت–هونوريه : « وأنا ؟ هل بدأت أتعلق بها ؟ » . كان يشعر ببعض الحيرة . كان الوقت مبكراً على الذهاب إلى الجريدة . وقرر ان يمر على « البار الاحمر ». في الماضي ، كان يقصد البار في كل مرة يجد لديه وقتاً يريد ان يقتله . وكانت قد مضت اشهر منذ ان وضع قدميه فيه للمرة الاخيرة ، لكن لا شيء تغير . كان فانسان ، ولاشوم ، وسيزوناك جالسين الى طاولتهم المعتادة . وكان لسيزوناك السحنة النائمة نفسها .

وقال لاشوم وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

– من دواعي السرور ان نراك ! هل هجرت الحي ؟

– إلى حد ما .

وجلس هنري وطلب قهوة . وقال مبتسماً نصف ابتسامة : « كنت أريد أن اراك انا ايضاً ، ولكن ليس فقط لداعي السرور. بل بالأحرى لأقول لك طريقتي في التفكير : انه لشيء مقرف ان تسمح بنشر ذلك المقال عن دوبروي في الشهر

الماضي » .

فغام وجه لاشوم : « نعم ، لقد قال لي فانسان انك ضده . لكن مـــاذا ؟ كثير من الاشياء التي قالها فيكو صحيحة ، أليس كذلك ؟ » .

ـ كلا ! ان تلك الصورة بمجموعها كاذبة حتى انه ليس من جزء فيها صحيحاً. دوبروي عدو للطبقة العاملة ! كفى ! كفى ! ! ألا تذكر ؟ منذ سنة ، على هذه الطاولة نفسها ، كنت تشرح لي انه يجب ان نعمل متكاتفين ، انت ، ورفاقك ، ودوبروي وانا . ثم تنشر تلك القذارة !

فنظر اليه لاشوم في تأنيب: « لم تنشر « السندان » ، ضدك اي شيء ابداً ».

فقال هنري :

ـ سيأتي دوري !

ـ تعرف جيداً ان لا .

فقال هنري :

ـ لمَ الهجوم على دوبروي بتلك الطريقة وفي هذا الوقت ؟ كانت صحفكم الاخرى مهذبة معه تقريباً . ثم فجأة ، دون سبب ، وبخصوص مقالات ليست حتى سياسية ، تأخذون في شتمه في خشونة !

فتردد لاشوم وقال : « موافق ، لقد أسيء اختيـار الوقت واعترف ان فيكو كان عنيفاً اكثر ممـــا ينبغي . لكن يجب ان تفهم ! انه يسمّمنا ، ذاك الشيخ ، بمذهبه الانساني الذي لا قيمة له . ان « الاشتراكي الثوري الحر » ، على الصعيد السياسي ، ليس مزعجاً : لكن دوبروي ، كنظريّ ، ثرثار خطر ، ويهدد بالتأثير على الشبيبة، وماذا يقترح عليهم؟ان يوفقوا الماركسية مع القيم البورجوازية العتيقة ! اعترف بأن هذا ليس ما نحتاجه اليوم ! القيم البورجوازية ، انما الهدف هو تصفيتها » .

فقال هنري :

ـ ان دوبروي يدافع عن أي شيء آخر غير القيم البورجوازية .

ـ هذا ما يزعمه . ولكن بالضبط ، هنا تكمن الخدعة .

فهز هنري كتفيه : « لست موافقاً . لكن على كل حال ، لماذا لم تقولونه ما تقولوه لي هنا بدلاً من تصوير دوبروي بأنه كلب حراسة للبورجوازية ؟ » .

فقال لاشوم :

– نحن مرغمون على التبسيط ، إذا كنا نريد ان يفهمنا الناس .

فقال هنري في غيظ :

– دعك من هذا . ان « السندان » تتوجه إلى مثقفين : إنهم كانوا سيفهمون تماماً .

فقال لاشوم :

– آه ! لست انا الذي كتبت ذاك المقال .

– لكنك قبلته .

فتغير صوت لاشوم :

– اتظن انني افعل ما أريده؟ لقد قلت لك انني اجد ان الوقت أسيء اختياره وان فيكو في رأيي كان عنيفاً جداً . انا اعتقد ان علينا ان نناقش شخصاً مثل دوبروي بدل ان نشتمه . ولو حضلنا على مجلتنا ، انا والرفاق ، لكان هذا ما فعلناه ...

فقال هنري مبتسماً :

– مجلة تستطيع ان تعبر عن نفسك فيها بحرية كاملة . هل غض النظر عنها ؟

– كلا .

وساد صمت قصير . وتفرس هنري في وجه لاشوم :

– انني اعرف ما هي روح النظام . لكن على كل حال ، ألا يحرجك ان تبقى في « السندان » إذا لم تكن متفقاً معها ؟

فقال لاشوم :

– اعتقد ان من الأفضل ايضاً ان اكون انا فيها بدلاً من غيري . سأبقى ما تُركت فيها .

– هل تعتقد انهم سيتركونك فيها ؟

فقال لاشوم :

– اتعرف ، ان « الحزب الشيوعي » ليس « الاشـــتراكي الثوري الحر » . عندما يكون هـــناك اتجاهان يتواجهان ، فإن الذين يخسرون يصبحون بسهولة مشبوهين .

كان في صوته مرارة كبيرة إلى حد ان هنري سأل : « قل إذن ، انت الذي كان يخشى كثيراً على الدخول في الحزب الشيوعي ، ربما انت الذي سيخرج منه».

– اعرف اشخاصاً لا ينتظرون إلا هذا ! انهم سلة جميلة من السراطين، مثقفو الحزب ! » وهز لاشوم رأسه : « هـذا لا يمنع : لن ارحل ابداً » . وأضاف : « هناك لحظات وددت فيها ذلك . نحن لسنا قديسين . لكننا نتعلم التحمل » .

فقال هنري :

– اشعر انني لن اتعلم ابداً .

فقال لاشوم :

– انت تقول هذا . لكن لو كنت مقتنعاً ان الحزب هو المحقّ بشكل عام ، لفكرت بأن قصصك الشخصية الصغيرة لا تزن ثقيلاً امام الأشياء التي يدور حولها اللعب . وتابـع في حماسة : « أتفهم ، هناك شيء انا واثق منه ، هو انـه لا يوجد غير الشيوعيين يقومون بعمل مفيد . إذن ، احتقرني إذا شئت : لكني افضل ان اتجرع أي شيء على ان انفصل عنهم » .

فقال هنري :

– اواه ! انني افهمك ! » وفكر : « من النزيه حقاً إذن ؟ إنني انتسب إلى « الاشتراكي الثوري الحر » لأنني أوافق على خطه ، لكنني اهمل حقيقة وهي ان عمله سيفشل على الأرجح . ان لاشوم يهدف إلى الفعاليـــة ويقبل بالطرق التي لا يوافق عليها . ما من احد حاضر كلياً في كل عمل من اعماله . انه العمل نفسه الذي يمنع ذلك . » ونهض : « إني ذاهب إلى الجريدة » .

فقال فانسان :

– انا ايضاً .

وقام سيزوناك من مقعده : « انني مرافقك » .

فقال فانسان في طلاقة :

— كلا ، اريد ان اتحدث الى بيرون .

وعندما دفعا باب البار ، سأل هنري : « كيف حاله ، سيزوناك ؟ » .

— ليس على ما يرام . انه يقول أنه يترجم ، لكن ما من احد يعرف ماذا . انه ينام عند رفاق ويأكل ما يقدم له . وهو حالياً ينام عندي .

فقال هنري :

— خذ حذرك .

— ممَّ ؟

فقال هنري :

— ان المدمنين خطرون . انهم يشون بأبيهم وأمهم .

فقال فانسان :

— لست مجنوناً . انه لم يعلم ابداً اي شيء ، عن اي شيء . » واضاف : « انه يعجبني . فلا حلول وسط بالنسبة له : انه اليأس في الحالة الصرف » .

ونزلا الشارع في صمت وسأل هنري :

— أتريد حقاً ان تكلمني ؟

— نعم . » وبحث فانسان عن نظرة هنري : « أصحيحة تلك القصة التي يروونها ، من ان مسرحيتك ستمثل في تشرين الأول في الاستديو ٤٦ ، وان الابنة بيلوم هي التي ستكون نجمتها ؟ » .

— انني سأوقع العقد هذا المساء مع فيرنون . لماذا تسألني هذا ؟

— انت لا تعرف بدون شك ان الأم بيلوم قد جُزّ شعرها وهي تستحق ذلك . ان لها قصراً في نورماندي ، وقد استقبلت فيه كثيراً من الضباط الألمان، وكانت تنام معهم والصغيرة ايضاً على ما يبدو .

فقال هنري :

— لماذا جئت تروي لي هذا الهذر ؟ منذ متى تعتبر نفسك شرطياً ، وهل

تعتقد انني احبهم ؟

ـ هذا ليس هذراً . هناك سجل ، ولي رفاق شاهدوه : رسائل ، وصور عند شخص تسلى بجمعها مفكراً بأنها قد تفيده ذات يوم .

ـ أرأيته انت ؟

ـ كلا .

فقال هنري في استنكار :

ـ بالطبع ، على كل حال ، انني لا ابالي بذلك . هذا لا يعنيني .

ـ منع الانذال من الاستيلاء على مقدرات البلاد ثانية ، ورفض التعامل معهم ، هذا يعنينا جميعاً .

ـ اذهب لتلقِ درسك في مكان آخر .

فقال فانسان :

ـ اسمع ، لا تغضب . كنت اريد ان احذرك من ان الأم بيلوم مراقبة ، ومن الحماقة ان تحدث لك متاعب بسبب هذه المرأة .

فقال هنري :

ـ لا تهتم لأجلي .

فقال فانسان :

ـ حسناً . كنت اريد ان احذرك ، هذا كل شيء .

وانهيا المسافة في صمت ، لكن ثمة صوت كان قد تربع في صدر هنري وكان يردد بلا نصب : « الصغيرة ايضاً ».. وطوال بعد الظهر ، ردد هذه اللازمة. كانت جوزيت قد اعترفت تقريباً بأن امها قد باعتها اكثر من مرة . وعلى كل حال ، فان كل ما كان هنري ينتظره منها ، بعض ليالٍ اخرى وربما بعض ليال اخرى ايضاً . ومع ذلك ، وأثناء العشاء الذي ما كان ينتهي ، وبينما كان ينظر اليها تبتسم لفيرنون في مجاملة نائمة ، كان يشعر حتى الضيق بالرغبة ان يجد نفسه ثانية بمفرده معها وان يستجوبها .

وقالت لوسي :

– إذن انت مسرور ، لقد ُوقـّع العقد !

كان ثوبها وجوهراتها تلتصق بجلدها التصاقاً وثيقاً التصاق شعرها به . وكان من الممكن ان يظن المرء انهـا ولدت ، وتنام ، وستموت في ثوب موقع عليه : آماريليس . وكانت خصلة ذهبية تتماوج بين شعرها الأسود ، وكان هنري يتأملها مأخوذاً : كيف سيبدو وجهها تحت جمجمة حليقة ؟

– انني مسرور جداً .

– دودول سيقول لك انني عندما استلم مسألة بيدي ، فيمكنك ان تكون مطمئناً .

فقال دودول في هدوء :

– اواه ! انها امرأة خارقة للطبيعة .

كانت كلودي قد أكدت لهنري ان دودول ، العشيق الرسمي ، رجل شريف عظيم . وكان له بالفعل تحت شعره الفضي ذلك الوجه المستريح والمستقيم الذي لا يوجد إلا عنـد الأوغاد الأذكياء : اؤلئك الذين هم على ما فيه الكفاية من الغنى ليشتروا ضميرهم الخاص . وربما كان على كل حال شريفاً حسب قانونه الخاص به . وقالت لوسي :

– ستقول لبول انها فظيعة إذ لم تأتِ !

فقال هنري :

– كانت حقاً متعبة جداً .

وانحنى امام جوزيت ليأخـذ الإذن بالانصراف . كانت جميع النساء يرتدين ثياباً سوداء ، مع مجوهرات براقة وكانت في ثوب اسود هي الأخرى ، وكان يبدو عليها انها مسحوقة تحت كتلة شعرها . ومدت له يدها وهي تبتسم في ادب مدروس . طوال السهرة كلها ، لم تطرف عيناها ولا طرفة واحدة تكذب لامبالاتها الظاهرية . هل كان الرياء بمثل هذه السهولة ؟ كانت بسيطة جداً ، صريحة جداً ، بريئة جداً ، ليلاً ، في عريها . وكان هنري يتساءل في مزيج مبلبل من الحنـــان ، والشفقة ، والحرف ، ما اذا كانت لها هي الأخرى صور في السجل .

كانت سيارات التاكسي ، منذ بضعة ايام قد اخذت تسير من جديد بحرية . وكانت هناك ثلاث سيارات تقف في ساحة « لاموبيت » وركب هنري احداها ليصعد إلى مونمارتر. ولم يكد يطلب كأس وسكي حتى تهالكت جوزيت إلى جانبه على مقعد وثير عميق . وقالت : « لقد كان لطيفاً ، فيرنون ، ثم انه لوطي ، إنني محظوظة ، لن يزعجني » .

– ماذا تفعلين عندما يزعجك الرجال ؟

– هذا يتوقف . احياناً يكون الأمر لطيفاً .

فقال هنري وهو يحاول ان يحتفظ بلهجة طبيعية :

– ألم يزعجك الألمان كثيراً أثناء الحرب ؟

– الالمان؟» واحمرت كما رآها مرة تحمر من منشأ ثدييها حتى بصلات شعرها: « لماذا تسألني هذا ؟ ماذا رووا لك ؟ » .

– ان امك استقبلت ألماناً في قصرها في نورماندي .

– لقد احتُل القصر لكنها لم تكن غلطتنا . إنني اعرف . لقد اشاع سكان القرية شائعات خبيثة لأنهم يكرهون ماما : على كل حال انها تستحق ذلك ، فهي ليست لطيفة . لكنها لم تفعل شيئاً قبيحاً ، لقد اوقفت الالمان دوماً عند حدهم .

فابتسم هنري : « ثم ، لو جرى هذا بغير هذا الشكل ، لما قلت لي » .

فقالت :

– اواه ! لماذا تقول هذا ؟ » كانت تنظر اليه في شزر تراجيدي وكان بخار يحجب عينيها . وذعر قليلاً من السلطة التي له على هذا الوجه الجميل .

– كان لأمك بيت خياطة وكان عليها ان تهتم بنجاحه ، والوساوس لا تخنقها . كان يمكنها ان تسعى لاستخدامك .

فقالت في رعب :

– ماذا تعتقد إذن ؟

– افترض انك كنت غير حذرة ، وانك خرجت مع ضباط مثلاً .

– كنت مهذبة ، لا اكثر . كنت اكلمهم ، وأعادوني في بعض الاحيان

من القرية إلى البيت في السيارة . » وهزت جوزيت كتفيها : « انا لم يكن لدي شيء ضدهم ، أتعرف ، كانوا مستقيمين جداً وكنت صغيرة ، ولم اكن افهم شيئاً من تلك الحرب ، كنت اتمنى ان تنتهي ، هذا كل شيء » . وأضافت بسرعة كبيرة : « والآن اعرف كم كانوا فظيعين مع معسكرات الاعتقال وكل شيء .... » .

فقال هنري في حنان :

ـ انت لا تعرفين شيئاً كبيراً لكن هذا لا اهمية له .

في عام ١٩٤٣ ، لم تكن صغيرة جداً : لم تكن نادين آنذاك إلا في السابعة عشرة . ولكن لا تمكن المقارنة بينهما . فقد اسيئت تربية جوزيت . واسيء حبها ، ولم يشرح لها أي انسان شيئاً . لقد ابتسمت بلطف كبير للضباط الالمان عندما كانت تصادفهم في شوارع القرية ، ولقد ركبت في سياراتهم : كان هذا يكفي لإثارة استنكار السكان ، في ذلك الحين . هل حدث اكثر من ذلك ؟ هل تكذب ؟ كانت صريحة جداً ومرائية جداً : كيف يعرف ؟ وبأي حق ؟ فكر بذلك في قرف مفاجيء . كان خجلاً من انه مثل دور الشرطي .

وقالت في خجل :

ـ هل تصدقني ؟

ـ اصدقك » . وجذبها اليه وقال : « لنكف عن الحديث عن هذا كله ، لنكف عن الحديث عن أي شيء . لنعد إلى شقتك . لنعد بسرعة » .

فتحت دعوى السيد لامبير في « ليل » في نهاية شهر ايار . وقد خدمه تدخل ابنه بالتأكيد ، ثم لا بد انه اعتمد على اصحاب نفوذ كبير : فقد برّىء . وفكر هنري عندما علم بالحكم : « هذا افضل للامبير » . وبعد اربعة ايام ، كان لامبير يعمل في الجريدة عندما جاءته مكالمة هاتفية من « ليل » : لقد وقع ابوه الذي كان سيصل الى باريس في قطار المساء السريع من باب القطار . كانت حالته خطيرة جداً . وبالفعل ، فقد عرف بعد ساعة انه قتل فوراً . وامتطى لامبير دراجته دون ان يتلفظ بصوت تقريباً ، وعندما عاد إلى باريس ، بعد الدفن ، ظل

قابعاً في بيته دون ان يتصل بأحد .

وقال هنري في نفسه بعد بضعة ايام مـن الصمت : « يجب ان أمرّ لأراه ، سأمرّ بعد ظهر اليوم » . وحاول عبثاً ان يتلفن ، فقد قطع لامبير التلفون . وكان هنري يردد في نفسه وهو ينظر بدون قناعة إلى الاوراق المبسوطة على طـاولته : « ضربة قذرة » . كان ذلك الرجل مسناً ، وليس لطيفاً كثيراً ، وكان لامبير يشعر نحوه بشفقة اكثر بكثير مما كان يشعر نحوه بحب : ومع ذلك لم يكن هنري يستطيـع ان ينظر إلى هذه القصة بلامبالاة . نزوة غريبة من القدر ، ذاك الحكم ، ثم ذلك الحادث . وحاول ان يعيد اهتمامـه الى الاوراق المكتوبة على الآلة الكاتبة .

وقال في نفسه في توبيخ ضمير : « منتصف النهار . ستأتي جوزيت ولـن اكون قد تصفحت هذا السجل » . كاراغانـدا ، ترازوردسكوي ، اوزبيك : لم يكن يستطيـع ان يحيي هذه الأسماء البربرية ، هذه الأرقام . ومع ذلك فقد كان من المأمول فيه ان يطلع على هذه الأوراق قبل اجتماع بعد الظهر . واذا كان لا ينجح في الاهتمام بها ، فهذا ، في الحقيقة ، لأنه لا يثق بها مطلقاً . اي ثقة يمنحها لوثيقة سلمه اياها سكرياسين ؟ هل له وجود ذلك الموظف السوفياتي الغـامض الهارب من الجحيم الأحمر خصيصاً من اجل اذاعة هذه المعلومات ؟ كان سامازيل يؤكد ذلك ، بل كان يزعم انه تحقق من شخصيته . لكن هنري ظل متشككاً . وقلب صفحة .

— كوكو .

كانت جوزيت ، متدثرة في معطف ابيض كبير . وكانت قد اسبلت على كتفيها شعرها العظيم . وحتى قبل ان تغلق الباب ، كان هنري قد نهض واخذها بين ذراعيه . كان يجد نفسه ، عادة ، ما إن يقبلها القبلة الأولى ، سجيناً في عالم من الزخارف ، وسط دمى لا وزن لها . وكان هذا التحول اليوم اصعب قليـلاً من العادة ، فقد ظلت همومه لاصقة بجلده . وقالت في مرح :

— اذن انت تسكن هنا ؟ انني افهم انك لم تدعني ابداً : انها غرفة رديئـة

جداً ! لكن اين تضع كتبك ؟
– ليس لدي كتب . عندما اقرأ كتاباً أعيره لأصدقاء لا يعيدونه إليّ.
– كنت اعتقد ان الكاتب يعيش دوماً بين جـــدران مبطنة بالكتب » .
كانت تنظر اليه في شك : « اواثق انت انك كاتب حقيقي ؟ » .
فأخذ يضحك :
– على كل حال ، انني اكتب .
فسألت وهي تجلس :
– كنت تشتغل ؟ هل جئت قبل الأوان ؟
فقال :
– دعيني خمس دقائق ثم اكون لك . أتريدين ان تنظري الى الصحف ؟
فمطت شفتيها قليلاً : « أفيها وقائع مسلية ؟ » .
فقال مؤنباً :
– كنت اعتقد انك بدأت تقرئين مقالات سياسية . كلا ؟ هل انتهى الأمر من الآن ؟
فقالت جوزيت :
– ليست غلطتي ، لقد حاولت . لكن الجمل تهرب من تحت عيني . » واضافت في سيماء من تعاسة : « انني اشعر ان هذا كله لا يعنيني » .
فقال :
– اذن تسلي بقصة المشنوق في « بانتواز » .
ناريلسك ، ايغاركا ، أبساغاشيف . كانت الأسماء ، الأرقام ، ميتة . هـو الآخر ، كانت الجمل تهرب من تحت عينيه ، وكان يشعر ان هذا كله لا يعنيه. ان هذا يجري بعيداً جداً ، في عالم مختلف جداً ، صعب جداً الحكم عليه .
وقالت جوزيت بصوت خافت :
– لديك سيجارة ؟
– نعم .

ـ وثقاب ؟

ـ اليك . لماذا تتحدثين بصوت خافت ؟

ـ كيلا ازعجك .

فنهض ضاحكاً : « انتهيت . إلى اين آخذك لتناول الغداء » .

فقالت في حزم :

ـ إلى « الإيل بوروميه » .

ـ تلك الكباريه الارستقراطية جداً التي دشنت يوم امس الأول ؟ كلا ، من فضلك . جدي مكاناً آخر .

فقالت :

ـ لكني ... حجزت طاولة .

ـ من السهل ان نلغيها . ومد يده نحو التلفون ، فأوقفته :

ـ ذلك لأنهم ينتظروننا .

ـ من ؟

فخفضت رأسها و كرر : « من ينتظرنا ؟ » .

ـ انها فكرة ماما . يجب ان ابدأ دعايتي فوراً . « الإيل » ، هي الكباريه التي يتحدثون عنها . لقد طلبت إلى صحفيين ان يجروا معي مقابلة مصورة ، من نوع : « المؤلف يتحادث مع ممثلته ... » .

فقال هنري :

ـ كلا ، يا عزيزتي . تصوّري قدر ما شئت ، لكن بدوني .

ـ هنري ! » . كانت عينا جوزيت مليئة بالدموع . كانت تبكي في سهولة طفولية تزعجه : « لقد صنعت هذا الثوب خصيصاً ، كنت منسرورة جداً ... » .

ـ هناك مطاعم أخرى كثيرة مرضية نستطيع ان نكون فيها مطمئنين .

فقالت في يأس :

ـ لكن ما داموا ينتظرونني ! » وثبتت عليه عينيها الكبيرتين المغرورقتين : « اسمع ، تستطيع ان تفعل شيئاً ما من اجلي » .

– لكن ، يا حبي ، ماذا تفعلين من اجلي ؟
– انا ؟ لكن انا ...
فقال في مرح :
– نعم انت ... لكن انا ايضاً ، انا ...
لم تكن تضحك ، وقالت في رصانة : « ليس هذا متماثلًا . انني امرأة » .
فضحك ثانية وفكر : « انها على حق ، ألف مرة على حق : ليس هذا متماثلًا» . وقال :
– أأنت حريصة جداً على هذا الغداء ؟
– انت لا تفهم ، هذا ضروري لمستقبلي . يجب ان اظهر وان اجعلهم يتحدثون عني اذا كنت أريد ان انجح .
– يجب على الأخص ان تفعلي جيداً ما تفعلينه . مثّلي جيداً وسيتحدثون عنك .
فقالت جوزيت :
– أريد ان اضع جميع الفرص في صالحي » . وتصلب وجهها : « اتعتقد ان من الظريف ان اضطر إلى طلب الصدقة من ماما ؟ وعندما آتي إلى صالوناتها ، وتقول لي امام جميع الناس : « لماذا تنتعلين قبقاباً ؟ » ، اتعتقد ان هذا مرح » .
– ما به هذا الحذاء ؟ انه جميل جداً .
– انه مناسب للغداء في الريف ، لكنه رياضي أكثر مما ينبغي بالنسبة للمدينة .
– لقد وجدتك دوماً انيقة جداً ...
فقالت في حزن :
– لأنك لا تعرف شيئاً في الاناقة ، يا عزيزي . » وهزت كتفيها : « انت لا تعرف ما هي حياة امرأة لم تتوصل » .
فوضع يده على اليد العذبة وقال : « ستتوصلين . هيا بنا لنتصور في « الإيل بوروميه » . ونزلا الدرج وسألت :
– أمعك السيارة ؟
– كلا . سنأخذ سيارة تاكسي .

– لمَ ليس لك سيارة خاصة بك ؟
– ألم تتبيني بعد انني لا املك مالاً ؟ هل تعتقدين انه لن تكون لك اجمل أحذية باريس ؟
وسألت عندما ركبا التاكسي :
– لكن لمَ لا تملك مالاً ؟ انت ايضاً اذكى من ماما ودودول . ألا تحب المال ؟
– جميع الناس يحبونه . لكن لكي تحصلي عليه حتماً ، لا بد ان تحبيه اكثر من اي شيء .
ففكرت جوزيت : « ليس هذا لأنني احب المال اكثر من اي شيء ، لكني احب الأشياء التي اشتريها به » .
فطوق كتفيها بذراعه : « لعل مسرحيتي ستجعلنا اغنياء جداً . وعندئذ سنشتري لك الأشياء التي تحبينها » .
– وستأخذني الى مطاعم جميلة ؟
فقال في مرح :
– احياناً .
لكنه كان يشعر انه غير مرتاح بينما كان يتقدم في الحديقة المزهرة ، تحت نظرات النساء الصارخات الثياب والرجال المصقولي الوجوه . كانت شجيرات الورد ، والزيزفونة القديمة ، ومرح الماء المشمسة ، وهذا الجمال الرائج كله ، لا تؤثر عليه ، وتساءل : « ماذا جئت افعل هنا ؟ »
وقالت جوزيت في حماسة :
– هذا جميل ، أليس كذلك ؟ واضافت : « انني أعبد الريف » . وغيرت وجهها المستسلم ابتسامة كبيرة ، وابتسم هنري ايضاً : « جميل جداً : ماذا تريدين ان تأكلي ؟ » .
فقالت جوزيت في أسف :
– اعتقد انه سيكون ليموناً هندياً ولحماً مشوياً . بسبب الاناقة .

كانت تبدو صغيرة تماماً في ثوبها من القماش الأخضر الذي كان يكشف عن ذراعين لدنتين ملتفتين، وكم كانت طبيعية، في الحقيقة، تحت تنكرها في ثياب امرأة متسفسطة ! كان من الطبيعي ان تشتهي النجاح ، والظهور ، واللبس ، واللهو . وكانت لها ميزة كبيرة اذ كانت تعترف برغباتها في صدق دون ان تهتم بمعرفة ما اذا كانت نبيلة او دنيئة . حتى عندما يحدث لها ان تكذب ، تكون اكثر حقيقة من بول التي كانت لا تكذب البتة . فقد كان هناك رياء حقيقي في قانون السمو الذي اختلقته لنفسها ، وتخيل هنري القناع المترفع الذي كانت ستعارض به هذا الترف السهل ، وابتسامة دوبروي المندهشة ، ونظرة آن المذعورة . انهم سيهزون جميعاً برؤوسهم في سحنة متجهمة عندما ستظهر هذه المقابلة وهذه الصور .

وفكر : « صحيح إننا جميعاً طهرانيون إلى حد ما . بما فيهم انا . هذا لأننا نكره ان نوضع امام امتيازاتنا » . كان قد اراد لو يتجنب هذا الغداء ، كي لا يعترف في نفسه انه يملك الوسائل ليقدمه بنفسه . « ومع ذلك ، إنني لا أحسب حساباً ، في « البار الأحمر » ، بين الزملاء ، للمال الذي أنفقه في سهرة واحدة » .

ومال نحو جوزيت : « أأنت مسرورة ؟ » .

فقالت :

– اوه ! انت لطيف جداً ! ليس هناك غيرك .

كان لا بد ان يكون سخيفاً ليضحي بمثل هذه الابتسامة لمقدسات صبيانية . يا للمسكينة جوزيت ! لم تتح لها الفرصة كثيراً لتبتسم . وفكر وهو ينظر اليها : « النساء لسن مرحات » . كانت قصته مع بول تنتهي بشكل يدعو للرثاء، ونادين، لم يعرف كيف يمنحها اي شيء . وجوزيت ... حسناً ! سيكون الأمر مختلفاً . كانت تريد أن تصل : سيجعلها تصل . وابتسم في لطف للصحفيين اللذين كانا يقتربان .

عندما وضعته سيارة تاكسي بعد ساعتين امـــام بناية لامبير ، كانت نادين تجتاز الباب الكبير الخاص بالعربات . وابتسمت له في ود . كانت تعتبر انه كان لها الدور الجميل في قصتها وكانت دوماً لطيفة جداً معه .

ــ آه ! ها انت ايضاً ! ما اكثر الناس الذين يحيطون به ، هذا اليتيم العزيز .

فنظر اليها هنري في شيء من الاستنكار : « انها ليست ظريفة جداً هـــذه القصة » .

فقالت نادين :

ــ ماذا يهمه اذا كان ذاك الشيخ النذل قد مات ؟ » وهزت كتفيها : «اعرف جيداً ان دوري هو ان اكون راهبـــة محبة ومعزية ، وكل شيء : لكني لا استطيع . كنت اليوم مكتظة بنوايا طيبة : وها هو فولانج يأتي . فانسحبت بسرعة » .

ــ فولانج فوق ؟

فقالت دون ان يستطيع هنري ان يتبين هل كان في لهجتها اللامبالية مكر ام لا :

ــ بلى . ان لامبير يراه غالباً .

فقال هنري :

ــ انني صاعد على كل حال .

ــ أتمنى لك السرور .

وارتقى الدرج في بطء . كان لامبير يرى فولانج غـــالباً : لمَ لم يقل له ذلك ؟ وفكر : « انه يخشى ان يغيظني هذا » . والحقيقة ان هذا كان يغيظه . وابتسم له لامبير بدون بشاشة :

ــ آه ! هذا انت ؟ هذا لطيف ...

وقال لويس :

ــ اي صدفة سعيدة . ها قد مضت أشهر لم نتقابل فيها !

ــ اشهر ! » واستدار هنري نحو لامبير . كان مظهره يتيماً للغاية في طقمه

الفلانيل الذي كان مبطناً بقماش من الكريب الأسود : طقم كان لا بد للسيد لامبير ان يستحسن اناقتـه الكلاسيكية . وقال : « لعلك لا ترغب في التحرك كثيراً ، هذه الأيام ، لكن هناك اجتماع هـام بعد ظهر اليوم عند دوبروي . سيكون على « الأمل » ان تتخذ قرارات . أود كثيراً لو ترافقني » .

لم يكن ، في الحقيقة ، بحاجة الى لامبير ، لكنه كان يتمنى ان ينتزعه من اجتراراته . وقال لامبير :

– رأسي في مكان آخر بالأحرى . » وتهالك على مقعد وقال بصوت كئيب : « فولانج واثق من ان أبي لم يقتل في حادث . بل اغتيل » .

فارتعد هنري : « اغتيل ؟ » .

فقال لامبير :

– ابواب القطارات لا تنفتح من نفسها . وهو ما كان لينتحر في اللحظة التي برّيء فيها .

وقال لويس :

– ألا تذكر قصة مولناري، بين « ليون » ، و « فالانس » ؟ وقصة بيرال؟ هما ايضاً سقطا من قطار بعد قليل من تبرئتهما .

فقال هنري :

– كان والدك مسناً ، متعباً . ومن الممكن ان يكون انفعال الدعوى قد أثر على عقله .

فهز لامبير رأسه وقال : « سأعرف من فعل ذلك ! سأعرف ! » .

وتشنجت يدا هنري . كان هذا ما يخزه منذ ثمانية ايام : هذه الشبهة . وتضرع في نفسه : « لا ! ليس فانسان ! لا هو ولا غيره ! » . مولناري ، بيرال ، كان هذا سواء بالنسبة له . ومن الجائز جداً ان يكون السيد لامبير الشيخ في مثل نذالتهما . لكنه كان يرى ثانية في دقة كبيرة ذلك الوجه الذي سالت دماؤه على قضبان سكة الحديد ، وجهاً اصفر كانت تضيئه عينان بلون ازرق مندهش . كان لا بد ان يكون ذلك قد حدث .

وقال لويس :

– توجد عصابات قتلة في فرنسا » . ونهض : « ما افظعها تلك الأحقاد التي لا تقبل بأن تموت ! » . وساد صمت وقال بصوت مشجع : « تعال إذن للعشاء ذات مساء في البيت ، فنحن ما عدنا نلتقي ، هذه بلاهة كبيرة . هناك اشياء كثيرة أريد ان اتحدث معك عنها » .

فقال هنري في إبهام :

– ما إن يتاح لي بعض الوقت .

وعندما أطبق الباب وراءه ، سأل هنري : « اكانت صعبة جداً ، تلك الأيام في ليل ؟ » .

فهز لامبير كتفيه ، وقال بصوت مثقل بالكراهية : « يبدو انه ليس من الرجولة ان تهتز عندما يغتالون لك والدك ! يا للحيف ! إنني اعترف ان هذا أذهلني بالأحرى ! » .

فقال هنري :

– انني افهم . وابتسم : » « انها من أفكار امرأة ، قصص الرجولة تلك » .

ما العواطف التي كان لامبير يشعر بها نحو والدة ؟ لم يكن يعترف إلا بالشفقة ، وكان يترك الآخرين يتكهنون بأنه حاقد : لكن لا بد ان ذلك كان يمتزج بالإعجاب ، بالقرف ، بالاحترام ، بحنان خائب . على كل حال ، كان لذلك الرجل اهمية عنده . وقال هنري بصوت عطوف ما امكنه :

– لا تبقَ هكذا في ركنك ، ودمك يغلي . قم بجهد ، تعالَ معي . سيفيدك هذا وستؤدي لي خدمة .

فقال لامبير :

– اوه ، ما دام لك صوتي على كل حال .

فقال هنري :

– افضل ان اسمع رأيك . سكرياسين يزعم ان موظفاً سوفياتياً كبيراً هارباً من الاتحاد السوفياتي قد اتاه بمعلومات مثيرة في غير صالح النظام ، بالطبع . وقد

اقترح على سامازيل ان تساعد « الأمل » و « الطوارىء » و « الاشتراكي الثوري الحر » على إذاعتها ، لكن ما قيمتها ؟ لقد حصلت على بعض منها ، لكن دون أي وسيلة لنقدها .

فانتعش وجه لامبير ، وقال : « آه ! هذا يشوقني » . ونهض فجأة : « هذا يشوقني كثيراً » .

عندما دخلا إلى مكتب دوبروي ، كان هـــذا الأخير بمفرده مع سامازيل . وكان سامازيل يقول :

ـ أدركوا هذا، ان ننشر هذه المعلومات قبل الجميع ، فهذا سيكون مثيراً! مشروع السنوات الخمس الأخير يعود تاريخه إلى آذار والناس يجهلون منه كل شيء تقريباً . ومسألة معسكرات العمل على الأخص ستبلبل الرأي العام . لاحظوا انها كانت قـــد اثيرت قبل الحرب . ولقد اهتمت بها على الأخص الفئة التي كنت انتسب اليها . لكننا في ذلك الوقت لم نكن نوقظ أي صدى . اما اليوم فإن الجميع يجدون أنفسهم مرغمين على اتخاذ موقف امام مشكلة الاتحاد السوفياتي ، وها بإمكاننا الآن ان نلقي على هذه المشكلة اضواء جديدة .

كان صوت دوبروي يبدو ضئيلاً جداً بعد هذا الطنين الكبير ، وقال : « ان هذا النوع من الشهادة مشبوه ، قبلياً ، مرتين : اولاً لأن المتهم قـد انسجم مدة طويلة جداً مع النظام الذي يفضحه. وثانياً لأنه بعد ان انفصل عنه لا يعود بقدرتنا ان ننتظر منه ان يقيس تهجماته » .

فسأل هنري :

ـ ماذا نعرف عنه على الضبط ؟

فقال سامازيل :

ـ انه يدعى جورج بيلتوف . كان مدير المعهد الزراعي في تبريوكا ... وهرب منذ شهر من المنطقة الروسية الالمانية إلى المنطقة الغربية . وقد تأكدنا من هويته تماماً .

فقال دوبروي :

– لكن ليس من صفته .

فبدرت عن سامازيل بادرة نفاد صبر : « على كل حال ، لقد درسنا المصنف الذي سلمنا إياه سكرياسين . ان الروس يعترفون هم انفسهم بوجود المعسكرات والاعتقال الإداري » .

فقال دوبروي :

– موافق . لكن كم عدد البشر في تلك المعسكرات ؟ هذه هي المسألة كلها .

فقال لامبير :

– عندما كنت في المانيا في العام الماضي، كانت الشائعات تنتشر بأنه لم يكن في بوشنوالد ابداً مثل هذا العدد الكبير من السجناء كما حصل بعد التحرير الروسي.

فقال سامازيل :

– خمسة عشر مليوناً تبدو لي فرضية معتدلة جداً .

فكرر لامبير :

– خمسة عشر مليوناً !

وأحس هنري برعب يصعد إلى حلقه . كان قد سمع احاديث عن هذه المعسكرات . لكن بشكل مبهم ، وهو لم يعر ذلك انتباهاً خاصاً ، فقد كانت تروي اشياء كثيرة ! اما بخصوص ذلك المصنف ، فقد تصفحه دونما قناعة . كان يرتاب في سكرياسين ، وقد بدت الأرقام على الورق خيالية خيال الأسماء ذات السجع الغريب . لكن ها هو يتبين ان الموظف الروسي موجود وان دوبروي يأخذ هذه القضية بعين الجد . ان الجهل لمريح جداً ، لكنه لا يقدم قياس الواقع . كان في « الإيل بوروميه » مع جوزيت، وكان الطقس جميلاً ، وكان يسمح لنفسه ببعض وساوس الضمير التي كان من السهل عليه ان يجردها من سلاحها . وأثناء ذلك ، في جميع زوايا الأرض ، كان رجال يستعبدون ، ويجوّعون ، ويُغتالون.

ودخل سكرياسين في حدة إلى الغرفة واتجهت جميع الأنظار نحو المجهول ذي الشعر الأسود والفضي ، والعينين اللامعتين كقطعتين من فحم الانتراسيت، الذي كان يتبعه دون ابتسام ، في وجه ساكن سكون وجه طفل وليد . وكان حاجباه

الفحميان يتصلان فوق الأنف ذي النتوء الحاد وكان طويلاً، وهندامه خالٍ من كل عيب .

وقال سكرياسين :

– صديقي جورج وسنقتصر مؤقتاً على هذا الاسم . » ونظر حواليه : «المكان أمين تماماً ? لا مجال لأن يُفاجأ حديثنا ? من يسكن في الأعلى ? » .

فقال دوبروي :

– استاذ بيانو غير مؤذٍ اطلاقاً . والناس الذين في الأسفل في اجازة .

كانت المرة الأولى التي لا يفكر فيها هنري بالابتسام من تظاهر سكرياسين بالخطورة . فقد كان خيال الوجه الكبير القاتم الى جانبه يضفي على المشهد أبهة مقلقة . وجلس الجميع وقال سكرياسين : يستطيع جورج ان يتكلم بالروسية او الالمانية . ومعه وثائق سيلخصها ويفسرها لكم . ومن بين جميع المسائل التي يستطيع ان يلقي عليها اضواء رهيبة ، فإن مسألة معسكرات العمل اكثرها فورية . ومنها سيبدأ » .

فقال لامبير في حماسة :

– ليتكلم بالالمانية : سأترجم .

– كما تشاء . » وقال سكرياسين بضع كلمات بالروسية وهز جورج رأسه دون ان يتحرك قناعه . كان يبدو مشلولاً بكراهية مؤلمة لا تمحى . وفجأة ، اخذ يتكلم . كانت نظرته لا تزال شاخصة ، متجهة الى داخله نحو رؤى لم تكن من هذا العالم . لكن من فم الميت كان يفلت صوت متلون ، متحمس جاف وشجي بالتناوب . وكان لامبير مثبتاً عينيه على شفتيه ، كأنه يحل ألغاز لغة انسان ابكم – أصم .

وقال لامبير :

– انه يقول ان علينا ان نفهم اولاً ان وجود معسكرات العمل ليس ظاهرة عرضية وانه يمكننا بالتالي ان نأمل بزوالها ذات يوم . ان برنامج توظيف الدولة السوفياتية يتطلب فائضاً لا يمكن تأمينه إلا عن طريق عمل اضافي . واذا

انخفض استهلاك العمال الأحرار الى ادنى من مستوى معيّن ، فإن انتاجية العمل ستتناقص بالقدر نفسه . وهكذا لجؤوا الى الخلق المنظم لبروليتاريا تحية لا تتلقى مقابل اقصى حد من العمل إلا ادنى حد من اسباب الحياة : ومثل هذا التدبير غير ممكن إلا في نظام يعتمد على معسكرات الاعتقال .

كان صمت مأتمي قد خيم على المكتب . لم يكن انسان يتحرك . وتابع جورج الكلام ومن جديد حوّل لامبير الصوت المأساوي الى كلمات : « وجد العمل الإصلاحي منذ بداية النظام . ولكن في عام ١٩٣٤ ، خُولت المباحث السرية ، الحق بالأمر بالاعتقال ، عن طريق تدبير اداري صرف ، في معسكر للعمل لمدة لا تتجاوز الخمس سنوات . اما بالنسبة للعقوبات الأطول مدة ، فلا بد من حكم سابق . وقد فرغت المعسكرات جزئياً بين ١٩٤٠ و ١٩٤٥ . فقد جند كثير من السجناء في الجيش ، ومات غيرهم من المجاعة . لكنها اخذت بالامتلاء من جديد منذ سنة » .

وراح جورج يشير على الأوراق المبسوطة امامه الى اسماء ، وارقام ، وكان لامبير يترجم بعده . كاراغاندا ، تزارد كوي ، اوزبيك. لم تكن كلمات : كانت قطعاً من السهوب الجليدية ، من المستنقعات ، من المآوي الخشبية العفنة حيث يشتغل رجال ونساء اربع عشرة ساعة في اليوم مقابل ستمئة غرام من الخبز . ويموتون من البرد ، ومن داء الحفر [1] ، والزحار ، والانهاك . وما إن يصبحوا اضعف من ان يستطيعوا العمل ، حتى يسجنوهم في مستشفيات حيث يجوّعونهم بشكل منظم حتى الموت . وقال هنري في نفسه في تمرد : « ولكن هل هذا صحيح ? » . كان جورج مشبوهاً ، وروسيا بعيدة للغاية ، والناس يروون عنها كثيراً من الأشياء !

ونظر إلى دوبروي الذي ما كان وجهه المغلق ليعبر عن شيء . كان دوبروي قد اختار ان يشك : فالشك هو الدفاع الاول ، لكن يجب ألا نثق به أيضاً . ان هناك أشياء حقيقية ، بين كل هذه الأمور التي تروى . لقد شكّ هنري عام

---

١ - مرض يفسد الدم . «المترجم»

١٩٣٨ في ان الحرب ستندلع في الغد . وفي عام ١٩٤٠ شك في وجود غرف الغاز. كان جورج يبالغ بالتأكيد : لكنه بالتأكيد لم يخترع كل شيء . وفتح هنري على ركبتيه المصنف السميك . ان كل ما قرأه في غفلة قبل بضع ساعات يأخذ الآن فجأة معنى رهيباً . كان فيه نصوص رسمية ، مترجمة إلى الانكليزية ، تسلم بوجود المعسكرات . وليس بإمكان المرء بدون نية سيئة ان يكذّب دفعة واحدة كافة هذه الشهادات الصادر بعضها عن مراقبين اميركان ، والبعض الآخر عن منفيين سُلموا إلى النازيين ووُجدوا في سجونهم . من المستحيل انكار ذلك : في الاتحاد السوفياتي ايضاً يوجد بشر يستعبدون حتى الموت بشراً آخرين .

عندما صمت جورج ، ساد صمت طويل . وقال سكرياسين :

ـ لقد قبلتم في مازوشية طبيعية عند المثقفين بفكرة دكتاتورية فكرية. لكن هذه الجرائم المنظمة ضد الانسان ، ضد جميع البشر ، هل تستطيعون ان ترضوا بها ؟

فقال سامازيل :

ـ يخيل إلي ان لا مجال للشك في الجواب .

فقال دوبروى بصوت جاف :

ـ أسألك العفو ، فبالنسبة لي يوجد شك . انني لا اعرف لماذا هرب صديقك ولا لماذا تعاون صديقك مع هذا النظام الذي يفضحه أمامنا . افترض ان اسبابه كانت ممتازة . لكني لا أريد المخاطرة في الاشتراك في مناورة ضد السوفييت .على كل حال نحن لسنا مخولين بإجابتك باسم « الاشتراكي الثوري الحر » : فنصف اللجنة فقط حاضرة .

فقال سامازيل :

ـ إذا كنا متفقين فسننال موافقتها بالتأكيد .

ـ كيف تستطيعون التردد ! » كان وجـــه لامبير يلمع استنكاراً : « حتى عندما يكون ربع ما يرويه فقط صحيحاً ، يجب اذاعته فوراً ، من الف مكبر للصوت . انتم لا تعرفون ما المعسكر ! سواء كان روسياً او نازياً ، فهـــذا شيء

متماثل : اننا لم نحارب البعض لنشجع الآخرين ... »

فهزّ دوبروي كتفيه : « على كل حال ليس من شأننا ان نعدل نظام الاتحاد السوفياتي ، لكن فقط ان نؤثر اليوم في فرنسا على الفكرة التي يكونها الناس عن الاتحاد السوفياتي .

فقال لامبير :

ــ لهذا فان هذه القضيه تعنينا مباشرة .

فقال دوبروي :

ــ موافق ، لكننا سنكون مجرمين اذا تبنيناها دون معلومات كافية .

فقال سكرياسين :

ــ بتعبير آخر ، انت تشك في كلام جورج ؟

ــ انني لا اعتبره انجيلاً .

فضرب سكرياسين على المصنف الموضوع على المكتب :

ــ وهذا كله ، ماذا تفعل به ؟

فهز دوبروي برأسه : « اقدر انه ما من واقعة قد تأكدت جدياً » .

فأخذ سكرياسين يتكلم بالروسية في بعبعة . وأجابه جورج بصوت ثابت الجنان :

ــ جورج يقول انه يتكفل بتقديم ادلة حاسمة لكم . ارسلوا شخصاً إلى المانيا الغربية : لديه هناك اصدقاء سيقدمون لكم معلومات دقيقة عن المعسكرات في المنطقة السوفياتية . ثم ، لقد وجدت في سجلات الرايخ بعض الوثائق المقدمة من الاتحاد السوفياتي بعد الحلف الجرماني ــ السوفياتي : انها تدل على ارقام تستطيعون ان تستخلصوا منها حقائق .

فقال لامبير :

ــ سأذهب إلى المانيا . وفوراً .

فنظر اليه سكرياسين نظرة استحسان ، وقال :

ــ تعال ، لرؤيتي . انها مهمة دقيقة يجب تهيئتها في عناية . » واستدار

سكرياسين نحو دوبروي : « إذا أتيناك بالأدلة التي تطلبها ، فهل أنت عـازم على الكلام ؟ » .

فقال دوبروي في نفاد صبر :

– ائت بأدلتك وستقرر اللجنة . وبانتظار ذلك ، ليس هذا كله إلا ثرثرة .

ونهض سكرياسين ، وكذلك جورج : « أسألكم جميعاً السرية المطلقة لهـــذه المحادثة . لقد حرص جورج على لقائكم شخصياً : لكنكم تتصورون اي اخطـار تهدده في مدينة مثل باريس » .

وهزوا جميعاً برؤوسهم في حركة تدعو للاطمئنان : وانحنى جورج في تخشب وتبع سكرياسين دون ان يضيف كلمة .

وقال سامازيل :

– انني آسف لهذا التأجيل . ليس هناك أي شك ، فيما يتعلق بلب المشكلة . نستطيـع ان ننشر فوراً نبذاً من القانون وسيكفي هذا لإثارة الرأي العام .

فقال دوبروي :

– إثارة الرأي العام ضد الاتحاد السوفياتي ! هذا بالضبط ما يجب ان نتجنبه : وخاصة الآن .

فقال سامازيل :

– لكنه ليس اليمين الذي سيستفيد من هذه الحملة : بل « الثوري الاشتراكي الحر » ، وهو بحاجة كبيرة إلى ذلك ! لقد تبدل الموقف منـــذ الانتخابات . » وأضاف في احتداد : « واذا عاندنا في مراعاة الطرفين ، فان « الاشتراكي الثوري الحر » هالك . ان نجاح الشيوعيين سيدفع الكثيرين المترددين إلى العزم على التسجل في الحزب الشيوعي . وكثيرون سيلقون بأنفسهم من الرعب بين ذراعي الرجعية . اما الاولون ، فنحن لا نستطيع شيئاً لهم . أما الآخرون ، فنحن نستطيـع أن ننالهم اذا هاجمنا بصراحة الستالينية واذا وعدنا بتجمع يساري مستقل عن موسكو » .

فقال دوبروي :

– يسار غريب ، سيضم معادين للشيوعية حول برنامج معادٍ للشيوعية !

فقال سامازيل بصوت غاضب :

ــ أتعرف ماذا سيحدث ؟ إذا تابعنا هكذا ، فان « الاشتراكي الثوري الحر » لن يعود بعد شهرين إلا فئة صغيرة من المثقفين خاضعة للشيوعيين ، يحتقرونها ويلعبون بها في آن واحد .

فقال دوبروي :

ــ ما من أحد يلعب بنا !

كان هنري يصغي من خلال ضباب هذه الاصوات المستثارة . لم يكن يبالي في تلك اللحظة بمصير « الاشتراكي الثوري الحر » . إلى أي مدى قال جورج الحقيقة ، **هذا** هو السؤال . اللهم ان لم يكن قد كذب على طول الخط ، فمن المستحيل أن يفكر بعد الآن بالاتحاد السوفياتي كما كان يفكر به سابقاً ، ولا بد من اعادة النظر في كل شيء . لم يكن دوبروي يريد ان يعيد النظر في أي شيء ، كان يحتمي في الارتيابية . ولم يكن سامازيل ينتظر إلا هذه المناسبة لينفجر ضد الشيوعيين . ولم يكن لدى هنري أي رغبة في القطيعة مع الشيوعيين : لكنه لم يكن يريد ايضاً ان يكذب على نفسه . ونهض : « المسألة كلها ان نعرف هل قال جورج الحقيقة أم لا . وبانتظار ذلك ، نحن نتكلم في الفراغ » .

فقال دوبروي :

ــ هذا رأيي تماماً .

وخرج لامبير وسامازيل مع هنري . وما كاد الباب يطبق وراءهم حتى دمدم لامبير : « صحيح ان دوبروي مباع ! انه يريد ان يطفىء هذه القضية . لكنه هذه المرة ، لا يتاح له شرف ذلك » .

فقال سامازيل :

ــ لسوء الحظ ، ان اللجنة تتبعه دوماً . وفي الواقع ان « الاشتراكي الثوري الحر » ، إنما هو .

فقال لامبير :

ــ لكن « الأمل » غير مرغمة على إطاعة « الاشتراكي الثوري الحر » .

فابتسم سامازيل : « آه ! انت تثـــير مسألة خطيرة ! » . وأضاف بصوت حالم : « بديهي ، إذا قررنا ان نتكلم فوراً ، فلن يستطيع احد ان يمنعنا مـــن ذلك ! ». فنظر اليه هنري في دهشة : « أتفكر بقطعية بين «الأمل» و «الاشتراكي الثوري الحر » ؟ ماذا بك ؟

فقال سامازيل :

– على النحو الذي تسير عليه الأمور ، فلن يعود لـ «الاشتراكي الثوري الحر» وجود خلال شهرين . انني أتمنى ان تبقى « الأمل » بعده !

وابتعد وهو يبتسم ابتسامته الكبيرة الصريحة واستند هنري إلى إفريز الرصيف . وقال :

– انني أتساءل عما يطبخه !

فقال لامبير :

– اذا كان يتمنى ان تعود « الامل » جريدة حرة ، فهو على حق ! فهنـــاك أعادوا العبودية . وهنا يغتالون ! ويريدون ألا نحتج !

فنظر هنري إلى لامبير : « فيما اذا كان سامازيل سيقترح قطيعة ، فلا تنس ما وعدتني به : انك ستؤيدني في كل حالة » .

فقال لامبير :

– موافق . كل ما هنالك انني أحذرك : اذا عاند دوبروي في إطفاء القضية، فإنني سأترك الجريدة ، وأبيع حصصي .

فقال هنري :

– اسمع ، لا يمكننا تقرير شيء قبل ان تتأكد الوقائع .

فقال لامبير :

– من سيقرر انها تأكدت ؟

– اللجنة .

– أي دوبروي . اذا كان متحيزاً مسبقاً ، فلن يرضى بالاقتناع !

فقال هنري في شيء من التأنيب :

ـ ان الاقتناع بدون برهان لتحيز مسبق ايضاً !

فقال لامبير في حرارة :

ـ لا تقل لي ان جورج قد اخترع ذلك كله ! لا تقل لي ان هذه الوثائق كلها مزيفه؟ » وتفرس في وجه هنري في شك: « انت موافق انه اذا كان ذلك صحيحاً، فيجب قوله ؟ » .

فقال هنري :

ـ نعم .

ـ إذن ، حسناً . سأرحل إلى المانيا في أسرع ما يمكن ، واقسم لـــك انني هناك لن أضيع وقتي . » وابتسم : « أأضعك في مكان ما ؟ » .

فقال هنري :

ـ كلا ، شكراً ، سأسير قليلاً .

كان سيذهب للعشاء عند بول ولم يكن يستعجل رؤيتها ثانية . وأخذ يسير في خطى صغيرة . قول الحقيقة : ان هذا لم يطرح مشا كل جدية حتى الآن . لقد اجاب لامبير بنعم دون تردد : كان ذلك شبه فعل انعكاسي . لكنه في الواقع لم يكن يعرف لا ماذا عليه ان يصدق ولا ماذا عليه ان يفعل ، لم يكن يعرف شيئاً : كان لا يزال مذهولاً كأنه تلقى ضربة قوية على رأسه . بديهي ، ان جورج لم يخترع كل شيء . بل ربما كان ايضاً صادقاً . كانت هنـاك معسكرات استحال فيها خمسة عشر مليون شغيل إلى ما ادنى من البشر . لكن بفضل هـذه المعسكرات قهرت النازية واخذ بلد كبير يبني نفسه، تتجسد فيه الفرصة الوحيدة لألف مليون ممن هم دون البشر يعيشون في الجوع في الصـــين والهند ، الفرصة الوحيدة لملايين العمال الخاضعين لوضع لاانساني ، فرصتنا الوحيدة . وتساءل في خوف: « هل ستفلت منا هي الأخرى؟ » . كان يتبين انه لم يضعها ابداً على بساط البحث جدياً . كان يعرف نواقص الاتحاد السوفياتي واخطاءه : لكن هـــذا لا يمنع ان الاشترا كية ، الاشترا كية الحقيقية ، التي ستتوافق فيها العدالة والحرية ، ستنتهي ذات يوم إلى الانتصار في الاتحاد السوفياتي ، وعن طريـــق الاتحاد

السوفياتي . واذا كان هذا اليقين يهجره هذا المساء ، فإن المستقبل كله سيغوص في الظلمات : ولم يكن يلمح في اي مكان آخر حتى ولا سراباً من أمل. وتساءل: « ألهذا السبب احتمي في الشك ? هل ارفض البداهة جبناً ، لأن الهواء لن يعود قابلاً للتنفس اذا لم تعد هناك زاوية في الأرض يمكننا ان نلتفت نحوها في شيء من الثقة ? » وفكر : « ام على العكس ، لعلني اغش بترحيبي بصور الفظاعة . فما دمت لا استطيع ان انضم الى الشيوعية ، فمن دواعي الطمأنينة ان اكرهها نهائياً . لو كنا فقط نستطيع ان نكون معها تماماً ، او ضدها تماماً ! لكن لكي نكون ضدها ، فلا بد ان يكون لدينا فرص اخرى نقدمها للبشر : ومن الواضح جداً ان الثورة ستتم عن طريق الاتحاد السوفياتي ، او لن تتم . مع ذلك اذا لم يكن الاتحاد السوفياتي قد فعل شيئاً سوى إحلال نظام اضطهاد مكان نظام آخر ، اذا كان قد أعاد العبودية ، فكيف نحتفظ نحوه بأقل صداقة ?... » . وقال هنري في نفسه : « لعل الشر في كل مكان » . كان يتذكر تلك الليلة في ملجأ في جبال « سيفين » حيث نام في غبطة في نعيم البراءة : اذا كان الشر في كل مكان ، فلا وجود للبراءة . ومهما سيفعل ، فسيكون مخطئاً : مخطئاً اذا اذاع حقيقة ناقصة ، مخطئاً اذا اخفى الحقيقة ولو كانت ناقصة . اذا كان الشر في كل مكان ، فليس هناك اي مخرج ، لا للانسانية ولا له . هل سيتوجب الوصول إلى التفكير بهذا ? وجلس ونظر في بلاهة الى جريان الماء .

انتهى الجزء الاول
ويليه الجزء الثاني